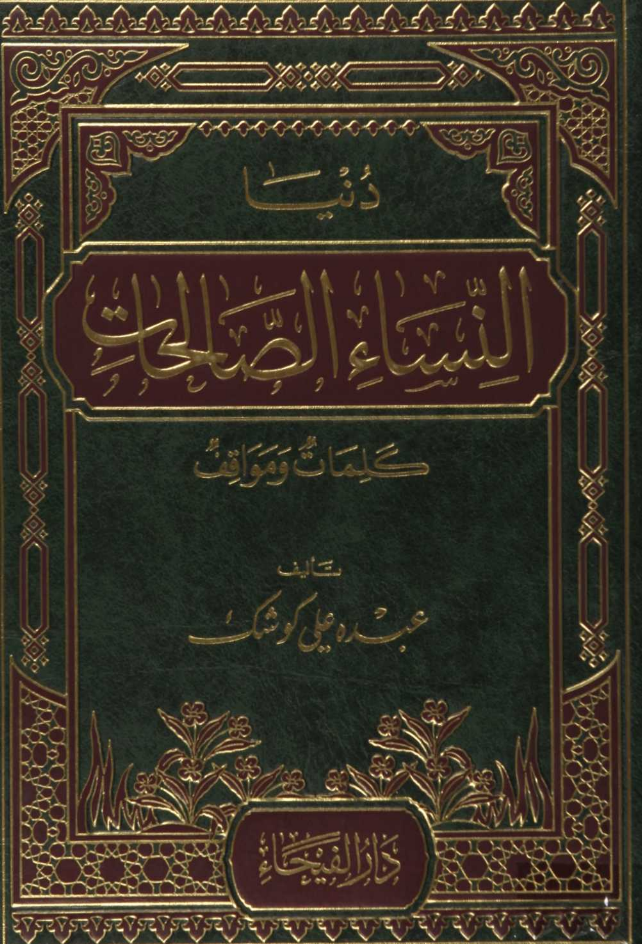
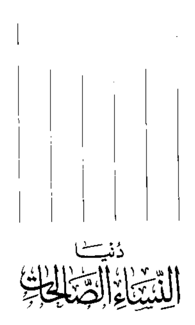


دنيا
النساء الصالحات
كلمات ومواقف
تأليف
عبده علي كوشك
دار الفيحاء



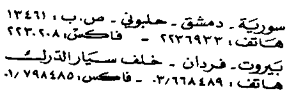



دنيا
النساء الصالحات

الطبعة الأولى

١٤٢٧ - ٢٠٠٦م




سورية - دمشق - حلبوني - ص.ب: ١٣٤٦١
هاتف: ٢٢٣٦٩٢٣ - فاكس: ٢٢٣٠٢٠٨
بيروت - فردان - خلف سنيار الدرك
هاتف: ٠٣/٦٦٨٤٨٩ - فاكس: ٠١/٧٩٨٤٨٥



كلماتٌ ومواقفُ

تأليف
عبده علي كوشك



دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم




بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على الرحمة المُهداةِ ، سيدنا ونَبيِّنا محمدِ بنِ عبدِ اللهِ ، وآله وصَحْبِهِ ، ومَنْ والاهُ.

أما بعد: فإنه لا يخفىٰ علىٰ مَنْ أُوتي مُسْكَةً من علم ، وقِسطاً من إنصاف؛ أَنَّ المرأةَ في شِرْعة الإسلام مساويةٌ للرجل في الكرامة الإنسانية ، والتكاليف الشرعية بعامَّة ، لها حقوقٌ وعليها واجباتٌ ، كما أن الرجل له حقوقٌ وعليه واجباتٌ ، وهي والرجل سِيَّان أمام الله ـ عز وجل ـ في ثوابه وعقابه[1].

وهي ليست مجردَ قَعِيدةِ بيتٍ ، وحاضِنَةِ أفلاذ أكباد ، ومُدَبِّرة مَنْزِلٍ فحسب ، وإنما هي ـ بالإضافة إلىٰ ذلك كله ـ مربيةُ أجيالٍ ، وصانعةُ أبطالٍ ، ورائدةُ دعوةٍ ، وعُنْصُرُ وعيٍ ونهضةٍ وبناءٍ ، في شَتَّى شؤون الحياة ، تقف إلىٰ جانب الرجل في إعمار الكون ، وإثْراءِ الحياة ، وإسعاد الخلق ، وترطيب جفاف العيش[2].

والمرأةُ إذا صَلُحتْ ، واستقامت على أمر الله تعالىٰ ، واشْتَمَلَتْ بأثواب

---

(١) انظر شخصية المرأة المسلمة ص (٩) للدكتور محمد علي الهاشمي.

(٢) انظر شخصية المرأة المسلمة ص (٤٨٨) للدكتور محمد علي الهاشمي.

العِفَّة والفضيلة ، والأخلاق القويمة؛ أَلْقَتْ السعادةُ بظلالها على أفراد الأمة ونَشَأَ جِيلٌ نظيفٌ ، يقودُ سفينةَ المجتمع نحو شاطىء السلامة ، وبَرِّ الأمانِ.

وإذا نَشَزَتِ المرأة ، وحاكتِ العاداتِ والتقاليدَ الغربيةَ المُشِينةَ ، التي حَطَّتْ رِحالها في ديار العروبة والإسلام ، مع طلائع الاستعمار ، وقنوات التبشير ، ومنافذ الغزو الثقافي التي لا حصر لها ، وبخاصة: الفضائيات الساقطة ، والإعلام الهابط ، ضَعُفَ المجتمع ، وتقطَّعَتْ أَوْصَالُهُ ، وتَخَلْخَلَتْ أركانُه ، وأصبح أفراده كَمًّا من الأَصْفار ، لا يستطيعون حِيْلَةً ، ولا يهتدونَ سبيلاً.

وفتياتُنا اليومَ ، ونساؤنا كذلك ، بأَمَسِّ الحاجة إلىٰ التعرف على القُدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ، من أجل دنيا سعيدة ، تَخْفِقُ على رُباها راياتُ العِزِّ والنصر والحرية ، وآخِرةٍ حَمِيدةٍ ، في صحبة الأطهار الأبرار ، من النبيين ، والصديقين والشهداء ، والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وهذا الكتاب ، أخي القارىء! يضم في صفحاته صُوَراً رائعةً ، وقِصصاً طَرِيفةً ، فيها مواقفُ خالدةٌ ، وأقوالٌ بليغةٌ ، وكلماتٌ صادقةٌ مؤثِّرةٌ ، نَطَقَتْ بها مؤمنةٌ تقيةٌ ، أو مجاهدة أَبِيَّةٌ ، أو صحابية جليلةٌ ، أو عالِمةٌ فاضلةٌ ، أو ناصِحةٌ مُخلصةٌ ، أو مُرَبِّيَةٌ صالحة ، أو أَدِيبةٌ بليغةٌ.

لقد حوىٰ بين دَفَّتيه ما ينوف عن (١١٨) موقفاً ، أو قصة ، تارةً تكون من الماضي الغابر ، وتارةً من الواقع المعاصر ، قُمْتُ بترتيبها علىٰ الطبقات ، الأقدم فالأقدم ، مُبتدئاً بقصة السيدة هاجر أم إسماعيل عليهما السلام ، ومُختتماً بقصة خَنْسَاء العصرِ ، الفلسطينية الأبيّة أُمِّ الشهيد الحَمْساويِّ القَسَّاميِّ محمد حلس ، رحمه الله تعالىٰ.

وجعلتُ لكل قِصَّةٍ عنواناً ، هو محورها ، وزُبدة حِكَمِها ، استوحيتُهُ من وقائعها وأحداثها.

وقد وَثَّقْتُ كل موقف ، أو قصة بذكر مصدرها الذي أرويها عنه ، أو الكتاب الذي أنقل منه ، أو المجلة التي أُحيلُ عليها.

وغالب المصادر التي نقلت منها هي كتب الحديث الشريف ، كالبخاري ومسلم ، والسنن والمسانيد؛ فإذا كانت الرواية في غير الصحيحين ، أو أحدهما ، أَبَنْتُ عن درجتها ، ومَيَّزْتُ صحيحها من ضعيفها.

وبعض القصص استوحيتها من تراجم الصحابيات الجليلات كالاستيعاب ، للحافظ ابن عبد البَرِّ القرطبي ، وأُسْدِ الغابة للعلاَّمة ابن الأثير الجَزَري ، وسِيَر أعلام النبلاء لمؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي ، والإصابة لأمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حَجَر العَسْقَلاَني.

وقد أنقل القصة من أعلام النساء للأستاذ عمر رِضا كَحَّالة ، أو غيره من كتب الأدب والتراجم ، والتواريخ والاقتصاد.

وعندما أروي القصةَ من مصادرها ، فإني لا أَعْدمُ شرح غريبها ، أو التعريف بِعَلَمٍ من أعلامها ، أو مَعْلَمٍ من مَعَالِمها ، أو التعقيب عليها بما يثري ثقافة الأخ القارىء: من فائدة علميةٍ ، أو نُكتة لُغَوية ، أو لَطِيفة تربوية ، أو تأريخ لموضوع ، وذلك ما فعلتُهُ في قصة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾.

وغَرَضي الذي أَنْشُدُهُ من تأليف هذا السفر ، هو إشاعة قِيَمِ الإيمان والإسلام ، والحق والخير ، وإذاعةُ معالم الفضيلة ، ونشرُ الأخلاق النبيلة الأصيلة ، والتمسكُ بأهداب الطهارة والعفة ، والمعروف والإحسان ، والعودةُ إلى منهج القرآن ، وسيرة النبي العدنان ، فلا رايةَ أَعْلَىٰ مِنْ راية القرآن ، ولا سيرة أكرم من سيرة خاتم الأنبياء ، وقد صحَّ عن فاروق الأمَّةِ عمرَ بن الخطَّاب أنه قال: «نحن قومٌ أَعَزَّنَا الله بالإسلام ، ومهما ابتغينا العزة بغيره أَذَلَّنا الله»[1].

أسأل الله العلي القدير أن ينفع بهذا الكتاب مَنْ قرأه ، ومَنْ أهداه ، وأن يجعله في ميزان أعمالي ، وصحيفة حسناتي ، وأن يغفر لي ، ولوالديَّ ،

---

(١) المستدرك للحاكم (١/ ٦٢ ، ٣/ ٨٢) ، الترغيب والترهيب (٣/ ٥٦١) ، مختصر منهاج القاصدين ص (٢٣٩) ، حياة الصحابة (٤/ ٥٠٧).

ولأشياخي ، ولأحبابي ، وللمسلمين أجمعين ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

دمشق ـ الغوطة الغربية ـ داريا
أَصِيل الخميس / ١٦/ شعبان (١٤٢٥) هـ
الموافق لـ : / ٣٠/ أيلول (٢٠٠٤) م

المؤلف
عبده علي كوشك

إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا

أخرج البخاري في كتاب الأنبياء رقم (٣٣٦٤) من حديث سعيد بن جُبَير ، قال ابن عباسٍ: أولُ ما اتخذ النساءُ المِنْطَقَ[١] من قِبَلِ أُمِّ إسماعيلَ ، اتخذت مِنْطَقاً لتعفِّي أثرها[٢] على سارَةَ ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعها عند البيت ، عند دَوْحَةٍ[٣] فوق زمزمَ ، في أعلى المسجد[٤] ، وليس بمكة يومئذ أحَدٌ ، وليس بها ماءٌ ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جِراباً[٥] فيه تمرٌ ، وسِقاءً[٦] فيه ماء.

ثم قَفَّى إبراهيم[٧] منطلقاً ، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إسماعيلَ ، فقالت: يا إبراهيمُ! أين

---

(١) (المِنْطَقُ): النِّطاق ، وجمعه: مناطق ، وهو أن تلبس المرأة ثوبها ، ثم تشد وسطها بشيء ، وترفع وسَطَ ثوبها ، وترسله على الأسفل عند مُعاناة الأشغال؛ لِئَلاَّ تَعْثُرَ في ذيلها ، وبه سُمِّيت أسماء بنت أبي بكر ذاتَ النِّطاقين؛ لأنها كانت تطارق نِطاقاً فوق نِطاقٍ ، وقيل: كان لها نطاقان تَلْبَسُ أحدهما ، وتحمل في الآخر الزَّاد إلى النبي ﷺ وأبي بكرٍ في الغار. وقيل: شَقَّت نِطاقها نصفين فاستعملت أَحَدَهُما ، وجعلت الآخر شِداداً لِزادهما (النهاية).

(٢) (لتعفِّي أثرها): لتخفيه.

(٣) (الدَّوحة): الشجرة العظيمة.

(٤) (في أعلى المسجد): أي مكان المسجد ، لأنه لم يكن حينئذ بُنِيَ (الفتح: ٦/ ٤٠١).

(٥) (الجرابُ): وِعاءٌ من جلدٍ يحفظ فيه الزَّادُ ونحوه.

(٦) (السِّقاء): قِرْبَةٌ صغيرة.

(٧) (قفَّى إبراهيم): أي وَلَّى راجعاً إلى الشام.

تذهبُ وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيءٌ؟ فقالت له ذلك مِراراً ، وجعل لا يلتفت إليها.

فقالت له : آللهُ أَمَرَكَ بهذا؟

قال : نعم.

قالت : إذن لا يُضَيِّعُنا. ثم رَجَعَتْ.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِيَّةِ[1] حيث لا يرونهَ استقبل بوجهه البيتَ ثم دعا بهؤلاء الكلماتِ ، ورفع يديه ، فقال : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ : ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧].

وجعلت أمُّ إسماعيلَ ترضع إسماعيلَ ، وتشربُ من ذلك الماء ، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاء ، عَطِشَتْ ، وعَطِشَ ابْنُها[2] ، وجعلت تنظر إليه يتلَوَّى ـ أو قال : يتلبَّطُ[3] ـ فانطلقتْ كراهيةَ أن تنظر إليه ، فوجدت الصَّفا[4] أقربَ جبلٍ في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي ، تنظر ، هل ترى أحداً؟ فلم تَرَ أحداً ، فهبطت من الصَّفا ، حتى إذا بلغت الوادي ، رفعت طَرَفَ دِرْعِها[5] ، ثم سعتْ سعيَ الإنسان المجهود[6] حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت

---

(١) (الثنية): الطريق في العقبة ، وقيل: هو المرتفع من الأرض فيها (جامع الأصول: ١٠/ ٣٠٢). قلت: والمراد بالثنية ، ثنية كَدَاء في أعلى مكة وهي ما يعرف اليوم بـ «ربع الحَجون» يدخل طريقه بين مقبرتي المعلاة ، ويفضي من الجهة الأخرى إلى حَيِّ العتيبة وجَرْول. انظر المعالم الأثيرة ص (٢٣١).

(٢) وكان ابن سنتين كما في الفتح (٦/ ٤٨).

(٣) (يتلبَّطُ): يَتَمَرَّغُ ويضرب بنفسه الأرض (الفتح: ٦/ ٤٠١). وقال ابن الأثير في جامع الأصول (١٠/ ٣٠٢): التلبُّط: الاضطرابُ والتقلُّب ظهراً لبطنٍ.

(٤) (الصَّفا): أكمة صخرية. تبعد عن الكعبة مسافة لا تزيد عن مئتي متر. كانت متصلة بجبل أبي قُبيس ، وأصبحت الآن جزءاً من المسجد الحرام ، ومنها يبدأ السعي إلى المروة سبعة أشواط.

(٥) (دِرْعها): قميصها.

(٦) (ثم سعت سعي الإنسان المجهود): أي الذي أصابه الجهد ، وهو الأمر المشقّ.

المَرْوَةَ[١] ، فقامت عليها ، فنظرتْ ، هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرّاتٍ .

قال ابن عباسٍ : قال النبيُّ ﷺ : فذلك سَعْيُ الناس بينهما .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ، فقالت : صَهْ ـ تريدُ : نَفْسها[٢] ـ ثم تَسَمَّعَتْ أيضاً ، فقالت : قد أَسْمَعْتَ إنْ كان عندَك غُواثٌ[٣] ، فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زَمْزَمَ ، فبحث بِعَقِبِهِ ـ أو قال : بجناحِهِ ـ حتى ظهر الماءُ ، فجعلت تُحَوِّضُهُ[٤] ، وتقول بيدها هٰكذا[٥] ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها ، وهو يَفُورُ بعدما تَغْرِفُ .

قال ابن عباسٍ : قال النبي ـ ﷺ ـ : يرحم اللهُ أم إسماعيل ، لو تركت زمزمَ ـ أو قال : لو لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الماء ـ لكانت زمزمُ عَيْناً مَعِيناً[٦] .

قال : فشربتْ وأرضَعَتْ ولدَها ، فقال لها المَلَكُ : لا تخافوا الضَّيْعَةَ[٧] ، فإنَّ هاهنا بَيْتُ اللهِ ، يَبْني هذا الغلامُ وأبوه ، وإن الله لا يضيع أَهْلَهُ .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك[٨] حتى مَرَّتْ بهم

---

(١) (المَرْوة) : أَكَمَةٌ صخرية ، هي نهاية المسعى من الشِّمال ، وعندها نهاية السعي بين الصفا والمروة ، بعد سبعة أشواط (المعالم الأثيرة ص : ٢٥٠) .

(٢) (صهْ) : بسكون الهاء وبكسرها منونةً : اسْكُتْ . وقوله : تريد نفسها ، معناه : لمَّا سمعت الصوت سَكَّتَتْ نفسها لتتحقَّقَهُ .

(٣) (غواث) : الغواث والغياث والغوث : المعونة ، وإجابة المستغيث .

(٤) (فجعلت تحوِّضه) : أي تجعل له حوضاً يجتمع فيه الماء (جامع الأصول : ١٠/ ٣٠٢) .

(٥) (وتقول بيدها هكذا) : هو حكاية فعلها ، وهذا مِنْ إطلاقِ القول على الفعل (الفتح : ٦/ ٤٠٢) .

(٦) (عيناً مَعيناً) : أي ظاهراً جارياً على وجه الأرض ، لا يتعذَّرُ أَخْذُهُ .

(٧) (الضَّيْعَةُ) : الهَلاك ، والضياع والحاجة .

(٨) (فكانت كذلك) : أي كانت هاجرُ على الحال الموصوفة ، قال ابن حجر : وفيه إشعار بأنها كانت تغتذي .

رُفْقَةٌ[1] من جُرْهُم ـ أو أهل بيت من جُرْهُم ـ مُقبلين من طريق كَدَاءَ[2] ، فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائراً عائفاً[3] ، فقالوا: إن هذا الطير ليدور على ماءٍ ، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جَرِيّاً[4] ، أو جَرِيَّيْن ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا ـ قال: وأُمُّ إسماعيلَ عند الماء ـ فقالوا: أتأذنينَ لنا أَنْ نَنْزِلَ عندكِ؟

فقالت: نعم ، ولكن لا حَقَّ لكم في الماءِ.

قالوا: نعم.

قال ابن عباسٍ: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: فَأَلْفى ذلك[5] أُمَّ إسماعيلَ ، وهي تحب الأُنْسَ[6] ، فنزلوا ، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشَبَّ الغلامُ[7] ، وتعلَّم العربية منهم[8] ، وأَنْفَسَهُمْ[9] ، وأَعْجَبَهُمْ حين شَبَّ ، فلما أدرك ذلك زَوَّجوه امرأةً منهم.

وماتت أُمُّ إسماعيلَ ، فجاء إبراهيم بعدما تزوَّجَ إسماعيلُ ، يطالِعُ[10] تَرِكَتَهُ[11] ، فلم يَجِدْ إسماعيلَ ، فسأل امرأتَهُ عنه ، فقالت: خرج يبتغي

---

(١) (رُفْقَةٌ): هم الجماعة المختلطون سواء كانوا في سفرٍ أم لا (الفتح: ٦/ ٤٠٣).

(٢) (كَدَاء): تقدم شرحُها قبل قليل.

(٣) (طائراً عائفاً): أي يحوم على الماء ويتردد ، ولا يمضي عنه.

(٤) (جَرِيّاً): أي رسولاً ، وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير (الفتح: ٦/ ٤٠٣).

(٥) (فألفى ذلك): أي وَجَدَ.

(٦) (الأُنس): بضم الهمزة: ضد الوحشة ، ويجوز الكَسْرُ ، أي: تحبُّ جِنْسَها.

(٧) (شَبَّ الغُلام): أي كبر إسماعيل عليه السلام.

(٨) (وَتَعلَّمَ منهم العربية): هذا محمولٌ على تَعَلُّمِ لهجتهم ، ذلك أَنَّ إسماعيل عربيٌّ عاربٌ (خالص العروبة). وما شاع عند المؤرخين أنه «مُسْتَعْرِبٌ» فخطأٌ بَيِّنٌ. رَدَّه علامة بلاد الشام الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ في كتابه من نفحات الحرم ، وأستاذنا المؤرخ البحاثة مُحَمَّد شُرَّاب ، والأستاذ المؤرخ هاني المبارك وغيرهم.

(٩) (وَأَنْفَسَهُمْ): أي صار عندهم نفيساً مرغوباً فيه (جامع الأصول: ١٠/ ٣٠٣).

(١٠) (يُطالع): يَتَفَقَّدُ.

(١١) (تَرِكته): التَّرِكَةُ: بسكون الراء: وَلَدُ الإنسانِ (جامع الأصول: ١٠/ ٣٠٣). والتَّرِكَةُ: =

لنا[1] ، ثم سألها عن عيشهم ، وهيئتهم ، فقالت : نحن بِشَرٍّ ، نحن في ضِيقٍ وشِدَّةٍ ، فَشَكَتْ إليه .

قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلامَ ، وقولي له : يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بابِهِ[2] .

فلما جاء إسماعيل ، كأنه آنَسَ شيئاً[3] ، فقال : هل جاءكم من أحدٍ؟

قالت : نعم ، جاءنا شيخٌ كذا وكذا ، فَسَأَلَنَا عنكَ ، فَأَخْبَرْتُهُ ، وسألني : كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا في جَهْدٍ[4] وشِدَّةٍ .

قال : فهل أوصاكِ بشيءٍ؟

قالت : نعم ، أمرني أَنْ أقرأَ عليكَ السلام ، ويقول : غَيِّرْ عَتَبَةَ بابِكَ .

قال : ذاكِ أبي ، وقد أمرني أَنْ أُفارِقَكِ . الحقي بِأَهْلِكِ ، فطلَّقها ، وتزوج منهم أخرى .

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بَعْدُ ، فلم يَجِدْهُ ، فدخل على امرأته ، فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا .

قال : كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم .

فقالت : نحن بخير وسَعَةٍ[5] ، وأثنت على الله .

فقال : ما طَعامُكُمْ؟

قالت : الَّلحْمُ .

= بكسر الراء : اسم للشيء المتروك . قال الحافظ في الفتح : أي يتفقَّدُ حال ما تركه هناك .

(١) (يبتغي لنا) : أي يطلب لنا الرزقَ ويسعى فيه .

(٢) (عتبة بابه) : كناية عن المرأة ، وسماها بذلك لما فيها من الصفات الموافقة لها ، وهو حفظ الباب ، وصَوْنُ ما هو داخله ، وكونها مَحَلَّ الوَطْءِ (الفتح : ٦/ ٤٠٤) .

(٣) (آنَسَ شيئاً) : أي أبصر شيئاً ، وأراد : كأنه رأى أثر أبيه وبركة قُدومه (جامع الأصول : ١٠/ ٣٠٣) .

(٤) (الجَهْدُ) : المَشَقَّةُ (النهاية) .

(٥) (السَّعَةُ) : الدَّعَةُ والغِنى والرَّفاهية (الوسيط) .

قال: فما شَرَابُكُمْ؟

قالت: الماءُ.

قال: اللّهُمَّ! بارِكْ لهم في اللّحْمِ والماء.

قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: ولـم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه.

قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلاّ لم يوافقاه[١].

قال: فإذا جاء زوجُكِ، فاقرئي عليه السلامَ، ومريه يُثَبِّت عَتَبَةَ بابه.

فلما جاء إسماعيلُ، قال: هل أتاكم من أحد؟

قالت: نعم، أتانا شيخ حَسَنُ الهيئةِ ـ وأثنت عليه ـ فسألني عنكَ، فأخبرْتُهُ، فسألني: كيف عَيْشنا؟ فأخبرته أنَّا بِخَيْرٍ.

قال: فأوصاكِ بشيءٍ؟

قالت: نعم، وهو يقرأ عليك السلامَ، ويأمرك أن تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بابِكَ.

قال: ذاك أبي، وأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَني أَنْ أُمْسِكَكِ.

ثم لَبِثَ عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيلُ يَبْري نَبْلاً[٢] له تَحْتَ دَوْحَةٍ، قريباً من زَمْزَمَ، فلما رآه قام إليه، فَصَنَعا كما يصنعُ الوالدُ بالولدِ، والولدُ بالوالدِ[٣]، ثم قال: يا إسماعيلُ! إنَّ الله أمرني بأمرٍ.

قال: فاصنع ما أمرَكَ رَبُّكَ.

قال: وتُعِينُني؟

قال: وأُعِينُكَ.

---

(١) (فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلاّ لم يوافقاه): قال ابن القوطية: خلوتُ بالشيء واختليت، إذا لم أَخْلِطْ به غيره، ويقال: أخلى الرَّجُلُ اللبن، إذا لم يشرب غيره.

(٢) (يَبْري نبلاً): أي ينحته ويسوِّيه. والنَّبْلُ: السَّهْم قبل أن يركَّب فيه نَصْلُهُ وريشُهُ.

(٣) أي من الاعتناقِ والمصافحة وتقبيل اليد ونحو ذلك.

قال: فإن الله أمرني أَنْ أبنيَ هاهنا بيتاً وأشار إلى أَكَمَةٍ[1] مرتفعة على ما حولها.

قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحَجَرِ[2] فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني، وإسماعيلُ يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وفي رواية للبخاري برقم (٣٣٦٥) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أيضاً، قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله[3] ما كان[4]، خرج بإسماعيلَ، ومعهم شَنَّةٌ[5] فيها ماءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إسماعيلَ تشرب من الشَّنَّةِ فَيَدِرُّ لبنها على صَبِيِّها، حتى قدم مكة، فوضعها تحت دَوْحَة، ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل، حتى بلغوا كَداءَ، نادَتْهُ مِنْ ورائه: يا إبراهيمُ! إلى مَنْ تتركنا؟

قال: إلى الله.

قالت: رَضِيْتُ بالله.

قال: فرجعتْ فجعلتْ تشرب من الشَّنَّةِ، ويَدِرُّ لبنُها على صبيِّها، حتى لما فني الماء، قال: لو ذهبتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أحداً.

---

(١) (الأَكَمَةُ): ما ارتفع من الأرض، كالرَّابية (جامع الأصول: ١٠/ ٣٠٣).

(٢) (الحجر): هو مَقَام إبراهيم، وهو ـ الآن ـ موجود ضمن زجاج بلَّوري، تُرى من ورائه آثار قدم إبراهيم عليه الصلاة والسلام الماثلة فيه.

(٣) (وبين أهله): أي زوجه سَارَةَ.

(٤) (ما كان): يعني مِنْ غَيْرَةِ سارة لمَّا وَلَدَتْ هاجَرُ إسماعيلَ (الفتح: ٦/ ٤٠٧).

(٥) (الشَّنَّةُ): القِرْبَةُ البالية يكون فيها الماءُ (جامع الأصول: ١٠/ ٣٠٢).

قال: فذهبتْ ، فصعدت الصَّفا ، فنظرتْ ، ونظرتْ ، هل تُحِسُّ أحداً؟ فلم تُحِسَّ أحداً.

فلما بلغت الوادي سَعَتْ وأتت المَرْوَةَ ، فَفَعَلَتْ ذلك أشواطاً ، ثم قالت: لو ذهبْتُ فنظرْتُ ، ما فَعَلَ ـ تعني: الصبيَّ ـ فذهبت ، فنظرت ، فإذا هو على حاله ، كأنه يَنْشَغُ[1] للموت ، فلم تُقِرَّهَا نَفْسُها[2] ، فقالت: لو ذهبتُ فنظرتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أحداً ، فذهبَتْ فَصَعِدَت الصَّفا فَنَظَرَتْ ، وَنَظَرَتْ ، فلم تُحِسَّ أحداً ، حتى أتَمَّت سَبْعاً ، ثم قالت: لو ذهبْتُ فنظرتُ ما فَعَلَ ، فإذا هي بصوتٍ ، فقالت: أَغِثْ[3] إنْ كان عندك خَيْرٌ ، فإذا جبريلُ.

قال: فقال بِعَقِبِهِ هكذا ، وغَمَزَ عَقِبَهُ على الأرضِ.

قال: فانبثقَ الماءُ[4] ، فدهشت أم إسماعيل ، فجعلت تَحْفِزُ[5].

قال: فقال أبو القاسم: لو تَرَكَتْهُ كان الماءُ ظاهراً.

قال: فجعلت تشرب من الماء وَيدِرُّ لَبَنُها على صَبِيِّها ـ . . . . وذكر الحديث بطوله.

* * *

(١) (يَنْشَغُ): يشهقُ. قاله النووي في رياض الصالحين عند الحديث (١٩٦٩) بتحقيقي. وقال ابن الأثير في جامع الأصول (١٠/٣٠٣): «النَّشْغُ: الشَّهيق ، حتى يكاد يبلغ له الغشي ، يقال: نَشَغَ يَنْشَغُ نشغاً؛ وإنما يفعل الإنسانُ ذلك أسَفاً على صاحبه وشوقاً إليه ، وقيل: نَشَغَ الصبيُّ: إذا امتصَّ بِفِيهِ».

(٢) (فلم تُقِرَّها نَفْسُها): أي لم تدعها تَقَرُّ لما رَأَتْ مِنْ حاله (دليل الفالحين: ٨/٧٠٩).

(٣) (أَغِث): أَعِنْ وساعِدْ.

(٤) (انبثاق الماءِ): انفتاحه وجَرْيُهُ (جامع الأصول: ١٠/٣٠٣).

(٥) (تَحْفِزُ): الحَفْزُ: الحث والإعجال (النهاية).

رَبِّي ورَبُّكِ اللهُ

روى أحمد (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠)، والطبراني في الكبير (١٢٢٨٠)، وأبو يعلى في المسند (٢٥١٧) ، والبزار رقم (٥٤) ، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٨٥) وفي الشُّعَبِ (١٦٣٦)، وصححه ابن حبان (٣٦) موارد ، والحاكم (٢/ ٤٩٦)، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كانت ليلة أُسْرِيَ بي: أَتيتُ على رائحة طيبة ، فقلت: يا جبريلُ! ما هذه الرائحةُ؟

قال: هذه رائحة ماشِطَةِ ابنة فرعون[1] وأولادِها.

قلت: وما شأنها؟

قال: بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يومٍ ، إذ سقط المِدْرى[2] من يدها ، فقالت: بسم الله ، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟

قالت: لا ، ولكن رَبِّي وربُّ أبيكِ: اللهُ.

قالت: أُخْبِرُهُ بذا؟

قالت: نعم. فَأَخْبَرَتْهُ ، فدعاها ، فقال: يا فلانةُ! وإِنَّ لكِ ربّاً غيري؟

---

(١) (فرعون): لقب لكل من ملك مصر.

(٢) (المِدْرى): ما يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط ، وأطول منه ، يسرَّح به الشعر المتلبد (الوسيط).

قالت: نعم، رَبِّي وربُّكَ اللهُ. وأمر بِبَقَرةٍ[1] من نُحاس فَأُحْمِيَتْ، ثم أمر أَنْ تُلقى هي وأولادُها فيها.

قالت له: إنَّ لي إليكَ حاجةً.

قال: وما حاجَتُكِ؟

قالت: أُحِبُّ أن تجمع عظامي وعظامَ أولادي في ثوب واحد، فتدفننا جميعاً.

قال: ذلك علينا من الحق.

قال: فأمر بأولادِهَا فَأُلْقُوا بين أيديها، واحداً واحداً، إلى أن انتهىٰ ذلك إلى صبي لها مُرْضَعٍ، كأنها تقاعستْ[2] من أجله، قال: يا أُمَّهْ! اقتحمي؛ فإن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، فاقتحمت».

قال ابن عباس: «تكلم أربع صغار[3]: عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وصاحب جُرَيْجٍ، وشاهدُ يوسفَ، وابنُ ماشطة ابنة فرعون».

قلت: روىٰ البخاري (٣٤٣٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٥٠/٨) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جُرَيج كان يصلي، فجاءته أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم! لا تمته حتى تُرِيَهُ وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة وكلَّمَتْهُ، فأبىٰ. فأتت راعياً فأمكنته من نفسها، فولدت غلاماً، فقالت: مِنْ جُرَيْجٍ، فأَتَوْهُ فكسروا صومعته، وأنزلوه

---

(١) في موارد الظمآن: «فأحمىٰ لها نُقْرة»: والنُّقْرَةُ: قدر يسخن فيها الماء وغيره. أما «البقرة»: بالباء. فقد قال الحافظ أبو موسى ـ كما في النهاية ـ: «الذي يقع لي في معناه أنه لا يريد شيئاً مصوغاً على صورة البقرة، ولكنه ربما كانت قدراً كبيرةً واسعة، فسماها بقرة، مأخوذاً من التبقُّر: التوسع، أو كان شيئاً يسع بقرة تامة بتوابلها فسميت بذلك».

(٢) (تقاعست): أي تأخرت.

(٣) لمعرفة المتكلمين وهم صغار انظر الفتح (٦/ ٤٨٠).

وسَبُّوه ، فتوضأ وصلى ، ثم أتىٰ الغلامَ ، فقال: مَنْ أبوكَ؟ يا غلامُ! قال: الراعي.

قالوا: نبني صومَعَتَكَ من ذَهَبٍ؟

قال: لا ، إلا من طين.

وكانت امرأة ترضع ابناً لها من بني إسرائيل ، فمرَّ رجل راكب ذو شارة[1] ، فقالت: اللهم! اجعل ابني مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال: اللهم! لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على ثديها يمصه. ـ قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ـ ﷺ ـ يمص إصبعه ـ ثم مرَّ بأَمَةٍ فقالت: اللهم! لا تجعل ابني مثل هذه ، فترك ثديها ، فقال: اللهم اجعلني مثلها ، فقالت: لم ذاك؟

فقال: الراكب جبّار[2] من الجبابرة ، وهذه الأمَةُ[3] يَقولون: سَرَقْتِ ، زَنَيْتِ ، ولم تفعل».

* * *

(١) (ذو شارَةٍ): أي صاحبُ حُسْنٍ ، وقيل: صاحب هيئة ومنظر وملبس حسن يتعجب منه ، ويشار إليه (الفتح: ٦/ ٤٨٣).
(٢) (جبّار): مستكبرٌ عاتٍ.
(٣) (الأمة): الجارية.

يا غُدَرُ!

عن جابر بن عبد الله قال:

لما رجعت مهاجَرةُ البحر إلى رسول الله ﷺ فقال: «ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟».

قال فتية منها: يا رسول الله! بينما نحن جلوس، إذ مرَّت علينا عجوز من عجائزها، تحمل على رأسها قُلَّةً[1] من ماء، فمرت بفتًى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، فدفعها، فخرَّتْ[2] على ركبتها، فانكسرت قُلَّتُها.

فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غُدَرُ[3]! إذا وضع الله الكرسيَّ، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون. فسوف تعلم كيف أمركَ وأمري عنده غداً.

قال: يقول رسول الله ﷺ: «صَدَقَتْ، ثُمَّ صَدَقَتْ، كَيْفَ يُقَدِّس[4] اللهُ قَوْماً لا يُؤْخَذُ لِضَعِيْفِهِمْ مِنْ شَدِيْدِهِمْ؟».

أخرجه أبو يعلىٰ في المسند (٢٠٠٣) واللفظ له، وابن ماجهْ (٤٠١٠) وصححه ابن حبان (٢٥٨٤) موارد الظمآن. وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: «إسناده حسن، وسعيد بن سويد مختلف فيه».

---

(١) (القُلَّةُ): الجرَّة.

(٢) (خرَّتْ): سقطت ووقعت.

(٣) (يا غُدَرُ): معدول عن غادر للمبالغة (النهاية).

(٤) (يقدِّس): يطهِّرُ من الخطايا والذنوب.

هُوَ ابْنُها

أخرج البخاري في كتاب الفرائض برقم (٦٧٦٩) ، ومسلم في الأقضية برقم (١٧٢٠) من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : «بينما امرأتان معهما ابناهما. جاء الذئب فذهب بابن إحداهما. فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بابنكِ أنتِ.

وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنكِ. فَتَحاكَمَتَا إلى داودَ. فقضى به للكبرى.

فخرجتا على سليمانَ بنِ داودَ عليهما السلامُ. فأخبرَتاهُ. فقال : ائتوني بالسكِّين ، أشقُّهُ بينكما. فقالت الصُّغرىٰ : لا ، يرحمكَ اللهُ! هو ابْنُها ، فقضى به للصُّغرىٰ».

قال أبو هُريرةَ : واللهِ! إنْ سمعتُ بالسكين قطُّ إلا يومَئِذٍ. ما كنا نقولُ إلاَّ المُدْية.

في هذا الحديث الشريف قصة لطيفة في قضاء داود وسليمان ـ عليهما الصلاة والسلام ـ في الوَلَدَيْنِ اللَّذينِ أخذ الذئب أحدهما ، فتنازعته أُمَّاهُما ، فقضى به داود للكبرى. فلما مرَّتا بسليمان قال : أقطعه بينكما نصفين. فاعترفت به الصُّغرى للكبرى ، بعد أن قالت الكبرى : اقطعْهُ. فاستدل سليمانُ بشفقة الصغرى على أنها أُمُّهُ ، وأما الكبرى فما كرهتْ ذلك ، بل أرادته لتشاركها صاحبتها في المصيبة بفقد ولدها. قال النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم (١٢/ ١٨) : «قال العلماء : يحتمل أن داود ﷺ قضى به للكبرى لِشَبَهٍ رآه فيها ، أو أنه كان في شريعته الترجيح بالكبير ، أو لكونه كان في يدها ، وكان ذلك مرجِّحاً في شرعه.

وأما سليمانُ فتوصل بطريق من الحِيْلَةِ والملاطفة إلى معرفة باطن القضية ، فأوهمهما أنه يريد قطعه ليعرف مَنْ يشق عليها قَطْعُهُ ، فتكون هي أُمَّه. فلما أرادت الكبرى قطعه عرف أنها ليست أُمَّهُ ، فلما قالت الصغرى ما قالت ، عرف أَنها أُمُّهُ ، ولم يكن مراده أنه يقطعه حقيقة ، وإنما أراد اختبار شفقتهما ، فتتميز له الأمُّ. فلمَّا تميَّزت بما ذكرت عرفها ، ولعلَّهُ اسْتَقَرَّ الكبرى فَأَقَرَّتْ بعد ذلك به للصغرى ، فحكم للصغرى بالإقرار ، لا بمجرد الشفقة المذكورة.

قال العلماء: ومثل هذا يفعله الحُكَّامُ ليتوصلوا به إلى حقيقة الصواب بحيث إذا انفرد ذلك لم يتعلق به حكم.

فإن قيل: كيف حكم سليمانُ بعد حكمِ داودَ في القصة الواحدة ، ونقض حكمه ، والمجتهد لا ينقض حكم المجتهد؟!

فالجواب من أَوْجُهٍ مذكورة:

أحدها: أن داود لم يكن جزم بالحكم.

والثاني: أن يكون ذلك فتوى من داود لا حُكماً.

والثالث: لعله كان في شرعهم فسخ الحكم إذا رفعه الخصم إلى حاكم آخر ، يرى خِلاَفهُ.

والرابع: أن سليمان فعل ذلك حيلةً إلى إظهار الحقِّ ، وظهور الصدقِ ، فلمَّا أقَرَّتْ به الكبرى ، عمل بإقرارها ، وإنْ كان بعد الحكم ، كما إذا اعترف المحكوم له بعد الحكم أن الحقَّ ـ هنا ـ لخصمه».

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٦٥): ودلَّتْ هذه القصة على أن الفطنةَ والفهمَ موهبةٌ من الله ، لا تتعلق بكبر سِنٍّ ولا صِغَرِهِ. وفيه أن الحق في جهة واحدة ، وأن الأنبياء يسوغ لهم الحكم بالاجتهاد ، وإن كان وجودُ النصِّ ممكناً لديهم بالوحي ، لكن في ذلك زيادة في أجورهم ، ولعصمتهم من الخطأ في ذلك. إذ لا يُقَرُّونَ ـ لعصمتهم ـ على الباطل. وفيه استعمال الحيل في الأحكام لاستخراج الحقوق ، ولا يتأتى ذلك إلا بمزيد الفطنة ، وممارسة الأحوال.

يَوْمُ الوُشَاحِ

أخرج البخاري في كتاب الصلاة (٤٣٩) باب: نوم المرأة في المسجد من حديث عائشة؛ أَنَّ وليدةً[١] كانت سوداءَ لِحَيٍّ من العرب، فأعتقوها، فكانت معهم.

قالت[٢]: فَخَرَجَتْ صبيةٌ لهم عليها وُشاح[٣] أحمر من سُيُور[٤].

قالت: فَوَضَعَتْهُ ـ أو وقع منها[٥] ـ فمرت به حُدَيَّاةٌ[٦] وهو مُلْقًى، فحسبته لحماً، فخطفتهُ.

قالت: فالتمسوه، فلم يجدوه.

قالت: فاتهموني به.

قالت: فطفقوا يفتشون، حتى فتشوا قُبُلَها.

قالت: وَايْمُ الله! إني لقائمة معهم؛ إذ مَرَّتْ الحُدَيَّاةُ، فَأَلْقَتْهُ.

---

(١) (وليدة): أي أَمَةٌ.

(٢) القائلة ذلك هي الوليدة المذكورة.

(٣) (الوشاح): شيءٌ ينسجُ عريضاً من أَديم، وربما رُصِّعَ بالجوهر والخرز، وتشده المرأة بين عاتِقَيْها وكَشْحَيْها (النهاية).

(٤) (من سيور): أي من جلد. والسيور: جمع سَيْرٍ، وهو ما يُقَدُّ من الجلد ونحوه مستطيلاً.

(٥) في الدلائل أن الصبية كانت عروساً فدخلت إلى مغسَلها فوضعت الوشاحَ.

(٦) (حُدَيَّاة): تصغير حِدَأَة بوزن عِنبة. وهي طائر من الجوارح من الفصيلة الصقرية ينقض على الجُرذان والدواجن والأطعمة ونحوها. يقال: هو أخطف من الحِدَأَة.

قالت: فوقع بينهم.

قالت: فقلت: هذا الذي اتهمتموني به زعمتم، وأنا منه بريئةٌ، وهو ذا هو.

قالت[1]: فجاءت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت.

قالت عائشةُ: فكان لها خِباء[2] في المسجد أو حِفْشٌ[3].

قالت: فكانت تأتيني، فَتَحَدَّثُ عندي.

قالت: فلا تجلس عندي مجلساً إلا قالت:

ويومُ الوُشاحِ من تَعَاجِيْبِ[4] رَبِّنَا ... أَلَا إِنَّـهُ مِـنْ بَلْـدَةِ الكُفْـرِ أَنْجـانـي

قال الحافظ في الفتح (١/ ٥٣٥): «في الحديث إباحة المبيت والمقيل في المسجد لمن لا مسكن له من المسلمين، رجلاً كان أو امرأة عند أَمْنِ الفتنة، وإباحة استظلاله فيه بالخيمة ونحوها، وفيه الخروج من البلد الذي يحصل للمرء فيه المحنة، ولعله يتحول إلى ما هو خير له كما وقع لهذه المرأة، وفيه فضل الهجرة من دار الكفر، وإجابة دعوة المظلوم ولو كان كافراً؛ لأن في السياق أن إسلامها كان بعد قدومها المدينة، والله أعلم».

* * *

---

(١) أي عائشة.

(٢) (الخباء): الخيمة من وبر أو غيره.

(٣) (حِفْش): بيت صغير.

(٤) (تعاجيب): أي أعاجيب، واحدها: أُعجوبة، ونقل ابن السيد أن (تعاجيب) لا واحد له من لفظه (قاله الحافظ في الفتح: ١/ ٥٣٤).

حسبي الله ونعم الوكيل

أخرج البخاري في أحاديث الأنبياء برقم (٣٤٣٦) ، ومسلم في البر والصلة برقم (٨/٢٥٥٠) من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال :

«لم يتكلم في المهد إلاَّ ثلاثةٌ[١] : عيسى ابن مريمَ ، وصَاحِبُ جُريْجٍ . وكان جُرَيْجٌ رجلاً عابداً. فاتخذ صومعة[٢] . فكان فيها ، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وهو يصلي. فقالت: يا جُرَيْجُ! فقال: يا ربِّ أُمِّي وصَلاتي. فأقبل على صلاته[٣] . فانْصَرَفَتْ .

فلما كان من الغَدِ أَتَتْهُ وهو يصلي . فقالت : يا جُرَيْجُ! فقال: أَيْ رَبِّ! أُمِّي وصَلاتي. فأقبل على صَلاته. فقالت: اللَّهُمَّ! لا تُمِتْهُ حتى يَنْظُرَ إلى وُجُوهِ المُومِسَاتِ[٤] . .

فتذاكرَ بنو إسرائيلَ جُرَيْجاً وعبادَتَهُ. وكانت امرأةٌ بِغَيٌّ[٥] يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِها[٦] .

---

(١) (لم يتكلم في المهد إلاَّ ثلاثة): أي من بني إسرائيل ، وإلاَّ فقد تكلم غيرهم. انظر الفتح (٤٨٠/٦).

(٢) (صومعة): بيت العبادة عند النصارى ، وهي بناء مرتفع محدد أعلاه ، ووزنها فوعلة ، من صمعت إذا دققت لأنها دقيقة الرأس.

(٣) ولو كان عالماً لعلم أن إجابة أمه أولى من صلاته.

(٤) (المومسات): الزواني البغايا المتجاهرات بذلك.

(٥) (بغي): زانية.

(٦) (يتمثل بحسنها): أي يضرب به المثل لانفرادها به.

فقالت: إنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لكم[١].

قال: فَتعرَّضَتْ له، فلم يَلْتَفِتْ إِلَيها. فَأَتَتْ راعياً كان يأْوي إلى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ من نفسها، فَوَقَعَ عليها، فَحَمَلَتْ.

فلما وَلَدَتْ، قالت: هو مِنْ جُرَيْجٍ. فَأَتوهُ فاسْتَنْزَلُوهُ، وهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وجعلوا يَضْرِبونه.

فقال: ما شَأْنُكُمْ؟

قالوا: زَنَيْتَ بهذه البَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ.

فقال: أَين الصبيُّ؟ فجاؤوا به.

فقال: دَعُوني حتى أصلِّي. فصلَّى.

فلما انصرفَ، أَتَى الصبيَّ فَطَعَنَ في بَطْنِهِ، وقال: يا غُلامُ! مَنْ أَبوكَ؟

قال: فلانٌ الراعي.

قال: فأقبلوا على جُرَيْجٍ يُقَبِّلونَهُ ويَتَمَسَّحونَ به. وقالوا: نبني لك صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ.

قال: لا. أَعِيدُوها مِنْ طين كما كانت، فَفَعَلوا.

وبَيْنا صبيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رجلٌ على دابَّةٍ فَارِهَةٍ[٢]، وشارَةٍ حَسَنَةٍ[٣]، فقالت أُمُّهُ: اللَّهُمَّ! اجْعَلْ ابني مِثْلَ هذا. فترك الثَّدْيَ وأَقْبَلَ إليه، فنظرَ إليه، فقال: اللَّهُمَّ! لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. ثم أَقْبَلَ على ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ.

قال: فكأَنِّي أنظرُ إلى رسولِ الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ في فَمِهِ، فجعل يَمَصُّها.

---

(١) أي لأفسدنه بارتكاب الحرام.

(٢) (دابة فارهة): أي نشيطة حادة قوية (النهاية). وقال النووي في رياض الصالحين (٢٧٩) بتحقيقي: «دابة فارهة: أي حاذقة نفيسة».

(٣) (شارة حسنة): قال النووي في الرياض: «هي الجمال الظاهر في الهيئة والملبس».

قال: ومرُّوا بجاريةٍ[1] وهم يَضْرِبونها ويقولون: زَنَيْتِ. سَرَقْتِ، وهي تقول: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ.

فقالت أُمُّهُ: اللَّهُمَّ! لا تَجْعَلْ ابني مِثْلَها. فتَرَكَ الرَّضاعَ ونظرَ إليها.

فقال: اللَّهُمَّ! اجْعَلْني مِثْلَها.

فهناكَ تَراجعا الحديثَ[2]. فقالَتْ: حَلْقَى[3]! مَرَّ رجلٌ حَسَنُ الهيئةِ فقلتُ: اللَّهُمَّ! اجْعَلْ ابني مِثْلَهُ. فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ! لا تَجْعَلْني مِثْلَهُ! ومرُّوا بهذه الأمَةِ وهم يَضْرِبُونَها ويقولون: زَنَيْتِ. سَرَقْتِ. فقلتُ: اللَّهُمَّ! لا تَجْعَلْ ابني مِثْلَها. فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ! اجعلني مثلها!».

قال: إنَّ ذاكَ الرجلَ كان جَبَّاراً[4]. فقلتُ: اللَّهُمَّ! لا تَجْعَلْني مِثْلَهُ، وإنَّ هذه يقولون لها: زَنَيْتِ، ولم تَزْنِ. وسَرَقْتِ، ولم تَسْرِقْ. فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَها».

وفي هذا الحديث من الفوائد كما في الفتح (٦/ ٤٨٢ ـ ٤٨٤):

● إيثار إجابة الأم على صلاة التطوع لأن الاستمرار فيها نافلة، وإجابة الأم وبرُّها واجب، وفي مسند الحسن بن سفيان من حديث يزيد بن حَوْشَبٍ عن أبيه؛ أن النبي ﷺ قال: «لو كان جريج فقيهاً لعلم أن إجابة أمه أولى من عبادة ربه».

● عظم بر الوالدين، وإجابة دعائهما، ولو كان الولد معذوراً؛ لكن يختلف الحال في ذلك بحسب المقاصد.

● الرفْقُ بالتابع إذا جرى منه ما يقتضي التأديب؛ لأن أم جريج مع غضبها

---

(١) (جارية): أَمَة.

(٢) (فهناك تراجعا الحديث): معناه أقبلت على الرضيع تحدثه وكانت أولاً لا تراه أهلاً للكلام. فلما تكرر منه الكلام علمت أنه أَهْلٌ له، فسألته وراجعته.

(٣) (حَلْقى): أي أصابها الله تعالى بوجع في حلقها.

(٤) (جبّاراً): الجبّار: العاتي المتكبر القاهر للناس (جامع الأصول: ١٠/ ٣١٤).

منه لم تَدْعُ عليه إلا بما دعت به خاصة ، ولولا طلبها الرفق به لدعت عليه بوقوع الفاحشة ، أو القتل.

● صاحبُ الصدق مع الله لا تضرُّهُ الفتن.

● قوة يقين جريج المذكور ، وصحة رجائه؛ لأنه استنطق المولود مع كون العادة أنه لا ينطق ، ولولا صحة رجائه بنطقه ما استنطقه.

● وفيه أن الأمرين إذا تعارضا بُدىء بأهمها ، وأن الله يجعل لأوليائه عند ابتلائهم مخارج ، وإنما يتأخر ذلك عن بعضهم في بعض الأوقات تهذيباً وزيادة لهم في الثواب.

● وفيه : إثبات كرامات الأولياء ، ووقوع الكرامة لهم باختيارهم وطلبهم.

● وفيه : جواز الأخذ بالأشد بالعبادة لمن علم من نفسه قوة على ذلك.

● وفيه: أن مرتكب الفاحشة لا تبقى له حُرْمة ، وأن المفزع في الأمور المهمة إلى الله يكون بالتوجه إليه في الصلاة.

● وفيه أن نفوس أهل الدنيا تقف مع الخيال الظاهر فتخاف سوء الحال ، بخلاف أهل التحقيق فوقوفهم مع الحقيقة الباطنة ، فلا يبالون بذلك مع حسن السريرة كما قال تعالى حكاية عن أصحاب قارون حيث خرج عليهم: ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾.

● وفيه أن البشر طبعوا على إيثار الأولاد على الأنفس بالخير لطلب المرأة الخير لابنها ودفع الشر عنه ، ولم تذكر نفسها.

* * *

أَسْأَلُكَ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ فِي الدَّرَجَةِ التي تكونُ فيها فِي الجَنَّةِ

روى الطبراني في الأوسط ـ كما في مجمع الزوائد: ١٠/ ١٧١ ـ ، والبغوي ، والخرائطي في المنتقى من مكارم الأخلاق برقم (٣١١) من حديث علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، قال:

كان رسول الله ﷺ إذا سُئل عن شيء ، فأراد أن يفعله ، قال: نعم ، وإذا أراد أن لا يفعل شيئاً سكتَ ، وكان لا يقول لشيء: «لا» ، فأتاه أَعْرابي ، فسأله فسكت ، ثم سأله فسكت ، ثم سأله ، فقال له النبي ـ ﷺ ـ كهيئة المُنْتَهِر[1]: «سَلْ ما شئتَ ، يا أعرابيُّ!». فَغَبَطْناه[2] ، فقلنا: الآنَ يسألُ الجنة ، فقال له الأعرابيُّ: أسألك راحلةً[3] ، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: «لكَ ذٰلكَ».

ثم قال له: «سَلْ».

قال: أسألك زاداً.

قال: «لَكَ ذٰلكَ».

قال: فتعجبنا من ذٰلِكَ ، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «كَمْ بَيْنَ مَسْأَلَةِ الأَعْرابِيِّ

---

(١) (المنتهر): الزَّاجِر.

(٢) (غَبَطْنَاهُ): أي اشتهينا أن يكون لنا مثل مَالَهُ ، وأن يدوم عليه ما هو فيه.

(٣) (الراحلة): البعير القوي القادر على الأحمال والأسفار.

وعَجُوزِ بني إسرائيلَ!» ثم قال: «إنَّ مُوسىٰ لمَّا أُمِرَ أَنْ يقطع البحر[١] ، فانتهى إليه ، فصرفت وجوه الدواب ، فرجعت ، فقال موسىٰ: ما لي يا ربّ! قال له: إنك عند قبر يوسف ، فاحْتَمِلْ عظامَهُ معك ، وقد استوى القبرُ بالأرض؛ فجعل موسى لا يدري أين هو.

قالوا: إنْ كان أحد منكم يعلم أين هو فعجوزُ بني إسرائيلَ ، لَعَلَّها تعلمُ أَيْنَ هو ، فأرسل إليها موسى عليه السلام: هَلْ تَعلمينَ أين قبرُ يوسُفَ ﷺ؟

قالت: نعم.

قال: فدُلِّيني عليه.

قالت: لا ، والله! حتى تعطيَني ما أسألكَ.

قال: ذلكَ لكِ.

قالت: فإني أسألكَ أَنْ أكونَ معكَ في الدرجةِ التي تكون فيها في الجنةِ.

قال: سَلي الجنةَ.

قالت: لا ، والله! إلاّ أَنْ أكونَ معكَ ، فجعل موسىٰ يُرادُّها[٢] ، فأوحىٰ الله تبارك وتعالى إليه: أَنْ أَعْطِها ذٰلكَ؛ فإنه لا ينقصك شيئاً ، فأعطاها ، ودَلَّتْهُ على القبر ، فأخرج العِظَامَ ، وجاوزَ البَحْرَ».

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٧١) باب: الحث على طلب الجنة: «رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه من لم أعرفهم».

ويشهد له ما رواهُ الحافظ أبو يعلى برقم (٧٢٥٤) ، وعَبْدُ بن حُميد ، والفرْيابي من حديث عبد الله بن قيس: أبي موسىٰ الأَشْعري ، رضي الله عنه ، قال: أتى النبيُّ ـ ﷺ ـ: أَعرابياً ، فأكرمه ، فقال له: «ائتنا» ، فأتاه ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «سَلْ حاجَتَكَ».

---

(١) أي البحر الأحمر ، والعرب القدماء يسمونه بحر القُلْزُم.

(٢) (يُرادُّها): يُراجعها ، لعلّها تتراجع عن طلبها.

قال: ناقةٌ نركبها، وأعنزٌ يحلبها أهلي.

فقال: «أَعَجَزْتُمْ أَنْ تكونوا مثل عَجُوزِ بني إسرائيل؟».

قالوا: يا رسول الله! وما عجوزُ بني إسرائيلَ؟

قال: «إِنَّ موسىٰ ـ عليه السلامُ ـ لمَّا سار ببني إسرائيلَ مِنْ مصرَ، ضَلُّوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: يوسفُ ـ عليه السلام ـ لما حَضَرَهُ الموتُ، أَخَذَ علينا مَوْثِقاً من الله أَنْ لا نخرج من مصر حتى نَنْقُلَ عِظامَهُ معنا.

قال: من يعرف موضع قبره؟

قال: عجوزٌ من بني إسرائيل، فبعث إليها، فأتت، فقال: دُلِّيني على قبر يوسف.

قالت: حتى تُعطَيني حُكْمي.

قال: وما حُكْمُكِ؟

قالت: أكونُ معكَ في الجنة، فكره أَنْ يعطيَها ذلك، فأوحىٰ الله إليه: أَنْ أَعْطِها حُكْمَها، فانطلقت بهم إلى بُحَيْرَةٍ: مستنقع ماءٍ، فقالت: أَنْضِبوا هذا الماءَ، فأنضبوه، فقالت: احتفروا، فاحتفروا، فاستخرجوا عظام يوسفَ، فلمَّا أقلُّوه إلى الأرض، فإذا الطريق مِثْلُ ضوء النهار» وصححه الحافظ ابن حِبَّانَ (٢٤٣٥) موارد، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥) ووافقه الحافظ الذهبي في التلخيص. وأورده الحافظ ابن كثير في التفسير (٥/ ١٨٣ ـ ١٨٤) وقال: «هذا حديث غريب جداً والأقرب أنه موقوف». وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٧٠ ـ ١٧١) باب: الحث على طلب الجنة وقال: «رواه الطبراني، ورواه أبو يعلىٰ... ورجال أبي يعلى رجال الصحيح».

وروى أبو داود (١٠٤٧) والنسائي (٣/ ٩١ ـ ٩٢) وغيرهما من حديث أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَامِكُمْ يوم الجُمُعَةِ، فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه قُبِضَ، وفيه النَّفْخَةُ، وفيه الصَّعْقَةُ، فأكثروا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاة

فيه؛ فإِنَّ صلاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ ، فقالوا: يا رسولَ اللهَ! وكيف تُعْرَضُ صلاَتُنا عَلَيْكَ وقد أَرَمْتَ؟! أَيْ يقولون: قد بَلِيْتَ.

قال: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ على الأرض أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأنبياءِ» وصححه ابن خُزَيْمَةَ برقم (١٧٣٣) ، وصاحِبُهُ ابن حِبَّانَ (٥٥٠) موارد ، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٧٨) ووافقه الذهبي ، وصححه أيضاً الإمام النووي في رياض الصالحين برقم (١٤٥٩) بتحقيقي ، وغيرُهُ.

وقد يبدو بين هذا الحديث وبين سابقه نوع من التعارض ، يزول ـ إن شاء الله تعالى ـ إذا حملنا كلمة «عظامه» في الحديث الأول على المجاز ، كما جاء في حديث ابن عمر؛ أن النبيَّ ﷺ لما بَدَّنَ قال له تَمِيمٌ الدَّارِيُّ: أَلا أَتَّخِذُ لَكَ مِنْبراً ، يا رسولَ اللهِ! يجمعُ ـ أو يَحْمل ـ عِظَامَكَ؟ قال: «بلىٰ» فاتخذ له منبراً مِرْقاتَيْنِ[1].

قال أستاذنا البحاثة حسين أسد حفظه الله تعالى: «وقوله: عِظامكَ ـ هُنا ـ مَجَازٌ علاقته الكلية ، فقد أطلق الجزء وأراد الكُلَّ ، وذلك مثل قولنا: أرسلنا على العدو العيونَ ، يعني: من يجوس ديارهم ويأتينا بأخبارهم».

قلتُ: نَدَبَنا الإسلامُ وحَثَّنا على الدعاء ، والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، وسؤالِهِ جنات الفردوس ، حيث النعيم المقيم ، والعيش الرَّغد؛ فقد روى البخاري في الجهاد (٢٧٩٠) ، وفي التوحيد (٧٤٢٣) من حديث راوية الإسلام ، أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: «من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان[2] ، كان حَقّاً على الله أن يدخله

---

(١) نسبه الحافظ في الفتح إلى أبي داود (١٠٨١) ، والحسن بن سفيان ، والبيهقي ، وقال: «وإسناده جيد». (بَدَّن): أي كَبِرَ وأَسَنَّ ، وهو بتخفيف الدَّال من البدانة وكثرة اللحم ، ولم يكن النبيُّ ـ ﷺ ـ سميناً. (مِرْقاتين): دَرَجَتَيْن.

(٢) قال ابن بَطَّال: «لم يذكر الزكاة والحج لكونه لم يكن فُرِضَ». قال الحافظ في الفتح (٦/ ١٢): «قلتُ: بل سقط ذكره على أحد الرواة ، فقد ثبت الحج في الترمذي في حديث معاذ بن جبل ، وقال فيه: لا أدري أذكر الزكاة أم لا؟».

الجنة ، جاهد في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التي ولد فيها[1]. فقالوا: يا رسول الله[2]! أفلا نبشر الناس؟

قال: «إنَّ في الجنة مئة درجةٍ أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض؛ فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة[3] وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة»[4].

وكان من عادة الصحابة الكرام ، وسلفنا الصالح سؤالُ الجنة ، ومرافقة نبينا محمد ﷺ في أعلاها.

روىٰ الحاكم في المستدرك (٣/ ٣١٧) عن عَليٍّ رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ ، ومعه أبو بكرٍ ، ومَنْ شاء الله من أصحابه ، فمررنا بعبد الله بن مسعودٍ ، وهو يصلي ، فقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ هٰذا؟» فقيل: عبد الله بن مسعود ، فقال: «إنَّ عَبْدَ اللهِ يَقْرَأُ القُرآنَ غَضّاً[5] كما أُنْزِلَ».

فأثنىٰ عبدُ الله على ربه ، وحمده فأحسن في حمده على ربه ، ثم سأله فَأَجْمَلَ المسألة ، وسأله كأحسن مسألةٍ سألها عَبْدٌ رَبَّهُ ، ثم قال: اللَّهُمَّ! إني أسألك إيماناً لا يرتدُّ ، ونعيماً لا ينفدُ ، ومرافقةَ محمدٍ ـ ﷺ ـ في أعلى عِلِّيِّين

---

(١) فيه تأنيس لمن حُرم الجهادَ ، وأنه ليس محروماً من الأجر؛ بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة ، وإنْ قَصَّر عن درجة المجاهدين (الفتح: ٦/ ١٢).

(٢) الذي خاطبه بذلك هو معاذ بن جبل كما في رواية الترمذي ، أو أبو الدرداء كما وقع عند الطبراني (الفتح: ٦/ ١٢).

(٣) المراد بالأوسط ـ هنا ـ الأعدل والأفضل. وقال ابن حِبَّانَ: المراد بالأوسط السَّعة ، وبالأعلىٰ الفوقية (الفتح: ٦/ ١٣).

(٤) (ومنه تفجر أنهار الجنة): أي من الفردوس. والفردوس: هو البستان الذي يجمع كل شيء (الفتح: ٦/ ١٣).

(٥) (غَضّاً كما أنزل): قال في النهاية: «الغَضُّ: الطريُّ الذي لم يتغيَّرْ ، أراد طريقه في القراءة وهيأته فيها ، وقيل: أراد بالآيات التي سمعها منه من أول سورة النساء إلى قوله: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً».

في جنانِكَ جِنَانِ الخُلْدِ. قال: وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «سَلْ تُعْطَ ، سَلْ تُعْطَ» مرتين.

فانطلقتُ لأُبَشِّرَهُ فوجدْتُ أبا بكرٍ قد سبقني ، وكان سَبَّاقاً بالخير. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسنادِ ولم يخرجاه» ووافقه الحافظ الذهبي في التلخيص.

وروى الحافظ أبو يعلى برقم (١٧) ، والإمام أحمد (١/ ٤٤٥) وغيرهما عن عبد الله مسعود قال: كنتُ في المسجد أصلي ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمرُ ، فَسَحَلْتُ سورةَ النساء[١] ، فقرأْتُها ، فلما فَرَغْتُ جلستُ ، فبدأتُ الثناء على الله تعالى ، والصلاة على النبي ﷺ ، ثم دعوتُ لنفسي ، فقال رسول الله ، ﷺ: «سَلْ تُعْطَ» ثم قال: «مَنْ أَحَبَّ أن يقرأ القرآن غَضّاً فليقرأه كما يقرأ ابنُ أُمِّ عَبْدٍ»[٢].

قال: فرجعت إلى منزلي ، فأتاني أبو بكرٍ ، فقال: هل تحفظ مما كنت تدعو شيئاً؟

قلت: نعم ، اللَّهُمَّ! إني أسألك إيماناً لا يرتدُّ ، ونعيماً لا يَنْفَدُ ، ومرافقةَ نبينا محمدٍ ﷺ في أعْلَى جَنَّةِ الخُلْدِ.

فأتى عمرُ عبدَ الله لِيُبَشِّرَهُ ، فوجد أبا بكرٍ خارجاً قد سبقه ، فقال: إِنْ فَعَلْتَ إِنَّك لسبَّاقٌ بالخير. وصححه ابن حبان (٢٤٣٦) موارد.

* * *

(١) أي قرأتُها كلها قراءةً متتابعة متصلة ، وهو من السَّحْل بمعنى السَّح والصَّب.

(٢) (ابن أم عبد): أي عبد الله بن مسعود.

إِنَّ لابْنِي هٰذا شَأْنَاً

لَمَّا تَشَرَّف العالَمُ بميلاد خاتمِ النبيين ، وسيد المرسلين. محمد بن عبد الله ، ﷺ. كان أولَ من أَرْضَعَتْهُ ثُوَيْبَةُ : أَمَةُ عَمِّهِ أبي لَهَبٍ .

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المَرَاضِعَ لمواليدهم في البوادي ، ليكون أنجب للولد[1] .

وكانوا يقولون : إنَّ المُرَبَّى في المدن يكون كَلِيْلَ الذِّهن ، فَاتِرَ العزيمةِ ، فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر ، يطلُبْنَ أطفالاً يُرْضِعْنَهُمْ ، فكان الرضيع المحمود من نصيب السيدة حليمةَ بنت أبي ذُؤَيْبٍ السَّعْدية ، واسم زوجها أبو كَبْشَةَ ، وهو الذي كانت قريش تَنْسِبُ له الرسولَ ـ ﷺ ـ حينما يريدون الاستهزاءَ به ، فيقولون : هذا ابنُ أبي كَبْشَةَ[2] يُكَلَّمُ من السماء!

---

(١) يذكرون في دفع قريشٍ وغيرهم من أشراف العرب أولادهم إلى المراضع أسباباً ، منها : تفريغ النساء إلى الأزواج ، ومنها : حتى ينشأ الطفل في الأعراب ، فيكون أفصح لساناً ، وأجْلَدَ لجسمه ، وأَجْدَرَ أَلَّا يفارق الهيئة المَعَدِّيَّةَ ، كما ورد في الحديث : «تَمْعَدَدُوا واخْشَوْشِنُوا» [المقاصد الحسنة رقم : ٣٤٨] وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول : أَضَرَّ بنا حُبُّ الوليد . كان لَحَّاناً ، وكان سُليمانُ فصيحاً؛ لأن الوليد أقام مع أمه ، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البداية فتعرَّبوا ، ثم أُدِّبوا فتأدّبوا .

(٢) اختلف العلماء في السبب الذي كانت كفار قريش من أجله تقول للنبي ـ ﷺ ـ : ابن أبي كبشة . انظر أقوالهم في الاستيعاب (٤/ ١٦٤) ترجمة أبي كَبْشَةَ مولىٰ النبي ﷺ ، وفي الإصابة ترجمة أبي كبشة حاضن النبي ﷺ .

وُدرَّتِ البركاتُ على أهل ذاك البيت الذين أَرْضَعُوه مُدَّةَ وجوده بينهم ، وكانت تزيد عن أربع سنوات[1] .

أخرج ابن إسحاق (كما في سيرة ابن هشام : ١/ ١٦٢ ـ ١٦٥) ، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢١٢ ـ ٢١٥) برقم (٥٤٥) ، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٣٢ ـ ١٣٦) ، وأبو نُعيم الأصبهاني في «دلائل النبوة» برقم (٩٤) ، والحافظ أبو يعلى في المسند برقم (٧١٦٣) من حديث حليمة بنت الحارث ـ أُمِّ رسول الله ﷺ ـ السَّعْدِية التي أَرْضَعَتْهُ ، قالت : خرجتُ في نسوة من بني سعد بن بكر ، نلتمس الرُّضَعَاءَ بمكةَ ، على أتانٍ[2] لي قَمْراءَ[3] قد أَذَمَّتْ[4] ، فزاحمت بالرَّكْبِ .

قالت : وخرجنا في سنة شَهْباء[5] ، ولم تُبْقِ شيئاً ، ومعي زوجي : الحارث بن عبد العُزَّىٰ .

قالت : ومعنا شارفٌ[6] لنا ، والله ! إنْ تَبِضُّ علينا بقطرةٍ[7] من لبنٍ ، ومعي صَبِيٌّ لي إنْ[8] نَنامُ ليلتنا من بكائه ، ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا من لبن نغذوه إلاَّ أَنَّا نرجو[9] .

فلما قدمنا مكة ، لم تبق منا امرأة إلا عُرِضَ عليها رسولُ الله ـ ﷺ ـ فتأباهُ ؛ وإنا كنا نرجو كرامةَ رَضَاعِهِ من والد المولود ـ وكان يتيماً ـ فكنا نقول : ما عسىٰ

---

(١) نور اليقين ص (١٦) بتحقيقي . طبعة دار اليمامة بدمشق .

(٢) (الأتَانُ) : أنثىٰ الحمار .

(٣) (قَمْراء) : شديدة البياض (النهاية) .

(٤) (أذَمَّتْ) : في النهاية : «أَذَمَّتْ بالرَّكْبِ : أي حَبَسَتْهُمْ لضعفها ، وانقطاع سيرها» .

(٥) (سنة شهباء) : أي ذاتِ قَحْطٍ وجَدْبٍ . والشَّهباء : الأرض البيضاء التي لا خضرة فيها لقلة المطر (النهاية) .

(٦) (شَارِف) : الشَّارِفُ : الناقة المُسِنَّةُ (النهاية) .

(٧) أي ما يقطر منها لبنٌ .

(٨) (إنْ ننامُ) : أي ما ننام .

(٩) في رواية ابن إسحاق : «ولكنا كنا نرجو الغيث والفَرَجَ» .

أن تصنعَ أُمُّهُ؟ حتىٰ لم يَبْقَ من صواحبي امرأةٌ إلا أخذت صبيّاً غيري ، وكرهتُ أن أرجع ولم آخذ شيئاً ، وقد أخذ صواحبي .

فقلتُ لزوجي : والله ! لأَرْجِعَنَّ إلى ذلك فلآخُذَنَّهُ .

قالت : فأتيتُهُ ، فَأَخَذْتُهُ ، فَرَجَعْتُهُ إلى رَحْلي ، فقال زوجي : قد أَخَذْتِهِ؟ فقلت : نعم ، والله ! ذاك أَنّي لم أَجِدْ غَيرَهُ .

فقال : قد أَصَبْتِ ، فعسىٰ اللهُ أن يجعلَ فيه خيراً .

قالت : فوالله ! ما هو إلاَّ أَنْ جَعَلْتُهُ في حِجْري ، قالت : فأقبل عليه ثديي بما شاء من اللَّبن .

قالت : فشرب حتى رَوِيَ ، وشَرب أخوه[1] ـ تعني : ابنَها ـ حتى رَوِيَ ، وقام زوجي إلى شارِفِنا من الليل ، فإذا بها حافِلٌ[2] ، فحلب لنا ما شِئْنا ، فشرب حتى رَوِيَ .

قالت : وشربتُ حتىٰ رَوِيْتُ ، فَبِتْنا ليلَتَنا تلكَ بخيرٍ ، شِباعاً رِواءً ، وقَدْ نام صِبيانُنا .

قالت : يقول أبوه ـ تعني : زوجَها ـ : والله ! يا حليمةُ ! ما أراكِ إلاَّ قد أَصَبْتِ نَسَمَةً[3] مُباركةً ، قد نام صبيُّنا ورَوِيَ .

قالت : ثم خرجنا ، فوالله ! لَخَرَجَتْ أَتاني أمامَ الرَّكْبِ ، قد قَطَعَتْهُنَّ حتىٰ ما يَبْلُغُونها ، حتى إنَّهم ليقولون : وَيْحَكِ ! يا بنت الحارثِ ! كُفِّي علينا ، أَلَيْسَتْ هٰذه بأتانِكِ التي خَرَجْتِ عليها؟ !

فأقولُ : بلى ، واللهِ ! وهي قُدَّامنا ، حتى قَدِمْنا منازِلَنا من حاضر بني سعد بن

---

(١) يقال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان لا يقبل إلاَّ على ثَدْيٍ واحدٍ ، وكان يُعْرَضُ عليه الثديُ الآخرُ فيأباه ، كأنه قد أشعر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن معه شريكاً في لبنها .

(٢) (حافل) : قد امتلأ ضرعها لبناً .

(٣) (نسمةً) : النَّسَمَةُ : الإنسانُ ، والنَّفْسُ .

بكر[1] ، فقدمنا على أَجْدَبِ أرض الله .

فوالذي نَفْسُ حليمةَ بيده! إنْ كانوا ليسرحون أغنامهم إذا أصبحوا ، ويسرح راعي غنمي ، فتروح غنمي بِطاناً[2] لُبَّناً[3] حُفَّلاً[4] ، وتروح أغنامهم جياعاً هالكةً ، ما بها مِنْ لبنٍ .

قالت: فنشرب ما شئنا مِنْ لبنٍ ، وما من الحاضر أحدٌ يحلب قطرةً ، ولا يجدها .

يقولون لرعاتهم: ويلكم! أَلاَ تسرحون حيث يسرح راعي حليمة؟ فيسرحون في الشِّعْبِ[5] الذي يسرح فيه راعينا ، فتروح أغنامهم جياعاً ما لها من لبنٍ ، وتروح غنمي لُبَّناً حُفَّلاً .

قالت: وكان ـ ﷺ ـ يَشِبُّ في اليوم شباب الصبي في الشهر ، ويَشِبُّ في الشهر شباب الصبي في سنةٍ ، فبلغ سِتّاً وهو غلام جَفْرٌ[6] .

قالت: فقدمنا على أمه ، فقلنا لها ، وقال لها أبوهُ: رُدُّوا علينا ابني ، فلنرجعْ به ؛ فإنا نخشىٰ عليه وَبَاءَ مَكَّةَ[7] .

قالت: ونحن أَضَنُّ بشأنه[8] لما رأينا من بركته .

---

(١) (حاضر بني سعد بن بكر): الحاضِرُ: القوم النزول على ماءٍ يقيمون به ولا يرحلون منه. قال الخطابي: ربما جعلوا الحاضر اسماً للمكان المحضور. يقال نزلنا حاضر بني فلان ، فهو فاعل بمعنى مفعول (النهاية).

(٢) (بطاناً): ممتلئة البطون (النهاية).

(٣) (لُبَّناً): ذوات لبَنٍ.

(٤) (حُفَّلاً) أي ممتلئة العروق ، مجتمعة اللَّبَنِ.

(٥) (الشِّعب): المكان.

(٦) (جَفْرٌ): استجفر الصبيُّ ، إذا قوِي على الأكل وأصله في أولاد المَعْز إذا بلغ أربعة أشهرٍ ، وفُصِلَ عن أمه ، وأخذ في الرعي ، قيل له: جَفرٌ ، والأنثىٰ: جَفْرَةٌ (النهاية).

(٧) (وَبَاء مكة): هو الطاعون.

(٨) (أَضَنُّ بشأنه): أي أحْرَصُ على بقائه فينا.

قالت: فلم يزل بها حتى قالت: ارجعا به، فرجعنا به، فمكث عندنا شهرين.

قالت: فبينا هو يلعب وأخوهُ يوماً خلف البيوت يرعيان بهماً[1] لنا؛ إذْ جاءنا أخوه يَشْتَدُّ[2]، فقال لي ولأبيه: أَدْركا أخي القُرشِيَّ. قد جاءه رجلان فأضجعاه، فشقَّا بطنه، فخرجنا نحوه نَشْتَدُّ، فانتهينا إليه وهو قائمٌ، منتقع اللون[3]، فاعتنقه أبوه، واعتنقْتُهُ، ثم قلنا: ما لَكَ؟ يا بُنَيَّ!

قال: أتاني رجلان، عليهما ثياب بِيْضٌ، فأضجعاني، ثم شَقَّا بطني، فوالله! ما أدري ما صنعا.

قالت: فاحتملناه، فرجعنا به.

قالت: يقولُ أبوهُ: والله! يا حليمةُ! ما أَرىٰ هذا الغلامَ إلاَّ قد أُصيب، فانطلقي، فَلْنَرُدَّهُ إلى أهله قبل أَنْ يَظْهَرَ به ما نتخوَّفُ عليه.

قالت: فرجعنا به إليها، فقالت: ما رَدَّكُما به، وقد كُنتما حَرِيْصَيْنِ عليه؟!

قالت: فقلت: لا والله! إلاَّ أنا كَفِلْنَاهُ، وأَدَّينا الحق الذي يجب علينا فيه، ثم تخوَّفتُ الأحداث عليه، فقلنا: يكون في أهله.

قالت: فقالت آمِنَةُ بنت وَهْبٍ الزُّهْرِيَّةُ: والله! ما ذاك بكما، فأخبراني خَبَرَكُما وخَبَرَهُ.

فوالله! ما زالت بنا حتى أَخْبَرْناها خَبَرَهُ.

قالت: فتخوَّفْتُما عليه؟ كَلاَّ والله! إنَّ لابني هذا شأناً، أَلاَ أخبركما عنه؟

إني حملتُ به، فلم أحمل حَمْلاً قطُّ كان أَخَفَّ، ولا أعظمَ بركة منه، ثم رأيتُ نوراً كأنه شِهاب خرج مني حين وضعته أضاءت لي أعناق الإبل

(١) (البَهْمُ): الصغار من الغنم.
(٢) (يشتدُّ): يسرع.
(٣) (مُنْتَقع اللون): متغير اللَّون.

ببصرى[1] ، ثم وضعتُهُ ، فما وقع كما يقع الصبيان: وقَعَ واضعاً يده بالأرض ، رافعاً رأسه إلى السماء ، دَعَاهُ[2] والْحَقَا بِشَأْنِكُما.

وصححه الحافظ ابن حِبَّانَ (٢٠٩٤) موارد الظمآن ، وقال الحافظ ابن كثير في السيرة النبوية (١/ ٢٢٨): «وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي» ، وحسَّن إسناده الحافظ السيوطي في مناهل الصفا رقم (٨٧٥) ، ونقل قول الحافظ الذهبي فيه: جيد الإسناد.

وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٠) وقال: «رواه أبو يعلىٰ ، والطبراني بنحوه. . . ورجالهما ثقات».

وكان للسيدة حليمة نصيب وافِرٌ من بِرِّه ـ ﷺ ـ وإكرامه ، وهو سيِّدُ من وفىٰ ، وأكرم مَنْ أثاب. فقد روىٰ أبو داود في الأدب (٥١٤٤) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦١٨ ـ ٦١٩) ، وأبو يعلى في المسند (٩٠٠) واللفظ له وصححه ابن حِبَّانَ (٢٢٤٩) موارد ، من حديث عُمارةَ بن ثوبانَ؛ أن أبا الطُّفيل أخبره ، أن النبيَّ ـ ﷺ ـ كان بالجِعِرَّانَةِ[3] يقسم لحماً ، وأنا يومئذ غلام أحملُ عُضْوَ البعير.

قال: فأقبلت امرأة بَدَوِيَّةٌ ، فلما دنت من النبي ﷺ بسط لها رداءه ، فجلست عليه ، فسألتُ: مَنْ هذه؟

قالوا: أُمُّهُ التي أَرْضَعَتْهُ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥٩): «عند أبي داود بعضه. رواه الطبراني ، ورجاله وُثقوا».

---

(١) (بُصْرىٰ): قرية من أعمال درعا جنوب سورية. فيها آثار رومانية. تبعد عن دمشق (١٢٤) كِيلاً.

(٢) (دَعَاهُ): اتركاهُ.

(٣) (الجِعِرَّانة): بكسر الجيم وكسر العين المهملة وتشديد الراء ، وفيها رواية أخرى ، وهي: كسر الجيم ، وسكون العين ، وتخفيف الراء: وهي مكان بين مكة والطائف. يقع شمال شرقي مكة ، في صدر وادي سَرِف ، ولا زال الاسم معروفاً إلى أيامنا. انظر المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص: (٩٠).

وفي حديث حليمة من الفوائد والآثار الإيمانية :

● بركات هذا الرضيع على مرضعته ، وأهل بيتها .

هذه البركات على حليمة وأهل بيتها لحكمة من الله تعالىٰ. وذلك حتى يحب أهل هذا البيت هذا الطفل ، ويحسنوا في معاملته ، والحدب عليه .

● الخِيَرةُ فيما اختارُه اللهُ تعالى ، بعد أن نأخذ بالأسباب التي أمرنا الله تعالى باتباعها .

● تعهد الله وإعداده للرسول منذ طفولته لحمل رسالته .

● ليس للشيطان على رسول الله ـ ﷺ ـ سبيل .

* * *

أَدِيبَةٌ وَصَّافَةٌ

أُمُّ مَعْبَدٍ الخُزاعيةُ: عَاتِكَةُ بِنْتُ خالد ، أُخْتُ الصحابي الجليل حُبَيْشِ بن خالد ، صحابية جليلة ، عفيفة ، عاقلة ، من ربَّاتِ الفصاحة ، والبيان ، والبلاغة. مشهورة في كتب التراجم بكنيتها. نزل عليها رسول الله ـ ﷺ ـ في طريق هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة. وظهر له في ذلك آيات باهرات ، ومعجزات خالدات. روتها لنا هذه السيدة الفاضلة. وأمتعتنا أيضاً بوصفٍ غاية في الدقة ، لِحليَةِ المصطفى ـ ﷺ ـ وما جرىٰ له من البركات.

فقد أخرج الإمام البغوي في «شَرْحِ السُّنَّة» برقم (٣٧٠٤) من حديث حُبَيْشِ بن خالدٍ ـ أخي أم معبدٍ ، وصاحب رسول الله ـ ﷺ ـ أَنَّ رسول الله ﷺ حين أُخرج من مكةَ ، خرج مهاجراً إلى المدينة ، هو وأبو بكرٍ ، ومولى أبي بكرٍ: عامرُ بن فُهَيْرَةَ ، ودلِيْلُهُما عبد الله بن الأُرَيْقِط اللَّيثيُّ ، مَرُّوا على خيمتي[1] أم معبدٍ الخُزاعيةِ ، وكانت بَرْزَةً[2] ، تحتبي[3] بفِناءِ الخيمة ، ثم

(١) (خيمتا أم معبدٍ): بين مكة والمدينة في طريق الهجرة بطرفِ قُدَيدٍ من الشمال ، ولا زال المكانُ معروفاً لدى الناس هناك (المعالم الأثيرة ص: ١١٠) لأستاذنا البحَّاثة محمد شُرَّاب حفظه الله تعالى.

(٢) (بَرْزَةٌ): يقال امرأة برزةٌ إذا كانت كهلةً ، لا تحتجب احتجاب الشوابِّ ، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة ، تجلس للناس وتحدثهم ، من البروز ، وهو: الظهور والخروج (النهاية).

(٣) (احتبىٰ): جلس على أليتيه وضم فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.

تسقي وتطعم ، فسألوها لحماً ، وتمراً ، ليشتروا منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القومُ مُرْمِلين[1] ، مُسْنِتِيْنَ[2] ، فنظر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى شاةٍ في كِسْرِ الخيمة[3] ، فقال : «ما هَذهِ الشاةُ؟ يا أُمَّ مَعْبَدٍ!» .

قالت : شاةٌ خَلَّفها الجَهْدُ[4] عن الغنم .

قال : «هَلْ بها مِنْ لَبَنٍ؟» .

قالت : هي أَجْهَدُ من ذلك .

قال : «أَتَأْذَنِينَ لي أَنْ أَحْلُبَها؟» .

قالت : بأبي أنت وأمي ، إِنْ رأيتَ بها حَلَباً ، فاحلُبْها .

فدعابها رسول الله ـ ﷺ ـ ، فمسح بيده ضَرْعَها ، وسمَّى اللهَ جلَّ ثناؤُهُ ، ودعا لها في شاتها ، فتفاجَّتْ[5] عليه ، ودَرَّتْ[6] ، واجترَّتْ[7] .

فدعا بإناءٍ ، يُرْبِضُ الرَّهْطَ[8] ، فحلب فيه ثَجّاً[9] ، حتى علاهُ البَهاءُ[10] . ثم سَقاها حتى رَوِيَتْ ، وسقى أصحابه حتى رَوُوا ، ثم شرب آخِرهم ، ثم

---

(١) (مُرْملينَ) : أي نَفِدَ زادُهم . يقال : أرمل الرجلُ : إذا ذهب طعامه (شرح السنة : ١٣؛ ٢٦٥) .

(٢) (مُسْنتين) : أي مجدبين ، أصابتهم السنةُ ، وهي القَحْطُ (أسد الغابة : ١/ ٤٥٣) .

(٣) (كِسْر الخيمة) : أي جانبها ، ولكل بَيْتٍ كِسْرانِ ، عن يمين وشمال (النهاية) .

(٤) (خَلَّفها الجَهْدُ) : أي حبسها الهُزال عن السَّوم مع الماشية ، والخروج إلى المرعى .

(٥) (تفاجَّتْ) : أي فتحت ما بين رجليها للحَلْبِ (شرح السنة : ١٣/ ٢٦٥) .

(٦) (دَرَّتْ) : أي امتلأ ضَرْعُها لبناً .

(٧) (اجترَّت) : أخرجت ما في بطنها لتمضغه ثم تبلعه .

(٨) (يُرْبِضُ الرَّهْطَ) : أي يُرويهم حتى يثقلوا فيربضوا ويناموا . والرَّهْطُ : ما بين الثلاثة إلى العشرة (شرح السنة : ١٣/ ٢٦٥) .

(٩) (ثَجّاً) : أي سائلاً كثيراً (أسد الغابة : ١/ ٤٥٣) .

(١٠) (حتى علاهُ البهاءُ) : يريد : علا الإناءَ بهاءُ اللبن ، وهو وبيصُ رغوته ، تريد : أنه مَلأَهُ (شرح السنة : ١٣/ ٢٦٦) .

أراضوا[1] ، ثم حلب فيه ثانياً بعد بَدْءٍ حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها[2] ، وبايعها ، وارتحلوا عنها.

فقلّما لبثَ حتى جاء زوجُها أبو مَعْبَدٍ ، يسوق أعْنُزاً عجافاً[3] ، يتساوكْنَ ، هَزْلَى[4] ، ضُحىً ، مُخُّهنَّ[5] قليلٌ.

فلما رأى أبو مَعْبَدٍ اللَّبَنَ ، عَجِبَ ، وقال: من أينَ لك هذا اللبنُ ، يا أمَّ مَعْبَدٍ! والشاء عازبٌ[6] ، حِيَالٌ[7] ، لا حَلُوبَ[8] في البيت؟!

قالت: لا ، والله! إنه مَرَّ بنا رجلٌ مبارَكٌ. من حاله: كذا وكذا.

قال: صِفِيْهِ لي ، يا أُمَّ مَعْبَدٍ!

قالت: رأيت رَجُلاً ظَاهِرَ الوَضَاءَةِ[9] ، أَبْلَجَ الوَجْهِ[10]؛ لم تَعِبْهُ نُحْلَةٌ[11] ، وَلَمْ تُزْرِ به صُقْلَةٌ[12] ، وَسِيمٌ[13] ،

---

(١) (أراضوا): أي شربوا عَللاً بعد نَهَلٍ. مأخوذ من الروضة ، وهو الموضع الذي يستنقع فيه الماء (النهاية).

(٢) (غادره عندها): أي تركه عندها مملوءاً لبناً.

(٣) (أعنزاً عجافاً): جمع عجفاءَ ، وهي المهزولة (أسد الغابة: ١/ ٤٥٣).

(٤) (يتساوكْنَ هزلى): أي تتمايل من الضعف والهُزال ، وفي رواية: تشارَكن هَزْلَى: أي عَمَّهُنَّ الهُزال فاشتركن فيه (شرح السنة: ١٣/ ٢٦٦).

(٥) (المُخُّ): الذي في العظم (مختار الصحاح).

(٦) (والشاء عازب): أي بعيد عن المرعى.

(٧) (حِيالٌ): الحيالُ: التي لم تحمل. يقال: حالت الشاة تحول حيالاً: إذا لم تحمل بعد الضِّراب (شرح السنة: ١٣/ ٢٦٦).

(٨) (حَلُوب): أي شاة تُحْلَبُ (النهاية).

(٩) (الوَضَاءَةُ): الحُسْن والبهجة (أسد الغابة: ١/ ٤٥٣).

(١٠) (أَبْلَج الوجه): تريد مشرق الوجه ، مضيئه.

(١١) (لم تعبْهُ نُحْلَةٌ): أي دِقَّةٌ من نحول الجسم. ويروى: ثُجْلَةٌ ، وهو عِظَمُ البطنِ.

(١٢) (ولم تُزْرِ به صُقْلَةٌ): أي دِقَّةٌ ونحول ، وقيل: أرادتْ أنه لم يكن منتفخ الخاصرةِ جدّاً. ويروى بالسين على الإبدال من الصاد. ويروى: صَعْلَة ، وهي صِغَرُ الرأسِ.

(١٣) (وسيم): حَسَنٌ وضيءٌ.

قَسِيمٌ[١] ، في عَيْنَيْهِ دَعَجٌ[٢] ، وفي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ[٣] ، وفي صوته صَهَلٌ[٤] ، وفي عُنُقِهِ سَطَعٌ[٥] ، وفي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ[٦] ، أَزَجُّ[٧] ، أَقْرَنُ[٨] .

إنْ صَمَتَ؛ فعليه الوَقَارُ[٩] ، وإنْ تكلَّمَ ، سما[١٠] ، وعلاهُ البَهاءُ[١١] ، أجملُ الناس وأبهاهُ مِنْ بعيدٍ ، وأجلاهُ وأحسنُهُ من قريبٍ ، حُلْوُ المنطقِ ، فَصْلٌ[١٢] ، لا نَـزْرٌ ، ولا هَـذَرٌ[١٣] ، كـأنَّ مَنْطِقَهُ خَـرَزَاتُ نَظْـمٍ يتَحـدَّرْنَ. رَبْعَةٌ[١٤] ، لا يَأْسَ مِنْ طُولٍ[١٥] ، ولا تقتحمهُ عَيْنٌ من قِصَرٍ[١٦] ، غُصْنٌ بين

---

(١) (قسيم): القسامةُ: الحُسْنُ. ورجل قسيم الوجه ، أي: جميل كله (أسد الغابة: ١/ ٤٥٣).

(٢) (في عينيه دَعَجٌ): الدَّعَجُ والدُّعْجَةُ. السواد في العين وغيرها. تريد أنَّ سواد عينيه كان شديداً ، والدَّعج أيضاً: شدة سواد العين في شدة بياضها (النهاية).

(٣) (في أشفاره وَطَفٌ): الوَطَفُ: طولُ شعرِ الأجفان (أسد الغابة ١/ ٤٥٣).

(٤) (في صوته صَهَلٌ): أي حِدَّةٌ وصلابة. وفي روايةٍ: صَحَلٌ ، أي: بُحَّةٌ ، وهو ألاَّ يكون حَادَّ الصوت ، وذلك حَسَنٌ إذا لم يكن شديداً (شرح السنة: ١٣/ ٢٦٧).

(٥) (في عنقه سَطَعٌ): أي طولٌ. والسطع: ارتفاع العنق وطوله.

(٦) (في لحيته كثاثة): قال في النهاية: «الكثاثة في اللحية: أن تكون غير رقيقة ولا طويلة ، ولكن فيها كثافة».

(٧) (أَزَجُّ): الزَّجَجُ في الحاجب: تقوُّسٌ فيها مع طولٍ في أطرافها ، وسبوغٍ فيها.

(٨) (أَقْرَنُ): القَرَنُ: اتصال شعر الحاجبين (الشفا للقاضي عياض ص: ٢٠٨ بتحقيقي). قال البغوي في شرح السنة (١٢/ ٢٦٧): «ويروى في صفته عليه السلام خلافه عند هند بن أبي هالَةَ: أَزَجُّ الحواجبِ ، سوابغُ من غير قَرَنٍ».

(٩) (الوقار): الرزانة والحلم والعظمة (الوسيط).

(١٠) (وإن تكلَّمَ سَما): تريد: علا برأسه ، وارتفع من جلسائه (شرح السنة: ١٣/ ٢٦٧).

(١١) (البهاءُ): الجَمَالُ (الوسيط).

(١٢) (فَصْلٌ): أي بَيِّنٌ.

(١٣) (لا نَزْرٌ ولا هَذَرٌ): تريد: وسطٌ ، ليس بقليل ولا كثير.

(١٤) (رَبْعَةٌ): رجلٌ رَبْعَةٌ: معتدل القامة ، بين الطويل والقصير ، وكان ﷺ إلى الطول أقرب.

(١٥) (لا يَأْسَ مِن طولٍ): معناه: أن قامته ﷺ لا يؤيس من طولها ، لأنه كان إلى الطول أقرب ، أي: ليس بالطويل الذي يؤيس من مطاولته لإفراط طوله.

(١٦) (ولا تقتحمه عينٌ من قِصَرٍ): أي لا تحتقره وتزدريه فيتجاوز منه إلى غيره.

غُصْنَيْنِ ، فهو أَنْضَرُ الثلاثةِ مَنْظَراً ، وأَحْسَنُهُمْ قَدْراً.

له رُفَقَاء يَحُفُّونَ به. إنْ قال ، أَنْصَتُوا لقوله ، وإِنْ أَمَرَ تبادروا لأمرِهِ[1] ، مَحْشُودٌ مَحْفُودٌ[2] ، لا عابسٌ[3] ، ولا مُفَنِّدٌ[4].

قال أبو مَعْبَدٍ: هو ، واللهِ! صَاحِبُ قُرَيْشٍ الذي ذُكر لنا من أمرِهِ ما ذكر بمكةَ ، ولقد هَمَمْتُ أن أَصْحَبَهُ ، ولأفعلنَّ إنْ وَجدْتُ إلى ذلك سبيلاً.

وأصبح صوتٌ بمكة عالياً يسمعون الصوتَ[5] ، ولا يدرون مَنْ صاحِبُهُ ، وهو يقول [الطويل]:

جَزَىٰ اللهُ ربُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... رَفِيقَيْنِ قَالاَ[6] خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ
هما نَزَلَاها بالهُدَىٰ واهْتَدتْ بِهِ ... فَقَدْ فَازَ مَنْ أَمْسَىٰ رَفِيْقَ مُحَمَّدِ
فَيَالَ قُصَيٍّ ما زَوَى اللهُ عَنْكُمُ[7] ... بِهِ مِنْ فَعَالٍ لا يُجَازَى[8] وسُؤْدَدِ
لِيَهْنِ[9] بَنِيْ كَعْبٍ مَقَامُ فَتَاتِهِمْ ... وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِيْنَ بِمَرْصَدِ
سَلُوا أُخْتَكُمْ عنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا ... فَإِنَّكُمُ إنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ

---

(١) (تبادروا لأمره): تسابقوا لتنفيذ ما أمر به ﷺ.

(٢) (محشود محفود): معناه: أن أصحابه يجتمعون عليه ويخدمونه ، ويسرعون في طاعته. يقال: رجل محشود ، عنده حشد من الناس ، أي جماعة ، والمحفود: المخدوم (شرح السنة: ١٣/ ٢٦٨).

(٣) (لا عابسٌ): معناه: غيرُ عابِسِ الوجه (شرح السنة: ١٣/ ٢٦٨).

(٤) (ولا مُفَنِّدٌ): المُفَنَّدُ: هو الذي لا فائدة في كلامه (أسد الغابة: ١/ ٤٥٣).

(٥) (يسمعون الصوت): هو صوت بعض مسلمي الجن ، أقبل من أسفل مكة ، والناس يتَّبعونه ، يسمعون الصوت ، وما يرونه حتى خرج بأعلى مكة. قالت أسماءُ: فلما سمعناه ، عرفنا حيث وَجْهُ رسول الله ﷺ ، وأَنَّ وجهه إلى المدينة (شرح السنة: ١٣/ ٢٦٩).

(٦) (قالا): من القيلولة ، وهي النوم وسط النهار ، وفي سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٧): «حَلاَّ» بدل «قالا».

(٧) أي باعد ونحّى عنكم من الخير والفضل.

(٨) في مطبوع أسد الغابة: «لا يجارى».

(٩) (لِيَهْنِ): أي ليفرحْ.

دَعَـاهـا بِشَـاةٍ حَـائِـلٍ[1] فَتَحَلَّبَـتْ عَلَيْهِ صَرِيْحاً ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ[2]
فَغَـادَرَهـا رَهْناً لَـدَيْها لِحَـالِـبٍ[3] يُـرَدِّدُهـا فـي مَصْـدَرٍ ثُـمَّ مَـوْرِدِ

وهذا الحديث أخرجه أيضاً ابن عبد البَرِّ في (الاستيعاب) (٤/ ٤٧١) مطبوع على هامش (الإصابة)، وابن الأثير في (أُسْدِ الغابة) (١/ ٤٥١)، وابن حجر في (الإصابة) في ترجمة أم معبدٍ، وزاد نسبته السيوطي في (الخصائص) إلى ابن شاهين، وابن السَّكَنِ، وابن مندة، والبيهقي، وأبي نُعَيْم. ورواه الطبراني أيضاً كما في مجمع الزوائد (٦/ ٥٥ ـ ٥٨)، وصححه الحاكم في المستدرك (٣/ ٩ ـ ١٠) ووافقه الحافظ الذهبي.

وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٦٦): «وقصَّتُها مشهورة، مروية من طرق، يشدُّ بعضها بعضاً». وقال الشيخ المحدث شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنة: «حديث حسنٌ قويٌّ».

* * *

(١) (حائل): تقدم شرحها قبل قليل.
(٢) (تحلَّبت): أي سال حليبُها. (صريحاً): الصريح: اللبن الخالص الذي لم يُمْذق. (ضَرَّة الشَّاة): الضَّرَّةُ: لحم الضَّرْع. أي: تحلَّبت ضَرَّةُ الشاة بلبنٍ مُزْبِدٍ.
(٣) يريد أنه ترك الشاةَ عندها مرتهنةً بأن تُدِرَّ.

أَلا تُجيبُ؟

أخرج الطبراني في الكبير عن جابر بن سَمُرَةَ ـ أو رجل من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ ـ قال:

كان النبي ـ ﷺ ـ يرعى غنماً، فاستعلى الغنم[1]، فكان في الإبل هو وشَرِيكٌ له، فأكْرَيا أُخْتَ خديجةَ، فلما قَضَوا السفر، بقي لهم عليها شيء، فجعل شريكهم يأتيها، فيتقاضاهم، ويقول لمحمدٍ: انطلق. فيقول: «اذهب أنت؛ فإني أَسْتَحْيِي».

فقالت مرةً ـ وأتاهم ـ: فأين محمدٌ؟

قال: قد قلت له، فزعم أنه يستحيي.

فقالت: ما رأيت رجلاً أَشَدَّ حياءً، ولا أَعَفَّ، ولا، ولا.... فوقع في نفس أختها خديجة، فبعثت إليه، فقالت: ائْتِ أبي، فاخْطُبني.

قال: «أبوكِ كثيرُ المالِ، وهو لا يَفْعَلُ».

قالت: انطلق، فَالْقَهُ، فَكَلِّمْهُ، فأنا أكفيك، وائْتِ عند سُكْرِهِ، ففعلَ، فأتاه فَزَوَّجَهُ، فلما أصبح جلس في المجلس، فقيل له: أحسنتَ، زَوَّجْتَ محمداً. فقال: أو قد فَعَلْتُ؟

---

(١) (فاستعلى الغنم): أي تركها (هامش حياة الصحابة: ٣/ ٣٤١).

قالوا: نعم. فقام فدخل عليها، فقال: إن الناس يقولون: إني زَوَّجْتُ محمداً؟

قالت: بلى، فلا تُسَفِّهَنَّ رَأْيَكَ؛ فَإِنَّ محمداً كذا.

فلم تزل به حتى رضي، ثم بعثت إلى محمد ـ ﷺ ـ بِوُقِيَّتَيْنِ من فضة أو ذهب، وقالت: اشتر حُلَّةً[1] وأَهْدِها لي، وكبشاً وكذا وكذا، ففعل.

ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) باب: فضل خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله ـ ﷺ ـ، وقال: «رواه الطبراني والبزار، ورجال الطبراني رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي، وهو ثقة، ورجال البزار أيضاً إلاَّ أن شيخه أحمد بن يحيى الصوفي ثقة ولكنه ليس من رجال الصحيح، وقال فيه: قالت: «وائته غَيْرَ مُكْرَهٍ» بدل «سُكْرِهِ» وقالت في الحُلَّةِ: «فأهدها إليه» بدل «إليَّ».

وعند أحمد (١/ ٣١٢)، والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما يحسب حَمَّادٌ ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ ذكر خديجة، وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه، فصنعت طعاماً وشراباً فدعت أباها ونفراً من قريش، فطعموا، وشربوا حتى ثَمِلُوا[2].

فقالت خديجة لأبيها: إن محمد بن عبد الله يخطبني، فزوِّجْني إياه، فزوَّجها إياه، فَخَلَّقَتْهُ[3]، وألبسته حُلَّةً ـ وكذلك كانوا يَفْعَلون بالآباء ـ فلمَّا سُرِّيَ عنه سُكْرُهُ[4] نَظَرَ فإذا هو مُخَلَّقٌ وعليه حُلَّةٌ، فقال: ما شَأْني؟ ما هذا؟

قالت: زَوَّجْتَني محمدَ بْنَ عبدِ اللهِ.

فقال: أنا أزوِّجُ يتيمَ أبي طالب؟! لا، لَعَمْري!

---

(١) (حُلَّةً): الحُلَّةُ: ثوبان من جنس واحد. إزار ورداء. بمثابة الطَّقْم في أيامنا.

(٢) (حتى ثملوا): حتى أخذ فيهم الشرابُ.

(٣) (فَخَلَّقَتْهُ): أي ضَمَّخَتْهُ بالخَلُوق. قال في النهاية: «وهو طيب معروف مركَّبٌ يتخذ من الزعفران وغيرِهِ من أنواع الطيب، وتغلبُ عليه الحمرةُ والصُّفْرة».

(٤) (فلما سُرِّيَ عنه سُكْرُهُ): أي زال عنه أثر الشَّراب.

فقالت خديجة: أما تستحيي؟ تريد أن تُسَفِّه نَفْسَكَ عند قريش؟ تخبر الناس أنك كنت سكران؟

فلم تزل به حتى رضي.

قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٠): «رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح».

وعند ابن سَعْدٍ في الطبقات (١/ ١٣١) عن نَفِيْسَةَ بنت مُنْيَةَ، قالت:

«كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمةً[١] جَلْدَةً[٢] شريفةً؛ مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذٍ أوسط[٣] قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكل قومها حريصٌ على نكاحها لو قَدَرَ على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دَسِيْساً[٤] إلى محمد بعد أن رجع في عِيْرِها[٥] من الشام، فقلت: يا محمدُ! ما يمنعك أَنْ تَزَوَّجَ؟

فقال: «ما بيدي ما أتزوَّجُ به».

قلت: فإن كُفيتَ ذلك، ودُعيتَ إلى الجمال والمال والشَّرَف والكَفاءَةِ أَلَا تُجِيْبُ؟

قال: فَمَنْ هِيَ؟

قلت: خديجة.

قال: «وكيفَ لي بذلكَ؟».

قالت: قلتُ: عَلَيَّ.

قال: «فأنا أفعل». فَذَهَبْتُ فأخبرتُها، فأرسلَتْ إليه أَن ائتِ الساعةَ كذا

---

(١) (حازمة): الحَزْمُ: ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة.

(٢) (جَلْدَة): أي قوية صابرة.

(٣) (أوسط): أفضل وأمثل.

(٤) (دسيساً): الدَّسيس: مَنْ يُرْسَلُ سِرّاً ليأتي بالأخبار.

(٥) (عيرها): المقصود بها ـ هنا ـ تجارتها.

وكذا ، وأرسلت إلى عمها عَمْرِو بن أسد لِيُزَوِّجَها ، فحضر ودخل رسول الله - ﷺ - في عمومته ، فزوجه أحدهم . فقال عَمْرُو بن أَسَدٍ : هذا البُضْعُ لا يُقْرَعُ أَنْفُهُ[١] ، وتزوجها رسول الله - ﷺ - وهو ابن خمسٍ وعشرينَ[٢] ، وخديجة يومئذٍ ابنةُ أربعين سنةً ؛ ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنةً » .

وقد خطب أبو طالب يوم زواجها فقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذُرِّيةِ إبراهيمَ ، وزَرْعِ إسماعيلَ ، وضِئْضِيءِ[٣] مَعَدٍّ ، وعُنصر مُضَرَ ، وجعلنا حَضَنَةَ بيتِهِ[٤] ، وسُوَّاسَ حَرَمِهِ[٥] ، وجعله لنا بيتاً مَحْجُوجاً ، وحَرَماً آمناً ، وجعلنا حُكَّامَ النَّاسِ ؛ ثم إِنَّ ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزَنُ به رجلٌ إلا رَجَحَ به شرفاً ونبلاً وفَضْلاً وعَقْلاً ، وإن كان في المال قُلٌّ[٦] ؛ فإِنَّ المالَ ظِلٌّ زائلٌ ، وأمرٌ حائِلٌ[٧] ، وعاريةٌ[٨] مُسْتَرَدةٌ ، وهو والله ! بعد هذا له نَبَأٌ عظيم ، وخَطَرٌ جليلٌ[٩] ، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصَّداق[١٠] كذا .

قال ابن هشام : فأصدقها عشرين بَكْرَةً[١١] .

قال الدكتور أبو فارس في السيرة النبوية ص : (١٢٣) : «ولقد اختار الله لنبيه

---

(١) (هذا البُضْعُ لا يُقْرَعُ أَنْفُهُ) : يريد هذا الكُفْءُ الذي لا يُرَدُّ نِكاحُهُ ، وأصله في الإبل أَنَّ الفحل الهَجِيْنَ إذا أراد أن يضربَ كرائمَ الإبِلِ قَرَعوا أنفه بِعصاً ، أو غيرها ليرتَدَّ عنها ويتركَها (النهاية) .

(٢) وهو قول الجمهور .

(٣) (ضِئْضِيء) : أَصْل .

(٤) (حضنة بيته) : الكافلون له ، القائمون بخدمته .

(٥) (سُوَّاس حرمه) : هم المتولون أمر الحرم .

(٦) (قُلٌّ) : أي : قِلَّةٌ .

(٧) (حائل) : مُتَغَيِّر .

(٨) (عاريَّة) : ما تعطيه غيرَك على أن يعيدَهُ إليك .

(٩) (خطر جليل) : أي رفعة وشأن عظيم .

(١٠) (الصَّداق) : المَهْر .

(١١) (البَكْرَةُ) : الفتية من الإبِلِ .

زوجةً تناسبه وتؤازره ، وتخفف عنه ما يصيبه ، وتعينه على حمل رسالته بالوقوف في جانبه ، وتأييده ، فلقد بذلت مالها كله لرسول الله ـ ﷺ ـ ، ولقد آمنت به ، وكفر الناسُ ، وصدقته حين كذبه الناس.

ولقد شهد لها رسول الله ـ ﷺ ـ بذلك ، فقال: «لقد آمنت بي حين كفر بي الناس ، وصدقتني حين كذبني الناس ، وواستني بمالها حين حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد ، ولم يرزقني من غيرها».

ولقد اختار الله لرسوله سيدة نساء أهل الجنة في الجنة ، وظل مرتبطاً بها ، لم يتزوج معها غيرها؛ حتى توفاها الله ـ تبارك وتعالى ـ لتصبح زوجته في الآخرة.

وظلَّ وفيّاً لها ، يذكرها بخيرٍ ، ويصل صديقاتها؛ فهنيئاً لها به ، وهنيئاً له بها».

وولده كلهم ـ ﷺ ـ من خديجة إلا إبراهيم فهو من السيدة ماريه القِبْطِيَّة. وأولاده من خديجة هم: القاسُم ، وعبدُ الله: الملقب بالطيب والطاهر ، وزينبُ ورُقَيَّةُ وأُمُّ كلثوم وفاطمةُ. وأولاده ـ ﷺ ـ ماتوا في حياته إلا السيدة فاطمة عاشت بعده ستة أشهر.

وفي قصة زواجه ـ ﷺ ـ بالسيدة خديجة من الفوائد:

● بيان ما حبا الله تعالى به نبيه ـ ﷺ ـ من الكمالات النفسية التي رَغَّبَتْ خديجة في الزواج به.

● مشروعية إبداء المرأة رغبتها في الرجل تريد الزواج به.

● مشروعية الخطبة للزواج وتولي ذلك قريب الزوج كما تولى حمزة وأبو طالب خطبة خديجة من والدها خويلد بن أسد أو من عمها عمرو بن أسد.

● بيان شرف خديجة أم المؤمنين ، وهي حقّاً سيدة نساء قريش ، وقد جاء جبريل ـ عليه السلام ـ ببشارة لها من أعظم البشريات ، جاء بها من الله عز وجل ، فقد روى البخاري (٣٨٢٠) ، ومسلم (٢٤٣٢) من حديث

أبي هريرة قال: أتى جبريلُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله! هذه خديجةُ، قد أتَتْ معها إناءٌ فيه إدامٌ، أو طعامٌ، أو شراب؛ فإذا هي أَتَتْكَ[1]، فاقرأْ عليها السلامَ[2] من رَبِّها ومِنِّي، وبشِّرْها بِبَيْتٍ في الجنة من قَصَبٍ[3]، لا صَخَبَ[4] فيه، ولا نَصَبَ[5].

وفي حديث أنس عن النسائي ـ كما في الفتح: ٧/ ١٣٩ ـ قال: قال جبريل للنبيِّ ـ ﷺ ـ إنَّ اللهَ يُقْرِىءُ خديجةَ السَّلامَ ـ يعني: فَأَخْبِرْها ـ فقالت: إنَّ اللهَ هو السَّلامُ، وعلى جبريلَ السَّلامُ، وعليكَ يا رسولَ الله! السلامُ، ورحمةُ الله وبركاتُهُ.

* * *

---

(١) (أَتَتْكَ): أي وصَلَتْكَ.

(٢) (فاقرأ عليها السلامَ): أي سَلِّمْ عليها.

(٣) (من قَصَبٍ): قال جمهور العلماء: المراد به قَصَبُ اللؤلؤ المُجوَّف كالقصر المنيف، وقيل: قصر من ذهب منظوم بالجوهر. قال أهل اللغة: القصب من الجوهر ما استطال منه في تجويف. قالوا: ويقال لكل مجوَّفٍ قصبٌ. وقد جاء في الحديث مُفَسَّراً ببيتٍ من لؤلؤة محياة، وفسَّروه بمجوفة. قال الخطَّابي وغيره: المراد بالبيت ـ هنا ـ: القصر.

(٤) (صَخَب): الصَّخَبُ: الصوت المختلط المرتفع.

(٥) (نَصَب): النَّصَبُ: المشقة والتعبُ.

أَبْشِرْ فَوَاللهِ! لا يُخْزِيْكَ اللهُ أَبَداً

أخرج البخاري (٣) ، ومسلم (١٦٠) واللفظ له ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

كان أول ما بُدِيءَ به رسولُ الله ـ ﷺ ـ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح[١] . ثم حُبِّبَ إليه الخلاء[٢] . فكان يخلو بغار حِراء[٣] يتحنَّثُ فيه . (وهو التعبُّدُ) الليالي أولات العدد ، قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزوَّدُ لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّدُ لمثلها . حتى فَجِئَهُ الحقُّ[٤] ، وهو في غار حراءَ ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : «ما أنا بقارىء»[٥] . قال : «فأخذني فغطَّني[٦] حتى بلغ مني الجُهْدَ[٧] ، ثم أرسلني[٨] فقال : اقرأ .

---

(١) (فَلَقُ الصبح) : ضياؤه . وإنما يقال هذا في الشيء الواضح .

(٢) (الخلاء) : الخلوة والعُزلة .

(٣) (غار حراء) : حراء : جبل يقع في الشمال الشرقي من مكة على يسار الذاهب إلى عرفات . بعيداً عن جادة الطريق بنحو ميل ، وهو عمودي ، يبلغ ارتفاعه مئتي مترٍ . ويبعد الغار عن قمة الجبل نحو (٥٠) متراً . وهو عبارة عن فجوة بابها نحو الشمال ، تسع نحو خمسة أشخاص جلوساً ، وارتفاعه قامة متوسطة . انظر في رحاب البيت الحرام ص : (٣٧٧) ، والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص : (٩٨) .

(٤) (فجئه الحق) : أي جاءه الوحي بغتة .

(٥) (ما أنا بقارىء) : معناه : لا أحسن القراءة . وسيدنا محمد ﷺ نبي أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وفي كتاب «من هو سيد القدر» ص (٩٣) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ملحق حول أمية رسول الله ﷺ ومعنى كلمة أمي . يحسن الاطلاع عليه .

(٦) (فغطَّني) معناه : عصرني وضمَّني .

(٧) (الجُهد) : الغاية والمشقة .

(٨) (أرسلني) : أطلقني .

قال قلت: ما أنا بقارىء.

قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني فقال: اقرأ.

فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فرجع بها رسول الله ـ ﷺ ـ ترجف بَوَادِره[١]، حتى دخل على خديجة فقال: «زمّلوني[٢]. زمّلوني». فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْعُ. ثم قال لخديجة: «أي خديجة! مالي» وأخبرها الخبر.

قال: «لقد خشيت على نفسي».

قالت له خديجة: كلاّ[٣]. أبشر. فوالله! لا يخزيك[٤] الله أبداً. والله! إنك لتصل الرحم[٥]، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ[٦]، وتكسبُ المعدومَ[٧]،

---

(١) (ترجف بوادره): معنى «ترجف» ترعد وتضطرب. وأصله شدة الحركة. والبوادر: جمع بادرة، وهي اللحمة التي بين المنكب والعنق، تضطرب عند فزع الإنسان.

(٢) (زمّلوني): أي غطوني بالثياب ولفوني بها.

(٣) (كلا): هي هنا كلمة نفي وإبعاد. وهذا أحد معانيها، وقد تأتي «كلاّ» بمعنى حقاً، وبمعنى ألا، التي للتنبيه.

(٤) (لا يخزيك): الخزي: هو الفضيحة والهوان. ومعنى كلامها: إنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق، وكرم الشمائل.

(٥) (لتصل الرحم): صلة الرحم: هي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول. فتارة تكون بالمال وتارة تكون بالخدمة، وتارة تكون بالزيارة والسلام، وغير ذلك.

(٦) (وتحملُ الكَلَّ): الكَلُّ: أصله الثقل. ومنه قوله تعالى: وهو كَلٌّ على مولاه. ويدخل في حَمْلِ الكَلِّ الإنفاقُ على الضعيف واليتيم والعيال، وغير ذلك، وهو من الكلال، وهو الإعياء.

(٧) (وتكسب المعدوم): أي تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك. وانظر معاني أخرىٰ في الفتح (١/ ٢٤ ـ ٢٥).

وتَـقْرِي الضـيف[1] ، وتعيـن على نوائب الحق[2] فانطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقَـةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّىٰ. وهو ابن عم خديجة ، أخي أبيها.

وكان امْرَأً تنصَّر في الجاهلية[3]. وكان يكتب الكتاب العربي ، ويكتب الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة : أيْ عَمِّ! اسمع من ابن أخيك.

قال ورقةُ بن نَوْفَلٍ : يا بن أخي! ماذا ترىٰ! فأخبره رسول الله ـ ﷺ ـ خبر ما رآه.

فقال له ورقة : هذا الناموسُ[4] الذي أنزل على موسىٰ ﷺ. يا ليتني فيها جَذَعاً[5] ، يا ليتني حيّاً حين يخرجك قومكَ.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «أو مخرجيَّ هُمْ؟».

قال ورقة : نعم. لم يأت رجل قطُّ بما جئت به إلا عُودي. وإنْ يدْرِكْني يومُكَ أنصرْك نصراً مؤزَّراً[6].

* * *

(١) (وتقري الضيف) : أي تضيفه وتكرمه ، ويقال للطعام الذي يضيفه به : قِرًى.

(٢) (نوائب) : جمع نائبة وهي الحادثة. وإنما قالت نوائب الحق ، لأن النائبة قد تكون في الخير ، وقد تكون في الشر.

(٣) (تنصَّرَ في الجاهلية) : معناه صار نصرانياً. والجاهلية ما قبل رسالته ﷺ. سُمُّوا بذلك لما كانوا عليه من فاحش الجهالة.

(٤) (هذا الناموس) : هو سيدنا جبريل عليه السلام. قال أهل اللغة وغريب الحديث : الناموس في اللغة صاحب سرِّ الخير ، والجاسوس صاحب سر الشر.

(٥) (يا ليتني فيها جذعاً) : الضمير يعود إلى أيام النبوة ومدتها. وجذعاً : يعني شاباً قوياً.

(٦) (نصراً مؤزّراً) : أي قوياً بالغاً.

بلْ أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي زَرْعٍ

أخرج البخاري (٥٨١٩) ، ومسلم (٢٤٤٨) ، والترمذي في الشمائل المحمدية (٢٥٤) بتحقيقي من حديث عروة بن الزُّبير ، عن عائشة ، قالت :

جَلَسَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ امْرَأَةً ، فَتَعَاهَدْنَ ، وَتَعَاقَدْنَ[1] أَنْ لاَ يَكْتُمْنَ[2] مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئاً .

فقالت الأُولىٰ : زَوْجِي : لَحْمُ جَمَلٍ غَثٌّ[3] ، على رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ[4] ،

(١) (فتعاهدن وتعاقدن) : أي ألزمن أنفسهن عهداً ، وعقدن على الصدق من ضمائرهن عقداً (الفتح : ٩/ ٢٥٩).

(٢) (ألاَّ يكتمن) : أي لا يخفين شيئاً من أخبار أزواجهن : مَدْحاً أو ذَمّاً.

(٣) (غَثّ) : يجوز جرُّه صفة للجمل ، ورفعه صفة لِلَّحم . والغَثُّ : الهزيل (الفتح : ٩/ ٢٥٩).

(٤) (على رأس جبل وَعْرٍ) : الوَعْرُ : ضد السهل (جامع الأصول : ٦/ ٥٠٩) . قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (١٥/ ٢١٣) : «وقولها : علىٰ رأس جبل وَعْرٍ : أي صعب الوصول إليه ؛ فالمعنى أنه قليل الخير من أوجه : منها كونه كلحم الجَمَلِ ، لا كَلَحْمِ الضأن . ومنها أنه مع ذلك غَثٌّ مهزول رديء ، ومنها أنه صعب التناول ، لا يوصل إليه إلاَّ بمشقة شديدة . هكذا فَسَّره الجمهور . وقال الخطَّابي : قولها : «على رأس جبل» أي : يترفَّع ويتكبر ويسمو بنفسه فوق موضعها كثيراً ، أي أنه يجتمع إلى قِلَّة خيره تكبُّرهُ وسوء الخُلُقِ» .

لا سَهْلٍ[1] فَيُرْتَقىٰ[2] ، ولا سمينٍ فَيُنْتَقىٰ[3] .

قالت الثانيةُ: زَوْجِي: لا أُثِيرُ خَبَرهُ[4] ، إنِّي أَخَافُ أَنْ لا أَذَرَهُ[5] ، إنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ[6] .

قالت الثالثةُ: زَوْجِي: العَشَنَّقُ[7] ، إنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ.

---

(١) (لاسهل): بالفتح بلا تنوين ، وكذا: «ولا سمينَ» ، ويجوز فيهما الرفع على خبر مبتدأ مضمر ، أي: لا هو سهلٌ ولا سمينٌ ، ويجوز علىٰ الجرِّ علىٰ أنها صفة جَمَلٍ وجَبَلٍ. قال القاضي عِيَاضٌ: أحسن الأوجه عندي الرفعُ في الكلمتين من جهة سياق الكلام ، وتصحيح المعنىٰ ، لا من جهة تقويم اللفظ ، وذلك أنها أودعت كلامها بتشبيه شيئين بشيئين: شَبَّهت زوجها باللحم الغَثِّ ، وشبَّهت سوء خلقه بالجبل الوَعْرِ ، ثم فسَّرتْ ما أجملت ، فكأنها قالت: لا الجبلُ سهلٌ ، فلا يشقُّ ارتقاؤه لأخذ اللحم ولو كان هزيلاً؛ لأن الشيء المزهود فيه قد يؤخذ إذا وجد بغير نَصَبٍ ، ثم قالت: ولا ا للحمُ سَمِينٌ فيحمل المشقة في صعود الجبل لأجل تحصيله.

(٢) (فيرتقىٰ): أي فيصعد فيه ، وهو وصف للجبل (الفتح: ٩/ ٢٥٩).

(٣) (ولا سمين فينتقىٰ): أي ليس له نِقْيٌ فيستخرج ، والنِّقْيُ: المُخُّ (النهاية).

(٤) (لا أثير خبره): لا أنشُرُه لِقُبْحِ آثاره (شرح السنة: ٩/ ١٧٢).

(٥) (إني أخاف أن لا أذره): أي أتركه وأدعه (جامع الأصول: ٦/ ٥١٠)، وقال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم (١٥/ ٢١٣): «فيه تأويلان: أحدهما لابن السكيت وغيره ، أن (الهاء) عائدة على (خبره) ، فالمعنىٰ: أن خبره طويل ، وإن شَرَعْتُ في تفصيله لا أقدر على إتمامه لكثرته. والثانية: أن (الهاء) عائدة على الزوج ، وتكون (لا) زائدة ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ ، ومعناه: إني أخاف أن يطلقني فأذره».

(٦) (عجره وبجره): أي عيوبه. قال في جامع الأصول (٦/ ٥١٠): «تريد بهذا الوصف: إني لا أخوض في ذكره ، لأني إنْ خضتُ فيه خفت أَنْ أفضحه ، وأعدد معايبه ، وكَنَّتْ بالعجر والبجر عن ظاهر أمره وخافيه.

(٧) (زوجي العَشَنَّقُ إن أنطق أُطَلَّقْ ، وإنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ): قال ابن الأثير في جامع الأصول (٦/ ٥١٠): «العَشَنَّقُ: الطويل ، وقيل: السَّيِّءُ الخُلُق. تعني: أنه لسوء خلقه إنْ ذكرتْ ما فيه طلَّقها ، وإن سكتت تركها معلقة ، لا أَيِّماً ، ولا ذات بَعْلٍ ، ضائعةً» ، وعلى معنىٰ الطويل ، قال النووي: «ليس فيه أكثر من طول بلا نفعٍ» وانظر معاني أخرىٰ في الفتح (٩/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).

قالت الرابعةُ: زَوْجي: كَلَيْلِ تِهَامَةَ، لا حَرٌّ ولا قُرٌّ، ولا مَخَافَةَ ولا سَآمَةَ[١].

قالتِ الخامسةُ: زَوْجِي: إِنْ دَخَلَ فَهِدَ[٢]، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ[٣]، وَلاَ يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ[٤].

قالتِ السادسةُ: زَوْجِي: إِنْ أَكَلَ لَفَّ[٥]، وإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ[٦]، وَإِنْ اضْطَجَعَ الْتَفَّ[٧]، ولا يُولِجُ الكَفَّ، لِيَعْلَم البَثَّ[٨].

---

(١) قال النووي: «هذا مدح بليغ، معناه: ليس فيه أذىً؛ بل هو راحة، ولذاذة عيش كَلَيْلِ تِهامة، لذيذ معتدل، ليس منه حَرٌّ، ولا بَرْدٌ مُفْرِطٌ، ولا أخاف له غائلة؛ لكرم أخلاقه، ولا يسأمني، وَيَملُّ صحبتي». و«تِهامة»: تطلق على الأرض المنكفئة إلى البحر الأحمر من الشرق من العقبة في الأُرْدُنِّ إلى «المخا» في اليمن، وفي اليمن تسمىٰ: تِهامة اليمن، وفي الحجاز تسمىٰ: تهامة الحجاز، ومنها: مكة المكرمة، وجُدَّةُ، والعقبةُ، وقد ينسب رسول الله ـ ﷺ ـ إليها، فيقال: التهامي. قاله أستاذنا البحاثة محمد شُرَّاب في المعالم الأثيرة ص: (٧٣)، وانظر الفتح (٩/ ٢٦١).

(٢) (إنْ دخل فَهِدَ): أي نام وغفل عن معايب البيت التي يلزمني إصلاحها، تصفه بالكرم وحسن الخلق (شرح السنة: ٩/ ١٧٣)، وانظر معاني أخرى في الفتح (٩/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

(٣) (وإن خرج أَسِدَ): قال النووي: «هو وصف له بالشجاعة، ومعناه: إذا صار بين الناس، أو خالط الحربَ، كان كالأسَدِ».

(٤) (ولا يسأل عمَّا عَهِدَ): أي عَمَّا رأى في البيت، من طعام مأكولٍ؛ لسخائه، وسعة قلبه (شرح السنة: ٠/ ١٧٣)، وانظر معاني أخرى في الفتح (٩/ ٢٦٢).

(٥) (إن أكل لَفَّ): اللَفُّ: الإكثار من الطعام مع التخليط، أرادت: أنه يخلط صنوف الطعام من نهمته، وشَرَهِهِ، ثم لا يُبقي منه شيئاً.

(٦) (اشْتَفَّ): أي شرب ما في الإناء كله، فلم يُبْقِ شيئاً (شرح السنة: ٩/ ١٧٣).

(٧) (وإن اضطجع الْتَفَّ): أي رقد ناحيةً، وتلفَّفَ بكسائه وحده، وانقبض عن أهله إعْراضاً، فهي كئيبةٌ لذلك (الفتح: ٩/ ٢٦٣).

(٨) (ولا يولج الكَفَّ ليعلمَ البَثَّ): أي لا يمد يده ليعلم ما هي عليه من الحزن فيزيله، ويحتمل أن تكون أرادت؛ أنه ينام نوم العاجز الفشل الكسل، وصفته بقلة الشفقة عليها، وأنه إنْ لو رآها عليلة لم يدخل يده في ثوبها ليتفَقَّد خبرها، كعادة الأجانب، فضلاً عن الأزواج، أو هو كناية عن ترك الملاعبة، أو عن تركِ الجماعِ، وقد جمعت في وصفها له بين اللُّؤْم والبخل والمهانة وسوء العشرة مع أهله، وانظر الفتح (٩/ ٢٦٣).

قالتِ السابعةُ: زَوْجي: عَيَايَاءُ[1] ـ أَو غَيايَاءُ[2] ـ طَبَاقَاءُ[3]. كُلُّ دَاءٍ لَهُ داءٌ[4]. شَجَّكِ، أَوْ فَلَّكِ، أَوْ جَمَعَ كُلاًّ لَكِ[5].

قالت الثامنة: زَوْجي: المَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ، والرِّيْحُ رِيْحُ زَرْنَبٍ[6].

قالتِ التاسعةُ: زَوْجي: رَفِيْعُ العِمَادِ، عَظِيْمُ الرَّمَادِ، طَوِيْلُ النِّجادِ[7]، قرِيْبُ البَيْتِ مِنَ النَّادِ[8].

---

(١) (عَيَايَاءُ): العِنِّينُ العاجز عن مباضعة النساء (شرح السنة: ٩/ ١٧٤).

(٢) (غَيَايَاءُ): قال النووي: «قال القاضي وغيره: غياياء مأخوذ من الغياية، وهي الظُّلْمَةُ، وكُلُّ ما أَظَلَّ الشخصَ، ومعناه: لا يهتدي إلى مسلكٍ، أو أنها وصفته بثقل الروح، وأنه كالظلِّ المتكاثف المظلم الذي لا إشراقَ فيه، أو أنها أرادت: أنه غطيت عليه أموره. أو يكون غياياء من الغَيِّ، وهو الانهماك في الشر، أو من الغي الذي هو الخيبة...».

(٣) (طَباقاء): هو المُطْبَقُ عليه حُمْقاً. وقيل: هو الذي أموره مُطْبِقَةٌ عليه، أي: مُغَشَّاة، وقيل: هو الذي يَعْجِزُ عن الكلام فتنطبق شَفَتَاهُ (النهاية)، وانظر معاني أخرى في الفتح (٩/ ٢٦٤).

(٤) (كُلُّ داءٍ له دَاءٌ): أي كل عيب يكون في الرجال، فهو فيه (شرح السنة: ٩/ ١٧٥)، ويحتمل أن يكون معناه: كل داءٍ فيه في غاية التناهي (الفتح: ٩/ ٢٦٤).

(٥) (شَجَّكِ، أو فَلَّكِ، أو جمع كُلاًّ لَكِ): تقول: إذا غضب، لم يَمْلِكْ نفسه، فإمَّا أن يشج رأسي، أو يكسر عضواً من أعضائي، أو يجمعهما عَلَيَّ. وقيل: فَلَّكِ، أي كَسَرَكِ بالخصومة والعذل، وقولها: «أو جمع كُلاًّ لكِ» أي: جمع الضرب والخصومة لك.

(٦) (المَسُّ مَسُّ أرنبٍ والريح ريح زَرْنَبٍ): الزرنبُ: نوع من الطيب. تريد: زوجي لَيِّنُ العريكة، شبهته بالأرنب في لين مَسِّهِ، وتريد بالريح: طيب ريح جسده، ويجوز أن تريد طيب الثناء في الناس، تقول: هو طيب الذكر، أو العِرْض (شرح السنة: ٩/ ١٧٥)، وانظر الفتح (٩/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

(٧) (رفيع العماد، عظيم الرَّمادِ، طويل النِّجاد): كَنَتْ عن ارتفاع بيته في الحسب برفعة عماده، وكَنَتْ عن طول قامته بطول نجاده، وهو حمائل سيفه؛ فإنها إذا طالت دَلَّتْ على طول قامته، وكَنَتْ عن إكثاره القِرَىٰ بكثرة رماده وعِظَمِهِ؛ لأن مَنْ كثر إطعامُهُ كَثُرَتْ نارُهُ، ومَنْ كثرت نارُهُ كثر رَمَادُهُ (جامع الأصول: ٦/ ٥١٣)، وانظر الفتح (٩/ ٢٦٥).

(٨) (قريب البيت من النادِ): الناد: وقفت عليها بالسكون لمؤاخاة السجع. قال في النهاية: =

قالتِ العاشرةُ: زَوْجي: مَالِكٌ، وَمَا مَالِكٌ[1]؟ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذٰلكَ. له إِبِلٌ كَثِيرَاتُ المَبَارِكِ[2]، قَلِيلَاتُ المَسَارِحِ[3]. إذا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوالِكُ[4].

قالت الحادية عَشْرَةَ[5]: زَوْجِي: أَبُو زَرْعٍ، فَمَا أَبُو زَرْعٍ؟ أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ[6]، وَمَلأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ[7]، وَبَجَّحَنِي، فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي[8].

= «النادي. مجتمع القوم، وأهل المجلس، فيقع على المجلس وأهله. تقول: إن بيته وسَط الحِلَّة ـ أي: مجتمع الناس ـ أو قريباً منه؛ ليغشاه الأضياف والطُّرَّاقُ»، وانظر الفتح (٩/ ٢٦٥).

(١) (مالكٌ وما مالِكٌ؟): قولها: «وما مالكٌ؟» تعظيم لأمره وشأنه، وأنه خير مما يذكر به من الثناء عليه (جامع الأصول: ٦/ ٥١٣)، وانظر الفتح (٩/ ٢٦٦).

(٢) (المَبَارِك): جمع مبرك، وهو موضع نزول الإبل.

(٣) (المسارح): جمع مسرح، وهو الموضع الذي تطلق لترعىٰ فيه. قال النووي: «ومعناه أن له إبلاً كثيراً، فهي باركة بفنائه، لا يوجهها تسرح إلاَّ قليلاً، قَدْرَ الضرورة، ومعظم أوقاتها تكون باركة بفنائه، فإذا نزل به الضيفان كانت الإبل حاضرةً، فيقريهم من ألبانها ولحومها».

(٤) (إذا سمعن صوت المِزْهَر أَيْقَنَّ أنهنَّ هَوَالِك): المِزْهَرُ: آلة من آلات اللهو، وقيل: هو العود، وقيل: دُفٌّ مُرَبَّعٌ (الفتح: ٩/ ٢٦٦). قال النووي رحمه الله: «أرادت أنَّ زوجَها عوَّد إبله إذا نزل به الضيفان نحر لهم منها، وأتاهم بالعيدان والمعازف والشراب، فإذا سمعت الإبل صوت المِزْهَرِ علمن أنه قد جاءه الضيفانُ، وأنهن منحوراتٌ هوالِكُ»، وانظر الفتح (٩/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٥) (قالت الحاديةَ عَشْرَة): في رواية الزبير: وهي أم زرع بنت أكيمل بن ساعدة (الفتح: ٩/ ٢٦٧).

(٦) (أناسَ من حُليٍّ أُذُنَيَّ): أَناسَ: حَرَّكَ، وقال ابن السكِّيت: أناس: أي أثقل حتى تدلَّى واضطرب. قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٦٧): «المراد: أنه ملأ أذنيها بما جرت عادة النساء من التحلِّي به...».

(٧) (وملأ مِنْ شحم عَضُديَّ): قال البغوي: «تريد: أحْسَنَ إليَّ حتى سمنتُ، ولم ترد العضد خاصةً؛ بل أرادت الجسد كله».

(٨) (وبَجَّحني فبجحت إليَّ نفسي): المعنى: أنه فَرَّحها ففرحت. وقال ابنُ الأنباري: المعنىٰ: عَظَّمني فعظمت إليَّ نفسي. وقال ابن السِّكِّيت: المعنى: فخرني ففخرتُ. =

وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ[1] بِشَقٍّ[2] ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ ، وأَطِيطٍ ، وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ[3] ؛ فَعِنْدَهُ أَقُولُ فلا أُقَبَّحُ[4] ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ[5] ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَمَّحُ[6] .
أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ؟ عُكُومُها رَدَاحٌ[7] ، وبَيْتُها فَسَاحٌ[8] .

= وقال ابن أبي أُوَيس: معناه: وسَّعَ عليَّ وترفني (الفتح: ٩/ ٢٦٧).

(١) (وجدني في أهل غُنَيْمَةٍ): معناه: وجدني في أهلٍ ليس لهم من المال إلاَّ الغنم ، وهي قليلة. قال النووي: والعرب لا تعتد بأصحاب الغَنَمِ ، وإنما يعتدُّون بأهل الخيل والإبل.

(٢) (بِشَقٍّ): قال ابن الأنباري: هو بالفتح والكسر: موضعٌ. وقال ابن قُتيبةَ ونِفْطَوَيه: بِشِقٍّ ، بالكسر: أي بشظف من العيش وجهد. وقال ابن أبي أُويس وغيره: يعني: بشق جبل: لِقِلَّتِهِمْ ، وقِلَّة غنمهم. وشِقُّ الجبل: ناحيتُهُ ، وانظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٥/ ٢١٧) ، والفتح: (٩/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

(٣) (فجعلني في أهل صَهِيلٍ ، وأَطِيطٍ ، ودَائِسٍ ، ومُنَقٍّ): الصهيل: صوت الخيل ، والأطِيطُ: صوت الإبل ، والدائِسُ: دائِسُ الطعام ليخرجه من سنبله ، والمُنَقِّي بفتح النون: هو الذي يُنَقِّي الطعام ويراعي تنظيفه ، أرادت: أنه نقلها إلىٰ أهل خيلٍ وإبلٍ وزرع وخَدم ، وأهل الحديث يَرْوُونه: «ومُنِقٍّ» بكسر النون. قال الهروي: قال أبو عبيد: لا أعرفه ، وقال الهروي: قال إسماعيل بن أبي أُوَيس ، عن أبيه: المُنِقُّ ـ بكسر النون ـ من نقيق أصوات المواشي والأنعام ، تصفه بكثرة أمواله ، والذي قرأنا في كتاب البخاري ومسلم: «مُنَقٍّ» بفتح النون (جامع الأصول: ٦/ ٥١٤). قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٦٨): والحاصل أنها ذكرت أنه نقلها من شظفِ عيش أهلها إلى الثروة الواسعة من الخيل والإبل والزرع وغير ذلك.

(٤) (أقول فلا أُقَبَّحُ): أي لا يقال: قَبَّحَكِ الله ، ويقبل قولي فيما أقوله (جامع الأصول: ٦/ ٥١٥). قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٦٨): «أي لكثرة إكرامه لها ، وتدللها عليه ، لا يردُّ لها قولاً ، ولا يقبح عليها ما تأتي به.

(٥) (وأرقد فأتصبَّح): أي أنام الصبحة ، وهي بعد الصباح ، أي: أنها مكفيَّةٌ بمن يخدمها فتنام (شرح صحيح مسلم للنووي: ١٥/ ٤١٨).

(٦) (وأشربُ فأتقمَّحُ): أي أَرْوىٰ حتى لا أشرب (الفتح: ٩/ ٢٦٨).

(٧) (عُكومها رَدَاح): العُكومُ: الأعدال والأوعية التي فيها الطعام والأمتعة ، واحدُها: عِكْمٌ بكسر العين ، ورَدَاح: أي عِظامٌ كبيرة (شرح صحيح مسلم للنووي: ١٥/ ٢١٨) ، وانظر الفتح: (٩/ ٢٦٩).

(٨) (فَسَاح): ضبطه النووي في شرح صحيح مسلم (١٥/ ٢١٨) ، والحافظ في الفتح =

ابْنُ أَبِي زَرْعٍ ، فما ابْنُ أَبِي زَرْعٍ؟ مَضْجِعُهُ[1] كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ[2] ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَةِ[3].

بِنْتُ أبِي زَرْعٍ ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ؟ طَوْعُ أَبِيْها ، وطَوْعُ أُمِّها[4] ، وَمِلْءُ كِسَائِها[5] ، وغَيْظ جَارَتِها[6].

جَارِيَةُ[7] أَبِي زَرْعٍ ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ؟ لا تَبُثُّ حَدِيْثَنَا تَبْثِيْثاً[8] ،

= (٩/ ٢٦٩) بفتح الفاء ، أي: واسع ، وفي «النهاية» بضم الفاء. قال ابن الأثير: «بيت فسيح وفُساح ، كطويل وطُوال».
وقال الحافظ في الفتح: «وصفت والدة زوجها بأنها كثيرة الآلات والأثاث والقماش ، واسعة المال ، كبيرة البيت ، إمَّا حقيقة فيدل ذلك على عظم الثروة ، وإما كناية عن كثرة الخير ، ورغد العيش ، والبِرِّ بمن ينزل بهم».

(١) (مَضْجِعُهُ): أي موضع نومه.

(٢) (كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ): المَسَلُّ: هي ما شُطِب من جريد النخل ، أي: شُقَّ ، وهي السَّعَفَةُ ، لأن الجريدة تشقق منها قضبان رِقاقٌ. مُرادُها: أنه مُهَفْهَفٌ خفيف اللحم ، كالشَّطْبَةِ ، وهو بما يمدح به الرجل. والمَسَلُّ ـ هنا ـ مصدر بمعنىٰ المسلول ، أي: ما سُلَّ مِنْ قشره.
وقال ابن الأعرابي وغيره: أرادت بقولها: «كمسَلِّ شَطْبَةٍ»: أنه كالسيف سُلَّ مِنْ غِمْدِه (شرح صحيح مسلم للنووي: ١٥/ ٢١٩ باختصار يسير) ، وانظر الفتح (٩/ ٢٧٠).

(٣) (ويشبعه ذراع الجفرة): الجَفْرَةُ: الأنثىٰ من أولاد الغنم ، وقيل: من أولاد المَعْز إذا بلغ أربعة أشهر وفُصِلَ (جامع الأصول: ٦/ ٥١٥) ، وقال النووي: «المرادُ: أنه قليل الأكل ، والعرب تمدح به».

(٤) (طوع أبيها وطوع أمها): أي إنها بارَّةٌ بهما (الفتح: ٩/ ٢٧٠).

(٥) (مِلْءُ كِسائها): أي ممتلئة الجسم سمينة (شرح صحيح مسلم للنووي: ١٥/ ٢١٩) ، وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٧٠): «كناية عن كمال شخصها ، ونعمة جسمها».

(٦) (وغيظ جارتها): قال البغوي: «أي: تحسدها جارتها لجمالها وكمالها»، وقال النووي: «قالوا: المراد بجارتها ضَرَّتُها ، أو هو علىٰ حقيقته لأن الجاراتِ من شأنهنَّ ذلك.

(٧) (الجارية): الخادمة.

(٨) (لا تبثُّ حديثنا تبثيثاً): قال البغوي: «أي لا تشيعه ولا تنمُّ». قال في جامع الأصول: (٦/ ٥١٦): «وصفتها بأنها لا تفشي لهم سِرّاً».

وَلاَ تُنَقِّثُ مِيرَتَنا تَنْقِيثاً[1] ، ولا تَمْلأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشاً[2] .

قَالَتْ : خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ والأَوْطَابُ تُمْخَضُ[3] ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَها وَلَدانِ لَها كَالْفَهْدَيْنِ[4] ، يَلْعَبانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِها بِرُمَّانَتَيْنِ[5] ، فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَها ، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلاً سَرِيّاً[6] ، رَكِبَ شَرِيّاً[7] ، وَأَخَذَ خَطِّيّاً[8] ،

---

(١) (ولا تنقث ميرتنا تنقيثاً): قال النووي: «الميرةُ: الطعام المجلوب ، ومعناه: لا تفسده ، ولا تفرقه ، ولا تذهب به ، ومعناه: وصْفُها بالأمانة».

(٢) (ولا تملأ بيتنا تعشيشاً): قال البغوي: «أرادت أنها لا تخوننا في الطعام ، فتخبأ في كل زاوية شيئاً ، كالطير تعشش في مواضع شتى. وقيل: أراد أنها تَقُمُّ البيت ، ولا تدع فيه القمامة ، فيصير مثل عُشِّ الطائر» ، أي: في قِلَّةِ نظافته ، وجاء في رواية: «تغشيشاً» بدل «تعشيشاً» قال في النهاية: «هو من الغِشّ» وقيل: هو من النميمة».

(٣) (والأوطابُ تُمْخَضُ): الأوطابُ: جمع وَطْبٍ ، وهو سقاء اللبن ، ومَخْضُها: استخراج الزبد من اللبن بتحريكها (جامع الأصول: ٦/٥١٦) ، وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٧٣): «وانطوىٰ في خبرها كثرة خير داره ، وغزر لبنه ، وأن عندهم ما يكفيهم ويَفْضُلُ حتى يمخضوه ، ويستخرجوا زبده ، ويحتمل أن يكون أنها أرادت أن الوقت الذي خرج فيه كان في زمن الخِصْبِ ، وطيب الربيع ، قلت ـ القائل ابنُ حَجَرٍ ـ: وكأن سبب ذكر ذلك توطئة للباعث علىٰ رؤية أبي زرع للمرأة على الحالة التي رآها عليها ، أي أنها مِنْ مَخْضِ اللبن تعبت ، فاسْتَلْقَتْ تستريح ، فرآها أبو زرع على ذلك».

(٤) (فلقي امرأة معها ولدان لها كالفَهْدَيْنِ): قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٧٣): «وفائدة وصفها لهما التنبيه على أسباب تزويج أبي زرع لها ، لأنهم كانوا يرغبون في أن تكون أولادهم من النساء المنجبات ، فلذلك حرص أبو زرع عليها لمّا رآها».

(٥) (بِرُمَّانتين): قال النووي: «قال أبو عُبيد: معناه أنها ذات كِفْلٍ عظيم ، فإذا استلقت على قفاها ، نتأ الكِفْلُ بها من الأرض ، حتى تصير تحتها فجوة يجري فيها الرمَّانُ. قال القاضي ـ أي عِيَاضٌ اليحصبي ـ: قال بعضهم: المراد بالرمَّانتين ـ هنا ـ ثدياها ، ومعناه: أن لها نهدين حسنين صغيرين كالرمَّانتين. قال القاضي: هذا أَرْجَحُ» ، وانظر الفتح (٩/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤).

(٦) (سَرِيّاً): أي نفيساً شريفاً. وقيل: سَخِيّاً ذا مروءة (النهاية).

(٧) (ركب شريّاً): أي ركب فرساً يستشري في سيره ، يعني: يَلِجُّ ويجدُّ. وقيل: الشَّرِيُّ: الفائق الخِيارُ (النهاية).

(٨) (وأخذ خَطِّيّاً): الخَطِّيُّ: من أسماء الرماح (جامع الأصول: ٦/ ٥١٧).

وَأَرَاحَ[1] عَلَيَّ نَعماً[2] ثَرِيّاً[3] ، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجاً[4] ، وَقَالَ: كُلِي أُمَّ زَرْعٍ! ومِيرِي أَهْلَكِ[5]، فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيء أَعْطَانِيْه، مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ[6].

قالتْ عائِشَةُ: فقالَ لي رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ: «كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ» قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٧٥): «زاد في رواية الهيثم بن عدي: «فِي الإِلْفَةِ وَالْوَفَاءِ ، لا فِي الفُرْقَةِ والجَلاَءِ.

---

(١) (وأراح): قال في الفتح (٩/ ٢٧٤): «معناه: أتى بها إلى المراح ، وهو موضع مبيت الماشية. قال ابن أبي أُوَيس: معناه؛ أنه غزا فغنم ، فأتىٰ بالنَّعَمِ الكثيرة.

(٢) (نَعَمَاً): بفتحتين ، وهو جمع لا واحد له من لفظه ، هو الإبل خاصةً ، ويطلق على جميع المواشي إذا كان فيها إبل ، وفي رواية حكاها عِيَاضٌ: «نِعَماً» بكسر أوله ، جمع نعمةٍ ، والأول أشهر (الفتح: ٩/ ٢٧٤).

(٣) (ثَرِيّاً): أي كثيرة ، والثريُّ: المال الكثير من الإبلِ وغيرها (الفتح: ٩/ ٢٧٤).

(٤) (وأعطاني من كل رائحة زوجاً): قال النووي: «فقولها: مِنْ كل رائحة زوجاً» أي: مما يروح من الإبل والبقر والغنم والعبيد ، وقولها: «زَوجاً»: أي اثنين ، ويحتمل أنها أرادت صِنْفاً ، والزوج: يقع على الصنف».

(٥) (مِيري أَهْلَكِ): أي أعطيهم وصِلِيهم ، وأَوْسعي عليهم بالمِيرة ـ بكسر الميم ـ وهي الطعام. قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٧٥): «والحاصل أنها وصفته بالسؤدد في ذاته ، والشجاعة ، والفضل ، والجود بكونه أباح لها أن تأكل ما شاءت من ماله ، وتهدي منه ما شاءت لأهلها ، مبالغةً في إكرامها ، ومع ذلك كانت أحوالُهُ عندها محتقرة بالنسبة لأبي زرع. . .».

(٦) (ما بلغ أصغر آنية أبي زرع): أي ما ملأ أصغرها ، وهو مبالغة في إكرام أبي زرع لها. قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٧٥): «ويظهر لي حمله على معنى غير مستحيل ، وهي أنها أرادت أن الذي أعطاها جملة ، أراد بأنها توزعه على المدة ، إلى أن يجيء أوان الغزو ، فلو وزَّعَتْهُ ، لكان حظ كل يوم مثلاً ، لا يملأ أصغر آنية أبي زرع التي كان يطبخ فيها ، في كل يوم ، علىٰ الدوام والاستمرار ، بغير نقصٍ ولا قطع». وقد استنبط العلماء من هذا الحديث فوائد جليلة ، انظرها في شرح صحيح مسلم للنووي (١٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) ، والفتح (٩/ ٢٧٥ ـ ٢٧٧).

وزاد الزُّبير في آخره: «إِلاَّ أَنَّهُ طَلَّقَها وإِنِّي لاَ أُطَلِّقُكِ» ، ومثله في رواية الطبراني.

وزاد النسائيُّ فِي رواية له ، والطبرانُّي: «قَالَتْ عَائِشَةُ: يا رسولَ اللهِ! بَلْ أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَبي زَرْع».

وفي أول رواية الزُّبير: «بِأَبي وأُمِّي! لأَنْت خَيْرٌ لِي مِنْ أبي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ».

* * *

أَفِيْكَ يا رَسُولَ اللهِ! أَسْتَشِيْرُ أَبَوَيَّ؟

أخرج الإمام مسلم في صحيحه برقم (١٤٧٨) عن جابر بن عبد الله ، قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ـ ﷺ ـ ، فوجد الناسَ جلوساً ببابه . لم يُؤْذَنْ لأحدٍ منهم .

قال : فَأَذِنَ لأبي بكرٍ ، فدخل . ثم أقبل عُمَرُ ، فاستأذنَ ، فَأَذِنَ له ، فوجد النبيَّ ـ ﷺ ـ جالساً ، حَوْلَهُ نِساؤُهُ واجماً[١] ساكتاً .

قال فقال : لأقولَنَّ شَيئاً أُضْحِكُ[٢] النبيَّ ـ ﷺ ـ . فقال : يا رسولَ اللهِ! لو رأيت بِنْتَ خَارِجَةَ[٣]! سألتني النفقة ، فقمت إليها فوجأتُ[٤] عنقها .

فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : «هُنَّ حَوْلي كَما تَرى . يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ» .

فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عُنُقَهَا . فقام عمرُ إلى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقُهَا . كلاهما يقول : تَسْأَلْن رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ ما ليس عِنْدَهُ؟

---

(١) (واجماً) : الواجِمُ : هو الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام . وفي جامع الأصول (١١ / ٤٢٤) : «الواجم : المطرق الساكت كأنه مُفَكِّرٌ» .

(٢) قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٠ / ٨١) : «فيه استحباب مثل هذا ، وأن الإنسان إذا رأى صاحبه مهموماً حزيناً ، يستحب له أن يحدثه بما يضحكه ، أو يشغله ، ويطيب نفسه ، وفيه فضيلة لأبي بكر الصديق ، رضي الله عنه» .

(٣) (بنت خارجة) : هي زوج أبي بكر الصديق ، واسمها : حبيبة بنت خارجة بن زيد . وقيل : مُلَيكة . انظر ترجمتها في أسد الغابة وغيره .

(٤) (وجأْتُ) : طَعَنْتُ .

فَقُلْنَ: واللهِ! لا نسألُ رسول الله ـ ﷺ ـ شيئاً أبداً ليس عنده. ثم اعْتَزَلَهُنَّ شَهْراً، أو تسعاً وعشرينَ. ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ حتى بلغ ﴿ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

قال: فبدأ بعائشةَ، فقال: «يا عائِشَةُ! إِنِّي أُريد أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْراً، أُحِبُّ أَنْ لا تَعْجَلِي فِيْهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ»[١].

قالت: وما هو؟ يا رسول الله! فتلا عليها الآية. قالت: أَفِيْكَ يا رسولَ اللهِ! أَستشيرُ أَبَوَيَّ؟

بَلْ أَخْتارُ اللهَ ورسولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ. وأسألكَ أَنْ لا تُخْبِرَ امرأةً مِنْ نسائك بالذي قُلْتُ.

قال: «لا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلاَّ أَخْبَرْتُها. إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتاً[٢] ولا مُتَعَنِّتاً[٣]، ولكنْ بَعَثَنِي مُعَلِّماً مُيَسِّراً».

وروىٰ البخاري في النكاح (٥١٩١) ـ واللفظ له ـ ومسلم في الطلاق (١٤٧٩) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لم أَزَلْ حَرِيصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المَرْأَتَيْنِ من أزواج النبي ـ ﷺ ـ اللَّتَيْنِ قال الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا ﴾[٤] [التحريم: ٤] حتى حَجَّ وحَجَجتُ معه، وعَدَلَ[٥]، وَعَدَلْتُ مَعَهُ بإداوةٍ[٦]، فتبرَّزَ، ثم جاء، فَسَكَبْتُ على يديه منها فتوضَّأَ.

---

(١) (أبويك): المراد بهما الأب والأم، وقيل لهما أبوان على التغليب.

(٢) (مُعَنِّتاً): أي مُشَدِّداً على الناس، وملزماً إياهم ما يصعب عليهم.

(٣) (مُتَعَنِّتاً): أي طالباً زَلَّتهم. وأصل العَنَتِ: المَشَقَّةُ.

(٤) الخطاب لعائشة وحفصة، أي: إن تتوبا إلى الله، فقد مالت قلوبكما إلى التوبة من التظاهر على النبيّ ﷺ (زبدة التفسير للدكتور الأشقر).

(٥) (وعَدَلَ): أي عن الطريق الجادة المسلوكة إلى طريق لا يسلك غالباً، ليقضي حاجته (الفتح: ٩/ ٢٨٠).

(٦) (بإداوة): الإداوة: إناء صغير يحمل فيه الماء (الوسيط).

فقلت له: يا أميرَ المؤمنينَ! مَنِ المرأتانِ من أزواج النبي ـ ﷺ ـ اللتان قال الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾؟ [التحريم: ٤].

قال: واعجباً لك، يا ابن عباسٍ[(١)]! هما: عائشةُ وحَفْصَةُ. ثم استقبلَ عمرُ الحديث يسوقُه[(٢)].

قال: كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار[(٣)] في بني أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ[(٤)]، وهم من عوالي المدينة[(٥)]، وكنا نتناوب[(٦)] النزولَ على النبي ـ ﷺ ـ فينزلُ يوماً وأنزلُ يوماً، فإذا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بما حَدَثَ من خبر ذلك اليوم من الوَحْي، أو غَيْره[(٧)]، وإذا نَزَلَ فعل مثلَ ذلك، وكنا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّساءَ[(٨)]، فلما قَدِمْنا على الأنصار، إذا قوم تَغْلِبُهُمْ نساؤهم، فَطَفِقَ نساؤُنا[(٩)] يَأْخُذْنَ مِنْ أَدَبِ نِساءِ الأنصارِ[(١٠)]. فَصَخِبْتُ[(١١)] على امرأَتِي، فَرَاجَعَتْنِي[(١٢)].

---

(١) قيل: إن عمر تعجب من ابن عباسٍ كيف خفي عليه هذا مع اشتهاره عنده بمعرفة التفسير، أو عجب من حرصه على تحصيل التفسير بجميع طرقه حتى في تسمية من أبهم فيه، وهو حجة ظاهرة في السؤال عن تسمية من أُبهم أو أهمل (الفتح: ٥/ ١١٧).

(٢) (ثم استقبل عمر الحديث يسوقه): أي القصة التي كانت سبب نزول الآية المسؤول عنها.

(٣) اسم الجار المذكور: أَوْسُ بن خَوْلي (الفتح: ٩/ ٢٨١).

(٤) (في بني أمية بن زيد): أي ناحية بني أمية، سميت البقعة باسم مَنْ نزلها (الفتح: ١/ ١٨٥).

(٥) (عوالي المدينة): العوالي: جمع عالية. وهي قُرًى بقرب المدينة مما يلي المشرق وكانت منازل الأوْس (الفتح: ٩/ ٢٨١) وهي اليوم من أحياء المدينة المنورة ولا زال يطلق عليها اسم: العوالي. انظر المعالم الأثيرة ص: (١٨٥).

(٦) (نتناوب): التناوب: هو أن تفعل الشيء دفعةً، ويفعله الآخر دفعةً أخرى، مَرَّةً بعد مَرَّة (جامع الأصول: ٢/ ٤٠٩).

(٧) أي من الحوادث الكائنة عند النبيّ ﷺ.

(٨) أي نحكم عليهنَّ، ولا يحكمن علينا، بخلاف الأنصار، فكانوا بالعكس من ذلك.

(٩) (فطفق): أي جعل أو أخذ. قال في الفتح: «والمعنى أنهن أخذن في تعلم ذلك».

(١٠) (من أدب نساء الأنصار): أي من سيرتهن وطريقتهن.

(١١) (الصَّخَبُ): الزجر من الغضب.

(١٢) (فراجعتني): أي تدخَّلَتْ في أمْرٍ أريده. ومراجعة الكلام: مرادَّتُهُ برجع =

فأَنْكَرْتُ أَنْ تُراجِعَنِي[1].

قالت: ولِمَ تُنْكِرُ أَنْ أُراجِعَكَ؟ فوالله! إِنَّ أزواج النبي - ﷺ - لَيُرَاجِعْنَهُ، وإِنَّ إِحْداهُنَّ لَتَهْجُرُهُ اليومَ حتَّى الليلَ. فَأَفْزَعني ذلك، فقلت لها: قد خاب[2] مَنْ فعل ذلك منهنَّ.

ثم جَمَعْتُ ثيابي[3]، فنَزَلْتُ، فَدَخَلْتُ على حَفْصَةَ[4]، فقلت لها: أَيْ حَفْصَةُ! أَتُغاضِبُ إحداكُنَّ النبيَّ - ﷺ - اليومَ حتى اللَّيْلِ؟

قالت: نعم.

فَقُلْتُ: قد خِبْتِ وخَسِرْتِ، أفتأمنينَ أَنْ يَغْضَبَ اللهُ لغضبِ رسولِ اللهِ - ﷺ - فَتَهْلَكي؟ لا تستكثري النبيَّ[5] - ﷺ - ولا تُراجِعيه في شيء[6]، ولا تَهْجُريه[7]، وسليني ما بدا لكِ. ولا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كانت جارَتُكِ[8] أَوْضَأَ[9] مِنْكِ، وَأَحبَّ إلى النبيِّ[10] - ﷺ - يريد عائشةَ.

= جوابه، أي: إعادته.

(١) (فأنكرت أن تراجعني): أي ترادني في القول، وتناظرني فيه.

(٢) (خاب): خسر.

(٣) (جمعت ثيابي): أي لبستها جميعها. قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٨٢): «فيه إيماء إلى أن العادة أن الشخص يضع في البيت بعض ثيابه، فإذا خرج إلى الناس لبسها».

(٤) يعني بنته. وبدأ بها لمنزلتها منه.

(٥) أي لا تطلبي منه الكثير.

(٦) أي لا ترادديه في الكلام، ولا تردِّي عليه قوله.

(٧) أي: ولو هجرك.

(٨) (جارتك): أي ضَرَّتكِ.

(٩) (أوضأ منكِ): أكثر منكِ وَضاءةً، والوضاءةُ: الحُسْنُ والنظافة، ومنه الوضوء (جامع الأصول: ٢/ ٤٠٩).

(١٠) قال في الفتح (٩/ ٢٨٣): «المعنى: لا تغتري بكون عائشة تفعل ما نهيتك عنه، فلا يؤاخذها بذلك؛ فإنها تدل بَجَمالها، ومحبة النبي - ﷺ - فيها، فلا تغترِّي أنت بذلك، لاحتمال أن لا تكوني عنده في تلك المنزلة، فلا يكون لكِ من الإدْلالِ مثل الذي لها».

قال عمر: وكنا قد تحدثنا أن غَسَّان[١] تُنْعِلُ الخيلَ[٢] لِتَغْزُوَنا. فنزل صاحبي الأنصاريُّ يومَ نَوْبَتِهِ. فرجع إلينا عِشاءً، فَضَرب بابي ضرباً شديداً[٣]، وقال: أَثَمَّ هُوَ[٤]؟ فَفَزِعْتُ[٥]، فخرجْتُ إليه، فقال: قد حدث اليوم أمر عظيم.

قلت: ما هُوَ؟ أجاء غسَّانُ؟

قال: لا، بل أعظمُ من ذلك وأَهْوَلُ[٦]. طَلَّقَ النبيُّ - ﷺ - نِساءَهُ وقال عُبَيْدُ بن حُنين سمع ابن عباس عن عمر فقال: اعتزل النبيُّ - ﷺ -، أزواجه، فقلت: خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرتْ.

وقد كنتُ أَظُنُّ هذا يُوشِكُ[٧] أنْ يكونَ.

فَجَمَعْتُ عَلَيَّ ثيابي، فصلَّيْتُ صلاة الفجر مع النبيِّ - ﷺ -، فدخل النبيُّ - ﷺ - مَشْرُبَةً[٨] له، فاعتزل فيها، ودخلت على حَفْصَةَ؛ فإذا هي تبكي، فقلت: ما يُبكيكِ؟ أَلَمْ أَكُنْ حَذَّرْتُكِ هذا؟ أَطَلَّقَكُنَّ النبيُّ، ﷺ؟

قالت: لا أدري، هاهو ذا مُعْتَزِلٌ في المَشْرُبَةِ، فخرجْتُ فجئت إلى المنبر، فإذا حوله رَهْطٌ[٩] يبكي بَعْضُهُمْ، فجلست معهم قليلاً، ثم غلبني

---

(١) قبيلة عربية كانت تسكن الشام، وتأتمر بأمر الروم، أعداء العرب وأعداء الإسلام.

(٢) أي تكسو حافر الخيل ما يقيه استعداداً للقتال.

(٣) وذلك لبطء إجابتهم له.

(٤) أي في البيت.

(٥) أي خفت من شدة ضرب الباب بخلاف العادة.

(٦) هو بالنسبة إلى عمر، لكون حفصة بنته منهنَّ.

(٧) (يوشك): أي يقرب، وذلك لما كان تقدم له من أن مراجعتهم قد تفضي إلى الغضب المفضي إلى الفُرْقةِ.

(٨) (مَشْرُبة): أي غرفة عالية (الفتح: ٥/١١٦).

(٩) (رَهْطٌ): الرهط من الرجال ما دون العشرة، وقيل إلى الأربعين، ولا تكون فيهم امرأة، ولا واحد له من لفظه، ويجمع على أَرْهُطٍ وأَرْهاطٍ، وأراهيطُ جمع الجمع (النهاية).

ما أَجِدُ[1] ، فجئتُ المَشْرُبَةَ التي فيها النبيُّ ـ ﷺ ـ فقلْتُ لغلامٍ له أَسْوَدَ[2]: استأْذِنْ لِعُمَرَ ، فدخل الغلامُ فكلَّم النبيَّ ـ ﷺ ـ ثم رجع ، فقال: كلَّمْتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ وذَكَرْتُكَ له ، فَصَمَتَ ، فانْصَرَفْتُ حتى جلست مع الرَّهْطِ الَّذِين عند المنبر.

ثم غلبني ما أَجِدُ ، فَجِئْتُ ، فقلتُ للغلام: استأذِنْ لِعُمَرَ ، فدخلَ ، ثم رجَعَ ، فقال: قد ذكرْتُكَ له ، فَصَمَتَ ، فَرَجَعْتُ ، فجلسْتُ مع الرَّهْط الَّذين عند المِنبر.

ثم غلبني ما أجد ، فجئتُ الغُلامَ؛ فقلت: استأذِنْ لِعُمَرَ ، فدخل ثم رَجَعَ إِليَّ؛ فقال: قد ذَكَرْتُكَ له ، فَصَمَتَ ، فلمَّا وَلَّيْتُ مُنْصرفاً ـ قال: إذا الغلامُ يَدْعُوني ـ فقال: قد أَذِنَ لك النبيُّ ـ ﷺ ـ.

فدخلتُ على رسول الله ـ ﷺ ـ؛ فإذا هو مُضْطَجِعٌ على رُِمَالِ حَصِيرٍ[3] ، ليس بينه وبينه فراشٌ ، قد أَثَّر الرِّمَال بجنبه ، متكئاً على وسادةٍ من أَدَمٍ ، حَشْوُها لِيفٌ ، فَسَلَّمْتُ عليه ، ثم قلت وأنا قائِمٌ: يا رسولَ اللهِ! أَطَلَّقْتَ نِساءَكَ؟ فرفع إليَّ بَصَرَهُ ، فقال: لا. فقلت: اللهُ أَكْبَرُ.

ثم قلت وأنا قائم أَسْتَأْنِسُ: يا رسولَ اللهِ! لو رأيتني وكُنَّا مَعْشَرَ قريشٍ نَغْلِبُ النِّساءَ ، فلما قدمنا المدينةَ ، إذا قومٌ تغلبهم نساؤُهم.

فتبسَّم النبي ـ ﷺ ـ. ثم قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ! لو رأيتَني وَدَخَلْتُ على حَفْصَةَ ، فقلْتُ لها: لا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كانت جَارَتُكِ أَوْضَأَ مِنْكِ ، وأَحَبَّ إلى النبيِّ

---

(١) (ثم غلبني ما أجد): أي من شغل قلبه بما بلغه من اعتزال النبي ـ ﷺ ـ نساءه ، وأن ذلك لا يكون إلاَّ عن غضبٍ منه ، ولاحتمال صحة ما أشيع من تطليقه نسائه ، ومن جملتهنَّ حفصةُ بنت عمر ، فتنقطع الوصلة بينهما ، وفي ذلك من المشقة عليه ما لا يخفى (الفتح: ٩/ ٢٨٧).

(٢) اسمه رَبَاح.

(٣) قال الخطَّابيُّ: «رُِمَالُ الحصير: ضلوعُهُ المتداخلة بمنزلة الخيوط في الثوب». وقال ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٤٠٩): «المراد: أنه لم يكن على السرير وطاءٌ سوى الحصير».

- ﷺ - يريد: عائشةَ، فتبسَّم النبيُّ - ﷺ - تَبَسُّمَةً أخرى، فجلسْتُ حين رأيته تبسَّم، فرفعت بصري في بيته[1].

فوالله! ما رأيت في بيته شيئاً يَرُدُّ البَصَرَ غَيْرَ أَهَبَةٍ[2] ثلاثة. فقلت: يا رسول الله! ادْعُ الله فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ؛ فإنَّ فارسَ والرومَ قد وُسِّعَ عليهم، وأُعْطُوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله!

فجلس النبي - ﷺ - وكان متكئاً، فقال: «أَوَفي هذا أَنْتَ يا ابْنَ الخَطَّابِ[3]؟ إنَّ أُولئكَ قَوْمٌ، قَدْ عُجلوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا».

فقلت: يا رسول الله! اسْتَغْفِرْ لي[4]. فاعتزل النبي - ﷺ - نساءه من أجل ذلك الحديث[5] حين أفشته حفصةُ إلى عائشةَ تسعاً وعشرين ليلةً.

وكان قال: «ما أنا بداخل عليهن شهراً» من شدة مَوْجِدَتِهِ[6] عليهنَّ حين عاتبه الله عز وجلَّ. فلما مضت تسع وعشرون ليلة، دخل على عائشة، فبدأ بها، فقالت له عائشة: يا رسول الله! إنَّكَ كنت قد أَقْسَمْتَ أَنْ لا تدخل علينا شهراً، وإنما أَصْبَحْتَ من تسع وعشرين ليلةً أَعُدُّها عَدّاً.

فقال: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وعشرونَ لَيْلَةً» فكان ذلكَ الشَّهْرُ تسعاً وعشرين ليلةً.

---

(١) أي نظرت فيه (الفتح: ٩/ ٢٨٨).

(٢) (أَهَبَة): جمع إهاب، وهو الجِلْدُ قبل الدباغ، وقيل: هو الجلد مطلقاً دبغ أو لم يدبغ، والذي يظهر أن المراد به هنا جلد شرع في دبغه، ولم يكمل، لقوله في رواية سماك بن الوليد: «فإذا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ». والأَفِيقُ - بوزن عَظيم - الجلد الذي لم يتم دباغه (الفتح: ٩/ ٢٨٨).

(٣) المعنى: أأنت في شَكٍّ في أن التوسع في الآخرة خيرٌ من التوسع في الدنيا؟

(٤) (استغفر لي): أي عن جراءتي بهذا القول في حضرتك، أو اعتقادي أن التجملات الدنيوية مرغوب فيها، أو عن إرادتي ما فيه مشابهة الكفار في ملابسهم ومعايشهم (الفتح: ٩/ ٢٨٩).

(٥) لاعتزاله ﷺ نساءه مجموعة أسباب ذكرها الحافظ في الفتح (٩/ ٢٨٩ - ٢٩٠).

(٦) (مَوْجِدَته): أي غضبه ﷺ.

قالت عائشة: ثم أنزل الله تعالى آية التَّخْيِيرِ[1]. فبدأ بي، أَوَّلَ امرأة من نسائه، فَاخْتَرْتُهُ. ثم خَيَّرَ نِساءَهُ كُلَّهُنَّ، فَقُلْنَ مِثْلَ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ.

وفي هذا الحديث من الفوائد: سؤال العالم عن بعض أمور أهله، وإن كان عليه فيه غضاضة، إذا كان في ذلك سنة تنقل، ومسألة تحفظ، قاله المُهَلَّبُ، قال: وفيه توقير العالم، ومهابته عن استفسار ما يخشى من تغيُّرِه عند ذكره، وترقب خلوات العالِم ليسأل عَمَّا لعلَّهُ لو سُئِلَ عنه بحضرة الناس أنكره على السائل، ويؤخذ من ذلك مُراعاةُ المروءَةِ.

• وفيه: أن شِدَّةَ الوَطْأَةِ علىٰ النساء مذمومٌ، لأن النبيَّ ـ ﷺ ـ أخذ بسيرة الأنصار في نسائهم، وترك سيرة قومه.

• وفيه: تأديب الرجل ولده صغيراً كان أو كبيراً، أو بنتاً مُزَوَّجةً، لأن أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ أدَّبا بِنْتَيْهِما.

• وفيه: سِيَاقُ القصة على وجهها وإنْ لم يسألِ السائلُ عن ذلكَ، إذا كان في ذلك مصلحة من زيادةِ شرحٍ وبيانٍ؛ وخصوصاً إذا كان العالم يعلم أَنَّ الطالب يُؤْثِرُ ذلك.

• وفيه: مهابة الطالب للعالم، وتواضع العالم له، وصبره علىٰ مساءلته، وإن كان عليه في شيء من ذلك غضاضة.

• وفيه: جواز ضرب الباب، ودَقِّهِ، إذا لم يسمع الداخل بغير ذلك. ودخول الآباء على البنات ولو كان بغير إِذْنِ الزوج، والتنقيب عن أحوالهنَّ، ولا سيمَّا ما يتعلق بالمتزوجات.

• وفيه: حسن تلطف ابن عبَّاسٍ، وشدةُ حرصه على الاطلاع على فنون التفسير.

---

(١) وهي قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

● وفيه: طلب عُلُوِّ الإسْنَادِ؛ لأن ابن عباسٍ أقام مدة طويلة ينتظر خَلْوَةَ عمر ليأخذ عنه وكان يمكنه أخذ ذلك بواسطة عنه، مِمَّنْ لا يهاب سؤالَهُ كما كان يهابُ عُمَرَ.

● وفيه: حرص الصحابة على طلب العلم، والضبط بأحوال الرسول ﷺ.

● وفيه: أن طالب العلم يجعل لنفسه وقتاً، يتفرَّغ فيه لأمر مَعَاشِهِ، وحال أَهْلِهِ.

● وفيه: البحث في العلم: في الطرق، والخلواتِ، وفي حال القعودِ، والمَشْيِ.

● وفيه: إيثار الاستجمار في الأسفار، وإبقاء الماء للوضوء.

● وفيه: ذكر العالم ما يقع من نفسه وأهله، بما يترتب عليه فائدة دينيَّةٌ، وإنْ كان في ذلك حكاية ما يستهجن، وجواز ذكر العمل الصالح لسياق الحديث على وجهه، وبيان ذكر وقت التَّحَمُّلِ.

● وفيه: الصبر على الزوجات، والإغضاء عن أخطائهن، والصفح عما يقع منهن من زَلَلٍ في حق المَرْءِ، دون ما يكون من حق الله تعالى.

● وفيه: جواز اتخاذ الحاكم عند الخلوة بوَّاباً، يمنع من يدخل إليه بغير إذنه.

● وفيه: أَنَّ للإمام أن يحتجب عن بطانته وخاصته عند الأمر يطرقه من جهة أهله، حتى يذهب غيظه، ويخرج إلى الناس، وهو منبسطٌ إليهم. فإن الكبير إذا احتجب لم يحسن الدخولُ إليه بغير إِذْنٍ، ولو كان الذي يريد أن يدخل جليل القَدْرِ، عظيمَ المنزلة عنده.

● وفيه: الرفق بالأصهار، والحياء منهم، إذا وقع للرجل من أهله ما يقتضي معاتبتهم.

● وفيه: أن السكوت قد يكون أبلغ من الكلام وأفضل في بعض الأحايين، لأنه عليه الصلاة والسلام لو أمر غلامه بِرَدِّ عُمَرَ، لم يَجُزْ لعمر العَوْدُ إلى

الاستئذان مرة بعد أُخرى ، فلمَّا سكت ، فَهِمَ عمرُ من ذلك أنه لم يؤثر رَدَّه مُطلقاً.

● وفيه : أن الحاجب إذا علم منع الإذن بسكوت المحجوب لم يأذَنْ.

● وفيه : مشروعية الاستئذان على الإنسانِ ، وإنْ كان وحده ، لاحتمال أن يكون على حالة يكره الاطلاع عليها.

● وفيه : جواز تكرار الاستئذان لمن لم يؤذن له ، إذا رَجَا حصولَ الإذن ، وأن لا يتجاوز به ثلاث مَرَّاتٍ.

● وفيه : ما كان عليه النبيُّ ﷺ من التقلُّلِ من الدنيا والزهادة فيها.

وفيه : أَنَّ كُلَّ لَذَّةٍ ، أو شهوةٍ ، قضاها المرءُ في الدنيا ، فهو استعجال له من نعيم الآخرة ، وأنه لو ترك ذلك لادخر له في الآخرة ، أشار إلى ذلك الطبري. واستنبط منه بعضهم إيثار الفقر على الغنى ، وخصَّهُ الطبريُّ بمن لم يصرفه في وجوهه ، ويفرقه في سُبُلِهِ التي أمر الله بوضعه فيها. قال : وأما مَنْ فعل ذلك فهو من منازل الامتحان ، والصبرُ على المِحَنِ ـ مع الشكر ـ أفضلُ من الصبر على الضرَّاء وحده.

● وفيه : أن حظَّ الكفار هو ما نالوه من نعيم الدنيا ، ولا حظَّ لهم في الآخرة.

● وفيه : أن المَرْءَ إذا رأى صاحبه مهموماً استحب له أن يحدثه بما يزيل هَمَّهُ ، ويطيب نفسه.

● وفيه : جواز الاستعانة في الوضوء بالصَّبِّ على المتوضِّيءِ فإن كانت لعذرٍ فلا بأس بها ، وإن كانت بغيره فهي خلاف الأَوْلى ، ولا يقال مكروهة على الصحيح ، وخدمة الصغير الكبير ، وإن كان الصغيرُ أشرفَ نسباً من الكبير.

● وفيه : التجمل بالثوب والعمامة عند لقاء الأكابر.

● وفيه : الخطاب بالألفاظ الجميلة ، كقوله : أَنْ كانت جارتك ولم يقل ضَرَّتك ، والعرب تستعمل هذا لما في لفظ الضَّرَّة من الكراهة.

● وفيه: تذكير الحالِف بيمينه إذا وقع منه ما ظاهِرُهُ نِسْيانُها، لا سيَّما ممن له تعلُّقٌ بذلك.

● وفيه: تقوية لقول من قال: إنَّ يمينه ـ ﷺ ـ اتفق أنها كانت في أول الشهر، ولهذا اقتصر على تسعة وعشرين، وإلاَّ فلو اتفق ذلك في أثناء الشهر، فالجُمهور على أنه لا يقع البِرُّ إلاَّ بثلاثين.

● وفيه: سكنى الغُرفة ذات الدَّرَجِ، واتخاذ الخزانة لأثاث البيت والأمتعة.

● وفيه: التناوب في مجلس العالم إذا لم تتيسَّرْ المواظبة على حضوره لشاغل شرعيٍّ، من أمرٍ دينيٍّ، أو دنيويٍّ.

● وفيه: قَبول خَبَرِ الواحد، ولو كان الآخذ فاضلاً، والمأخوذ عنه مفضولاً، ورواية الكبير عن الصغير، وأن الأخبار التي تشاع ولو كثر ناقلوها ـ إنْ لم يكن مرجعها إلى أمرٍ حِسِّيٍّ من مُشاهدةٍ أو سماع ـ لا تستلزم الصدق.

● وفيه: الاكتفاء بمعرفة الحكم بأخذه عن القرين، مع إمكان أخذه عالياً عَمَّن أخذه القرينُ، وأَنَّ الرغبة في العُلُوِّ حيث لا يعوق عنه عائق شرعي، ويمكن أن يكون المرادُ بذلك أن يستفيد منه أصولَ ما يقع في غيبته، ثم يسأل عنه بعد ذلك مشافهة، وهذا أحد فوائد كتابة أطراف الحديث.

● وفيه: ما كان الصحابة عليه من محبة الاطلاع على أحوالِ النبي ﷺ. جَلَّتْ أو قلَّتْ، واهتمامهم بما يهتم له.

● وفيه: أن الغضب والحزن يحمل الرجل الوقور على ترك التأني المألوف منه؛ لقول عُمرَ: ثم غلبني ما أجد ثلاث مَرَّاتٍ.

● وفيه: شدة الفزع والجزع للأمور المهمة، وجواز نظر الإنسان إلى نواحي بيت صاحبه، وما فيه، إذا علم أنه لا يكره ذلك.

● وفيه: كراهة سخط النعمة، واحتقار ما أنعم الله به، ولو كان قليلاً، والاستغفار من وقوع ذلك، وطلب الاستغفار من أهل الفضل، وإيثار القناعة، وعدم الالتفات إلى ما خُصَّ به الغَيْرُ من أمور الدنيا الفانية.

● وفيه: المعاقبة على إفشاء السِّرِّ بما يليق بمن أَفْشَاهُ.

● وفيه: فضيلة عائشة للابتداء بها في التخيير، وفي الدخول بعد انقضاء الشهر، وفيه غير ذلك. والله أعلم.

* * *

مَرْحَباً بِرَسُولِ اللهِ

أُمُّ سَلَمَةَ: هِنْدُ بِنْتُ أَبي أُمَيَّةَ المخزوميَّةُ القُرشيّةُ ، زوجُ النبيِّ ﷺ ، وإحدى أمهات المؤمنين ، وبنت عم سَيْفِ اللهِ المسلولِ: خالدِ بْنِ الوليد.

كُنِّيَتْ بابنها سَلَمَةَ بن أبي سَلَمَةَ بن عبد الأسد. كانت موصوفةً بالجمال البارع ، والعقل البالغ ، والرأي الصائب ، والنسب العريق. وكانت إحدى السيدات المحجبات الطاهرات ، والمهاجرات الجليلات. وتعدُّ من فقهاء الصحابيات. تقرأ ولا تكتب. لكن قال الزركلي في الأعلام: «ويُفْهَمُ من خبرٍ عنها أنها كانت تكتب».

هذه الصحابية الجليلة أسلمت قديماً ، وهاجر بها زوجها الرجل الصالح. أبو سَلَمَةَ بن عبد الأسد إلى أرض الحبشة في الهجرتين جميعاً.

قال ابن سَعْدٍ: «هاجرَ بها أبو سَلَمَةَ إلى أرض الحبشة في الهجرتين جميعاً ، فولدت له هناك زَيْنَبَ بنتَ أبي سَلَمَة ، وولدت له بعد ذلك سَلَمَةَ ، وعُمَرَ ، ودُرَّةَ».

قالت أم سلمة ـ كما في أسد الغابة: ٦/ ٣٤١ ، وسيرة ابن هشام: ١/ ٤٦٩): «لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة ، رحل بعيراً[1] له ، وحَمَلَني ، وحمل معي ابْنِي سَلَمَةَ ، ثم خرج يقودُ بعيره. فلما رآه رجالُ بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزومٍ ، قاموا إليه ، فقالوا: هذه نَفْسُكَ غَلَبْتَنا

(١) (رحل بعيراً): أي جعل عليه الرَّحْلَ. والرَّحْلُ للبعير ، كالسَّرْج للفرس.

عليها. أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَنَا هذه؟ عَلامَ تُتْرَكُ تسيرُ بها في البلادِ؟ ونزعوا خِطامَ[1] البعير من يده، وأخذوني، وغَضِبَتْ عند ذلك بنو عبد الأَسَدِ، وأَهْوَوا إلى سَلَمَةَ، وقالوا: والله! لا نتركُ ابْنَنَا عِندها، إِذْ نَزَعْتُموها من صاحبنا.

فتجاذبوا ابْنِي سَلَمَةَ حتى خلعوا يده. وانطلق به بنو عبد الأسد، رَهْطُ أبي سلمة[2]، وحبسني بنو المغيرة عندهم.

وانطلق زوجي أبو سَلَمَةَ حتى لحق بالمدينة، فَفُرِّقَ بيني، وبين زوجي، وبين ابْنِي.

قالت: فكنت أخرج كل غداة، فأجلس بالأَبْطَحِ[3]، فما أزال أبكي حتى أُمْسِي، سَنَةً أو قَرِيبَها. حتى مَرَّ بي رجل من بني عمي. من بني المغيرة، فَرَأَى ما بي، فرحمني، فقال لبني المُغيرةِ: ألا تَخْرُجُونَ مِنْ هٰذِهِ المسكينة[4]؟ فَرَّقْتُمْ بينها، وبين زوجها، وبين ابنها.

فقالوا لي: الْحَقي بِزَوْجِكِ إِنْ شِئْتِ. وَرَدَّ عليَّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابْنِي فَرَحَلْتُ بَعيري، ووَضَعْتُ ابني في حَجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحدٌ من خلق الله، فقلتُ: أَتَبَلَّغُ بمن لَقِيْتُ، حتى أَقْدَمَ على زوجي.

حتى إذا كنت بالتَّنْعِيْمِ[5]، لَقِيْتُ عُثْمَانَ بنَ طَلْحَة بن أبي طَلْحَةَ، أخا بني

---

(١) (الخِطَامُ): حبل يكون في أنف الدابة تُقَاد به (جامع الأصول: ٦/ ٥٣٠).

(٢) (رهط أبي سلمة): قومه وعشيرته.

(٣) (الأبطح): كل مسيلِ ماءٍ فيه دقاق الحصى فهو أبطح. والأبطح والبطحاء أيضاً: الرمل المنبسط على وجه الأرض. والأبطح يضاف إلى مكة، وإلى مِنى؛ لأن المسافة بينه وبينهما واحدة، وربما كان إلى مِنى أقرب. والأبطح اليوم من مكة (المعالم الأثيرة باختصار).

(٤) أي: ألا تخرجون من شأنها، فتدعوها وما تريد؟

(٥) (التنعيم): هو حد الحَرَمِ، وليس في الحِلِّ أقرب إلى الحرم منه. يقع على ثلاثة أميال من مكة، وفيه مسجد ينسب للسيدة عائشة. قالوا: سمي بذلك باسم شجر معروف في البادية. وقيل: سمي بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له: نعيم، وآخر من شماله يقال=

عبد الدار ، فقال: أَيْنَ؟ يا بِنْتَ أَبي أُمَيَّةَ!.

قلت: أريد زوجي بالمدينة.

فقال: هل مَعَكِ أَحَدٌ؟

فقلت: لا. والله! إلا الله وابْنِي هذا.

فقال: واللهِ! ما لَكِ مِنْ مَتْرَكٍ. فأخذ بخِطام البعير ، فانطلق معي يقودني ، فوالله! ما صَحِبْتُ رجلاً من العرب كان أكرمَ منه: إذا بلغ المَنْزِلَ ، أَنَاخَ بي ، ثم تَنَحَّى إلىٰ شجرةٍ ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرَّواحُ ، قام إلىٰ بعيري ، فَقَدَّمَهُ ، فَرَحَلَهُ ، ثم استأخرَ عني ، وقال: اركبي. فإذا رَكِبْتُ ، واسْتَوَيْتُ على بعيري ، أَتَىٰ ، فأخذ بِخِطامِهِ ، فقادني حتى نَنْزِلَ ، فلم يَزَلْ يصنعُ ذلك حتى قدم بي إلى المدينة. فلما نظر إلى قرية بني عَمْرِو بن عَوْفٍ بِقُبَاءَ[1] ، قال: زَوْجُكِ في هذه القرية ـ وكان أبو سَلَمَةَ نازلاً بها ـ فدخلتها على بركة الله تعالى ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

وكانت تقول: ما أعلم أهل بيتٍ ، أصابهم في الإسلام ما أصابت آل أبي سَلَمَةَ ، وما رأيت صاحباً قَطُّ كانَ أَكْرَمَ من عثمانَ بنِ طَلْحَةَ».

وبعد وفاة زوجها أبي سلمة ، وانقضاء عدتها تزوجها رسول الله ﷺ.

أورد الذهبي في السير (٢/ ٢٠٣) من طريق الواقدي ـ وهو ضعيف ـ عن عُمَرَ بن أبي سَلَمَةَ ، قال: بعث رسول الله ـ ﷺ ـ أبي إلىٰ قَطَنٍ في المحرَّم سنة أَرْبَعٍ ، فغاب تسعاً وعشين ليلةً ، ثم رجع في صفر ، وَجُرْحُهُ الذي أصابه يوم أُحُدٍ منتقِضٌ؛ فمات منه لثمانٍ خَلَوْنَ من جُمادَى الآخِرة ، وحَلَّت أُمِّي ـ أي من عِدَّتها ـ في شوَّال ، وتزوَّجها رسول الله ﷺ.

وروى ابن سَعْدٍ (٨/ ٨٨) بإسنادٍ رجاله ثقات ، عن زياد بن أبي مريم ، قالت أُمُّ سَلَمَةَ لأبي سَلَمَةَ: بلغني أنه ليس امرأةٌ يموت زوجُها ، وهو من أهل

= له: ناعم ، والوادي نَعْمان. ومنه يحرم المَكِّيُّون بالعمرة.

(١) (قُباء): كانت قرية قِبلي المدينة ، وتعد اليوم من أحيائها.

الجنة ، ثم لم تزوَّجْ ، إلاَّ جَمَعَ اللهُ بينهما في الجنة . فتعالَ أعاهِدْكَ ألاَّ تَزَوَّجَ بعدي ، ولا أتَزَوَّج بعدكَ .

قال : أَتُطِيْعِيْنَنِي؟

قالت : نعم .

قال : إذا مِتُّ تَزوّجي . اللَّهُمَّ! ارزُقْ أُمَّ سَلَمَةَ بعدي رجلاً خيراً مني ، لا يُحْزِنُها ، ولا يُؤْذيها .

فلما ماتَ ، قلتُ : مَنْ خيرٌ مِنْ أبي سَلَمَةَ[1]؟ فما لبثْتُ ، وجاء رسول الله ﷺ ، فقام على الباب ، فذكر الخِطْبَةَ إلى ابن أخيها ، أو ابنها . فقالتْ : أَرُدُّ على رسول الله ، أو أتقدَّم عليه بعيالي . ثم جاء الغَدُ ، فخطبَ .

وأخرج أبو يعلى في مسنده (٦٩٠٧) ، عن أُمِّ سَلَمَةَ . قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «إذا أصابَتْ أَحَدَكُمْ مصيبةٌ ، فليقلْ : إنَّا للهِ ، وإنَّا إليهِ راجِعونَ . اللَّهُمَّ! عندكَ أَحْتَسِبُ مُصِيْبَتِي ، فَأْجُرْني فيها[2] ، وَأَبْدِلْنا بِها خَيْراً منها» .

فلما قُبِضَ أبو سَلَمَةَ ، قالتْ : قلتُ : إنَّا للهِ وإنا إليه راجعونَ . اللَّهُمَّ! عندك أَحْتَسِبُ مُصيبتي ، فَأْجُرْني فيها . فكنتُ إذا أَرَدْتُ أَنْ أقولَ : وَأَبْدِلْني بها خيراً ، قُلْتُ : ومَنْ خيرٌ من أبي سَلَمَةَ؟

قالت : فَلَمْ أَزَلْ حَتَّى قُلْتُها .

فلما انْقَضَتْ عِدَّتُها خَطَبَها أبو بَكْرٍ ، فَرَدَّتْهُ . وخَطَبَها عُمَرُ ، فَرَدَّتْهُ ، ثم بعث إليها رسول الله ـ ﷺ ـ فخطبها ، فقالت : مَرْحباً برسولِ اللهِ ، وبِرَسُولِهِ ، أقــرِىء رســول الله ـ ﷺ ـ [الســلام][3] وأخبــره أنــي امــرأة

---

(١) (مَنْ خيرٌ من أبي سَلَمَةَ) : استعظام منها لشأن زوجها ، وتعجب من أن يكون لها خلف خيرٌ منه . وكان ابن عمة النبي ﷺ ، وأخاه من الرضاعة ، أرضعتهما ثُوَيْبَةُ مولاةُ عَمِّهِ أبي لهب .

(٢) (فأْجُرني) : هو أمرٌ من أَجره الله . ومعنى أجره الله : أعطاه أجره ، وجزاء صبره ، وهَمِّهِ في مصيبته .

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من المستدرك للحاكم .

غَيْرَى[1] ، وأني مُصْبِيَةٌ[2] ، وأنه ليس لي أحدٌ من أوليائي شاهدٌ.

فقال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: «أَمَّا قَوْلُكِ: إِنِّي غَيْرَى؛ فإِنِّي أَدعو اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ فيذهبُ غَيْرَتَكِ.

وأَمَّا قَوْلُكِ: إِنِّي مُصْبِيَةٌ؛ فإِنَّ اللهَ ـ عز وجلَّ ـ سَيَكْفِيْكِ صِبْيَانَكِ ، وَأَمَّا أَوْلِياؤُكِ فَلَيْس أَحدٌ منهم شَاهدٌ ، ولا غائبٌ إِلَّا سَيَرْضَانِي».

فقالت لابنها: قم ، يا عُمَرُ! فَزَوِّجْ رسول الله ﷺ ، فَزَوَّجَها إِيَّاهُ.

وقال لها: «أَمَا لا أُنْقِصُكِ مِمَّا أَعْطَيْتُ أُخْتَكِ فُلانَةَ: جَرَّتَيْنِ ، ورَحَائَيْنِ[3] ، وَوِسَادةً مِنْ أَدَمٍ[4] ، حَشْوُها لِيْفٌ».

فكان رسول الله ﷺ يأتيها وهي ترضعُ زَيْنَبَ ، فكانت إذا جاء رسول الله ـ ﷺ ـ أخذتْها ، فَوَضَعَتْها في حِجْرِها ، فكان رسول الله ـ ﷺ ـ حَيِيّاً كريماً. فَفَطِنَ عَمَّارُ بنُ ياسرٍ ـ وكان أَخاها من الرَّضَاعَةِ ـ فأراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن يأتيها ذات يوم ، فجاءَ عَمَّارٌ فدخل عليها ، فانْتَشَطَ زَيْنَبَ من حِجْرِها[5] ، وقال: دعي هذه المَقْبُوحَةَ المَشْقُوحَةَ[6] التي قد آذَيْتِ بها رسولَ اللهِ ﷺ.

فجاء رسول الله ـ ﷺ ـ فدخل ، فجعل يُقَلِّبُ بَصَرَهُ في البيت ، ويقول: «أَيْنَ زُنابُ؟ ما فَعَلَتْ زُنَابُ؟ مَا لِيَ لا أَرى زُنَابَ؟».

قالت: جاء عَمَّارٌ فذهب بها ، فبنى رسولُ الله ـ ﷺ ـ بأهله. فقال لها: «إِنْ شِئْتِ أَنْ أُسَبِّعَ لَكِ[7] كَما سَبَّعْتُ لِنِسائِي». وهذا الحديث أخرجه أيضاً أحمد

---

(١) (غَيْرَى): شديدة الغَيْرَة ، والغيرة: الحمية والأنفة.
(٢) (مُصْبِيَةٌ): أي ذات صِبْيانٍ وأولادٍ صغار (جامع الأصول: ١١ : ٤١٠).
(٣) (الرَّحى): أداة يطحن بها الحبُّ.
(٤) (مِنْ أَدَمٍ): أي من جلدٍ.
(٥) أي جذبها وأخذها من حِضْن أُمِّ سَلَمَةَ.
(٦) (المشقوح): المكسور ، أو المُبْعَدُ ، من الشَّقْحِ: الكَسْرُ أو البُعْدُ (النهاية).
(٧) (أُسَبِّع لَكِ): أي أقيم عندكِ سَبْعاً من الأيام. وروىٰ مسلم (١٤٦٠) عن أم سَلَمَةَ؛ أن رسول الله ﷺ لما تزوجها أقام عندها ثلاثاً ، وقال: إنه ليس بِكِ على أهلكِ هَوانٌ ، إن=

(٦/٣٠٣) ، والنسائي (٦ / ١٨) ، وأبو داود (٣١١٩) وغيره ، وصححه ابن حِبّان (١٢٨٢) موارد الظمآن ، والحاكم (٤/ ١٧) ، ووافقه الذهبي ، وبعضه عند مسلم (٩١٨).

وأورد الذهبيُّ في السير (٢/ ٢٠٤). عن حَبِيبِ بن أبي ثابتٍ ، قال: قالتْ أُمُّ سَلَمَةَ: أتاني رسولُ اللهِ ﷺ ، فكلَّمني ، وبيننا حِجَابٌ ، فخطبني ، فقلتُ: وما تريد إليَّ؟ ما أقول هذا إلا رغبةً لكَ عن نفسي ، إني امرأة قد أَدْبَرَ من سِنِّي ، وإني أُمُّ أَيْتامٍ ، وأنا شديدةُ الغَيْرَةِ ، وأنت ، يا رسولَ اللهِ! تجمع النِّساءَ.

قال: «أَمَّا الغَيْرَةُ ، فيذهِبُها اللهُ ، وأما السِّنُّ فَأَنَا أَكْبَرُ مِنْكِ ، وأَمَّا أَيْتَامُكِ ، فَعَلَىٰ اللهِ ، وعلى رَسُولِهِ».

فَأَذِنْتُ ، فتَزَوَّجَنِي.

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن سعيد بن المُسَيَّب؛ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ كانت من أجمل النساء.

وعن المُطَّلِبِ بن عبد الله بن حَنْطَبٍ قال: دخلت أَيِّمُ العرب[1] على سيد المرسلين أول العَشَاءِ عروساً ، وقامت من آخر الليل تطحن.

وأورد الحافظ في الإصابة (٤/ ٤٠٨) عن عائشة قالت: «لما تزوج رسول الله ـ ﷺ ـ أُمَّ سَلَمَةَ ، حَزِنْتُ حُزْناً شديداً ، لما ذُكِرَ لنا في جَمَالها.

قالت: فَتَلَطَّفْتُ لها حتى رأيتُها ، فرأيتُها أضعافَ ما وُصِفَ لي في الحُسْنِ والجمالِ ، فقالت حَفْصَةُ: هذا ، والله! إنْ هذا إلاَّ الغَيْرَة ، فَتَلَطَّفَتْ لها حَفْصَةُ حتى رَأَتْها ، فقالت لي: لا ، والله! ما هي كما تقولين ، وإنها لجميلةٌ.

= شئتِ سَبَّعْتُ لك وإنْ سَبَّعْتُ لكِ سَبَّعْتُ لنسائي». وروىٰ البخاري (٥٢١٤) ومسلم (١٤٦١) عن أنس قال: من السنَّةِ إذا تزوج الرجلُ البِكْرَ على الثيب أقام عندها سَبْعاً ، ثم قَسَمَ ، وإذا تزوج الثَّيِّبَ أقام عندها ثلاثاً ، ثم قسم» واللفظ للبخاري.

(١) (أَيِّمُ العرب): يعني أم سَلَمَة رضي الله عنها. والأيِّم في الأصل التي لا زوج لها ، بكراً كانت أو ثيِّباً ، مطلقة كانت أو مُتوفًى عنها.

قالت: فرأيتها بَعْدُ ، فكانت كما قالت حَفْصَةُ». وفي إسناد هذه القصة الواقدي وهو ضعيف.

وشهدت أُمَّ سَلَمَةَ فتح خيبر[1] ، مع رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله! يغزو الرجالُ ، ولا تغزو النساء ، وإنما لنا نصفُ الميراث؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [النساء: ٣٢].

قال مجاهد وأنزل فيها: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وكانت أم سلمةَ أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرةً. رواه الترمذي (٣٠٢٢) وصححه العلامة أحمد شاكر في تعليقه على الطبري.

وكان لها رأي صائب ، وعقل راجح ، وذلك بما أشارت على النبي ﷺ يوم الحُدَيْبِيَةِ[2].

فقد أخرج البخاري في الشروط برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) قِصَّةَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ وفيه: «فلما فرغ من قضية الكتاب[3] ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: «قُوْمُوا فَانْحَرُوا ، ثُمَّ احْلِقُوا».

قال: فوالله! ما قام منهم رجلٌ[4] ، حتى قال ذلك ، ثلاثَ مَرَّاتٍ ، فلمَّا لم

---

(١) كان ذلك في السنة السابعة من الهجرة. وخيبر: مدينة في السعودية تبعد عن المدينة المنورة (١٦٥) كِيلاً شمالاً على طريق الشام.

(٢) في السنة السادسة من الهجرة. والحديبية مكان يقع على مسافة (٢٢) كِيْلاً غرب مكة ، علىٰ طريق جُدَّةَ ، ولا زال معروفاً بهذا الاسم.

(٣) أي كتابة الصُّلْح والإشهاد عليه.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٥/٣٤٧): «قيل: كأنهم توقفوا لاحتمال أن يكون الأمر بذلك للندب ، أو لرجاء نزول الوحي بإبطال الصلح المذكور ، أو تخصيصه بالإذن بدخولهم مكة ذلك العام لإتمام نسكهم ، وسوغ لهم ذلك لأنه كان زمان وقوع النَّسْخِ ، ويحتمل أن يكونوا ألهتهم صورة الحال فاستغرقوا في الفكر لما لحقهم من الذل عند أنفسهم مع ظهور قوتهم ، واقتدارهم في اعتقادهم على بلوغ غرضهم ، وقضاء نُسُكِهِمْ بالقهر والغلبة ، أو أَخَّروا الامتثال لاعتقادهم أن الأمر المطلق لا يقتضي الفور. ويحتمل مجموع هذه الأمور لمجموعهم».

يَقُمْ منهم أحدٌ ، دخل علىٰ أُمِّ سَلَمَةَ ، فذكر لها ما لَقِي من الناسِ ، فقالت أُمُّ سَلَمَةَ : يا نبيَّ اللهِ! أتحبُّ ذلك؟ اخْرُجْ ، ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحداً منهم كَلِمَةً حتى تَنْحَرَ بُدْنَكَ[1] ، وتدعو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ.

فخرج فَلَمْ يُكَلِّمْ أحداً منهم حتى فعل ذلكَ: نَحَرَ بُدْنَهُ ، ودعا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ ، فلما رأوا ذلك ، قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً».

توفيت أم سلمة في آخر سنة (٦١) هـ ، على خلاف في ذلك ، ودفنت بالبقيع[2] ، ونزل في قبرها وَلَداها: عُمَرُ وسلمة وغيرهما من محارمها ، وهي آخر أمهات المؤمنين وفاةً. ولها أولاد صحابيون: عمر ، وسَلَمَةُ ، وزينب ، ودُرَّةُ.

قال الذهبي في السِّيَرِ (٢/ ٢١٠): «ويبلغ مسندها ثلاث مئة ، وثمانية وسبعين حديثاً»[3]. اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة عشر. وانفرد البخاري بثلاثة ، ومسلم بثلاثة عشر.

❋ ❋ ❋

---

(١) (بُدْنك): البُدْنُ: جمع بَدَنَةٍ ، وتقع على الجمل والناقة والبقرة ، وهي بالإبل أشبهُ. وسميت بَدَنَةً لعظمها وسِمَنِها.

(٢) (البقيع): مدفن أهل المدينة قرب المسجد النبوي الشريف من جهة الشرق.

(٣) في أعلام النساء (٥/ ٢٢٦) لكحالة: (٣٨٧) حديثاً. وهو غلط. وهو كتاب مشحون بالتصحيف والتحريف الشنيع.

أَسْرَعُكُنَّ لُحوقاً بِي أَطْوَلُكُنَّ يَداً

السيدة زينبُ بنت جَحْشٍ بن رِئاب الأَسَدية. أمّ المؤمنين، وإحدىٰ شهيرات النساء في صدر الإسلام.

تكنىٰ أُمَّ الحَكَمِ، وأُمُّها أُمَيْمَةُ بنت عبد المطلب بن هاشمٍ، عَمَةُ رسولِ الله ﷺ.

كانت زينبُ قديمةَ الإسلام، ومن المهاجرات الأُوَلِ مع النبي ﷺ إلى المدينة المنورة.

تزوجها رسول الله ﷺ في سنة (٥) من الهجرة. ولها من العمر (٣٥) سنة[1]. وقال سعيد بن المسيِّب وغير واحد: تزوجها ﷺ سنة (٣) من الهجرة.

وكانت قبل رسول الله ﷺ تحت مولاهُ زيد بن حارثة رضي الله عنه، ثم طَلَّقها زيدٌ، فاعتدَّتْ. فزوَّجها الله تعالى نبيَّهُ ﷺ بنصِّ كتابه، بلا وليٍّ ولا شاهدٍ.

وهي التي يقول الله فيها: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

---

(١) في السِّير (٢/٢١٧): «وقيل: إن النبي ﷺ تزوج بزينب في ذي القعدة سنة خمس، وهي يومئذ بنت خمس وعشرين سنة».

فكانت تفخر بذلك على أمهات المؤمنين وتقول: زَوَّجَكُنَّ أهاليكنَّ ، وزوجني الله من فوق عرشه.

وروى البخاري في صحيحه أنها كانت تقول: إن الله أنكحني في السماء.

وأورد الذهبي في السير (٢/ ٢١٥) عن عائشة ، قالت: يرحم الله زينب. لقد نالت في الدنيا الشَّرَفَ الذي لا يبلغه شرفٌ. إن الله زوَّجها ، ونطق به القرآن. وإنَّ رسول الله قال لها: «أَسْرَعُكُنَّ بي لُحوقاً أطولكن بَاعاً». فبشرها بسرعة لحوقها به ، وهي زوجته في الجنة.

وزينب امرأة قصيرة ، بيد أنها من أجمل النساء. وكانت صالحةً ، صوَّامةً ، قوَّامةً ، بارَّةً ، أَوَّاهةً ، خاشِعةً ، متضرعةً ، طويلة اليد بالصدقة والمعروف. وهي التي كانت تُسامي عائشة في المنزلة عند سيدنا رسول الله ﷺ.

قالت السيدة عائشة ، كما روى مسلم في صحيحه برقم (٢٤٤٢): «وهي التي كانت تُساميني[١] منهن ـ أي من أمهات المؤمنين ـ في المنزلة عند رسول الله ﷺ.

ولم أَرَ امرأةً قطُّ خيراً في الدين من زينبَ ، وأَتْقَى لله ، وأصدقَ حديثاً ، وأوصلَ للرحمِ ، وأعظمَ صدقةً ، وأَشدَّ ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تَصَدَّقُ به ، وتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى ، ما عدا سَوْرَةً[٢] مِنْ حَدٍّ[٣] كانت فيها. تُسْرِعُ منها الفَيْئَةَ[٤]».

---

(١) (تُساميني): أي تعادلني وتضاهيني في الحظوة والمنزلة الرفيعة. مأخوذ من السُّمُوِّ ، وهو الارتفاع.

(٢) (سَورةً): السَّوْرة: الثَّوَرانُ وعَجَلَةُ الغضب.

(٣) (مِنْ حَدٍّ): قال النووي: هكذا هو في معظم النسخ: سورةً مِنْ حَدٍّ. وفي بعضها: مِنْ حِدَّةٍ. وهي شدة الخلق وثورانه.

(٤) (الفيئة): الرجوع. ومعنى الكلام. أنها كاملة الأوصاف إلا أَنَّ فيها شدة خلق، وسرعة

ومن عجيب أَمرها أنها كانت صَناع[1] اليدين تعمل بالدَّبْغ والخَرْزِ، وتجمع المال. لا لتشتري الحليَّ تتزين بها، ولا الثياب الفاخرة تزهو على أَتْرابِها، ولكن لتتصدق به على ذوي الخَلَّة[2] والحاجة، ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

روى مسلم في صحيحه (٢٤٥٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٥) من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ لأزواجه: «أَسْرَعُكُنَّ لَحاقاً بي أطولُكُنَّ يداً». قالت عائشة: ـ كما في رواية مسلم ـ فكن يتطاوَلْنَ أَيَّتُهُنَّ أطولُ يداً. قالت: فكانت أَطْوَلَنا يَداً زَيْنَبُ؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتَصَدَّق.

وفي رواية الحاكم: «قالت عائشةُ: فكنَّا إذا اجتمعْنَا في بيتِ إحدانا بعد وفاةِ رسول الله ﷺ نَمدُّ أيدينا في الجدار نتطاوَلُ، فلم نَزَلْ نفعل ذلك، حتى توفيت زينبُ بنتُ جَحْشٍ، زَوَجُ النبيِّ ﷺ وكانت امرأةً قصيرةً، ولم تكن أَطْوَلَنَا، فعرفنا حينئذ أنَّ النبيَّ ﷺ إنما أراد بطول اليد الصدقةَ.

وكانت زينبُ امرأةً صَناعَ اليدِ، فكانت تَدْبُغُ وتَخْرُزُ وتَصَدَّقُ في سبيل الله عز وجل»[3].

= غضبٍ، تسرع منها الرجوعَ، أي إذا وقع ذلك منها، رجعت عنه سريعاً، ولا تصرُّ عليه.

(١) (صناع): قال في النهاية: يقال: رجل صَنَعٌ، وامرأة صَناعٌ؛ إذا كان لهما صنعة يعملانها بأيديهما ويكسبان بها».

(٢) (الخَلَّةُ): الفقر والحاجة.

(٣) ليس هذا عجيباً في مجتمع تشرَّب القرآن عقيدة وسلوكاً ومنهاجاً. كان أحدهم يذهب إلى السوق يحمل المتاع على ظهره بالأجرة. من أجل أن يتصدق من تلك الأجرة، أو يتصدق بها كلها. فقد روى البخاري (١٤١٥) ومسلم (١٠١٨) واللفظ له من حديث أبي مسعود البدري: عقبة بن عَمْرٍو، قال: أمرنا بالصدقة. قال: كنا نُحامل، قال: فتصدق أبو عقيل بنصف صاع. قال: وجاء إنسانٌ بشيء أكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا. وما فعل هذا الآخر إلا رياءً. فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٩].

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي في التلخيص، وأقره الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٢٨٧).

قال الحافظ العلامة النووي في شرح صحيح مسلم: «معنى الحديث: أنهنَّ ظننَّ أن المراد بطول اليد، طولُ اليد الحقيقية، وهي: الجارحةُ. فكنَّ يذرعن أيديهن بقصبة، فكانت سودة أطولهن جارحةً، وكانت زينب أطولهن يداً في الصدقة وفعل الخير فماتت زينب أولهن، فعلموا أنَّ المرادَ طول اليد في الصدقة والجود».

وقال النووي أيضاً في تهذيب الأسماء واللغات ترجمة رقم (١١٩٤) بتحقيقي: «أجمع أهل السِّيَرِ أنها أول نساء رسول الله ﷺ موتاً بعده، ودفنت بالبقيع[(١)]».

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٨٧): «وسبقه إلى نقل الاتفاق ابنُ بَطَّالٍ».

روت عن النبي ﷺ أحد عشر حديثاً، وتوفيت سنة (٢٠) هـ، على قول الجمهور، وهي بنت (٥٣) سنة، وصلَّى عليها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونزل في قبرها أُسامةُ بن زَيْدٍ، ومحمد بن عبد الله بن جحش وغيرهما من مَحَارِمها.

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٨٨): «وفي الحديث ـ أي حديث أسرعكن لحوقاً..» عَلَمٌ من أعلام النبوة ظاهر، وفيه جواز إطلاق اللفظ المشترك بين الحقيقة والمجاز بغير قرينةٍ، وهو لفظ «أطولكنَّ» إذا لم يكن محذور.

قال الزين بن المنير: لمَّا كان السؤال عن آجال مقدَّرةٍ لا تعلم إلَّا بالوحي، أجابهنَّ بلفظ غير صريح، وأحالهنَّ على ما لا يتبيَّنُ إلَّا بآخر، وساغ ذلك لكونه ليس من الأحكام التكليفية.

وفيه أَنَّ مَنْ حَمَلَ الكلام على ظاهره وحقيقته لَمْ يُلَمْ، وإنْ كان مرادُ المتكلم

---

(١) (البقيع): مدفن أهل المدينة المنورة. شرق المسجد النبوي الشريف. وقد اتصل به بعد التوسعة.

مجازه ، لأن نسوة النبيِّ ﷺ حملن طول اليد على الحقيقة فلم ينكر عليهنَّ.

وأما ما رواه الطبراني في الأوسط من طريق يزيد بن الأصم ، عن ميمونةَ؛ أن النبيَّ - ﷺ - قال لهنَّ: «ليس ذلك أعني ، إنما أعني أصنعكنَّ يداً». فهو ضعيفٌ جدّاً ، ولو كان ثابتاً لم يَحْتَجْنَ بعد النبي - ﷺ - إلى ذَرْع أيديهن ، كما تقدَّمَ في رواية عَمْرَةَ ، عن عائشةَ. وقال المُهلَّبُ: في الحديثَ دَلالةٌ على أنَّ الحكم للمعاني لا للألفاظ ، لأن النسوة فَهِمْنَ من طول اليد الجارِحَةَ ، وإنما المراد بالطول كثرةُ الصدقة ، وما قاله لا يمكن إطراده في جميع الأحوال ، والله أعلم.

وهذه المرأة الصالحة لها من المآثر في الصدقة والبذل الشيء الكثير. فقد روى ابن سعد في طبقاته (٨/ ١٠٩) عن بَرَّة بنت رافع قالت: لما خرج العطاءُ أرسل عمرُ إلى زينب بعطائها ، فقالت: غفر الله لعمر! غيري من أخواتي كان أقوى على قَسْمِ هذا مني!.

قالوا: هذا كُلُّهُ لكِ.

قالت: سبحان الله! واستترتْ منه بثوب ، وقالت: ضَعُوهُ ، واطرحوا عليه ثوباً ، ثم قالت لي: أدخلي يدكِ ، فاقبضي منه قبضةً ، فاذهبي بها إلى بني فلانٍ وبني فلانٍ - من أهل رَحِمِها وأيتامها - حتى بقيت منه بقية تحت الثوب ، فقالت لها بَرَّةُ: غَفَرَ الله لك ، يا أم المؤمنين! والله! لقد كان لنا في هذا حقٌّ. فقالت: لكم ما تحت الثوب. قالت: فوجدنا ما تحته خمسة وثمانين دِرْهَماً[١] ، ثم رفعت يدها إلى السماء ، فقالت: اللَّهُمَّ! لا يدركني عطاءُ عُمَرَ بعد عامي هذا ، فماتت.

وروىٰ الواقدي - وهو ضعيف - عن القاسم ، قال: «قالت زينب بنت جحشٍ حين حَضَرَتْها الوفاةُ: إني قد أعددتُ كفني[٢]؛ فإنْ بعث لي عمرُ بكَفَنٍ،

---

(١) كان الدرهم في ذلك الزمن يشتري شاةً أو أكثر.

(٢) قال العلماء: يجوز تحصيل ما لا بُدَّ للميت منه ، من كَفَنٍ ونحوه في حال حياته. فقد أخرج البخاري في كتاب الجنائز برقم (١٢٧٧) باب: من استعد الكَفَنَ في زمن النبيِّ ﷺ

فتصدقوا بأحدهما؛ وإن استطعتم إذا أَدْلَيْتُموني أن تَصَدَّقوا بِحَقْوَتِي[1] ، فافعلوا» .

فيا أخي المسلم! ويا أختي المسلمة . لنكثر من البذل والصدقة والمعروف في سبيل الله عز وجل اقتداءً بالسيدة زينب أم المؤمنين .

ولنتذكر جميعاً قول الصادق المصدوق ﷺ فيما رواه مسلم (٢٥٨٨) : «ما نَقَصتْ صدقةٌ من مالٍ ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاَّ عِزّاً ، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله» .

* * *

= فلم يُنْكِرْ عليه ، من حديث سَهْلٍ؛ أن امرأة جاءت النبيَّ - ﷺ - بِبُرْدَةٍ منسوجةٍ فيها حاشِيَتُها . أتدرونَ ما البردةُ؟ قالوا : الشَّمْلَةُ . قال : نعم . قالت : نَسَجْتُها بيدي ، فجئت لأَكْسُوَكَها ، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها ، فخرج إلينا ، وإنها إزارُهُ ، فَحَسَّنها فُلانٌ ، فقال : اكْسُنِيها . ما أَحْسَنَها! قال القوم : ما أحسنْتَ ، لَبِسَها النبيُّ ﷺ مُحتاجاً إليها ، ثم سَأَلْتَهُ ، وعلمْتَ أنه لا يَرُدُّ؟! قال : إنِّي والله! ما سألْتُهُ لأَلْبَسَها؛ إنما سألتُهُ لتكون كَفَنِي .

قال سَهْلٌ : فكانت كَفَنَهُ .

قال الحافظ في الفتح (٣/ ١٤٤) : «قال ابن بطَّالٍ : فيه جواز إعداد الشيء قبل وقت الحاجة إليه» .

وقال بعض الشافعية : «ينبغي لمن استعد شيئاً من ذلك أن يجتهد في تحصيله من جهة يثق بحلها ، أو من أثر مَنْ يعتقد منه الصلاح والبركة» .

(١) الحَقْوَ : الإزار .

واللهِ! لأُوثِرَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ على نفْسي

روى الحافظ أبو يعلى الموصلي ـ كما في شمائل ابن كثير (ص ٢١٠) ـ عن جابر بن عبد الله ؛ أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شقَّ ذلك عليه ، فطاف في منازل أزواجه فلم يصب عند واحدة منهن شيئاً.

فأتى فاطمة فقال : يا بُنَيَّةُ! هل عندك شيء آكله فإني جائع؟

فقالت : لا ، والله! بأبي أنت وأمي.

فلما خرج من عندها رسول الله ﷺ بعثتْ إليها جارةٌ لها برغيفين ، وقطعة لحم ، فأخذته منها ، ووضعته في جَفْنَةٍ[1] ، وغطَّتْ عليها ، وقالت : والله! لأوثِرَنَّ بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ، وَمَنْ عندي. وكانوا جميعاً محتاجين إلى شُبْعَةِ[2] طعام ، فبعثت حسناً ، أو حسيناً ، إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها.

فقالت له : بأبي أنت وأمي ، قد أتى الله بشيء فخبَّأته لك.

قال : هَلُمِّي ، يا بنيَّةُ!

فكشفت عن الجفنة ، فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً ، فلما نظرت إليها بُهِتَتْ[3] وعرفت أنها بركة من الله ، فحمدت الله ، وصلت على نبيه ﷺ ، قدَّمته إلى رسول الله ، فلما رآه ، حمد الله ، وقال : من أين هذا؟ يا بُنَيَّةُ!

---

(١) (الجَفْنَةُ) : وعاءٌ يؤكل فيه ويثرد. وكان يتخذ من الخشب غالياً.

(٢) (الشُّبْعَةُ) : من الطعام : قَدْرُ ما يشبع مَرَّةً (الوسيط).

(٣) (بهتت) : دُهِشَتْ.

قال: يا أبت! هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

فبعث رسول الله ﷺ إلى عليّ ، ثم أكل رسول الله ﷺ ، وعليٌّ ، وفاطِمةُ ، وحَسَنٌ ، وحُسَيْنٌ ، وجميع أزواج رسول الله ﷺ ، وأهل بيته ، جميعاً ، حتى شبعوا. قالت: وبقيت الجفنة كما هي ، فأوسَعَتْ بقيَّتُها على جميع جيرانها. وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا حديث غريب أيضاً متناً وإسناداً.

* * *

رَسولُ اللهِ يَدْخُلُ بَيْتي ويَخْرُجُ ولا يُصَلِّي عَلَيْنَا؟!

جابر بن عبد الله بن عَمْرِو بن حَرَامٍ الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمٰن ، صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ ، والحُفَّاظ للسنن النبوية ، شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صبي ، وغزا تسع عشرة غزوةً ، وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي الشريف ، يؤخذ عنه العلم.

والده عبدُ اللهِ بن عَمْرِو بن حَرَام يكنىٰ أبا جابرٍ ، كان عَقَبِياً[1] ، بَدْرِياً ، نَقِيباً. وكان نقيبَ بني سَلِمَةَ هو والبراء بن معرور ، شَهِدَ بدراً وأحداً ، واستشهد يوم أُحُدٍ.

روىٰ البخاري (١٢٤٤) ومسلم (٢٤٧١) واللفظ له عن جابرٍ ، قال: أُصيب أبي يوم أحد ، فجعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي ، وجعلوا يَنْهَوْنَنِي ، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ لا ينهاني.

قال: وجَعَلَتْ فاطمةُ بنتُ عَمْرٍو ـ يعني: عَمَّتَهُ ـ تبكيه ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تَبْكِيهِ أَوْ لَا تَبْكِيهِ[2] ، مَا زَالَتِ المَلائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنحتِها حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ».

قال ابن الأثير في أُسْدِ الغابة (٣/ ٢٤٣): «لما أراد ـ يعني: عبدَ الله ـ أن

---

(١) أي شهد بيعة العَقَبَةِ.

(٢) (تبكيه أو لا تبكيه): معناه: سواء بكت عليه أم لا ، فما زالت الملائكة تُظِلُّهُ ، أي فقد حصل له من الكرامة هذا وغيره ، فلا ينبغي البكاء على مثل هذا.

يخرج إلى أحد ، دعا ابنه جابراً ، فقال: يا بُنَيَّ! إني لا أُراني[1] إلا مقتولاً في أول من يقتل ، وإني واللهِ! لا أَدعُ بعدي أحداً أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ ، غَيْرَ نَفْسِ رسولِ الله ﷺ ، وإِنَّ عليَّ دَيْناً[2] فاقْضِ عني دَيْني ، واستوصِ بأخواتِكَ[3] خيراً».

قال: فأصبحنا فكان أولَ قتيلٍ ، جَدَعُوا[4] أنفَهُ وأُذُنَيْهِ.

وروىٰ الترمذي (٣٠١٠) ، وابن ماجهْ (١٩٠) وغيرُهما من حديث طلحة بن خِراشٍ ، قال: سمعتُ جابر بن عبد الله يقول: لقيني رسول الله ﷺ ، فقال لي: «يا جابرُ! مَالِي أَرَاكَ مُنْكَسِراً[5]؟».

قلتُ: يا رسول الله! اسْتُشْهِدَ أَبي يَوْمَ أُحُدٍ ، وتَرَكَ عِيالاً ودَيْناً.

قال: «أَفَلاَ أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ به أَبَاكَ؟».

قال: قلتُ: بلىٰ ، يا رسولَ اللهِ!

قال: «مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَداً قطُّ إِلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وإِنَّهُ أَحْيىٰ أَبَاكَ ، فَكَلَّمَهُ كِفَاحاً[6] ، فقال: يا عَبْدِي! تَمَنَّ عَليَّ ، أُعطِكَ. قال: يا رَبِّ! تُحْيِيني فَأُقْتَلَ ثَانِيَةً ، قال سبحانه: قَدْ سَبَقَ مني أَنَّهُمْ إليها لا يُرْجَعُون».

قال: يا ربِّ! أَبْلِغْ مَنْ وَرَائي ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. قال الترمذي:

---

(١) (لا أُراني): أي لا أظنُّ.
(٢) وكان كثيراً كما سأذكره في سياق الخبر.
(٣) وكُنَّ ستَّ بناتٍ كما في رواية البخاري في المغازي (٤٠٥٣) ، وفي حديث زواج جابر في البخاري (٤٠٥٢): «وكنَّ تسع بنات» ، قال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨): «كان ثلاثاً منهن متزوجات أو بالعكس».
(٤) أي مَثَّلوا به بقطع أنفه وأذنيه.
(٥) (منكسراً): أي حزيناً كاسفَ البال.
(٦) (كِفاحاً): يقال كلمته كفاحاً، أي: مواجهة ليس بيننا حجاب (جامع الأصول: ٩/ ٨٧).

«هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه». وسكت عنه الحافظ في الفتح (٧/ ٣٥٨) فهو عنده صحيح أو حسن.

ولقد سلك جابر بن عبد الله السبل المُتاحة كُلَّها لإرضاء غُرماء أبيه لكن محاولاته لم يكتب لها النجاح ، وأَصَرَّ الغرماء على استيفاء حقوقهم كاملة.

عند ذاك ، لجأ جابرٌ ـ رضي الله عنه ـ إلى مَنْ هو بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ ، لَجَأَ إلى سيدنا محمد ـ ﷺ ـ يستعينه في قضاء دين أبيه ، وحَلِّ مُعْضِلَتِهِ.

روىٰ أحمد (٣/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨) ، والدارمي رقم (٤٦) ، وابن حبان (١٩٥٢) موارد ـ واللفظ له ـ من حديث جابر قال:

أتيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ أستعينه في دَيْنٍ كان على أبي ، فقال: «آتيكم».

فقلتُ للمرأة: إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ يأتينا ، فإياكِ أَنْ تُكلِّميه أو تُؤْذِيه.

قال: فأتىٰ ـ ﷺ ـ فذبحتُ له داجناً[١] كان لنا. قال: «يا جابرُ! كأنك عَلِمْتَ حُبَّنَا اللَّحْمَ!». فلما خرج ، قالت له المرأةُ: يا رسولَ الله! صَلِّ عليَّ وعلى زوجي[٢] ، ففعل.

فقلت لها: أَلَمْ أَقُلْ لَكِ؟...

فقالت: رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ كانَ يَدْخُلُ بيتي ويَخْرُجُ ولا يُصَلِّي عَلَيْنا؟! وصححه الحاكم (٤/ ١١١) ووافقه الذهبي في التلخيص.

أما الطريقة التي سلكها رسول الله ـ ﷺ ـ في قضاء دين والد جابر ، ففيها معجزة النبوة ، وبركة الرسالة ، وجبر خاطر الفقراء ، وأصحاب الخَلَّة.

فلنستمع إلى جابر يروي لنا قصته مع غُرماء أبيه.

يقول جابر (كما في البخاري: ٢٣٩٦): إن أباه توفي وترك عليه ثلاثين

---

(١) (داجناً): الداجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم (النهاية).

(٢) (صَلِّ عليَّ وعلى زوجي): أي ادْعُ لي ولزوجي.

وَسْقاً[1] لرجل من اليهود ، فاستنظره[2] جابرٌ ، فأبى أن يُنْظِرَهُ ، فكلَّم جابرٌ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ليشفع له إليه ، فجاء رسولُ اللهِ فكلَّمَ اليهوديَّ ليأخذ تَمْرَ نخله . بالتي له ، فأبىٰ ، فدخل رسول الله ـ ﷺ ـ النخل ، فمشىٰ فيها ، ثم قال لجابرٍ : جُدَّ لَهُ[3] ، فَأَوْفِ له الذي له ، فَجَدَّهُ بعدما رجعَ رسولُ الله ﷺ ، فأوفاه ثلاثين وَسْقاً ، فَضَلَتْ[4] له سبعةَ عَشَرَ وَسْقاً ، فجاء جابرٌ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ليخبره بالذي كان ، فوجده يصلي العصرَ ، فلما انصرف أخبره بالفَضْل ، فقال : أخبر ذٰلك ابن الخطاب ، فذهب جابرٌ إلى عمر ، فأخبرهُ ، فقال عمر : لقد علمتُ حين مشىٰ فيها رسولُ الله ـ ﷺ ـ لَيُبَارَكَنَّ فيها» .

وفي رواية عند البخاري في الصلح (٢٧٠٩) قال جابر : توفي أبي وعليه دين ، فعرضتُ علىٰ غُرَمَائِهِ[5] أن يأخذوا التمر بما عليه ، فأبوا ، ولم يَرَوْا أَنَّ فيه وفاءً ، فأتيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فذكرت ذلك له ، فقال : إذا جَدَدْتَهُ فَوَضَعْتَهُ في المِرْبَدِ[6] آذنِّي[7] ، فلما جَدَدْتُهُ ، ووضعتُهُ في المِرْبَدِ ، آذَنْتُ رسولَ الله ﷺ ، فجاء ومعه أبو بكر وعمر ، فجلس عليه ، ودعا بالبركة فيه ، ثم قال : ادْعُ غُرَماءَكَ فَأَوْفِهِمْ ، فما تركتُ أحداً له دينٌ على أبي إِلَّا قضيتُهُ ، وفَضَلَ ثلاثةَ

---

(١) (وَسْقاً) : الوَسْقُ : ستون صاعاً ، والصاعُ : أربعة أمدادٍ ، ويساوي المد عند السادة الشافعية حوالي (٦٠٠) غرام . والوَسْق أيضاً : حِمْل بَعِير .

(٢) (فاستنظره) : الاستنظار : طلب التأخير إلىٰ وقتٍ آخَرَ ، وأنْظَرْتُهُ : أَخَّرْتُهُ (جامع الأصول : ١١/ ٣٧٢) .

(٣) (جُدَّ لَهُ) : الجَداد بالفتح والكسر : صِرام النخل ، وهو قطع ثمرتها (النهاية) . وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٤٥) : «قوله : جُذَّ بلفظ الأمر من الجذاذ ، بالجيم والذال المعجمة ، وهو قَطْعُ العراجين» . قلت : العرجون من النخل كالعنقود من العنب .

(٤) (فضلت) : بقيت .

(٥) (غرمائه) : هم الدائنون .

(٦) (المِرْبَد) : موضع التمر الذي يجمع فيه (جامع الأصول : ١١/ ٣٧٣) .

(٧) (آذِني) : أَعْلِمْني .

عَشَرَ وَسْقاً: سبعةٌ عجوةٌ[1] ، وستةٌ لَوْنٌ[2] ـ أو ستةٌ عجوةٌ وسبعةٌ لونٌ ـ فوافيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ المغربَ ، فذكرتُ ذلك له ، فضحك ، وقال: ائتِ أبا بكر وعمرَ فأَخْبِرْهُما ، فأخبرتهما ، فقالا: لقد علمنا إِذْ صَنَعَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ما صنع أَنْ سيكونُ.

وفي رواية أخرى عند البخاري في البيوع (٢١٢٧) قال جابرٌ: توفي عبد الله بن عَمْرِو بن حَرَام ، وعليه دَيْنٌ ، فاستعنتُ بالنبي ـ ﷺ ـ على غُرمائه أَنْ يضَعُوا من دَينه[3] ، فطلب النبي ﷺ إليهم ، فلم يفعلوا ، فقال لي النبي ﷺ: «اذهب ، فصنِّفْ تمركَ أصنافاً[4]: العَجْوَةَ على حِدَةٍ[5] ، وعِذْق زَيْدٍ[6] على حِدَةٍ ، ثم أَرْسِلْ إِليَّ ، فَفَعَلْتُ ، ثم أرسلتُ إلى رسول الله ﷺ فجاء ، فجلس على أعلاهُ ، أو في وسطه ثم قال: «كِلْ للقوم» ، فَكِلْتُهم ، حتى أَوْفَيْتُهُمُ الذي لهم ، وبقي تَمْري ، كأنه لم يَنْقُصْ منه شيءٌ.

وفي رواية أخرى عند البخاري في الوصايا (٢٧٨١) وفي المغازي (٤٠٥٣)؛ أن أباه استشهد يوم أحد ، وترك سِتَّ بناتٍ ، وترك عليه دَيناً ، فلما

---

(١) (عجوة): العَجْوَةُ: نوعٌ من تَمْرِ المدينة ، يضرب إلىٰ السواد (النهاية). قال في الفتح (٦/ ٥٩٣): من أجود تمر المدينة.

(٢) (وسِتَّةٌ لَوْنٌ): اللونُ: ما عدا العجوة ، وقيل: هو الدَّقَلُ ، وهو الرديءُ ، وقيل: اللَّون: اللِّين ـ بكسر اللام ـ واللِّينة ، وقيل: الأخلاط من التمر (الفتح: ٥/ ٣١١).

(٣) (أن يضعوا من دَيْنِهِ): أي أن يسقطوا قِسطاً من دَيْنهم عليه.

(٤) (صَنِّف تمركَ أصنافاً): أي اعْزِلْ كُلَّ صِنفٍ منه وحده (الفتح: ٤/ ٣٤٥).

(٥) (على حِدَةٍ): منفرداً ، أي: كل جنس وحده (جامع الأصول: ١١/ ٣٧٢).

(٦) (عِذْقَ زَيْد): نوع جيد من التمر بالمدينة معروف (جامع الأصول: ١١/ ٣٧٢) ، وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٤٥): العَذْقُ بفتح العين: النخلة ، وبكسرها: العُرْجُون ، وابن زيدٍ: شخصٌ نسب إليه النوع المذكور من التمر. وأصناف تمر المدينة كثيرة جداً ، فقد ذكر الشيخ أبو محمد الجُويني في «الفروق» أنه كان بالمدينة فبلغهُ أنهم عدُّوا عند أميرها صنوف التمر الأسود خاصة فزادت على الستين. قال: والتمر الأحمر أكثر من الأسود عندهم.

حضر جِذادُ النخل[1] ، أتيتُ رسولَ الله ﷺ ، فقلتُ : يا رسول اللهِ! قد علمتَ أن والدي اسْتُشْهِدَ يوم أحد وترك عليه ديناً كثيراً ، وأحِبُّ أَنْ يراكَ الغُرماءُ ، فقال : «اذهب فَبَيْدِرْ كُلَّ تمرٍ على ناحيةٍ[2]» ، ففعلتُ ، ثم دعوتُهُ ، فلما نظروا إليه أُغْرُوا بي[3] تلك الساعة ، فلما رأىٰ ما يَصْنَعُون ، طاف حول أَعْظَمِها بَيْدَراً ، ثلاث مراتٍ ، ثم جلس عليه ، ثم قال : «ادْعُ أصحابك» فما زال يَكِيْلُ لهم ، حتى أَدَّى اللهُ أمانَةَ والدي ، وأنا واللهِ! راضٍ أَنْ يؤديَ اللهُ أمانةَ والدي ، ولا أرجعُ إلى أخواتي تمرةً. فَسَلِمَ واللهِ! البيادرُ كُلُّها ، حتى إني أنظر إلى البيدر الذي عليه رسولُ الله ﷺ ، كأنه لم يَنْقُصْ تَمْرَةً واحدةً.

وفي أخرىٰ عند البخاري في المناقب برقم (٣٥٨٠) أن أباه توفي وعليه دين. قال : فأتيتُ النبي ، ﷺ ، فقلت : إن أبي ترك عليه ديناً ، وليس عندي إلا ما يُخْرِجُ نَخْلُهُ[4] ، ولا يبلغُ ما يُخْرِجُ سِنينَ[5] ما عَلَيْهِ[6]؟ فانطلقْ معي لكيلا يُفْحِشَ عليَّ الغُرماءُ ، فمشىٰ حول بَيْدَرٍ من بيادر التمر ، فدعا ، ثم آخَرَ[7] ، ثم جلس عليه ، فقال : «انزعوه»[8] فأوفاهم الذي لهم ، وبقي مثلُ ما أعطاهُمْ.

وفي رواية عند أبي داود (كما في جامع الأصول : ١١/ ٣٧١ ـ ٣٧٢) قال جابر بن عبد الله : كان ليهودي على أبي تمر ، فقتل يوم أُحُدٍ ، وترك

---

(١) (جِذاذ النخل) : قطع ثمره.

(٢) (اذهب فَبَيْدِرْ) : أي اجعلْ كُلَّ صنفٍ في بَيْدَرٍ يَخُصُّهُ (الفتح : ٥/ ٤١٤).

(٣) (أُغْرُوا بي) : يعني هِيجُوا بي (قاله البخاري في صحيحه عقب الحديث : ٢٧٨١). قال ابن الأثير في جامع الأصول (١١/ ٣٧٣) : «المراد : أنهم لَجُوا في مطالبتي وأَلَحُّوا». وقال في الفتح (٦/ ٥٩٤) : أي أنهم شددوا عليه في المطالبة لعداوتهم النبي ﷺ.

(٤) يعني أنه لم يترك مالاً إلا البستان المذكور (الفتح : ٦/ ٥٩٣).

(٥) (ولا يبلغ ما يُخرج سنين) : أي في مدة سنين.

(٦) (ما عليه) : أي من الدين.

(٧) (ثم آخَرَ) : أي مشىٰ حول بيدرٍ آخَرَ فدعا (الفتح : ٦/ ٥٩٣).

(٨) في جامع الأصول (١١/ ٣٧١) : «تَمَزَّعُوْهُ» بدل «انزعوه». قال في النهاية : أي تقاسموا به ، وفَرِّقوه بينكم.

حديقَتَيْنِ[١] ، وتَمْرُ اليهودي يستوعِبُ ما في الحديقتَيْنِ ، فقال النبي ، ﷺ : «هَلْ لكَ أَنْ تَأْخُذَ العامَ نِصْفَهُ ، وتُؤَخِّرَ نِصْفَهُ؟» فأبىٰ اليهودي ، فقال النبي ﷺ : «هَلْ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ الجِدادَ[٢]؟» فأبىٰ ، قال : فآذِنِّي ، فآذَنْتُهُ ، فَجَاء هو وأبو بَكْرٍ ، فجعل يُجَدُّ ويُكالُ من أسفل النخل ، ورسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ يدعو بالبركة حتى وفينا جميعَ حَقِّهِ من أصغر الحديقتين ، ثم أتيتهم بِرُطَبٍ[٣] وماءٍ ، فأكلوا وشربوا ، ثم قال : «هٰذا مِنَ النَّعيم الذي تُسْأَلُونَ عَنْهُ» .

وفي هذا الحديث من الفوائد[٤] :

- جواز الاستنظار في الدَّيْنِ الحالّ .
- وجواز تأخير الغريم لمصلحة المال الذي يوفى منه .
- وفيه مشي الإمام في حوائج رعيته ، وشفاعته عند بعضهم في بعض .
- وفيه عَلَمٌ ظاهِرٌ من أعلام النبوة ، لتكثير القليل إلى أَنْ حَصَلَ به وفاءُ الكثير وفَضَلَ منه .

* * *

---

(١) (حَدِيقتين) : الحديقة : كل ما أحاط به البناءُ من البساتين وغيرها . ويقال للقطعة من النخل حديقة وإنْ لم يكن مُحاطاً بها (النهاية) .

(٢) (الجَداد) : ما يُجَدُّ ـ أي يقطع ـ من ثمر النخل .

(٣) (رُطب) : الرُّطَبُ : نضيج البُسر قبل أن يصير تمراً ، وذلك إذا لانَ وحَلا . أو ثَمَرُ النخل إذا أدرك ونَضِجَ قبل أن يصير تمراً (الوسيط) .

(٤) الفتح (٦/ ٥٩٥) .

أَفَما نُشَارِكُهُمْ في الأَجْرِ والخَيْرِ؟

أسماءُ بنتُ يزيدَ بنِ السَّكَنِ الأنصاريَّة الأَشْهَلِيَّةُ[1] صحابيةٌ من المبايعات، وهي ابنة عمة مُعاذ بن جبل، تكنى أم سَلَمَةَ، وقيل: أم عامر. كانت من ذوات العقل والدين والخطابة، حتى لقبوها بخطيبة النساء. وكانت محدثة فاضلة، ومجاهدة جليلة. قَتَلَتْ يوم اليرموك تسعة من الروم بعمود فسطاطها. وكانت رسولَ النساء إلى النبي ﷺ.

قال ابن الأثير في أسد الغابة (٦/ ١٩): «روى عنها مسلم بن عُبيد، أنها أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه، فقالت: بأبي أنتَ وأمي، يا رسول الله! أنا وافدة النساءِ إليكَ.

إن الله ـ عز وجلَّ ـ بعثك إلى الرجال والنساء كافةً، فآمنَّا بِكَ وبإلٰهِكَ، وإنا معشرَ النساء محصوراتٌ مقصورات[2]، قواعد بيوتكم، ومَقْضى شهواتكم، وحاملاتُ أولادكم، وإنكم ـ معشر الرجال ـ فُضِّلْتُمْ علينا بالجُمَعِ والجماعاتِ، وعيادة المرضىٰ، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأَفْضَلُ من ذلكَ: الجهادُ في سبيل الله، عز وجل.

وإنَّ الرجل إذا خرج حاجّاً، أو معتمراً، أو مجاهداً، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربَّينا لكم أولادكم. أفما نشاركُكُمْ في هذا الأجر والخير؟

---

(١) فَرَّقَ بعض العلماء بين أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية وبين أسماء بنت يزيد الأنصارية الأشهلية. انظر أُسْدَ الغابة (٦/ ٤٠).

(٢) (مقصورات): محبوسات في بيوتهن.

فالتفت النبي ـ ﷺ ـ إلى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال : «هَلْ سَمِعْتُمْ مقَالةَ امْرَأَةٍ ، قطُّ أحسنَ مِنْ مساءَلِتها في أَمْرِ دِينها مِنْ هٰذه؟» .

فقالوا : يا رسول الله! ما ظننَّا أن امرأةً تهتدي إلى مِثْلِ هذا .

فالتفت النبيُّ ـ ﷺ ـ إليها ، فقال : «افهمي ، أيتها المرأةُ ، أو أَعْلِمي مَنْ خَلْفَكِ من النساء ، أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعَها موافَقَتَهُ ، يَعْدِلُ ذلك كُلَّه» فانصرفت المرأة وهي تُهَلِّلُ .

وفي رواية في الاستيعاب (٤/ ٢٣٣) أنها أتت النبيَّ ـ ﷺ ـ ، فقالت : إني رسولُ مَنْ ورائي مِنْ جماعة نساء المسلمين . كُلُّهنَّ يَقُلْنَ بقولي ، وعلى مِثْل رأيي .

إن الله ـ تعالى ـ بعثك إلى الرجال والنساء ، فآمنا بكَ . واتبعناك ، ونحن ـ معشر النساء ـ مقصوراتٌ مُخَدَّراتٌ[1] ، قواعدُ بيوت ، ومواضعُ شَهَوات الرجال ، وحاملاتُ أولادِهم ، وإنَّ الرجال فُضِّلوا بالجماعات ، وشهود الجنائز ، والجهاد .

وإذا خرجوا للجهاد ، حفظنا لهم أموالهم ، وربينا أولادهم ، أفنشاركهم في الأجر؟ يا رسول الله!

فالتفت رسول الله ـ ﷺ ـ بوجهه إلى أصحابه ، فقال : «هَلْ سَمِعْتُمْ مَقَالَةَ امْرَأَةٍ أَحْسَنَ سُؤالاً عَنْ دِينِها مِنْ هٰذه؟» .

فقالوا : بلىٰ ، والله! يا رسول الله!

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : «انصرفي ، يا أسماءُ ، وأعلمي مَنْ وراءَكِ من النساء أن حسن تبعُّل إحداكنَّ لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته يَعْدِلُ كُلَّ ما ذَكَرْتِ للرِّجال» .

فانصرفت أسماء ، وهي تُهَلِّلُ وتكبِّرُ استبشاراً بما قال لها رسول الله ﷺ.

---

(١) أي نلزمُ بيوتنا.

لو نَقْدِرُ علىٰ ما يَقْدِرُ عليه الرجالُ لَمَنَعْنَاهُ

أَرْوَىٰ بنت عبد المطلب القُرشية الهاشمية ، عمةُ رسولِ الله ﷺ. قال ابن سعد : أسلمت وهاجرت إلى المدينة المنورة .

كان ولدُها طُليب بن عُمير ـ ويقال : بن عَمْرٍو ـ من السابقين إلى الإسلام. أَسْلَمَ ورسول الله ـ ﷺ ـ في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي[1] .

روى الحاكم في المستدرك من حديث موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي ، عن أبيه ، عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن بن عوف قال : أسلم طُلَيْبُ بن عُمَير في دار الأرقم ، ثم دخل ، فخرج علىٰ أمه ، وهي أَرْوىٰ بنت عبد المطلب ، فقال :

قد تبعتُ محمداً ، وأسلمت لله رب العالمين ، جَلَّ ذكرهُ .

فقالت أُمُّهُ : إنَّ أحَقَّ مَنْ وازَرْتَ[2] ومَنْ عاضَدْتَ[3] ابنُ خالِكَ ، والله! لو

---

(١) (دار الأرقم بن أبي الأرقم) : دار بمكة عند الصفا ، تجدد بناؤها في التوسعة الجديدة للحرم المكي ، وأصبحت مَقرّاً لبعض هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصار جُزْءٌ منها مَقَرّاً لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه ، ثم هُدمت وأصبحت أثراً بعد عين ، حتى إنها لا تكاد تعرف اليوم. انظر في رحاب البيت الحرام ص: (٣٧٦) ، أخبار مكة للأزرقي (٢/ ٢٠٠).

(٢) (وازرْتَ) : أَعَنْتَ وقوَّيْتَ.

(٣) (عاضَدْتَ) : ناصَرْتَ.

كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لتبعناه وذَبَبْنَا عنه.

قال: فقلت: يا أُمَّاه! وما يمنعكِ أنْ تسلمي وتتبعيه؟؛ فقد أسلم أخوكِ حمزةُ!

فقالت: أنظر ما يصنع أَخَواتي ثم أكون إحداهُنَّ.

قال: قلت أسألكِ بالله إلا أَتَيْتِه، فَسَلَّمْتِ عليه، وصَدَّقْتِهِ، وشهدتي أَنْ لا إِلَه إلاَّ الله.

قالت: فإني أشهد أن لا إله إلاَّ اللهُ، وأشهد أنَّ محمداً رسولُ الله، وكانت بعدُ تَعْضُدُ النبيَّ - ﷺ - بلسانها، وتَحُضُّ ابنها علىٰ نصرته والقيام بأمره[1].

وعرض أبو جَهْلٍ - عمرُو بن هشامٍ - وعِدَّةٌ من الكفار للنبي - ﷺ - فَآذَوْهُ، فَعَمَدَ[2] طُلَيْبُ بن عُمير إلى أبي جهلٍ، فضربه[3]، فَشَجَّهُ، فأخذوه وأوثقوه، فقام أبو لَهَبٍ في نُصْرَتِهِ.

فقيل لأَرْوىٰ: ألا تَرَيْنَ ابنكِ طُلَيْباً قد صَيَّر نفسه عِرضاً دون محمد؟!

فقالت: إن خير أيامه يوم نصر ابن خاله.

فقالوا: ولقد تبعتِ محمداً؟!

قالت: نعم. فخرج بعضهم إلى أبي لهب فأخبره، فأقبل حتى دخل عليها، فقال: عجباً لكِ، ولاتباعِكِ محمداً، وتَرْكِكِ دينَ عبد المطلب!

فقالت: قد كان ذلك، فَقُمْ دون ابن أخيكَ، واعْضُدْهُ وامنعه، فإِنْ يَظْهَرْ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٣٩) وقال: «صحيح غريب على شرط البخاري ولم يخرجاه»، ولم يوافقه الحافظ ابن حجر على تصحيحه كما في الإصابة - ترجمة طُليب بن عُمير.

(٢) (عَمَدَ): قَصَدَ.

(٣) قيل المضروب: أبو إهاب بن عزيز. وقيل غيره. انظر الإصابة - ترجمة طُليب بن عُمير.

أَمْرُهُ ، فأنت بالخيار أن تدخل معه ، أو تكون على دينكَ ، فإن يُصبْ كنت قد أعذرت في ابن أخيك.

فقال أبو لهبٍ: ولنا طاقةٌ بالعرب قاطبةً[1]؟ جاء بدين مُحْدَثٍ[2]! ثم انصرف.

* * *

(١) نعم ، العرب والمسلمون لهم طاقة بأمم الأرض قاطبةً ، فيما لو صدقوا النية ، وأعدو لأعدائهم ما استطاعوا من قوة. والتاريخ شاهد عَدْلٍ لا يكذبُ.

(٢) لا ، بل دينه - ﷺ - هو دين الأنبياء جميعاً ، وهو دين الإسلام.

أَبْكِي أَنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّماءِ

روىٰ مسلم في صحيحه (٢٤٥٤) عن أنس قال:

قال أبو بكر رضي الله عنه، بعد وفاة رسول الله ﷺ، لعُمَر: انطلقْ بنا إلىٰ أم أيمن نزورُها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها.

فلما انتهينا إليها بكتْ، فقالا لها: ما يبكيكِ؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ.

فقالت: ما أبكي أَنْ لا أكونَ أعلمُ أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء.

فَهَيَّجَتْهُما على البكاء فجعلا يبكيان.

قال ابن الأثير في أسد الغابة: «أم أيمن هي مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، واسمها بَرَكَةُ، وهي حبشية، فأعتقها عبد الله أبو رسول الله ﷺ. وأسلمت قديماً أول الإسلام.

وهاجرت إلى الحبشةِ، وإلى المدينة، وبايعت رسول الله ﷺ.

وقيل: إنها كانت لأخت خديجة، فوهبتها لرسول الله ﷺ.

وقيل: كانت لأم رسول الله ﷺ.

تزوجها زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ فولدت منه أسامة بن زيد، الحب ابن الحب. توفيت بعد رسول الله ﷺ بخمسة أشهر، وقيل بستة أشهر.

قلت: روى الإمام مسلم في صحيحه (١٧٧١) عن ابن شهاب الزهري قال: «وكان من شأن أم أيمن، أُمِّ أسامة بن زيد، أنها كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب. وكانت من الحبشة. فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ، بعد ما توفي أبوه، فكانت أم أيمن تحضنه، حتى كبر رسول الله ﷺ، فأعتقها. ثم أنكحها زيد بن حارثة. ثم توفيت بعدما توفي رسول الله ﷺ بخمسة أشهر».

قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ٤/٤١٧: «وهذا مرسل، ويعارضه حديث طارق [بن شهاب] أنها قالت بعد قتل عمر ما قالت، وهو موصول، فهو أقوىٰ، واعتمده ابن منده وغيره. وزاد ابن منده بأنها ماتت بعد عمر بعشرين يوماً، وجمع ابن السكن بين القولين بأن التي ذكرها الزهري هي مولاة النبي ﷺ، وأن التي ذكرها طارق بن شهاب هي مولاة أم حبيبة بركة.

وإنما كل منهما كان اسمها بركة، وتكنَّى أم أيمن وهو محتمل على بعد».

ومن صفات هذه المرأة الصالحة أنها كانت تُدِلُّ على رسول الله ﷺ لكونها حَضَنَتْهُ وربَّتْهُ.

فقد روىٰ الإمام مسلم في صحيحه (٢٤٥٤) عن أنس قال: انطلق رسول الله ﷺ إلى أم أيمن. فانطلقتُ معه. فناولته إناءً فيه شراب.

قال: فلا أدري أصادفته صائماً أو لم يُرِدْهُ. فجعلت تَصْخَبُ عليه[1]، وتَذَمَّر عليه[2].

وفي رواية لابن السَّكَنِ ـ كما في الإصابة ٤/٤١٦ ـ: كان النبي ﷺ يدخل علىٰ أم أيمن، فقرَّبت إليه لبناً، فإما كان صائماً، وإما قال: لا أريد. فأقبلت تُضَاحكه[3].

---

(١) (تصخب عليه): أي تصيح وترفع صوتها، إنكاراً لإمساكه عن شُرْب الشراب.

(٢) (وتَذَمَّرُ عليه): أي تتذمَّر وتتكلم بالغضب.

(٣) (تضاحكه): أي تضحك معه ﷺ.

قلت: وكانت هذه المرأة المسلمة تحضر المعارك الحربية التي خاضها المسلمون لنشر عقيدة التوحيد.

قال الواقدي: «حضرت أم أيمن أُحُداً[1]، وكانت تسقي الماء، وتداوي الجرحىٰ، وشهدت خيبر[2]».

* * *

(١) (أُحداً): أي معركة أحد. وكانت في السنة الثالثة للهجرة. انظر خبرها في نور اليقين ص(١٢٢ ـ ١٣١) بتحقيقي.

(٢) (خيبر): أي غزوة خيبر. وكانت في السنة السابعة للهجرة. انظر خبرها في نور اليقين ص(١٨٢ ـ ١٨٥) بتحقيقي.

أَرَدْتُ أَنْ تَزِيْدَنَا مِنْ سَلَامِكَ

أخرج الإمام مسلم في صحيحه (٢٠٣٨) ، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٣٢) ، والترمذي (٢٣٦٩) عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة. فإذا هو بأبي بكر وعمر. فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوعُ. يا رسول الله!

قال: وأنا. والذي نفسي بيده! لأخرجني الذي أخرجكما. قوموا». فقاموا معه. فأتىٰ رجلاً من الأنصار. فإذا هو ليس في بيته. فلما رأته المرأةُ قالت: مرحباً! وأهلاً!.

فقال لها رسول الله ﷺ: «وأين فلان؟».

قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء[1]. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه. ثم قال: الحمد لله. ما أحد اليوم أكرمَ أَضيافاً مني.

قال: فانطلق فجاءهم بِعِذْقٍ[2] فيه بُسْرٌ[3]، وتمرٌ، ورُطَبٌ[4]. فقال: كلوا من هذه. وأخذ المُدْية[5].

---

(١) أي يحضر لنا الماء العذْبَ.

(٢) (العذق): هو من التمر كالعنقود من العنب.

(٣) (البُسْرُ): ثمر النخل قبل أن يُرطِبَ.

(٤) (الرُّطَبُ): نضيج البسر قبل أن يصير تمراً، وذلك إذا لان وحلا، أو ثمر النخل إذا أدرك ونَضِجَ قبل أن يصير تمراً (الوسيط).

(٥) (المدية): هي السكين.

فقال له رسول الله ﷺ: «إياك! والحلوبَ[1]» فذبح لهم فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العِذْقِ ، وشربوا ، فلما أَنْ شبعوا ورَوُوا ، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده! لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة[2]. أخرجكم من بيوتكم الجوعُ. ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم».

وفي رواية الترمذي: خرج النبي ﷺ في ساعة لا يخرج فيها ، ولا يلقاه فيها أحد ، فأتاه أبو بكر فقال: ما جاء بك يا أبا بكر؟».

فقال: خرجت ألقىٰ رسول الله ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه ، فلم يلبث أن جاء عمر ، فقال: «ما جاء بك يا عمر؟».

قال: الجوعُ ، يا رسول الله!

قال: فقال رسول الله ﷺ: «وأنا قد وجدت بعض ذلك ، فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التَّيِّهانِ الأنصاري[3] ، وكان رجلاً كثير النخل والشاء[4] ، ولم يكن له خَدَمٌ ، فلم يجدوه ، فقالوا لامرأته: أين صاحبكِ؟

فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء ، فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بِقِرْبَةٍ[5]

---

(١) (الحَلوب): ذات اللبن. فعول بمعنى مفعول. كركوب ونظائره (شرح صحيح مسلم للنووي ١٣/ ٢١٤).

(٢) (لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة): أما السؤال عن هذا النعيم ، فقال القاضي عياض اليَحْصُبي: المُرادُ: السؤال عن القيام بحق شكره. قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٣/ ٢١٤): «والذي نعتقده أن السؤال هنا سؤال تعدد النعم ، وإعلامٌ بالامتنان بها ، وإظهار الكرامة بإسباغها ، لا سؤال توبيخ وتقريع ومحاسبة ، والله أعلم».

(٣) هو مالك بن التَّيِّهان الأنصاري الأوسي. صحابي جليل. كان أحد النقباء الاثني عشر. شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها. وكان شاعراً ، له قصيدة في رثاء النبي ﷺ يقول فيها:

لقد جُدعت آذاننا وأنوفنا ... غداة فُجِعْنا بالنبي محمدِ

توفي سنة (٢٠) هـ ، وقيل: شهد صِفِّين مع علي وقتل بها سنة (٣٧) هـ. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (١/ ١٨٩ ـ ١٩١) ، والأعلام ٥/ ٢٥٨).

(٤) (الشاء): الغنم.

(٥) (القِرْبة): ظرف من جلد يخرز من جانب واحد. وتستعمل لحفظ الماء ونحوه.

يَزْعَبُها[1] ، فوضعها ، ثم جاء يلتزم النبي ﷺ ، ويفدِّيه بأبيه وأمه[2] ، ثم انطلق بهم إلى حديقته ، فبسط لهم بساطاً ، ثم انطلق إلى نخلةٍ ، فجاء بِقِنْوٍ[3] ، فوضعه. فقال النبي ﷺ: «أفلا تنقَّيتَ لنا من رُطَبِهِ؟».

فقال: يا رسول الله! إني أردت أن تختاروا ـ أو قال: تخيَّروا ـ من رُطَبِهِ ، وَبُسْرِه ، فأكلوا ، وشربوا من ذلك الماء.

فقال رسول الله ﷺ: «هذا ، والذي نفسي بيده! من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظلٌّ بارد ، وَرُطَبٌ طيب ، وماء بارد».

فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً. فقال النبي ﷺ: «لا تذبحنَّ ذاتَ دَرٍّ»[4].

قال: فذبح لهم عَناقاً[5] ـ أو جَدْياً[6] ـ فأتاهم بها ، فأكلوا.

فقال النبي ﷺ: «هل لكَ خادمٌ[7]؟».

قال: لا.

قال: فإذا أتانا سبي[8] ، فائتنا ، فَأُتي النبي ﷺ برأسين[9] ليس معهما ثالث ، فأتاه أبو الهيثم. فقال النبي ﷺ: «اختر منهما».

فقال: يا نبي الله! اختر لي.

---

(١) (يَزْعَبُها): أي يتدافع بها ويحملها لثقلها ، وقيل: زَعَبَ بحمله: إذا استقام (النهاية).
(٢) (يفدِّيه بأبيه وأمه): أي يقول له: فداك أبي وأمي.
(٣) (القِنْو): العِذْق بما فيه من الرطب. والعِذق من التمر كالعنقود من العنب.
(٤) (ذات دَرٍّ): أي ذات لبن (النهاية).
(٥) (العَناق): الأنثىٰ من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول (الوسيط).
(٦) (الجدي): الذكر من أولاد المعز (الوسيط).
(٧) (الخادم): من يقوم بحاجتك. ويطلق على الذكر والأنثىٰ.
(٨) (سبي): أي أسرىٰ.
(٩) (برأسين): أي اثنين من السبي.

فقال النبي ﷺ: «إن المستشار مؤتمن ، خذ هذا ، فإني رأيته يصلي ، واستوصِ به معروفاً» .

فانطلق أبو الهيثم إلى امرأته ، فأخبرها بقول رسول الله ﷺ. فقالت امرأته : ما أنت ببالغٍ ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن تعتقه .

قال : فهو عتيق .

فقال النبي ﷺ: «إن الله لم يبعث نبياً ولا خليفةً إلا وله بطانتان : بطانة[1] تأمره بالمعروف ، وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه خَبَالاً[2] ، ومن يوقَ بطانة السوء فقد وُقي» . قال الترمذي : «هذا حديث حسن صحيح غريب» .

وذكر الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣١٦ ـ ٣١٧) عن ابن عباس قال : سمع عمرُ أن رسول الله ﷺ خرج يوماً عند الظهيرة[3] ، فوجد أبا بكر في المسجد جالساً .

فقال رسول الله ﷺ: «ما أخرجك في هذا الساعة؟» قال لرسول الله ﷺ: ما أخرجك؟ .

قال : «أخرجني الذي أخرجك» .

ثم إن عمر جاء ، فقال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب! ما أخرجك هذه الساعة؟» .

قال : أخرجني يا رسول الله! الذي أخرجكما . فقعد معهما ، فجعل رسول الله ﷺ يحدثهما .

فقال لهما رسول الله ﷺ: «هل بكما من قوة فتنطلقان إلى هذا النخل ، فتصيبان من طعام وشراب؟» .

فقلنا : نعم ، يا رسول الله!

---

(١) (البطانة) : بطانة الرجل : صاحب سرّه ودَاخلة أمره الذي يشاوره في أحواله (النهاية) .

(٢) (لا تألوه خبالاً) : أي لا تقصرفي إفساد حاله (النهاية) .

(٣) (الظهيرة) : شدة الحر نصف النهار (النهاية) .

فانطلقنا حتى أتينا منزل مالك بن التَّيِّهانِ ، أبي الهيثم الأنصاري. فتقدم رسول الله ﷺ بين أيدينا ، فاستأذن عليهم ، وأم أبي الهيثم تسمع السلام ، تريد أن يزيدهم رسول الله ﷺ من السلام. فلما أراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينصرف ، خرجت أم أبي الهيثم تسعىٰ. فقالت: يا رسول الله! قد سمعت سلامك ، ولكن أردت أن تزيدنا من سلامك.

فقال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: «أين أبو الهيثم؟».

قالت: قريبٌ ، ذهب ، يا رسول الله! يستعذب لنا من الماء. ادخلوا ، الساعة يأتي.

فبسطت لنا بساطاً تحت شجرة ، حتى جاء أبو الهيثم مع حماره ، وعليه قِرْبتان من ماء ، ففرح بهم أبو الهيثم ، وقرب يُحَيِّيهم ، فصعد أبو الهيثم على نخلة ، فصرم[1] أعذاقاً[2] ، فقال رسول الله ﷺ: «حسبك ، يا أبا الهيثم!».

قال: يا رسول الله! تأكلون من بُسْرِه ، ومن رطبه ، وتَذْنوبه[3] ، ثم أتاهم بماء فشربوا عليه.

فقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه».

ثم قام أبو الهيثم إلى شاة ليذبحها ، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والَّلبون[4]».

ثم قام أبو الهيثم فعجن لهم ، ووضع رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر ، رؤوسهم ، فناموا ، فاستيقظوا ، وقد أدرك طعامهم ، فوضعه بين أيديهم ، فأكلوا ، وشبعوا ، وأتاهم أبو الهيثم ببقية الأَعْذاقِ ، فأصابوا منه ، وسلم

---

(١) (صَرَم): قطع من النخلة.

(٢) (أعذاقاً): جمع عِذقٍ ، وهو من التمر كالعنقود من العنب.

(٣) (التَّذْنُوبُ) الذي بدا فيه الإرطاب من قبل ذنبه: أي طرفه. انظر النهاية.

(٤) (اللَّبون): ذات اللبن.

رسول الله ﷺ ودعا لهم بخير ، ثم قال لأبي الهيثم : «إذا بلغك أنه قد أتانا رقيق فائتنا» .

قال: أبو الهيثم : فلما بلغني أنه أَتىٰ رسول الله ﷺ رقيقٌ ، أتيت المدينة ، فأعطاني رسول الله ﷺ رأساً[1] ، فكاتَبْتُهُ[2] على أربعين ألف درهم . فما رأيت رأساً كان أعظم بركة منه .

وفي رواية : قالت أم الهيثم : لو دعوتَ لنا؟

قال: «أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة» .

قال الحافظ الهيثمي: «رواه البزار وأبو يعلى باختصار قصة الغلام ، والطبراني كذلك ، وفي أسانيدهم كلها عبد الله بن عيسىٰ ، أبو خلف ، وهو ضعيف ، وقال أبو يعلى والطبراني: «أمُّ الهيثم» ، وقال البزار: «أم أبي الهيثم» .

* * *

(١) (رأساً) : أي خادماً واحداً .

(٢) (فكاتبته) : الكتابة : أَنْ يكاتب الرجل عبده على مالٍ يؤديه إليه منجماً ـ على أقساطٍ ـ فإذا أَدّاه صار حُرّاً (المعجم الاقتصادي الإسلامي) .

مَرْحَباً بِرَسُولِ اللهِ وَبِمَنْ مَعَهُ

عن ابن عباس قال: خرج أبو بكرٍ بالهاجِرَةِ[1]، فسمع بذاك عُمَرُ، فخرج، فإذا هو بأبي بكرٍ، فقال: يا أبا بكر! ما أخرجَك هٰذه الساعةَ؟

فقال: أخرجني والله! ما أجد من حَاقِّ الجوع[2] في بطني.

فقال: وأنا والله! ما أخرجني غيره.

فبينما هما إذ خرج عليهما النبي ﷺ. فقال: «ما أخرجكما هذه الساعة؟».

فقالا: أخرجنا والله! ما نجد في بطوننا من حاقِّ الجوعِ.

فقال النبي ﷺ: «وأنا والذي نفسي بيده! ما أخرجني غيره».

فانطلقوا حتى أتوا باب أبي أيوب الأنصاري[3]. وكان أبو أيوب ذكر

---

(١) (الهاجرة): اشتداد الحرِّ نصف النهار (النهاية).

(٢) (حاقّ الجوع): أي صادقه وشدته. ويروىٰ بالتخفيف، من حاق به يحيق حيقاً وحاقاً إذا أحدق به، يريد من اشتمال الجوع عليه. فهو مصدر أقامه مقام الاسم، وهو مع التشديد اسم فاعل من حقَّ يَحِقُّ (النهاية).

(٣) هو خالد بن زيد الأنصاري، صحابي، شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد. وكان شجاعاً صابراً تقياً محباً للغزو والجهاد في سبيل الله. شارك في غزو القسطنطينية ـ معقل المسيحية الشمالية ـ فحضر الوقائع ومرض فأوصىٰ أن يوغل به في أرض الروم، فلما توفي سنة (٥٢) هـ دفن في أصل حصن القسطنطينية (استانبول) وقد أكرم الله المسلمين بفتح القسطنطينية على يد البطل المسلم محمد الفاتح يوم الثلاثاء (٢٠) جمادىٰ الآخرة سنة (٨٥٧) هـ = (١٤٥٣) م. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء والأعلام.

لرسول الله ﷺ طعاماً ـ أو لبناً ـ فأبطأ يومئذ فلم يأت لِحِيْنِهِ ، فأطعمه أهله ، وانطلق إلى نخله يعمل فيه . فلما أتَوْا باب أبي أيوب ، خرجت امرأته فقالت : مرحباً برسول الله ـ ﷺ ـ وبمن معه .

فقال لها رسول الله ﷺ : «فأين أبو أيوب؟» .

قالت : يأتيكَ يا نبي الله! الساعة ، فرجع رسول الله ﷺ ، فبصر به أبو أيوب وهو يعمل في نخل له . فجاء يَشْتَدُّ[1] ، حتى أدرك رسول الله ﷺ. فقال : مرحباً بنبي الله ﷺ وبمن معه .

فقال : يا رسول الله! بالحين الذي كنت تجيئني فيه . فرده . فجاء إلى عِذْقِ النخلة فقطعه . فقال رسول الله ﷺ : «ما أَرَدْتَ إلى هذا؟» .

قال : يا رسول الله! أردت أن تأكل من رُطَبِهِ ، وبُسْرِهِ وتمره ، وتَذْنُوبه[2] ، لأذبحنَّ لك مع هذا .

قال : «إن ذبحت فلا تذبحنَّ ذات دَرٍّ[3]» ، فأخذ عناقاً[4] ـ أو جَدْياً[5] ـ فذبحهُ ، وقال لامرأته : اختبزي ، وأطبخ أنا ، فأنت أعلم بالخبز ، فعمد إلى نصف الجدي فطبخه ، وشوىٰ نصفه ، فلما أدرك الطعام ، وضعه بين يدي رسول الله ﷺ وأصحابه ، فأخذ رسول الله ﷺ من الجدي ، فوضعه على رغيفٍ ، ثم قال : «يا أبا أيوب! أبلغ بهذا إلى فاطمة ، فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام» .

فلما أكلوا وشبعوا قال النبي ﷺ : «خبز ، ولحم ، وبُسْرٌ ، ورُطبٌ» ودمعت عيناه ، ثم قال : «هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة» . فكبر ذلك على أصحابه ، فقال رسول الله ﷺ : «إذا أصبتم مثل هذا ، وضربتم

---

(١) (يشتدُّ) : أي يسرع في عَدْوِه .
(٢) تقدم شرحها قبل قليل .
(٣) تقدم شرحها قبل قليل .
(٤) تقدم شرحها قبل قليل .
(٥) تقدم شرحها قبل قليل .

بأيديكم، فقولوا: بسم الله، وبركة الله، وأنعم، وأفضل، فإن هذا كفاف بهذا».

وكان رسول الله ﷺ لا يأتي أحد إليه معروفاً إلا أحب أن يجازيه. فقال لأبي أيوب: «ائتنا غداً» فلم يسمع. فقال له عمر: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تأتيه، فلما أتاه أعطاه وليدة[1].

فقال: «يا أبا أيوب! استوصِ بها خيراً، فإنا لم نر إلا خيراً ما دامت عندنا».

فلما جاء بها أبو أيوب قال: ما أجد لوصية رسول الله ﷺ خيراً من أن أعتقها فأعتقها.

قال الحافظ الهيثمي في المجمع ١٠/٣١٨: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه عبد الله بن كيسان المروزي، وقد وثقه ابن حِبَّانَ، وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح».

* * *

(١) (وليدة): جارية.

رَبِحَ البَيْعُ يا أَبَا الدَّحْدَاحِ!

عن زيد بن أَسْلَمَ قال: لما نزل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

قال أبو الدَّحْداح[١]: فداكَ أبي وأمي، يا رسول الله! إنَّ الله يستقرضنا وهو غني عن القرض؟! قال: «نعم، يريد أن يدخلكم الجنة به». قال: فإني قد أقرضت ربي قرضاً يضمن لي به ولصبيتي الدَّحداحة معي في الجنة؟

قال: نعم.

قال: ناولني يدك، فناوله رسول الله ﷺ يده.

فقال: إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة[٢] والأخرى بالعالية[٣]. والله! لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضاً لله تعالى.

قال رسول الله: «اجعل إحداهما لله، والآخرة دعها معيشة لك ولعيالك».

قال: فأشهدك، يا رسول الله! أني قد جعلت خيرهما لله تعالى، وهو حائط[٤] فيه ست مئة نخلة.

---

(١) صحابي أنصاري. قال أبو عمر بن عبد البر: لا أقف على اسمه ولا نسبه أكثر من أنه من الأنصار، حليف لهم.

(٢) (السافلة): يطلق على ما كان شاميَّ المدينة المنورة. (المعالم الأثيرة ص: ١٣٧).

(٣) (العالية): منطقة في جنوبي المدينة المنورة. وتعد «قُباء» من العوالي. وهي اليوم من أحياء المدينة المنورة.

(٤) (حائط): أي بستان.

قال: «إذاً يجزيك الله به الجنة».

فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أم الدحداح وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النخل. فأنشأ يقول:

هداكِ رَبِّي سُبلَ الرَّشَادِ إلى سَبِيلِ الخَيْرِ والسَّدادِ
بِيْنِي[1] من الحائِطِ بالوِدَادِ فَقَدْ مَضَىٰ قَرْضاً إلى التَّنَادِ
أَقْرَضْتُهُ اللهَ على اعتمادي بالطَّوع لا مَنٌّ ولا ارتدادِ
إلَّا رجاءَ الضِّعْفِ في المَعادِ فارْتَحِلي بالنَّفْسِ والأَوْلادِ
والبرّ لا شكَّ فخيرُ زَاد قَدَّمَهُ المَرْءُ إلىٰ المَعَادِ

فقالت أُمُّ الدَّحْداح: رَبِحَ بَيْعُكَ! باركَ اللهُ لك فيما اشتريتَ! وأجابته أمُّ الدَّحداح، وأنشأتْ تقولُ:

بَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ وَفَرَحْ مِثْلُكَ أَدّىٰ مَا لَدَيْهِ ونَصَحْ
وقَدْ مَتَّعَ اللهُ عِيالي ومَنَحْ بالعَجْوَة السَّوْداء والزَّهو[2] البَلَحْ
والعبدُ يَسْعى ولهُ ما قَدْ كَدَحْ[3] طُولَ اللَّيالي وعليهِ ما اجْتَرَحْ[4]

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تخرج ما في أفواههمَ، وتنفض ما في أكمامهم، حتى أفضت إلى الحائط الآخر. فقال النبي ﷺ: «كم من عذْقٍ[5] رَدَاحٍ[6]، ودار فيَّاح[7] لأبي الدَّحْدَاحِ» أي في الجنة. كذا في كتاب الإيمان والحياة ص(٢٢٤ ـ ٢٢٥) لفضيلة الدكتور القرضاوي.

وروىٰ الحافظ أبو يعلى في مسنده (٨/ ٤٠٤) بسنده إلى عبد الله بن مسعود

---

(١) (بيني): اخرجي.
(٢) (الزهو): البُسْر المتلون. والبُسْرُ: ثمر النخل قبل أن يُرطِبَ.
(٣) (كدَح): سعىٰ وكدَّ ودأَب.
(٤) (اجترح): اكتسب. وأكثر ما يستعمل في الجرائم.
(٥) (عذق): بكسر العين: الكباسة، وهو من التمر كالعنقود من العنب. وبفتح العين: النخلة.
(٦) (رداح): درجة رداح: أي عظيمة.
(٧) (فيّاح): أي واسعة.

قال: لما نزلت ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال أبو الدحداح. يا رسول الله! إنّ الله يريد منا القرض؟

قال: «نعم، يا أبا الدحداح!».

قال: أرنا يدك.

قال: فناوله يده.

قال: قد أقرضت ربي حائطي[1] ـ وحائطه فيه ست مئة نخلة ـ فجاء يمشي حتى أتى الحائط، وأم الدحداح فيها وعيالها، فنادى: يا أم الدحداح!

قالت: لبيك.

فقال: اخرجي فقد أقرضته ربي.

ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٤) وقال: «رواه أبو يعلىٰ، والطبراني، ورجالهما ثقات، ورجال أبي يعلىٰ رجال الصحيح». وقال البوصيري: «رواه أبو يعلى بسند ضعيف».

وأخرج أحمد في المسند (٣/ ١٤٦)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٠٠) برقم (٧٦٣) وصححه ابن حبان (٢٢٧١) موارد الظمآن واللفظ له، عن أنس بن مالك قال: أتىٰ رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن لفلان نخلة، وأنا أقيم حائطي بها، فمره يعطيني أقيم بها حائطي.

فقال رسول الله ﷺ: «أعطه إياها بنخلة في الجنة»، فأبىٰ، فأتاه أبو الدحداح فقال: بعني نخلتك بحائطي، ففعل، فأتىٰ أبو الدحداحِ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله! إني ابتعت[2] النخلة بحائطي، فاجعلها له.

فقال النبي ﷺ: «كم من عِذْقٍ[3] دَوَّاحٍ[4] لأبي الدحداح في الجنة» مراراً.

---

(١) (حائطي): أي بستاني.
(٢) (ابتعتُ): أي اشتريت.
(٣) (عذق): تقدم شرحها قريباً.
(٤) (دوَّاح): أي عظيم شديد العلو. وكل شجرة عظيمة دوحةٌ.

فأتىٰ أبو الدحداح امرأته فقال: يا أم الدحداح! اخرجي من الحائط فقد بعته بنخلة في الجنة. فقالت: ربح السِّعْرُ.

وفي رواية أحمد: ربح البيع أو كلمة تُشْبِهُها.

* * *

أَتَرُدُّون عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ أَمْرَهُ؟!

عن حَمَّاد بن سَلَمَةَ ، عن ثابتٍ البُنانِيِّ ، عن كِنانَةَ بن نُعَيم العَدَوِيِّ ، عن أَبي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ: أن جُلَيْبيباً كان امرءاً من الأنصار ، وكان يدخل على النساء[1] ، وكان يتحدث إليهن .

قال أبو بَرْزَةَ: فقلت لامرأتي: لا يدخلَنَّ عليكم جُلَيبيبٌ .

قال: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا كان لأحدهم أَيِّمٌ[2] لم يُزَوِّجْها حتى يعلمَ: أَلرسول الله ـ ﷺ ـ حاجة أم لا؟

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم لرجل من الأنصار: «زَوِّجْني ابْنَتَكَ» .

قال: نعم ، ونُعْمىٰ عين .

قال: «إني لست لنفسي أريدها» .

قال: فَلِمَنْ؟

قال: «لِجُلَيبيب» .

قال: يا رسول الله! حتىٰ أستأمرَ أُمَّها .

فأتاها فقال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ يخطب ابنتكِ .

قالت: نعم ، ونُعْمىٰ عينٍ .

---

(١) (كان يدخل على النساء): هذا محمول على دخوله قبل نزول آيات الحجاب .

(٢) (أَيِّم): المرأة التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً (جامع الأصول ٩/ ٩٩) .

قال: إنه ليست لنفسه يريدها.

قالت: فلمن يريدها؟

قال: لِجُلَيبيب.

قالت: حَلْقاً[1]! لِجُلَيْبِيبٍ؟!

قالت: لا، لعمرُ الله! لا أزوج جُلَيبيباً.

فلما قام أبوها ليأتي النبيَّ ـ ﷺ ـ قالت الفتاةُ: أَتَرُدُّون على رسول الله ـ ﷺ ـ أَمْرَهُ؟

ادفعوني إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فإنه لن يُضَيِّعَني.

فذهب أبوها إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: شأنُكَ بها، فزوَّجها جُلَيبيباً.

قال حمَّادٌ: قال إسحاق بن أبي طَلْحَة: هل تدري ما دعا لها به رسول الله ﷺ؟

قال: وما دعا لها به؟

قال: «اللَّهُمَّ! صُبَّ الخيرَ عليها صَبّاً، ولا تجعلْ عَيْشَها كَدّاً»[2].

قال ثابِتٌ: فزوَّجها إياه. فبينا رسول الله ﷺ في غزاته، قال: «تَفْقِدُون من أَحَدٍ؟».

قالوا: نفقد فلاناً وفلاناً.

ثم قال ﷺ: «هل تفقدون من أحدٍ؟».

قالوا: لا.

قال: «لكني أَفْقِدُ جُلَيبيباً، فاطلبوه في القتلىٰ» فوجدوه إلى جنب سبعة قد

---

(١) (حَلْقاً): كلمة يدعىٰ بها على الإنسان، وأصلها: أن يصاب بوجع في حَلْقِهِ. والمحدثون يروونه غير منون، وهو عند أهل اللغة منون (جامع الأصول ٩/ ٩٩ ـ ١٠٠).

(٢) (الكَدُّ): الشدة والتعب. (جامع الأصول ٩/ ١٠٠).

قتلهم ، ثم قتلوه ، فقال رسول الله ﷺ: «أقتلَ سبعةً ثم قتلوه؟ هذا مني وأنا منه». يقولها سبعاً.

فوضعه رسول الله ﷺ على ساعِدَيْه ، مَالَهُ سَرِيرٌ إلا ساعِدَيْ رسول الله ﷺ. حتى وضعه في قبره.

قال ثابت: وما كان في الأنصارِ أَيِّمٌ أَنْفَق منها[1].

أخرجه أحمد (٤/٤٢٢) ، وصححه ابن حبان (٢٢٦٨) موارد الظمآن واللفظ له. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٣٦٧ ـ ٣٦٨): «هو في الصحيح ـ صحيح مسلم (٢٤٧٢) ـ خالياً عن الخطبة والتزويج ، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

وفي رواية عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ على جُلَيبيب امرأةً من الأنصار إلى أبيها ، فقال: حتى أستأمر أمها. قال: «نعم إذاً». فذهب إلى امرأته ، فذكر ذلك لها ، فقالت: لاها اللهِ[2] إذاً ، وقد مَنَعْنَاها فُلاناً وفلاناً.

قال: والجاريةُ في خِدْرها تسمعُ ، فقالت الجارية: أَتَرُدُّونَ على رسول الله ﷺ أمره؟ إنْ كان رضيه لكم فأنْكِحوها.

قال: فكأنما حلَّتْ عن أَبَوَيْها ، قالا: صَدَقْتِ. فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إنْ رضيْتَهُ لنا ، رَضِيْنَاهُ.

قال: «فإنِّي أَرْضَاهُ». فزوَّجها. ففزع أهل المدينة ، وخرجت امرأة جُلَيبيب وقتها فوجدت زوجها قد قتل وتحته قتلىٰ من المشركين قتلهم.

قال أنس: فما رأيت بالمدينة ثيِّباً أَنْفَقَ منها.

أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٠٣٣٣) ، وأحمد (٣/١٣٦) ، وعبد بن حميد في المنتخب من المسند رقم (١٢٤٥) ، والبزار (٢٧٤١) ، وصححه ابن

---

(١) (أنفق منها): من النفاق وهو ضدُّ الكساد. يعني أنها لم تلبث مدة طويلة بعد وفاة زوجها حتىٰ جاءها الخُطَّاب.

(٢) (لا ها اللهِ): لا والله.

حبان (٢٢٦٨) موارد الظمآن ، واللفظ له. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٦٨): «ورجال أحمد رجال الصحيح».

وترجم ابن الأثير في أسد الغابة (١/ ٣٤٨) لجُلَيبيب فقال: جُلَيبِيب بضم الجيم على وزن قُنَيْدِيل ، وهو أنصاري. له ذكر في حديث أبي بَرْزَةَ الأسلمي في إنكاح رسول الله ﷺ ابنة رجل من الأنصار ، وكان قصيراً دميماً[1] ، فكأَنَّ الأنصاري أبا الجارية وامرأته كرها ذلك ، فسمعت الجارية بما أراد رسول الله ﷺ ، فتَلَتْ قول الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقالت: رضيتُ ، وسَلَّمْتُ لما يرضىٰ لي به رسولُ الله ﷺ. فدعا لها رسول الله ، وقال: «اللَّهُمَّ! اصْبُبْ عليها الخَيْرَ صبّاً ، ولا تجعل عَيْشَها كَدّاً» ، فكانت من أكثر الأنصار نَفَقَةً ومالاً.

* * *

(١) (دميماً): قبيحاً غير جميل المنظر.

طاعةُ الله وطاعةُ رسوله خيرٌ لكِ

أخرج مسلم في صحيحه (١٤٨٠/٤٧) عن أبي بكر بن أبي الجَهْمِ بن صُخَيْرٍ العَدَوِيِّ قال: سمعت فاطمة بنت قيس[١] تقول: إنَّ زوجها طلَّقها ثلاثاً. فلم يجعل لها رسول الله ﷺ سُكْنىٰ ولا نفقةً.

قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا حَلَلْتِ فآذنيني[٢]». فآذَنْتُهُ.

فخطبها معاويةُ، وأبو جَهْمٍ، وأسامةُ بن زيد.

فقال رسول الله ﷺ: «أما معاويةُ فرجلٌ تَرِبٌ[٣] لا مالَ له. وأمَّا أبو جَهْمٍ فرجُلٌ ضَرَّابٌ للنساء. ولكنْ أُسَامَةُ بن زيدٍ».

فقالت بيدها هكذا: أُسَامةُ! أُسَامَةُ!

فقال لها رسول الله ﷺ: «طاعةُ اللهِ وطاعةُ رسولِهِ خَيْرٌ لَكِ».

قالت: فَتَزَوَّجْتُهُ فاغْتَبَطْتُ به[٤].

---

(١) هي فاطمة بنت قيس بن خالد القرشية الفِهْرِيَّةُ، أخت الضحَّاك بن قيس الأمير: صحابية، من المهاجرات الأول، ذات جمال وعقل، راوية للأحاديث. في بيتها اجتمع أهل الشورى عند قتل عمر رضي الله عنه. أخرج لها الستة. توفيت نحو سنة (٥٠) هـ. انظر ترجمتها في الأعلام والإصابة وغير ذلك.

(٢) (إذا حَلَلْتِ فآذنيني): أي إذا انقضت عدتكِ فأعلميني.

(٣) (تربٌ لا مال له): التربُ هو الفقير.

(٤) (فاغتبطت به) الغبطةُ: الفرح والسرور بالشيء.

وفي رواية أخرى لمسلم (١٤٨٠/ ٣٦) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن فاطمة بنت قيس؛ أَنَّ أبا عَمْرِو بن حفص طلقها البتَّة[١]. وهو غائب. فأرسل إليها وكيلُهُ بشعير. فَسَخِطَتْهُ[٢].

فقال: والله! مالكِ علينا من شيءٍ.

فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له.

فقال: «ليس لكِ عليه نَفَقَةٌ». فأمرها أن تَعْتَدَّ[٣] في بيت أم شَرِيكِ. ثم قال: «تِلْكَ امرأة يغشاها[٤] أصحابي. اعتدِّي عند ابن أُمِّ مكتومٍ. فإنه رجلٌ أَعْمىٰ. تَضَعين ثيابكِ[٥]، فإذا حَلَلْتِ فآذِنِيْني».

قالت: فلما حَلَلْتُ ذكرتُ له؛ أَنَّ معاوية بن أبي سفيان وأبا جَهْمٍ خَطَباني.

فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جَهْمٍ فلا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِه[٦]. وأما معاويةُ فَصُعْلُوكٌ[٧] لا مالَ له. انْكِحِي أُسامةَ بنَ زَيْدٍ». فَكَرِهْتُهُ. ثم قال: «انْكِحي أسامة» فَنَكَحْتُهُ فجعل الله فيه خيراً، واغتبطْتُ.

وفي رواية عند مسلم (١٤٨٠/ ٤٩): قالت: «فَتَزَوَّجْتُهُ فَشَرَّفَني اللهُ بأبي زيد[٨]، وكرَّمني اللهُ بأبي زَيْدٍ».

* * *

---

(١) (طلّقها البتّة): أي طلاقاً بائناً.
(٢) (فسخطَتْهُ): أي ما رضيتْ به لكونه شعيراً، أو لكونه قليلاً.
(٣) (أن تعتدَّ): أي تستوفي عدَّتها.
(٤) (يغشاها): فلان يغشاه الناس: إذا كانوا يأتونه ويقصدون منزله كثيراً (جامع الأصول: ٨/ ١٤٠).
(٥) (تضعين ثيابكِ): أي لا تخافين من رؤية رجلٍ لك.
(٦) (فلا يضع عصاه عن عاتقه): أراد التأديب والضربَ، وقيل: أراد به كثرة الأسفار عن وطنه (جامع الأصول ٨/ ١٤١). والعاتق: هو ما بين العنق إلى المَنْكِبِ.
(٧) (صُعلوك): أي فقير في الغاية.
(٨) (بأبي زيد): هي كنية أسامة بن زيد. ويقال: أبو محمد.

إِن رُزِئتُ خَلَّاداً فَلَا أُرْزَأُ حَيائِي

أخرج أبو داود (٢٤٨٨)، وأبو يعلىٰ في المسند (١٥٩١) وفي المفاريد (١٠٢) عن عبد الخبير بن ثابت بن قيس بن شمَّاس، عن أبيه، عن جده قال:

قتل ـ يوم قريظة ـ رجل من الأنصار يدعىٰ خَلَّاداً.

فقيل لأمه: يا أمَّ خلَّاد! قتل خَلَّادٌ. فجاءت وهي مُتَنَقِّبة[1].

فقيل لها: قتل خلَّاد وتجيئيننا مُتَنَقِّبَة؟

قالت: إن رُزِئْتُ خلّاداً فلا أُرْزَأ حيائي[2].

فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «أَما إِنَّ لَهُ أَجْرَ شَهِيْدَيْنِ».

قيل: يا رسول الله! وَبِمَ؟

قال: «لأَنَّ أهلَ الكتابِ قَتَلُوْهُ».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٣٢٤):

«ولم تَزَلْ عادةُ النساء قديماً وحديثاً يَسْتُرْنَ وجوهَهُنَّ عن الأجانب».

قلتُ: وكانت هُدى شِعراوي بنت محمد سلطان باشا، أول مصرية مسلمة

---

(١) (متنقِّبة): أي واضعة النقاب على وجهها. والنقاب ـ كما جاء في المعجم الوسيط ـ: القناع تجعله المرأة على مارن أنفها تستر به وجهها.

(٢) (إن رزئت خلاداً فلا أرزأ حيائي): أي إن أصبت به، وفقدته، فلم أصب بحيائي. والرُّزْءُ: المصيبة بفقد الأعِزَّةِ. وهو من الانتقاص أيضاً.

رفعت الحجاب ، وخرجت سافرةً في سنة (١٩١٩) م ، كما في الأعلام (٧٩/٨).

وكان ذلك نتيجة مؤامرة دُبِّرَتْ بِلَيْلٍ ، وحيكت خيوطها في ظلام ، ابتغاء إفساد المجتمع العربي الإسلامي ، بإفساد نسائه ومُرَبِّياتِهِ.

وطيلة قَرْنٍ كامل عملت الأفكار الغربية والغريبة على إزالة عنصر الحياء من قاموس المرأة العربية الأصيلة ، ليتسنَّىٰ لشياطين الإنس أن يعيثوا فساداً وتخريباً في جسم الأمة.

وروىٰ مسلم في صحيحه (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البَجَليِّ ، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنةً فله أَجْرُها ، وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بها من بَعْدِه ، مِنْ غَيْر أَنْ يَنْقُصَ من أُجُورهم شَيء.

ومَنْ سَنَّ في الإسْلام سُنَّةً سَيِّئَةً كان عليه وِزْرُها ، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْر أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزارِهم شَيء».

* * *

بَخٍ بَخٍ لَكَ يا حارِثَةُ!

أخرج البخاري (٣٩٨٢) عن أنس بن مالك قال:

أصيب حارثة[١] يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه[٢] إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى تَرَ ما أصنعُ.

فقال: «ويحكِ! أَوَ هَبِلْتِ[٣]؟ أَوَ جَنَّةٌ واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس».

وفي رواية ابن حبان (٢٢٧٢) موارد الظمآن، عن أنس قال:

انطلق حارثة ابن عمتي نظّاراً[٤] يوم بدر، ما انطلق لقتالٍ، فأصابه سهم، فقتلهُ، فجاءت عمَّتي أمُّهُ إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! ابني حارثة إنْ يكن في الجنة، أصبرُ وأحتسب، وإلا فسترى ما أصنعُ.

فقال لها: «يا أم حارثة، إنها جنان كثيرة، وإن حارثة في الفردوس الأعلى».

---

(١) هو حارثة بن سُراقة، ابن عمة أنس بن مالك.

(٢) هي أم الرُّبَيِّع بنت النَّضْرِ، عمة أنس بن مالك.

(٣) (أَوَ هَبِلْتِ؟): هو بفتح الهاء وكسر الباء، وقد استعاره هاهنا لفقد المَيْز والعقل مما أصابها من الثُّكْلِ بولدها، كأنه قال: أَفَقَدْتِ عَقْلَكِ بِفَقْدِ ابْنِكِ، حتىٰ جَعَلْتِ الجنانَ جنة واحدة؟ (النهاية).

(٤) (النّظارة): القوم الذين يقعدون في مرتفع من الأرض ينظرون منه القتال ولا يشهدونه.

وفي رواية ابن الأثير في (أسد الغابة) ١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦ عن أنس قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي، إذْ استقبله شاب من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «كيف أصبحت يا حارثُ[١]؟».

قال: أصبحتُ مؤمناً بالله حقاً.

قال: «انظر ماذا تقول؟ فإن لكل قول حقيقةً».

قال: يا رسول الله! عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا[٢]، فأسهرتُ ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني بعرش ربي عز وجلَّ بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوَوْن فيها.

قال: «الزمْ، عبد نوَّر الله الإيمانَ في قلبه».

فقال: يا رسول الله! ادعُ الله لي بالشهادة، فدعا له رسول الله ﷺ. فنودي يوماً في الخيل، فكان أول فارسٍ ركب، وأول فارس استشهد، فبلغ ذلك أمه، فجاءت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إنْ يكن في الجنة لم أبْكِ ولم أحْزَنْ، وإنْ يكن في النار بكيتُ ما عشتُ دار الدنيا.

قال: «يا أم حارثةَ! إنها ليست بجنة واحدة، ولكنها جنان، وإن حارثة في الفردوس الأعلى».

فرجعت أمه، وهي تضحكُ، وتقولُ: بخٍ بخٍ[٣] يا حارثة!

قال ابن الأثير: «قيل إنه أول من قتل من الأنصار ببدرٍ، وقال ابن مندة: إنه شهد بدراً، واستشهد يوم أحد، وأنكره أبو نُعيم، واتبعَ ابنُ منده قولَهُ ذلك بروايتِهِ عن ابن إسحاق وأنس، أنه أصيب يوم بدر».

---

(١) (يا حارثُ): حارثُ منادىً مُرَخَّمٌ.

(٢) (عزفت نفسي عن الدنيا): أي عافتها وكرهتها. ويروىٰ: «عَزَفْتُ نفسي عن الدنيا» بضم التاء: أي منعتُها وصرفْتُها (النهاية).

(٣) (بخ بخ): هي كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء، وتكرر للمبالغة، وهي مبنية على السكون، فإن وَصَلْتَ جَرَرْتَ ونوَّنْتَ فقلتَ: بخٍ بخٍ (النهاية).

إِيْثَارُ امْرَأَةٍ وَزَوْجِهَا

أخرج الحافظ أبو يعلى في مسنده (٦١٨٢) عن أبي هُريرةَ؛ أَنَّ ضيفاً نزل برسول الله ـ ﷺ ـ يوماً ، فأرسل إلى نسائه : «هل عندكم من شيءٍ ، فَقَدْ نَزَلَ بي ضَيْفٌ اللَّيْلَةَ؟» .

فأرسلْنَ إليه : لا ، والذي بعثكَ بالحقِّ! ما عندنا إلا الماءُ .

قال : فبينما هو كذلك ، إذ جاء رجل من الأنصار ، فقال نَبِيُّ اللهِ : «أَعِنْدَكَ شيءٌ نَذْهَبُ بضيفِنا هٰذِهِ الليلةَ؟» .

قال الأنصاريُّ : نَعَمْ ، يا نَبِيَّ اللهِ!

قال : فانطلق بالضيف . قال : فلما أتىٰ منزله ، قال للمرأة : أعندكِ شيءٌ؟

قالت : نعم ، خُبْزَةٌ لنا .

قال : فكأَنَّكِ تُصْلحينَ المِصْباحَ ، فَأَطْفِئيه ، وَضَعِي الخُبْزَ ، فجعل يدخل يده مع الضيف ، هو وامرأته ، ويرفعون أيديهم إلى أفواههم ولا يأكلون شيئاً ، وخَلَّوا بين الضيف والخبز ، فأكلها ، فلما أصبح انطلق الضيفُ إلى حاجته .

قال الأنصاري : بلغ ساعتي التي آتي فيها رسول الله ﷺ . قال : فجئتُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فنظرَ إليَّ من بعيد ، قال : «ما صَنَعْتَ بضيفكَ اللَيْلَةَ؟» .

قال: فظننتُ أنَّ الضيفَ شكاني إلى رسول الله ، فقلت: يا رسولَ اللهِ! فقلتُ كذا وكذا.

قال: «أَتَاني جِبريلُ ـ عليه السلام ـ فأخبرني أَنَّ ربَّكَ عَجِبَ مِمَّا صَنَعْتَ بضيفك ، أو قال: ضَحِكَ».

وروى البخاري و مسلم عن أبي هريرة كما في جامع الأصول (٩/ ٧٣ ـ ٧٤) ، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهودٌ[١] ، فأرسل إلى بعض نسائه ، فقالت: والذي بعثك بالحق! ما عندي إلا ماء.

ثم أرسل إلى أخرىٰ ، فقالت مثل ذلك ، وقلن كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذلك ، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يُضيفُهُ يَرْحَمُهُ الله؟» فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة فقال: أنا ، يا رسول الله! فانطلق به إلى رَحْلِهِ[٢] ، فقال لامرأته: هل عندكِ شيء؟

قالت: لا ، إلا قُوت صبياني.

قال: فَعَلِّليهم[٣] بشيء ، ونوِّميهم ، فإذا دخل ضيفُنا فَأَريه أَنَّا نأكل ، فإذا أَهْوى بيده ليأكل فقومي إلى السِّراج كي تُصْلحيه ، فَأَطْفِئيه ، ففعلت ، فقعدوا ، فأكل الضَّيْفُ. وباتا طاوِيَيْنِ[٤].

فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ: «لقد عَجِبَ اللهُ ـ أو ضحك الله ـ من فُلان وفلانَةٍ».

وفي رواية مثله ، ولم يسم أبا طلحة ، إنما قال: «من يضيفُ هذا الليلة ، رحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار ، فقال: أنا يا رسول الله. . . وذكر نحوه ،

---

(١) (مجهود): رجل مجهود: مهزول جائع.

(٢) (رحله): منزله.

(٣) (فعلِّليهم): تعليل الطفل: وعده وتسويفه وتمنيته ، وشغله عما يراد صرفه عنه.

(٤) (طاويَيْن): طوىٰ الصائم: إذا نام ولم يفطر ، فهو طاوٍ (قاله ابن الأثير في جامع الأصول ٩/ ٧٤).

وفي آخره: فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1] [الحشر: ٩].

وفي أخرى: فانطلق به إلى رَحْلِهِ، فقال لامرأته: أَكْرمي ضَيْفَ رسول الله ﷺ.

وفي أخرى: فقال: قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيْعِكُما[2] بِضَيْفِكُما اللَّيْلَةَ».

* * *

(١) (خصاصة): الخصاصة: الحاجة والفاقة.

(٢) (عجب الله من صنيعكما): أي رضي الله وأثاب، فسماه عجباً مجازاً، وليس بعجب في الحقيقة. وإطلاق التعجب على الله مجاز، لأنه لا تخفىٰ عليه أسباب الأشياء. والتعجب مما خفي سببه ولم يعلم. انظر النهاية.

لَعَلَّ اللهَ أَلَّا يَجْعَلَنِي مِنْ أَهْلِ النَّارِ

زينب الثَّقَفِيَّةُ ، امرأةُ الصحابي الجليل عبدِ الله بن مسعود. صحابيةٌ خَيِّرةٌ ، أسلمت وبايَعَتْ رسول الله ﷺ.

كانت امرأةً صَنَاعاً[1] ، تعمل بيديها ، وتكتسب المال الحلالَ.

روت الحديث الشريف عن النبي ﷺ ، وعن بَعْلِها عبد الله بن مسعود ، وعن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب. وبلغ ما روته ثمانية أحاديث.

ذهبت ذات مَرَّةٍ إلى النبي ﷺ وسألته عن النفقة علىٰ زوجها وأولادهما. فقد روىٰ البخاري في صحيحه برقم (١٤٦٦) ، ومسلم برقم (١٠٠) عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «تَصَدَّقْنَ ، يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ[2]! وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ»[3].

قالت: فرجعتُ إلى عبد الله ، فقلت: إنَّك رجلٌ خفيفُ ذات اليد[4]. وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة. فَأْته فاسأله. فإن كان ذلك يَجْزِي عَنِّي[5] ، وإلاَّ صرفتها إلىٰ غيركم.

---

(١) (امرأةً صَناعاً): يقال: رجل صَنَعٌ وامرأة صَناعٌ؛ إذا كان لهما صَنْعَةٌ يعملانها بأيديهما ، ويكسبان بها (النهاية).

(٢) (المعشر): كل جماعة أمرهم واحد (الفتح: ٢/٤٠٦).

(٣) (الحليُّ): ما يزين به من مصوغ الذهب أو الفضة ، أو من الحجارة الثمينة.

(٤) (خفيف ذات اليد): كناية عن الفقر وقلة المال.

(٥) (يجزي عني): أي يكفي.

قالت: فقال لي عبد الله: بَلِ ائْتِيْهِ أَنْتِ.

قالت: فانطلقتُ. فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ. حاجَتِي حَاجَتُها[1].

قالت: وكان رسول الله ـ ﷺ ـ قد أُلْقِيَتْ عليه المَهَابَةُ.

قالت: فخرج علينا بلال[2]، فقلنا له: ائْتِ رسول الله ﷺ، فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتَجْزِي الصدقةُ عنهما، على أزواجهما، وعلى أيتامٍ في حُجُورِهما[3]؟ ولا تُخْبِرْهُ مَنْ نحنُ.

قالت: فدخل بلالٌ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فسأله. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ، «مَنْ هُما؟»، فقال: امرأة من الأنصار وزينبُ.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أَيُّ الزَّيَانِبِ؟».

قال: امرأةُ عبد الله.

فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «لَهُمَا أَجْرَانِ: أَجْرُ القَرَابَةِ، وأَجْرُ الصَّدَقَةِ».

وروىٰ مسلم (٨٠)، وأبو يعلىٰ (٦٥٨٥) واللفظ له، من حديث أبي

---

(١) (حاجتي حاجتها): أي حاجة تلك المرأة عين حاجتي.

(٢) هو بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ، وصِهْرُ بلدنا داريًا. فقد ثبت أنه سكن فيها، وتزوج هِنْداً الخولانية الدارانية.
قال العمادي في (الروضة الريًّا فيمن دفن بداريا) ص (٩٩) بتحقيقي: «وممن سكن داريا من الصحابة رضي الله عنهم: بلال الحبشيُّ، رضي الله عنه، مؤذن رسول الله ﷺ.
قيل: إنه مات بداريا بعد أن تزوج امرأة من أهلها اسمها: هِنْدٌ الخولانية. وقيل: ليلى.
وكانت وفاته سنة (٢٠) من الهجرة. وعمره بضع وستون سنةً، وحمل على أعناق الرجالِ من داريا، ودفن في باب الصغير. وقيل: إنه دفن بداريا في مقبرة الخولاني.
قال ابن كثير: والظاهر أنه دفن بداريا، وأن القبر الذي بباب الصغير الذي يقال له قبر بلال؛ إنما قبر بلال بن أبي الدرداءِ، لا قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله ﷺ. والله أعلم. وقال النووي: الصحيح أنه دفن بباب الصغير».

(٣) أي في كنفهما ورعايتهما.

هريرةَ ، أن النبيَّ ـ ﷺ ـ انصرف من الصبح يوماً ، فأتى النساءَ في المسجد ، فوقف عليهنَّ ، فقال: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ! مَا رَأَيْتُ مِنْ نَوَاقِصِ عُقُولٍ وَدِيْنٍ أَذْهَبَ[1] بِقُلُوبِ ذَوِي الأَلْبَابِ[2] مِنْكُنَّ. وإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنَّكُنَّ أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَتَقَرَّبْنَ إِلَى اللهِ ـ عز وجلَّ ـ بما اسْتَطَعْتُنَّ».

وكانت في النساء امرأةُ عبد الله بن مسعودٍ ، فانطَلَقَتْ إلىٰ عبد الله بن مسعودٍ ، فَأَخبرتْهُ بما سَمِعَتْ من رسول الله ـ ﷺ ـ وأخذَتْ حُلِيّاً لها ، فقال ابن مسعودٍ: أين تَذْهَبِيْنَ بهذا الحُلِيِّ؟

قالت: أتقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ ، ورسولهِ عليه السلام. لَعَلَّ اللهَ أَلاَّ يَجْعَلني مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

فقال: هَلُمِّي ، وَيْلَكِ! تصدَّقي به عَليَّ وعَلَىٰ وَلَدِي ، فإِنَّا لَهُ مَوْضِعٌ[3].

فقالت: لا والله! حتى أذهب به إلىٰ رسول الله ﷺ ، فذهبت تستأذن على رسول الله ﷺ. فقالوا: هذه زينب ، تستأذن ، يا رسولَ اللهِ!

فقال: «أَيُّ الزَّيَانِبِ هِيَ؟».

قال: امرأةُ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

قال: «ائْذَنُوا لها». فَدَخَلَتْ على النبي ﷺ ، فقالت: يا رسول الله! إني سمعت منك مقالةً ، فرجعت إلىٰ ابن مسعودٍ ، فَحَدَّثْتُهُ ، وأخذْتُ حُلِيّاً أتقرَّبُ به إلى الله ـ عز وجَلَّ ـ وإليكَ. رجاءَ أَنْ لا يَجْعَلني اللهُ من أهل النار. فقال لي ابنُ مسعودٍ: تَصَدَّقي به عَلَيَّ وعلى بَنِيَّ؛ فإنَّا له مَوْضِعٌ.

فقلت: حَتَّى أستأذنَ رسولَ الله ﷺ.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تَصَدَّقِي على بَنِيْهِ وَعَلَيْهِ ، فَإِنَّهُمْ لَهُ مَوْضِعٌ».

---

(١) (أذهب): أشد إذهاباً (الفتح: ٢/ ٤٠٦).

(٢) (ذوي الألباب): أصحاب العقول. واللُّبُّ: أخص من العقل ، وهو الخالص منه. وهذه مبالغة في وصفهن بذلك ، لأن الضابط لأمره إذا كان ينقاد لهنَّ ، فغير الضابط أولى.

(٣) (فإنا له موضع): أي نستحق الصدقة ، ويجوز دفعها لنا.

ثم قالت: يا رسولَ الله! أَرَأَيْتَ ما سمعتُ مِنْكَ حين وَقَفْتَ علينا: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَوَاقِصِ عُقُولٍ قَطُّ، ولا دِيْنٍ، أَذْهَبَ بِقُلُوبِ ذَوِي الأَلْبَابِ مِنْكُنَّ». يا رسول اللهِ! فما نقصان ديننا وعقولنا؟

قال: «أَمَّا مَا ذَكَرْتُ مِنْ نُقْصانِ دِيْنِكُنَّ، فَالحَيْضَةُ التي تُصِيْبُكُنَّ، تَمْكُثُ إِحداكنَّ ما شاء اللهُ أَنْ تَمْكُثَ، لا تُصَلِّي، ولا تصومُ، فذٰلكَ نَقْصانُ دِيْنِكُنَّ[١]، وَأَمَّا ما ذَكَرْتُ مِنْ نُقْصانِ عُقُولِكن؛ إنما شهادة المرأة نصف شهادة الرجل»[٢].

وفي قصة زينب من الفوائد: الحث على الصدقة وبخاصة على الأقارب، وأنها تدفع العذاب، وأنها قد تكفر الذنوب التي بين المخلوقين، وأن العقل يقبل الزيادة والنقصان. واستدل بهذا الحديث على جواز دفع المرأة زكاتَها إلى زوجها، وهو قول الشافعي، والثوري، وصاحِبَيْ أبي حنيفة، وإحدى الروايتين عن مالك، وعن أحمد. كذا أطلق بعضهم، ورواية المنع عنه مقيَّدة بالوارث.

وفي قصتها أيضاً: الحث على صلة الرحم، وجواز تبرع المرأة بمالها بغير إذن زوجها. وبيان زيادة الإيمان ونقصانه، ووعظ الإمام وأصحابِ الولايات وكبراء الناس رعاياهم، وتحذيرهم المخالفات، وتحريضهم على الطاعات، ومراجعةُ المتكلم العالم، والتابع المتبوع فيما قاله، إذا لم يظهر له معناه، وطلب الترقي في طلب العلم. والتحدث مع النساء الأجانب عند أمن الفتنة. والتخويف من المؤاخذة بالذنوب، وما يتوقع بسببها من العذاب. وفيها ما كان

---

(١) ذلك أن الإيمان يزيد بالطاعات. فمن كانت طاعته أكثر كان إيمانه أكبر وأقوى.

(٢) هذا تنبيهٌ منه ـ ﷺ ـ على ما وراءه، وهو ما نبَّه الله تعالى عليه في كتابه بقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. أي: أنهن قليلات الضبط. قال في الفتح (٤٠٦/١): «وليس المقصود بذكر النقص في النساء لومهن على ذلك؛ لأنه من أصل الخِلْقَةِ، لكن التنبيه على ذلك تحذيراً من الافتتان بهنَّ... وليس نقص الدين منحصراً فيما يحصل به الإثم بل في أعمَّ من ذلك».

عليه ـ ﷺ ـ من الخلق العظيم ، والصفح الجميل ، والرفق والرأفة. زاده الله تشريفاً وتكريماً وتعظيماً.

قال القرطبي: ليس إخبار بلالٍ باسم المرأتين بعد أن استكتمتاه بإذاعة سِرٍّ ، ولا كشف أمانةٍ ، لوجهين:

أحدهما: أنهما لم تلزماه بذلك ، وإنما علم أن لا ضرورة تحوج إلى كتمانهما.

ثانيهما: أنه أخبر بذلك جواباً لسؤال النبي ـ ﷺ ـ لكون إجابته أوجب من التمسك بما أمرتاه به من الكتمان ، وهذا كله بناءً على أنه التزم لهما بذلك.

ويحتمل أن تكونا سألتاه ، ولا يجب إسعاف كل سائل[1].

* * *

---

(١) انظر شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٦٧) ، وفتح الباري (٣/ ٣٢٩ ـ ٣٣١).

لا أُبَالِي إِذَا سَلِمْتَ مِنَ العَطَبِ

عن أنس بن مالك قال:

لما كان يوم أحدٍ ، حاص أهل المدينة حَيْصَةً[١] ، وقالوا: قتل محمد! حتى كثرت الصوارخ في ناحية المدينة. فخرجت امرأة من الأنصار محرمة ، فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها. لا أدري أيهم استقبلت به أولاً؟

فلما مرت على أحدهم ، قالت: من هذا؟

قالوا: أبوكِ ، أخوكِ ، زوجُكِ ، ابنُكِ. تقول: ما فعلَ رسول الله ﷺ؟

يقولون: أَمامكِ. حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه ، ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لا أبالي إذا سلمتَ من عطب[٢].

قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١١٥): «رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه محمد بن شعيب ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات».

وعن الزُّبير قال: اجتمعت على النبي ﷺ بالمدينة يوم أحد ، فلم يبق أحد من أصحاب النبي ﷺ - يعني بالمدينة - حتىٰ كثرت القتلىٰ. فصرخ صارخ: قد قتل محمد ، فبكين نسوةٌ.

---

(١) (حاص أهل المدينة حيصة): أي جالوا جَوْلةً (النهاية).

(٢) (إذا سلمت من عطب): أي إذا كنت معافىً ، والعَطَبُ: الهلاك.

فقالت المرأة: لا تعجلن بالبكاء حتى أنظر ، فخرجت تمشي ليس لها هَمٌّ سوىٰ رسول الله ﷺ وسؤالٍ عنه.

قال الحافظ الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٥): «رواه البزار ، وفيه عمر بن صفوان وهو مجهول».

* * *

كل مصيبة بعدكَ جَلَلٌ يا رسول الله!

روى البيهقي وابن إسحاق من حديث سعد بن أبي وقَّاصٍ أن امرأة من الأنصار من بني دينار قد قتل أ بوها وأخوها وزوجها ، شهداء يوم أحد ، مع رسول الله ﷺ.

فقالت ـ لما أخبرت بذلك ـ: ما فَعَلَ رسول الله ﷺ؟ وأرادت بذلك السؤال عن سلامته وبقائه ، وعبرت بذلك تأدباً ، لأن الفعل يستلزم الحياة ، وفي بعض النسخ:

قالت: ما فُعِلَ برسول الله ﷺ؟

قالوا: خيراً يا أم فلان! ، هو بحمد الله كما تحبين. أي: هو سالم منصور مظفَّر.

فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟

قال: فأشير لها إليه ، حتىٰ إذا رأته قالت:

كل مصيبة بَعْدَكَ ـ أي بعد سلامتك ورؤيتك ـ جَلَلٌ! تريد: صغيرة.

قال ابن هشام في السيرة (٢/ ٩٩ ـ ١٠٠): الجَلَلُ يكون من القليل ، ومن الكثير ، وهو ها هنا من القليل.

قال امْرُؤُ القيس في الجَلَلِ القليل:

لِقَتْلِ بني أَسَدٍ رَبَّهُمْ[1] ... أَلَا كُلُّ شَيءٍ سِواهُ جَلَل

(١) (ربهم): أي ملكهم ، ويعني به والده حُجْراً ، لأنه كان ملكاً على بني أسدٍ فقتلوه.

قال ابن هشام: وأما قول الشاعر، وهو الحارث بن وَعْلَةَ الجَرْمِيُّ:

وَلَئِـــنْ عَفَـــوْتُ لأَعْفُـــوَنْ جَلَـــلاً ... وَلَئِـــنْ سَطَـــوْتُ لأُوهِنَـــنْ عَظْمِـــي

فهو من الكثير.

* * *

لا تُفْشِ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ

أخرج البخاري في الاستئذان (٦٢٨٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٢/١٤٦) من حديث: مُعْتَمِرِ بن سُليمان ، قال: سمعت أبي يحدث عن أنس بن مالك قال: أَسَرَّ إِليَّ نَبِيُّ الله ـ ﷺ ـ سِرَّاً ، فما أَخْبَرْتُ به أَحَداً بَعْدُ . ولقد سَأَلَتْنِي عنه أُمُّ سُلَيْمٍ[1] فما أخبرْتُها به .

وفي رواية لمسلم برقم (٢٤٨٢) من حديث ثابت عن أنس قال:

أَتَى عَلَيَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأنا ألعبُ مع الغِلْمان. قال: فَسَلَّمَ عَلَيْنا. فبعثني إلى حاجَةٍ ، فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي ، فلما جِئْتُ قالت: ما حَبَسَكَ[2]؟

قلتُ: بعثني رسولُ الله ـ ﷺ ـ لحاجَةٍ .

قالت: ما حَاجَتُهُ؟

قُلتُ: إِنَّها سِرٌّ .

قالت: لا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رسولِ ا لله ـ ﷺ ـ أَحَداً .

قال أنسٌ: والله! لو حَدَّثْتُ به أحداً لحدثتك ، يا ثَابِتُ!

وفي رواية لأحمد (٣/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) ، وأبي يعلى (٣٢٩٩) عن أنسٍ قال:

---

(١) (أُمُّ سليم): هي والدة أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) (ما حبسك): أي ما أَخَّرَكَ؟

«خَرَجْتُ من عند النبي ـ ﷺ ـ مُتوجهاً إلى أهلي ، فمررتُ بِغْلِمانٍ[1] ، فأعجبني لَعِبُهُمْ ، فقمتُ على الغِلمانِ ، فانتهى إِليَّ النبيُّ ـ ﷺ ـ وأنا قائِمٌ عليهم ، فَسَلَّمَ على الغِلْمانِ ، ثم أَرْسَلَني في حاجَةٍ له ، فرجَعْتُ إلى أُمِّي بعد الوقت الذي كنتُ أَرْجِعُ إليهم فيه .

فقالت لي أُمِّي : ما حَبَسَكَ اليومَ؟ يا بُنَيَّ!

قلت : أرسلني النبي ـ ﷺ ـ في حاجةٍ .

فقالت : أيُّ حاجةٍ؟

قال : قلتُ : يا أُمَّهْ! إنها سِرٌّ .

قالت : يا بُنَيَّ! فَاحْفَظْ على نبيِّ الله ـ ﷺ ـ سِرَّهُ .

قال ثابتٌ : فقلتُ لأنسٍ : يا أبا حَمْزَةَ! أَتَحْفَظُ تِلكَ الحاجةَ اليومَ ـ أو تذكرُها؟

قال : إني لها حافظٌ ، ولو حَدَّثْتُ بها أحداً لَحَدَّثْتُكَ بها ، يا ثَابِتُ!» .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٨٢) : «قال بعض العلماء : كأن هذا السرَّ كان يختص بنساء النبي ﷺ ، وإلاّ فلو كان من العلم ما وسعَ أنساً كتمانه .

وقال ابن بَطَّال : الذي عليه أهل العلم أن السِّرَّ لا يُباح به إذا كان على صاحبه منه مَضَرَّةٌ ، وأكثرهم يقول : إنه إذا مات لا يلزم من كتمانه ما كان يلزم في حياته إلا أن يكون عليه فيه غضاضة .

قلت ـ القائل ابن حجر ـ : الذي يظهر انقسام ذلك بعد الموت إلى ما يُباح ، وقد يُستحب ذكرُهُ ولو كرهه صاحب السر ، كأن يكون فيه تزكية له : من كرامة ، أو منقبة ، أو نحو ذلك ، وإلى ما يكره مُطلقاً ، وقد يَحْرُمُ ، وهذا الذي أشار إليه ابنُ بَطَّالٍ ، وقد يجب؛ كَأَنْ يكون فيه ما يجب ذكره كحق عليه كان يعذر بترك القيام به ، فيرجى بعده إذا ذكر لمن يقوم به عنه أن يَفْعَل ذلك .

(١) أي أولاد .

ومن الأحاديث الواردة في حفظ السِّرِّ ، حديثُ أَنَسٍ : «احفظ سِرِّي تكن مؤمناً» أخرجه أبو يعلى (٣٦٢٤) والخرائطي ، وفيه علي بن زيد وهو صدوق كثير الأوهام ، وقد أخرج أصله الترمذي (٢٦٧٨) وحسَّنَهُ؛ ولكن لم يَسُقْ هذا المتن ، بل ذكر بعض الحديث ثم قال : وفي الحديث طول .

وحديثُ : «إِنَّما يَتَجالسُ المُتجالسانِ بالأمانَة ، فلا يَحِلُّ لأَحَدٍ أَنْ يُفْشِيَ على صاحِبِهِ ما يكْرَهُ» أخرجه عبد الرزاق (١٩٧٩١) من مُرسل أبي بكرِ بْنِ حَزْمٍ .

وأخرج القُضَاعيُّ في مُسْند الشِّهابِ (٣) من حديث علي مرفوعاً : «المَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ» وسنده ضعيف .

ولأبي داودَ (٤٨٦٩) من حديث جابرٍ مِثْلُهُ ، وزاد : «إلاَّ ثلاثةَ مجالسٍ : ما سفك فيه دم حرام ، أو فَرْج حرام ، أو اقتطع فيه مال بغير حق» .

وحديث جابر رفعه : «إِذا حَدَّثَ الرَّجُلُ بالحديثِ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ» أخرجه ابن أبي شيبة ، وأبو داود (٤٨٦٨) ، والترمذي (١٩٥٩) ، وله شاهد من حديث أنس عند أبي يعلى (٤١٥٨)» .

وقال عليٌّ ـ كرَّمَ الله وجهه ـ : سِرُّكَ أسيرك ، فإذا تكلمت به صرتَ أسيره . واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجوداً من أمناء الأموال ، وحفظ الأموال أيسرُ من كتمان الأسرار؛ لأن أحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال ، وأحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ، ويشيعها كلام سابق .

وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال ، فإن الرجل يستقلُّ بالحمل الثقيل ، فيحمله ويمشي به ولا يستطيع كتم السرِّ .

وإن الرجل يكون سِرُّهُ في قلبه ، فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال ، فإذا أذاعه استراح قلبه ، وسكن خاطره ، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً .

وقال عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ : القلوب أوعية ، والشِّفاهُ

أقفالها ، والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل إنسان مفتاح سِرِّهِ.

ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها ، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيعَ لها.

وكم من إظهار سِرٍّ أراق دم صاحبه ، ومنعه من بلوغ مآربه ، ولو كتمه أَمِنَ سطواته.

وقيل: انْفَرِدْ بسرِّكَ لا تودِعْهُ حازماً فَيَزِلَّ ، ولا جاهلاً فيخونَ.

وقال كعب بن سعد الغَنَوِيُّ:

ولستُ بِمُبْدٍ للرِّجال سَرِيْرَتي ولا أَنَا عَنْ أَسْرَارِهِمْ بِسَؤُول

ولله دَرُّ المتنبي حيث قال:

وللسِّرِّ مِنِّي مَوْضِعٌ لا يَنَالُهُ نَدِيْمٌ ولا يُفْضِي إِلَيْهِ شَرَابُ

وقال الحافظ ابن حبان في روضة العقلاء ص: (١٩١):

الظفر الحزم ، والحزم بإِجَالَةِ الرأي ، والرأي بتحصين الأسرار ، ومن كتم سِرَّهُ كانت الخِيَرَةُ في يده ، ومن أنبأ الناس بأسراره ، هان عليهم وأذاعوها ، ومن لم يكتم السِّرَّ استحقَّ الندمَ ، ومن استحقَّ الندمَ صار ناقص العقل ، ومن دام على هذا رجع إلىٰ الجهل.

فتحصين السرِّ للعاقل أولى به من التلهف بالندم بعد خروجه منه.

وأنشدني إبراهيم بن علي الظَّفَري ، أنشدني الحسين بن عُبيد الله:

لا يَكْتُمُ السِّرَّ إِلاَّ مَنْ لَهُ شَرَفٌ والسِّرُّ عِنْدَ كِرامِ النَّاسِ مَكْتُومُ
السِّرُّ عِنْدِيَ فِي بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ ضَلَّتْ مَفَاتِيْحُهُ والبابُ مَخْتُومُ

* * *

إِنَّ هٰذا لَكَ مِنَّا قَلِيْلٌ

روى الإمام مسلم في صحيحه (١٤٢٨/ ٩٤) عن الجَعْدِ أبي عثمان ، عن أنس بن مالك قال :

تزوج رسول الله ﷺ فدخَلَ بأهله . قال : فصنعتْ أُمِّي : أُمُّ سُلَيْمٍ حَيْساً[١] ، فجعلته في تَوْرٍ[٢] . فقالت : يا أنسُ! اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ . فَقُلْ : بعثت بهذا إليكَ أمي . وهي تقرئكُ السلام ، وتقول : إِنَّ هذا لك منا قليل ، يا رسول الله!

فقال : «ضَعْهُ» ، ثم قال : «اذهبْ فادعُ لي فلاناً وفلاناً وفلاناً ، ومَنْ لَقِيْتَ» وسمَّىٰ رجالاً .

قال : فدعوتُ مَنْ سمَّىٰ وَمَنْ لقيتُ .

قال : قلتُ لأنسٍ : عددَ كمْ كانوا؟

قال : زهاء ثلاث مئة[٣] .

وقال لي رسول الله ﷺ : «يا أنس! هاتِ التَّوْرَ» .

---

(١) (الحَيْسُ) : هو الطعام المتخذ من التمر والأَقِطِ [لبن جامد مستحجر] والسَّمْن ، وقد يجعل عوض الأَقِطِ الدقيق (النهاية) .

(٢) (تَوْر) : إناء يشرب فيه .

(٣) (زهاء ثلاث مئة) : أي قدر ثلاث مئة .

قال: فدخلوا حتى امتلأت الصُّفَّةُ والحُجْرة ، فقال رسول الله ﷺ: «ليتحلَّقْ عشَرةٌ عَشَرةٌ ، وليأكل كل إنسانٍ مما يليه».

قال: فأكلوا حتى شبعوا.

قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كُلُّهم.

فقال لي: «يا أنسُ! ارفع».

قال: فرفعتُ. فما أدري حين وضعتُ كان أكثرَ أم حينَ رفعتُ.

قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ. ورسول الله ﷺ جالس ، وزوجته مُوَلِّيَةٌ وجهها إلى الحائط. فثقلوا على رسول الله ﷺ. فخرج رسول الله ﷺ فسلَّم على نسائه. ثم رجَعَ. فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه.

قال: فابتدروا البابَ[1] ، فخرجوا كلهم. وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخىٰ السِّتْرَ ودخل وأنا جالس في الحُجرة ، فلم يلبث إلا يسيراً ، حتى خرج عليَّ. وأنزلت هذه الآية ، فخرج رسول الله ﷺ وقرأهن على الناس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ[2] وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ[3] وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ إلى آخر الآية [الأحزاب: ٥٣].

قال الجَعْدُ: قال أنس بن مالك: أنا أَحْدَثُ الناس عهداً بهذه الآيات وحُجِبْنَ نساءُ النبي ﷺ.

* * *

---

(١) (فابتدروا الباب): أي سارعوا إليه للخروج.

(٢) (غير ناظرين إناه): غير منتظرين نضجه واستواءه (كلمات القرآن لمخلوف).

(٣) (فانتشروا): فتفرَّقوا ولا تمكثوا عنده.

إنْ تُسْلِمْ فَذٰلِكَ مَهْرِي

أخرج النسائي (٦/ ١١٤) عن أنس بإسناد صحيح قال: تزوج أبو طلحة أمَّ سُلَيْم ، فكان صَدَاق[1] ما بينهما الإسلامُ ، أسلمت أم سُليم قبل أبي طَلْحَةَ ، فخطبها ، فقالت: إني قد أسلمتُ ، فإنْ أسلمتَ نكحتُكَ ، فأسلمَ. فكان صَدَاقَ ما بينهما».

وفي رواية قال:

خطب أبو طلحة أُمَّ سُلَيْم ، فقالت: والله ما مثلك يا أبا طلحة! يُرَدُّ ، ولكنك رجل كافر ، وأنا امرأة مسلمة ، ولا يحل لي أن أتزوجك[2] ، فإن تُسْلِمْ فذلك مهري ، ولا أسألك غيره ، فأسلمَ ، وكان ذلك مهرَها.

قال ثابت البُناني (رواي الحديث عن أنس): فما سمعتُ بامرأة قطُّ كانت أكرمَ مهراً من أم سُليم: الإسلامَ ، فدخل بها ، فولدت له».

قلت: ولدت له عبد الله وأبا عمير. مات أبو عمير فطيماً وهو الذي كان يمازحه رسول الله ﷺ فيقول له: يا أبا عُمير ما فعل النُّغَيْرُ[3]؟ أما عبد الله فنالته بركة دعوة النبي ﷺ. فرئي له تسعة أولاد كلهم قد حفظ القرآن.

---

(١) (الصَّداق): المَهْرُ.

(٢) لا يحل للمسلمة أن تتزوج رجلاً ليس بمسلم. ومن العجب أن يتجاسر بعض المفكرين المسلمين! فلا يرون بذلك بأساً! وإلى الله المشتكىٰ.

(٣) (النُّغَيْرُ): طائر صغير كالعصفور.

تَجَلُّدٌ عَجِيبٌ

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان ابن لأبي طلحة[1] رضي الله عنه يشتكي، فخرج أبو طلحة، فقبض الصبي[2] . . . .

---

(١) هو زيد بن سهل النجاري الأنصاري، صحابي من الشجعان الرماة المعدودين في الجاهلية والإسلام. شهد العقبة وبدراً وأحداً وسائر المشاهد. وكان جَهِير الصوت، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «صوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة». وفي رواية في طبقات ابن سعد «خير من ألف رجل». توفي سنة (٣٤) هـ. قلت: ومن غرائب ما حدثني به أستاذنا المحدث المدقق حسين سليم أسد الداراني حفظه الله أن الشيخ محمد بن محيي الدين الخولاني الداراني جَدّ صديقنا الأخ شفيق الخولاني ـ كان جَهِيرَ الصوت، واشتهر في مدينتنا داريا بذلك.

وفي ذات يوم في عهد الاحتلال الفرنسي لسورية، رصد عدداً من الخيَّالة الفرنسيين يختالون في البساتين الشرقية لداريا. ففاجأهم بصوت جَهير، لم يسمعوا بمثله قط.

فوقع الهلع في قلوبهم وسقطوا عن أفراسهم مستسلمين. فاستلب ما معهم من متاع وسلاح، وَصَفَّهم جانب دَكّ [سور من طين ارتفاعه أقل من متر] وأطلق عليهم رصاصة واحدة، نفذت فيهم من أولهم إلى آخرهم. ثم مال بكتفه على الدَّكّ فواراهم به، وكر راجعاً إلى داره، مرفوع الرأس، عالي الجبين، مُقْتصّاً من البغاة الظالمين. قلت: مات هذا الشيخ في أواخر الستينات، وقد رأيته أكثر من مرة أمام منزله في حارة الخولاني، قرب ثانوية الغوطة الغربية.

(٢) وهذا الصبي هو الذي كان يمازحه رسول الله ﷺ؛ فقد روىٰ البخاري (٦٢٠٣) ومسلم (٢١٥٠) عن أنس قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له أبو عُمير ـ قال أحسبه فطيماً ـ وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير! ما فعل النُّغَيْرُ؟». نُغَرٌ كان يلعب به. قلت: النُّغَرُ: طائر صغير كالعصفور (قاله ابن الأثير في جامع الأصول ٢٥٨/١١).

، فلما رجع أبو طلحة ، قال: ما فعل ابني؟

قالت أمُّ سُلَيْمٍ[1] ـ وهي أم الصبي ـ: هو أَسْكَنُ ما كان ، فقرَّبت إليه العشاء فتعشَّىٰ ، ثم أصاب منها.

فلما فرغ ، قالت: وارُوا الصبيَّ[2].

فلما أصبح أبو طلحة أتىٰ رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال: «أعْرَسْتُم الليلةَ[3]؟».

قال: نعم.

قال: «اللهم بارك لهما». فولدت غلاماً ، فقال لي أبو طلحة: احمله حتى تأتي به النبي ﷺ ، وبعث معه بتَمَراتٍ ، فقال: «أمعه شيءٌ؟».

قال: نعم ، تَمَراتٌ ، فأخذها النبي ﷺ فمضغها ، ثم أخذها من فيه فجعلها في في الصبيِّ ، ثم حنَّكهُ وسماه عبد الله (أخرجه البخاري ٥٤٧٠) ، ومسلم (٢١٤٤/ ٢٣).

وفي رواية للبخاري (١٣٠١) عن أنس بن مالك قال: اشتكىٰ ابن لأبي طلحة ، قال فمات وأبو طلحة خارج. فلما رأت امرأته أنه قد مات ، هيَّأتْ شيئاً ، وَنَحَّتْهُ في جانب البيت.

فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟

---

(١) هي الرُّميصاء (أو الغُمَيْصاء) وقيل غير ذلك ابنة مِلْحَان الأنصارية. صحابية جليلة مجاهدة ، تزوجت مالك بن النضر في الجاهلية ، فولدت أنساً في الجاهلية وأسلمت مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار ، فغضب زوجها مالك وخرج إلى الشام فمات بها ، فتزوجت بعده أبا طلحة الأنصاري وكان مهرها أن يشهد أبو طلحة لله بالوحدانية ، ولمحمد بالرسالة. وهي خالة النبي ﷺ من جهة الرضاع. لذلك كان النبي ﷺ يدخل عليها ويزورها. توفيت نحو سنة (٣٠) هـ. انظر ترجمتها في السير (٢/ ٣٠٤ ـ ٣١١) وفي حاشيته عدد من مصادر ترجمتها.

(٢) (واروا الصبي): ادفنوه.

(٣) (أعرستم الليلة): الإعراس هاهنا ، أراد به: الجماع.

قالت: قد هدأتْ نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح. وظن أبو طلحة أنها صادقة. قال فبات. فلما أصبح اغتسل ، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات فصلى مع النبي ﷺ ، ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منهما. فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما».

قال سفيان[1]: فقال رجل من الأنصار: «فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن». قال النووي في رياض الصالحين رقم (١/ ٥١) بتحقيقي: «يعني من أولاد عبد الله المولود».

وفي رواية ذكرها الحافظ الذهبي في السير (٢/ ٣١١) عن عَباية قال: «فلقد رأيت لذلك الغلام سبع بنين كلهم قد ختم القرآن».

وفي رواية لمسلم في كتاب فضائل الصحابة (٢١٤٤/ ١٠٧): عن أنس قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سُلَيْمٍ ، فقالت لأهلها: لاتُحدِّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه.

قال فجاء فقرَّبت إليه عَشاءً. فأكل وشرب ، فقال: ثم تصنَّعَتْ[2] له أَحْسَنَ ما كان تَصَنَّعُ قبلَ ذلك. فوقع بها. فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها ، قالت: يا أبا طلحة! أَرَأَيْتَ لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت ، فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا.

قالت: فاحتسب ابنكَ[3].

قال فغضب ، وقال: تَرَكْتِنِي حتى تلطَّخْتُ[4] ، ثم أخبرتني بابني! فانطلق حتى أتىٰ رسول الله ﷺ. فأخبره بما كان.

فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما».

---

(١) هو ابن عُيَيْنَةَ ، شيخ شيخ البخاري في هذا الحديث.

(٢) (تصنَّعتْ): أي تكلَّفت الزينة ونحوها.

(٣) (احتسب ابنك): إذا مات للإنسان ولد ، قيل له: احتسبه عند الله ، أي: اجعله لك عنده ذخراً.

(٤) (تلطَّختُ): أي تنجَّستُ وتقذَّرت بالجماع (النهاية).

قال: فحملت ، قال فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه. وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر ، لا يطرقها[1] طُرُوقاً. فدنوا من المدينة. فضربها المخاض[2]. فاحْتُبِسَ عليها أبو طلحة[3]. وانطلق رسول الله ﷺ.

قال يقول أبو طلحة: إنك لتعلم ، يا ربِّ! إنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخلَ معه إذا دخل ، وقد احْتُبِسْتُ بما ترىٰ.

قال تقول أم سُلَيْم: يا أبا طلحة! ما أجد الذي كنت أَجِدُ. انطلقْ. فانطلقنا.

قال وضربها المخاض حين قدما. فولدت غلاماً. فقالت لي أمي: يا أنس! لا يُرْضِعُهُ أحد حتىٰ تغدو به على رسول الله ﷺ.

فلما أصبحَ احْتَمَلْتُهُ فانطلقْتُ به إلى رسول الله ﷺ.

قال فصادفته ومعه مِيْسَمٌ[4]. فلما رآني قال: «لعل أُمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ؟».

قلت: نعم. فوضع المِيْسَمَ.

قال وجئت به فوضعته في حَجْرِهِ. ودعا رسول الله ﷺ بعجوة[5] من عجوة المدينة ، فلاكها[6] في فيه حتى ذابت ، ثم قذفها في في الصبي ، فجعل الصبي يتلمَّظُها[7].

قال فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى حُبِّ الأنصارِ التمرَ» قال فمسح وجهه وسماه عبد الله.

---

(١) (لا يطرقها): الطُّروق: إتيان المنزل ليلاً.

(٢) (المخاضُ): الطلق عند الإحساس بالولادة.

(٣) (فاحتبس عليها أبو طلحة): أي بقي معها لخدمتها.

(٤) (المِيْسَمُ): الحديدة التي تسم بها الدوابّ ، تتركها في النار حتىٰ تحمىٰ ثم تسمها بها.

(٥) (العجوة): نوع من جيد تمر المدينة.

(٦) (لاكها): مضغها ، واللَّوْك: إدارة الشيء في الفم.

(٧) (يتلمّظها): التَّلَمُّظُ: تَطَعُّم ما يبقىٰ في الفم من آثار الطعام.

مُلُوكٌ عَلَى الأَسِرَّةِ

رویٰ البخاري (٢٧٨٨) ، ومسلم (١٩١٢) ، والبغوي في شرح السنة (٣٥٣٠) واللفظ له عن أنس بن مالك قال:

كان رسول الله ﷺ يدخل علىٰ أُمِّ حَرَامٍ بنت مَلْحانَ ، فتطعمه ، وكانت أم حَرَامٍ تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً ، فأطعمته ، ثم جلست تَفْلي رَأْسَهُ[1] ، فنام رسول الله ﷺ ، ثم استيقظ ، وهو يضحك ، قالت ، فقلتُ : ما يضحككَ؟ يا رسولَ الله! قال: «ناس من أمتي عُرضوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله ، يركبون ثبج البحر[2] ، ملوكاً على الأسِرَّة ، أو مثل ملوكٍ على الأسِرَّةِ[3] (يشكُّ أيهما).

قالت: فقلتُ: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها ، ثم وضع رأسه ، فنام رسول الله ﷺ ، ثم استيقظ وهو يضحك.

قالت: فقلتُ: يا رسول الله! ما يضحككَ؟

قال: «ناس من أمتي عرضوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله» كما قال في الأولى

---

(١) (تَفْلي رأسه): أي تفتشه. وفعلت ذلك لأنها من محارمه ﷺ فهي خالته من جهة الرضاع كما صرح بذلك المحققون من العلماء.

(٢) (ثبج البحر): هو ظهره ووسطه.

(٣) (مثل ملوك على الأسِرَّة): قيل هو صفة لهم في الآخرة إذا دخلوا الجنة. والأصح أنه صفة لهم في الدنيا. أي يركبون مراكب الملوك لسعة حالهم ، واستقامة أمرهم ، وكثرة عددهم.

قالت: فقلت: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم.

قال: «أنتِ مِنَ الأوَّلين». فركبت أمُّ حَرامٍ البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان[1]، فَصُرِعَتْ عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت.

وروىٰ البخاري (٢٩٢٤) عن عُمير بن الأسود العَنْسي الداراني ـ نسبة لمدينتنا داريا في غوطة دمشق الغربية ـ أتىٰ عبادة بن الصامت وهو نازل في ساحل حمصَ، وهو في بناءٍ له، ومعه أُمُّ حَرَامٍ.

قال عُميرٌ: فحدثتنا أم حَرَامٍ أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «أول جيشٍ من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا[2]».

قالت أمُّ حَرَامٍ: قلت: يا رسول الله! أنا فيهم؟

قال: «أنت فيهم».

ثم قال النبي ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر[3] مغفور لهم».

فقلت: أنا فيهم؟ يا رسول الله!

قال: «لا».

قلت: أُمُّ حَرَامٍ هي بنت مِلْحانَ بن خالد بن زيد النجارية الأنصارية، صحابية مجاهدة من عِلية النساء، أمها: مُليكة بنت مالك النجاري، وزوجها:

---

(١) (في زمان معاوية بن أبي سفيان): قال القاضي: قال أكثر أهل السير والأخبار: إن ذلك كان في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وإن فيها ركبت أم حَرَامٍ وزوجها البحر إلى قبرس، فصرعت عن دابتها هناك. فتوفيت ودفنت هناك. وعلى هذا يكون قوله: «في زمان معاوية» معناه: في زمان غزوه في البحر، لا في أيام خلافته.

(٢) (قد أوجبوا) أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة (الفتح ٦/ ١٠٣).

(٣) (يغزون مدينة قيصر): يعني مدينة القُسطنطينية (الفتح ٦/ ١٠٢)، وقد فتحها المسلمون على يد البطل المسلم محمد الفاتح يوم الثلاثاء (٢٠) جمادىٰ الآخرة سنة (٨٥٧) هـ. وكان قد غزاها يزيد بن معاوية في سنة (٥٢) هـ. ولم يستطع فتحها. وفي تلك الغزاة مات الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، وأوصىٰ أن يدفن عند باب القُسطنطينية، وأن يعفىٰ قبره، ففعل به ذلك.

الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ، وأم حَرَام هي خالة سيدنا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، روى حديثها الستة إلا الترمذي. وقد اتفق العلماء على أنها كانت مَحْرَماً له ﷺ. واختلفوا في كيفية ذلك. فقال الحافظ ابن عبد البَرِّ القرطبي: كانت إحدى خالاته من الرضاعة.

وقال آخرون: بل كانت خالةً لأبيه أو لجده ، لأن عبد المطلب جد النبي ﷺ كانت أمه من بني النجار في المدينة المنورة.

هذه الصحابية المجاهدة كان رسول الله ﷺ يكرمها ، ويزورها في بيتها في قُباء في عوالي المدينة المنورة. ويقيل عندها. وكانت تطعمه وتكرمه ﷺ. وقد أخبرها أنها شهيدة فكانت تخرج مع الغزاة في سبيل الله ، وتشهد الوقائع. وحضرت فتح جزيرة قبرص فسقطت عن بغلتها ، فاندقَّتْ عنقها ، فماتت ودفنت في الجزيرة. قال الزبيدي: «ولها مقام عظيم بظاهر الجزيرة ، اجتزتُ بها في البحر عند توجهي إلى بيت المقدس ، وأخبرت أن على مقامها أوقافاً هائلة وخدماً ، وينقلون لها كرامات». ونقل الزركلي عن جريدة البلاد السعودية: «قبرها معروف إلى الآن في جزيرة قبرص ، باسم قبر المرأة الصالحة».

وقال المؤرخون ـ كابن الأثير وغيره ـ: كانت غزوة قبرص سنة (٢٧) هـ في خلافة سيدنا عثمان بن عفان.

وكان أمير الجيش معاوية بن أبي سفيان ومعه أبو ذر الغفاري وأبو الدرداء وغيرهما من صحابة رسول الله ﷺ.

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/١٨ : كان ذلك في سنة ثمان وعشرين في خلافة عثمان».

* * *

مَهْ إنَّ اللهَ ذَهَبَ بِالشِّرْكِ وَجَاءَ بالإِسْلامِ

أخرج البيهقي والطبراني ، وأحمد (٤/ ٨٧) عن عبد الله بن مُغَفَّلٍ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ امرأةً كانت بَغِيّاً[١] في الجاهلية ، فمر بها رجلٌ ، أو مَرَّتْ به ، فبسطَ يَدَهُ إليها ، فقالت : مَهْ ، إنَّ اللهَ ذَهَبَ بالشِّرْكِ ، وجاء بالإسلام ، فتركها وَوَلَّى ، وجعل ينظرُ إليها حتى أصاب وجْهَهُ الحائِطُ ، فأتى النبيَّ ـ ﷺ ـ فذكر ذلك له ، فقال : «أَنْتَ عبدٌ أرادَ اللهُ بِكَ خَيراً ، إنَّ اللهَ إذا أرادَ بعبدٍ خيراً عَجَّلَ[٢] له عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ[٣] ، وإذا أرادَ بِعَبْدٍ شَرّاً أَمْسَكَ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ[٤] حتى يُوافىٰ به يوم القيامة»[٥] ، وصححه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٤٩) ووافقه الحافظ الذهبي في التلخيص ، ورمز لصحته السيوطي في الجامع الصغير رقم (٣٨٥) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : «رجال أحمد رجال الصحيح» .

وروى الطبراني من حديث عمار بن ياسرٍ ؛ أن رجلاً مرت به امرأة فَأَحْدَقَ

---

(١) (بَغِيّاً) : زانية .

(٢) (عَجَّلَ) : أسرع .

(٣) (عقوبة ذنبه) : بصَبِّ البلاء والمصائب عليه في الدنيا ، جزاء لما فرط منه من الذنوب فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة ، ومن فعل ذلك معه فقد أعظم اللهُ اللُّطفَ به ، لأن من حوسب بعمله عاجلاً في الدنيا خَفَّ جزاؤه عليه ، حتى يكفر عنه بالشوكة يُشَاكُها ، والذنب : عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الشرع من قول أو فعل .

(٤) (أمسك عليه بذنبه) : أي أمسك عنه ما يستحقه بسبب ذنبه من العقوبة في الدنيا .

(٥) (حتى يُوافى به يوم القيامة) : إن لم يدركه العفوُ ، ولعذاب الآخرةِ أشدُّ وأبقىٰ ، والله تعالى لم يرض الدنيا أهلاً لعقوبة أعدائه ، كما لم يَرْضَها أهلاً لمثابة أحبابه .

بَصَرَهُ إليها ، فمرَّ بجدار ، فَمَرَّسَ وَجْهَهُ[1] ، فأتىٰ رسول الله ﷺ ووجْهُهُ يسيل دَمَاً ، فقال: يا رسولَ الله! إني فعلتُ كذا وكذا.

فقال رسول الله ﷺ: «إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً عَجَّلَ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ في الدُّنيا ، وإذا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذٰلِكَ أَمْهَلَ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِ حتَّى يُوافيٰ بها يومَ القِيامَةِ كَأَنَّهُ عَيْرٌ»[2] ، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٢) وقال: «رواه الطبرانيُّ وإسناده جيد».

والمسلم الصادق وقَّافٌ عند حدود الله ، يقف حيث ينبغي الوقوف ، ويسير حيث ينبغي المسير ، يأتمر بأمر الله ، وينتهي عما نهىٰ عنه الله ، ويكون هواهُ تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ.

قال ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٤١٧): «حدثني ـ أي بعض أهل العلم ـ أَن فَضَالة بن عُمير بن المُلوّح الليثي أراد قتل النبي ـ ﷺ ـ وهو يطوف بالبيت عام الفتح؛ فلما دنا منه ، قال رسولُ الله ﷺ: «أَفَضَالَةُ؟».

قال: نَعَمْ. فَضَالَةُ ، يا رسولَ الله!

قال: «ماذا كُنْتَ تُحَدِّثُ به نَفْسَكَ؟».

قال: لا شيءَ ، كنتُ أذكرُ اللهَ.

قال: فضحك النبيُّ ﷺ ، ثم قال: «استغفِرِ اللهَ» ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبُهُ؛ فكان فَضَالة يقولُ: والله! ما رفع يَدَهُ عن صدري حتى ما مِنْ خَلْقِ الله شيءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ منه.

---

(١) (فمرس وجهه): أي خدشه وجرحه.

(٢) (كأنه عَيْرٌ) قال في النهاية: «العَيْرُ: الحمارُ الوحشيُّ ، وقيل: أراد الجبل الذي بالمدينة اسمه عَيْرٌ ، شَبَّهَ عِظَمَ ذنوبه به». قال أستاذنا البحاثة محمد شُرَّاب في المعالم الأثيرة ص: (٢٠٣): «عَيْرٌ: جبل أسود بحمرة مستطيل من الشرق إلى الغرب ، يشرف على المدينة المنورة من الجنوب ، تراه على بعد عشرة أكيال ، وهو حَدُّ حرم المدينة من الجنوب ، يتصل بحرَّة النقيع في الشرق ، ويكنع في العقيق غرباً عند ذي الحُليفة (آبار علي الآن) وفي الحديث: أن النبي ﷺ حَرَّم ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْرٍ».

قال فَضَالَةُ: فَرَجَعْتُ إلى أهلي ، فمررتُ بامرأة كنتُ أَتَحَدَّثُ إليها ، فقالت: هَلُمَّ إلى الحديث. فقلتُ: لا.

وانبعث فَضَالَةُ يقول:

قَالَتْ: هَلُمَّ[1] إلىٰ الحديث فقلتُ: لا يَــأْبــىٰ عَلَيْــكِ اللهُ والإِسْــلامُ
لَــوْ مــا رَأَيْــتِ مُحَمــداً وقَبِيْلَــهُ بِــالفَتْــحِ يَــوْمَ تَكَسَّــرُ[2] الأَصْنَــامُ
لَــرَأَيْــتِ دِيْــنَ اللهِ أَضْحــىٰ بَيِّنــاً والشِّــرْكُ يَغْشــىٰ وَجْهَــهُ الإِظْـلامُ[3]

وروى أحمد في مسنده (٤/ ٣٤٤) من حديث أبي حرب بن أبي الأسود عن فَضَالَةَ الليثي قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ ، فأسلمتُ ، وعلمني ، حتى علمني الصلواتِ الخمسَ لمواقيتهن. قال: فقلتُ له: إن هذه لساعات أشغل فيها ، فمرني بجوامع ، فقال لي: «إِنْ شُغِلْتَ فلا تشغَلْ عن العَصْرَيْنِ».

قلتُ: وما العَصْران؟

قال: «صلاةُ الغَدَاةِ وصلاةُ العَصْرِ».

وفي رواية أبي داود (٤٢٨) من حديث عبد الله بن فَضَالة عن أبيه قال: علمني رسول الله ﷺ ، وكان فيمَا عَلَّمني: «حَافِظْ عَلَىٰ الصَّلواتِ الخَمْسِ».

قال: قلتُ: إنَّ هٰذه ساعاتٌ لي فيها أشغالٌ ، فمرني بأمرٍ جامعٍ ، إذا أنا فَعَلْتُهُ أَجْزَأَ عَنِّي ، فقال: «حَافِظْ عَلَى العَصْرَيْن» وما كانت من لغتنا ، فقلت: وما العَصْرانِ؟

قال: «صَلاةٌ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وصَلاَةٌ قَبْلَ غُرُوبِها»[4].

---

(١) (هَلُمَّ): كلمة دعاء ، أي: تعال (الوسيط).

(٢) (تكَسَّر): أي تتكسَّر.

(٣) الأبيات باختلاف يسير نَسَبها ابن الأثير في أسد الغابة ترجمة (١٥٦٩) إلى راشد بن حفص.

(٤) في هذا الحديث تأكيد على المحافظة على صلاة العصر والفجر كقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «من صَلَّىٰ البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ» وليس فيه رخصة بترك باقي الصلوات.

قال ابن الأثير في جامع الأصول (٥/ ١٨٦): «العصران: الليل والنهار، والغداة والعشيُّ، والمراد في الحديث: صلاة الفجر وصلاة العصر، وإذا اجتمع الاسمان: قد يُغَلَّب أحدهما على الأخر، كقولهم: القمران: للشمس والقمر، والعُمَران: لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وقيل: إنما سُمِّيا العصرين، لأنهما يُصلَّيان في طَرَفَيْ العصرين، يعني: الليل والنهار».

* * *

أَخُوكَ أَبُو الدَّرْداءِ ليسَ لَهُ حَاجَةٌ في الدُّنيا

أُمُّ الدرداء الكبرىٰ ، صحابية جليلة بنت صحابي . راوية من راويات الحديث . كانت من فضليات النساء ، وذوات الرأي فيهن ، وكانت ذات عقل ، ورأي ، ودين ، وصلاحٍ ، مع العبادة والنُّسُكِ . وكانت إقامتها في مدينة الحبيب محمد ﷺ .

اسمها : خَيْرَةُ بنت أبي حَدْرَدٍ الأَسْلمي . توفيت قبل زوجها أبي الدَّرداء[1] بسنتين ، وكانت وفاتها بالشام نحو سنة (٣٠) هـ في خلافة الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، رضي الله عنه .

روت عن النبي ﷺ ، وعن زوجها أبي الدَّرْداء خمسة أحاديث ، وروىٰ عنها جماعة من التابعين .

من خبرها ، ما أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٩٦٨) من حديث أبي جُحَيْفَةَ السُّوَائِي ، قال :

آخَىٰ النبيُّ ﷺ بين سَلْمَان وأبي الدَّرْداء[2] ، فزار سلمانُ أبا الدرداءِ ، فرأى

---

(١) ولأبي الدرداء أيضاً زوجة أخرى يقال لها : أم الدرداء الصغرى ، تابعية فقيهة عابدة. اسمها : هُجَيمةُ . عاشت بعده دهراً ، وروت عنه .

(٢) ذكر أصحاب المغازي أن المؤاخاة بين الصحابة وقعت مرتين ، الأولى : قبل الهجرة ، بين المهاجرين خاصة ، علىٰ المواساة والمناصرة ، فكان من ذلك أخوة زيد بن حارثة وحمزةَ بن عبد المطلب . ثم آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد أن هاجَرَ ، وذلك بعد قدومه المدينة (الفتح : ٤/ ٢١٠) .

أُمَّ الدرداءِ مُتَبَذِّلَةً[1]. فقال لها: ما شأنُكِ؟

قالت: أخوك أبو الدرداءِ ليس له حاجة في الدنيا[2]. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال[3] له: كُلْ.

قال: فإني صائم.

قال: ما أنا بآكلٍ حتى تأكل. قال: فأَكَلَ. فلما كان الليل[4] ذهب أبو الدرداء يقومُ. قال: نَمْ، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نَمْ.

فلمَّا كان مِنْ آخِرِ الليل[5]، قال سَلْمانُ: قُمِ الآن، فصلَّيا. فقال له سلمانُ: إنَّ لربِّكَ عليك حقّاً، ولنفسك عليك حقّاً، ولأهلك عليك حقّاً، فأَعطِ كُلَّ ذي حقٍّ حَقَّهُ.

فأتى النبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له، فقال له النبيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلْمانُ».

وزاد فيه الترمذي (٢٤١٣): «ولضيفك عليك حقّاً» وقال: «هذا حديث صحيح». قال الحافظ من الفتح (٤/ ٢١١): «زاد الدَّارَقُطنيُّ: فَصُمْ وأَفطِرْ، وَصَلِّ ونَمْ، وائْتِ أَهْلَكَ».

وفي هذا الحديث من الفوائد: مشروعية المؤاخاة في الله، وزيارة الإخوان والمبيت عندهم، وجواز مخاطبة الأجنبية للحاجة، والسؤال عمَّا يترتب عليه المصلحةُ وإنْ كان في الظاهر لا يتعلق بالسائل، وفيه النصح للمسلم، وتنبيه من أغفل، وفيه فضل قيام آخر الليل، وفيه مشروعية تزين المرأة لزوجها، وثبوت حق المرأة على الزوج في حسن العِشْرَةِ، وقد يؤخذ منه ثبوت حقها في الوطء، لقوله ﷺ: «ولأهلك عليك حقّاً» ثم قال: «وائت أهلك» وقرَّره النبي

---

(١) (مُتَبَذِّلة): أي لابسةً ثيابَ البِذْلة، وهي المِهْنةُ وزناً ومعنًى، والمراد: أنها تاركة للبس ثياب الزينة.

(٢) زاد فيه ابن خزيمة: «يصوم النهار ويقوم الليل».

(٣) أي: سلمانُ.

(٤) أي: من أوله.

(٥) أي: عند السَّحَرِ.

ﷺ على ذلك ، وفيه جواز النهي عن المستحبات إذا خشي أن ذلك يفضي إلى السَّآمةِ والمَلَلِ وتفويتِ الحقوق الواجبة ، أو المندوبة ، الرَّاجح فعلها ، على فعل المستحب المذكور ، وإنما الوعيد الوارد على من نهى مصلِّياً عن الصلاة مَخْصُوصٌ بمن نهاه ظُلماً وعدواناً.

وفيه كراهية الحمل على النفس في العبادة ، وفيه جواز الفطر من صوم التطوع كما ترجم له المصنف (أي البخاري بقوله: باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ، ولم يَرَ عليه قضاءً إذا كان أَوْفَقَ له) وهو قول الجمهور ، ولم يجعلوا عليه قضاءً ، إلاَّ أنه يستحب له ذلك.

وهذا الحديث أورده البخاري أيضاً في الأدب برقم (٦١٣٩) وعنون له: «باب صُنع الطعام والتكلّف للضيف».

قلت: وقع في التكلُّفِ للضيف عند الحاكم وغيره من حديث شَقِيْقٍ قال: دخلت أنا وصاحبٌ لي على سَلْمانَ ـ رضي الله عنه ـ فقرَّب إلينا خبزاً ومِلْحاً.

فقال: لولا أَنَّ رسول الله ﷺ نهانا عن التكلُّف لتكَلَّفْتُ لكم. فقال صاحبي: لو كان في مِلْحِنا سَعْتَرٌ[1]؟

فبعث بمطهرته إلى البقَّال ، فرهنها ، فجاء بِسَعْتَرٍ ، فألقاه فيه.

فلمَّا أكلنا ، قال صاحبي: الحمد لله الذي قَنَّعنا بما رزقنا.

فقال سلمان: لو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة عند البقال! قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، وله شاهد بمثل هذا الإسناد» ووافقه الذهبي في التلخيص.

* * *

(١) (سَعْتَر): جنس نبات من التوابل ، ومن الفصيلة الشفوية ، فيه أنواع برية وأنواع زراعية (الصحاح في اللغة والعلوم). وجاء في مختار الصحاح: «السَّعْتَرُ: نَبْتٌ. وبعضهم يكتبه بالصاد في كتب الطب لئلاَّ يلتبس بالشعير».

الحَمْدُ للهِ الَّذي شَرَّفَنِي بِقَتْلِهِمْ

الخنساء: تُمَاضِرُ بنتُ عَمْرِو بن الحارث بن الشَّرِيد، الرِّياحِيَّةُ السُّلَمِيَّةُ، من بني سُلَيْم، من قيس عَيْلان، من مُضَرَ، صحابية جليلة، أشهر شواعر العرب، وأَشْعَرُهُنَّ على الإطلاق.

قال ابن عبد البَرِّ في الاستيعاب: أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم يكن امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها.

عاشت أكثر عمرها في العهد الجاهلي، وأدركت الإسلام فأسلمت. قال ابن الأثير في أُسْدِ الغابة: «قدمت على رسول الله ﷺ مع قومها فأسلمت معهم، فذكروا أَنَّ رسول الله ﷺ كان يستنشدها، ويعجبهُ شِعْرُها، فكانت تنشده ويقول: «هِيْهِ يا خُنَاسُ!»».

أكثرُ شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صَخْرٍ ومعاويةَ، وكانا قد قتلا في الجاهلية. ومن قولها في صخرٍ أخيها:

أَعَيْنَيَّ جُودا ولا تَجْمُدا ... أَلا تَبْكِيانِ لِصَخْرِ النَّدَى؟
أَلاَ تَبْكِيانِ الجَرِيءَ الجَمِيلَ؟ ... أَلا تَبْكِيانِ الفَتَى السَّيِّدا؟
طَوِيلُ النِّجادِ رَفِيعُ العِمادِ ... سَادَ عَشِيْرَتَهُ أَمْرَدا[1]

---

(١) (طويل النجاد): النجاد: حمائل السيف، تريد طول قامته، فإنها إذا طالت طال نجاده. (رفيع العماد): أرادت عماد البيت، والعرب تضع البيت موضع الشرف في النسب والحسب، والعماد والعمود: الخشبة التي يقوم عليها البيت. (أَمْرَدا): الأمرد: الشابُّ طَرَّ شاربه، وبلغ خروج لحيته ولم تَبْدُ.

ومِنْ قولها فيه أيضاً:

أَلا يــا صَخْــرُ لا أنســاكَ حَتَّــى ... أُفَــارِقَ مُهْجَتِــي ويشــقَّ رَمْســي[1]

ولَــوْلا كَثْــرَةُ البَــاكِيْــنَ حَــوْلِــي ... علــى إِخْــوانِهِــمْ لَقَتَلْــتُ نَفْســي

يُــذَكِّــرُنــي طُلُــوعُ الشَّمْــسِ صَخْــراً ... وأَبْكِيْــهِ لِكُــلِّ غُــرُوبِ شَمْــسِ

وَمَــا يَبْكُــونَ مِثْــلِ أَخِــي ولكِــنْ ... أُعَــزِّي النَّفْــسَ عَنْــهُ بــالتَّــأَسِّــي

وذكر الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ عن محمد بن الحسن المخزوميِّ ـ وهو المعروف بابن زَبَالَةَ ، أَحَدِ المتروكين ـ عن عبد الرحمن بن عبد الله ، عن أبيه ، عن أبي وَجْزَةَ ، عن أبيه ، قال: حضرت الخنساء بنتُ عَمْرِو بن الشَّرِيْدِ السُّلَمِيةُ القادسية[2] ، ومعها بنوها ، أربعةُ رجالٍ ، فقالت لهم من أول الليل : يا بَنِيَّ! إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله! الذي لا إله غيره؛ إنكم لبنو رجلٍ واحد ، كما أنكم بنو امرأةٍ واحدةٍ ، ما خُنْتُ أباكم ، ولا فَضَحْتُ خَالَكُمْ ، ولا هَجَّنْتُ حَسَبَكُم[3] ، ولا غيَّرت نسبكم.

وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين.

واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية. يقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ[4] وَرَابِطُواْ[5] وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فإذا أصبحتم غداً ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ سالمينَ ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مُستبصرين ، وبالله على أعدائه مُستنصرين ، وإذا رأيتم الحرب قد شَمَّرَتْ عن

---

(١) (رمسي): قبري.

(٢) (القادسية): معركة شهيرة جرت سنة (١٦) هـ ، انتصر فيها المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص على المجوس الفرس. وتقع القادسية في العراق بين النجف والحيرة إلى الشمال الغربي من الكوفة ، وإلى الجنوب من كربلاء.

(٣) (ولا هجنت حسبكم): أي ما عِبْتُهُ.

(٤) (صابروا): غالبوا الأعداء في الصبر (كلمات القرآن).

(٥) (رابطوا): أقيموا بالحدود مُتَأَهِّبين للجهاد (كلمات القرآن).

ساقِها ، واضطرمت لَظى على سِياقها ، وجُلِّلَتْ ناراً على أَرْواقِها ، فتَيَمَّموا وَطِيْسَها[1] ، وجَالِدوا رئيسها عند احْتِدام خَميسها[2] ، تظفروا بالغنم والكرامة ، في دار الخلد والمُقامة .

فخرج بنوها قابلين لنصحها ، عازمين على قولها .

فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم ، وأنشأ أَوَّلُهُمْ يقول :

يـا إِخْـوَتـي! إنَّ العجـوزَ النَّـاصِحَـهْ ... قَـد نَصَحَتْنـا إِذْ دَعَتْنـا البـارِحَـهْ
مقـــالـــةً ذاتَ بَيَـــانٍ واضِحَـــهْ ... فَبَاكِروا الحربَ الضَّروسَ الكَالِحَهْ[3]
وإنَّمَـا تَلْقَـوْنَ عنـد الصَّـائِحَـهْ ... مِـنْ آلِ سـاسـانَ الكـلابَ النَّـابِحَـهْ
قَـد أَيْقَنُـوا مِنكـم بِـوَقْـعِ الجَـائِحَـهْ ... وأَنْتُـمْ بَيْـنَ حَيَـاةٍ صَـالِحَـهْ
أَوْ مِيْتَـــةٍ تُـــورِثُ غُنْمـــاً رَابِحَـــهْ

وتقدم ، فقاتل حتى استشهد رحمه الله ، ثم حمل الثاني وهو يقول :

إنَّ العجـــوزَ ذاتَ حَـــزْمٍ وَجَلَـــدْ ... والنَّظَـرِ الأَوْفَـقِ والـرَّأْيِ السَّـدَدْ
قَـدْ أَمَـرَتْنـا بـالسَّدَادِ والـرَّشَـدْ ... نصيحـةً مِنهـا وبِـرّاً بِـالْـوَلَـدْ
فَبَـاكِـروا الحـربَ حُمـاةً في العَـدَد ... إمَّـا لِفَـوْزٍ بـارِدٍ عَلَـى الكَبِـدْ
أَوْ مِيْتَـــةٍ تُـــورِثُكُـــمْ عِـــزَّ الأَبَـــدْ ... في جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ والْعَيْشِ الرَّغَدْ

فقاتل حتى استشهد ، ثم حمل الثالث وهو يقول :

واللهِ! لا نَعصـي العجـوزَ حَـرْفَـا ... قَـد أَمَـرَتْنـا حَـرْبـاً وعَطْفَـا
نُصْحـاً وبِـرّاً صَـادِقَـاً وَلُطْفَـا ... فبـادِرُوا الحـربَ الضَّـروسَ زَحْفَـا
حَتَّـى تلفـوا آلَ كِسْـرَى لَفَّـا ... أَوْ يَكْشِفُـوكُـمْ عَـنْ حِمَـاكُـمْ كَشْفَـا
إنَّـا نَـرىٰ التَقْصيـرَ منكـمُ ضَعْفَـا ... والقَتْـلَ فيكـمُ نَجْـدَةً وزُلْفَـى

فقاتل حتىٰ استشهد ، ثم حمل الرابع وهو يقول :

---

(١) (وطيسها) : الوطيس : شبه التنور . وقيل : هو الضِّراب في الحرب . وقيل : هو الوطءُ الذي يَطِسُّ الناسَ ، أي : يدقُّهم (النهاية) .

(٢) (خميسها) : الخميس : هو الجيش .

(٣) (الحرب الضَّروس) : الشديدة المهلكة . (الكالحة) : الشديدة .

لَسْـــتُ لِخَنْسَـــاءَ وَلا لِـــلأَخْـــرَمِ ولا لِعَمْـــرٍو ذِي السَّنَـــاءِ الأَقْـــدَمِ
إِنْ لَمْ أرد في الجيشِ جَيْشِ الأَعْجَمِ مَـاضٍ علـى الهَـوْلِ خضـم خضـرمِ
إِمَّـــا لِفَـــوْزٍ عَـــاجِـــلٍ وَمَغْنَـــمِ أَوْ لِـــوَفَـــاةٍ فـــي السَّبِيـــلِ الأَكْـــرَمِ

فقاتل حتى قتل. فبلغها الخبرُ ، فقالت: الحمد لله الذي شَرَّفَنِي بقتلهم ، وأرجو من ربي أَنْ يَجْمعني بهم في مُسْتَقَرِّ رحمته».

وفي هذا المعنىٰ ما قالته الأستاذة البليغة مَيْمَنَةُ بنت الشهيد محمد عز الدين القَسَّام[1] ـ رحمه الله تعالى ـ في خطبة لها ألقتها في المؤتمر النسائي الذي عقد بالقاهرة سنة (١٩٣٨) م وجاء فيها:

«هل تَسْمَحْنَ أن تتكلم عربيةٌ؟ يا سيداتي! أبوها شيخ جليل ، عالم من علماء الدين ، له أنصار وتلاميذ ، أَلَّف منهم عصبة كريمة مجاهدة ، ومضى بهم إلى أحراش (يَعْبَد)[2] وروابي (جِنِيْن) ، وهنالك وقف في وجه جيش من

(١) هو محمد عز الدين بن عبد القادر القسَّام ، شيخ المجاهدين في أرض الإسراء والمعراج. ولد عام (١٣٠٠) هـ في مدينة جَبَلَة الساحلية السورية ، وتعلم في الأزهر بمصر ، واشتغل في بلده بالتعليم والوعظ إلى أن احتل الفرنسيون سورية في ختام الحرب العالمية الأولى سنة (١٩١٨) م ، ثم غادرها بعد استيلاء الفرنسيين عليها سنة (١٩٢٠) م فأقام في حَيْفا بفلسطين ، وتولى فيها إمامة جامع الاستقلال وخطابته ورياسة جمعية الشبان المسلمين ، وتعاون مع الشيخ محمد كامل قصاب على تأليف كتاب «النقد والبيان» ، واستفحل الخطر الصهيوني ، فثارت فلسطين على الإنكليز وكانوا حكامها سنة (١٩٣٤) م وظهرت بطولة القسام في معارك خاضها في تلك الثورة ، منفرداً بعصبة من رجاله ، يقاتلون كلَّما وجدوا سبيلاً للقتال ، ويأوون إلى الكهوف والمغاور. ومات شهيداً في عام (١٩٣٥) م ، ودفن في قرية «الشيخ» بجوار حيفا (الأعلام: ٦/٢٦٧ ـ ٢٦٨). قلت: أفرده بالترجمة عدد من الكتاب والمؤرخين ، وأفضل وأجمع ترجمة له هي التي ظهرت في دار القلم بدمشق بعنوان: عز الدين القسام شيخ المجاهدين في فلسطين ، تأليف أستاذنا البحاثة محمد شُرَّاب. حَرِيٌّ بكل محب لأرض الإسراء والمعراج أن يطلع عليه.

(٢) قرية في الجهة الغربية من جنين على بعد (١٨) كِيْلاً منها. بلغ عدد سكانها سنة =

الظالمين ، وهتف بإخوانه: اللهُ أكبر ، اللهُ أكبر ، ثباتاً ثباتاً ، موتوا في سبيل فلسطين ، وما هي إلاَّ ساعة ، حتى كان أبي وملاذي الشيخ عز الدين القسام ، صريع الظلم والعدوان ، يخضب دَمُهُ عِمامَتَهُ البيضاء ، ويسقي شجرة الاستقلال في ثرى فلسطين.

وقال التاريخ: عِزُّ الدين أولُ شهيد في الثورة ، دَقَّ باب الحرية بيده المخضبة بالدماء ، فكان في استشهاده أستاذاً في الفداء ، أما طلابه ومريدوه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدَّلوا تبديلاً.

نعم ، منهم من خاض الغمرات ، وغشيَ المعامع ، واستبسل في الوقائع ، وهو لا يزال في الجبال والوهاد ، في المغاور والكهوف ، لم يُلْقِ سلاحَهُ ، ولم يستسلم حتى تنجو فلسطين من كيد الكائدين.

أما أنا فلستُ أقول سوى: الحمد لله ، ثم الحمد لله الذي شَرَّفني باستشهاد أبي ، وأعزَّني بموته ، ولم يُذِلَّني بهوان وطني واستسلام أمتي. . . ».

سلام على الشهداء في الأولين.

وسلام على الشهداء في الآخرين.

وسلام على الشهداء يوم يبعثون.

وهنيئاً لهم تجارتهم الرابحة.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ

= (١٩٣٥) م حوالي (٤٠٠) نسمة ، وجميعهم من المسلمين (كتاب عز الدين القسام ص: (٢٨٠) لأستاذنا البحاثة محمد شُرّاب. =

يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وروى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك؛ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما أحدٌ يدخل الجنةَ يحبُّ أن يرجعَ إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجعَ إلى الدنيا فيقتلُ عشرَ مراتٍ ، لِما يرى من الكرامة» .

وفي رواية : «لِما يرى من فضل الشهادة» .

اللهم ارزقنا الشهادة في سبيلك ، غير مُوَلِّين ولا مُدْبرين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

* * *

انْهَضْ بُنَيَّ! فَضَارِبِ القَوْمَ

أُمُّ عُمارةَ، نَسِيبَةُ[١] بنت كعب بن عمرو بن عوف الأنصارية المازنية. كان أخوها عبد الله بن كعب المازني من البدريِّين. وكان أخوها عبد الرحمن من البَكَّائين[٢]. تزوجت في الجاهلية زيد بن عاصم بن عمرو المازني فأنجبت منه عبد الله وحَبيباً، ولما مات زوجها الأول تزوجت غزيَّةَ بن عمرو فأنجبت منه تميماً وخولة.

كانت هذه الصحابية فاضلة مجاهدة، ذات صلاح، ودين، ونُسُكٍ، واجتهاد، وصدق مع الله، أسلمت قديماً، وشهدت بيعة العقبة الثانية[٣]، وأحداً، والحديبية، وخيبر، وعمرة القضية، ويوم حنين، ويوم اليمامة، وجاهدت، وفعلت بالمشركين الأفاعيل.

قال ابن هشام[٤]: «وقاتلت أم عُمارة نَسِيْبَةُ بنت كعب المازنية يوم أحد فذكر سعيد بن أبي زيد الأنصاري، أنَّ أمَّ سعد بنت سَعْدِ بن الرَّبِيْعِ كانت تقول

(١) (نَسِيْبَةُ): قيَّدها الأمير ابن ماكُولا وغيره بفتح النون، وضبطها بالتصغير وَهْمٌ، إنما هذا في نُسَيْبَةَ أم عطية، فنقله في أم عُمارة غلطٌ.

(٢) (البَكَّائين): هم سبعة من الأنصار، أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك. فقال ﷺ: «لا أجدُ ما أحملكم عليه»، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.

(٣) (بَيْعَةُ العقبة الثانية): العَقَبَةُ هي عَقَبَةُ منىً. و(الثانية) صفة للبيعة وليس للعَقَبَةِ.

(٤) في السيرة (٣/ ٨٢).

دخلت على أم عُمارة فقلت لها: يا خالةُ! أخبرني خَبَرَكِ[1].

فقالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو في أصحابه، والدُّولَةُ والريح[2] للمسلمين، فلما انهزم المسلمون، انحزْتُ إلى رسول الله ﷺ، فقمتُ أباشِرُ القتالَ، وأذبُّ[3] عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خَلَصَتْ الجراحُ إليَّ.

قالت: فرأيت على عاتقها[4] جرحاً، أجوفَ، له غَوْرٌ.

فقلت لها: من أصابكِ بهذا؟

قالت: ابن قَمِئَةَ، أقمأه الله[5]! لمَا ولّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلُّوني على محمدٍ، فلا نجوتُ إنْ نجا!

فاعترضتُ له أنا ومصعبُ بن عُمَيْرٍ، وأناسٌ ممن ثبت مع رسول الله ﷺ، فضربني هذه الضربة، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضرباتٍ. ولكنَّ عدوَّ الله كان عليه درعان.

وفي سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٩) عن أُم عُمارة أنها قالت:

رأيتني، وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ[6]، فما بقي إلا في نُفَيْرٍ ما يتمُّون عشرةً، أنا، وابناي، وزوجي بين يديه، نَذُبُّ عنه، والناس يمرون منهزمين، ورآني ولا ترسَ معي، فرأىٰ رجلاً مُوَلِّياً ومعه ترسٌ. فقال: «ألقِ ترسك إلى من يقاتل». فألقاه، فأخذتُهُ. فجعلتُ أُتَرِّسُ به عن رسول الله.

وإنما فعل بنا الأفاعيلَ أصحابُ الخيلِ؛ لو كانوا رَجَّالةً[7] .....

---

(١) (أخبريني خبرك): أي حدثيني عن قصة جهادكِ في غزوة أحد.
(٢) (الدُّولَة والريح): الغلبة والنصر.
(٣) (أذبُّ): أي أدافع.
(٤) (العاتق): ما بين المَنْكِب والعنق.
(٥) (أَقْمأهُ الله): أذلَّهُ.
(٦) (انكشف الناس عن رسول الله ﷺ): تولّوا عنه وتركوه.
(٧) (رجّالة): أي مُشاة.

مثلنا أصبناهم ، إنْ شاء الله .

فيقبل رجل على فرسٍ ، فيضربني ، وتَرَّسْتُ له ، فلم يصنع شيئاً وَوَلَّىٰ؛ فأضربُ عُرْقوبَ[1] فرسه ، فوقع على ظهره ، فجعل النبي ﷺ يصيحُ : «يا ابن أُمِّ عُمارة! أُمَّكَ ، أُمَّكَ!

قالت : فعاونني عليه ، حتى أوردتُهُ شَعُوبَ[2] .

وفي رواية أخرى عن ابنها عبد الله بن زيد بن عاصم أنه قال : شهدتُ أُحُداً ، فلما تفرَّقوا عن رسول الله ﷺ ، دنوتُ منه ، وأمي تَذُبُّ عنه ، فقال ﷺ : «يا ابنَ أُمِّ عُمارة!» .

قلت : نعم .

قال : «ارمِ» .

فرميتُ بين يديه رجلاً من المشركين بحجر ـ وهو على فرسٍ ـ فأصبْتُ عين الفرسِ ، فاضطرب الفرسُ ، حتى وقع هو وصاحبُهُ ، وجعلتُ أعلوه بالحجارةِ حتى نَضَّدْتُ عليه منها وِقراً ، والنبي ﷺ ينظر ويتبسَّمُ ، فنظر إلى جُرْحٍ بأمي على عاتقها ، فقال : «أُمَّكَ! أُمَّكَ! اعصب جُرْحها ، بارك الله عليكم من أهل بيتٍ! مقامُ أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك ـ يعني زوج أمه ـ خير من مقام فلان وفلان ، ومقامك لخير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل البيت!

قالت : ادعُ الله أن نرافقكَ في الجنة .

قال : «اللهم! اجعلهم رفقائي في الجنة» .

قالت : ما أبالي ما أصابني من الدنيا .

وظلت هذه الصحابية الجليلة ، التي تخرجت في مدرسة القرآن ، تقاتل

---

(١) (عرقوب فرسه) : العُرقوب من الدابة : ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يدها (الوسيط) .

(٢) (شَعُوب) : عَلَمٌ على المَنِيَّةِ والموت .

قتالاً شديداً ، وتداوي الجرحىٰ ، وتسقيهم الماء حتى جرح ابنها عبد الله بن زيد ، وجعل دمه لا يرقأ[1] فناداه رسول الله ﷺ قائلاً : «اعصبْ جُرْحَكَ» .

يقول ابنها عبد الله : فتقبل أمي إليَّ ، ومعها عصائب من حَقْوها[2] ، فربطتْ جُرحي ، والنبي ﷺ واقف ، فقالت : انهضْ بُنَيَّ! فضاربِ القومَ. وجعل ﷺ يقول : من يطيق ما تطيقين؟ يا أمَّ عُمارة!

فأقبل الذي ضرب ابني ، فقال رسول الله ﷺ : «هذا ضاربُ ابنِكِ» .

قالت : فأعترضُ له ، فأضربُ ساقه ، فَبَرك .

فرأيت رسول الله ﷺ يبتسم ، حتى رأيت نواجذه ، وقال : «اسْتَقَدْتِ[3] ، يا أم عُمارة!» .

ثم أقبلنا نَعُلُّهُ بالسلاح[4] ، حتى أتينا على نفسه . فقال النبي ﷺ : «الحمد لله الذي ظفَّركِ» .

وفي رواية الواقدي في المغازي ص (٢٧١) : «الحمد لله الذي ظفَّركِ ، وأقرَّ عينَكِ من عدوِّكِ ، وأراكِ ثأركِ بعينكِ» .

وكان ضَمْرَةُ بن سعيد يحدث عن جدَّته ـ وكانت قد شهدت أحداً تسقي الماء ـ قالت : سمعتُ النبي ﷺ يقول : «لمقام نَسِيْبَةَ بنت كعب اليوم خيرٌ من مقام فلانٍ وفلان» .

وكان يراها تقاتل يومئذ أشد القتال ، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها ، حتى جُرِحَتْ ثلاثة عشر جُرْحاً .

---

(١) (لا يرقأ) : لا ينقطع .

(٢) (الحَقْوُ) : معْقِد الإزار .

(٣) (استقدتِ) أي اقْتَصَصْتِ لابنك مِمَّنْ ضربه .

(٤) (نَعُلُّهُ بالسلاح) : أي نتابع ضربه بالسلاح حتى مات . وفي رواية الواقدي في المغازي ص (٢٧١) «نعلوه بالسلاح» . ومعناه : نضربه بالسلاح .

فلما حضرتْها الوفاةُ ، كنتُ فيمن غسَّلها ، فعددت جراحَها جُرْحاً جرحاً فوجدتها ثلاثة عشر جُرحاً.

وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قَمِيْئَةَ وهو يضربها على عاتقها ـ وكان أعظم جراحها ، لقد داوته سنة ـ ثم نادى منادي النبي ﷺ إلى حمراء الأسد[1] ، فشدَّتْ عليها ثيابها ، فما استطاعت من نزف الدمِ.

ولقد مكثنا ليلنا نكَمِّدُ الجراح[2] حتى أصبحنا.

فلما رجع رسول الله ﷺ من الحَمْراءِ ، ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني[3] يسأل عنها. فرجع إليه يخبره بسلامتها ، فَسُرَّ النبي ﷺ بذلك.

وعن موسىٰ بن ضَمْرَةَ بن سعيد ، عن أبيه قال: أُتِي عمرُ بن الخطاب بمروطٍ[4] ، فكان فيها مِرْطٌ واسع جيد.

فقال بعضهم: إن هذا المِرْطَ لثمن كذا وكذا ، فلو أرسلتَ به إلى زوجة عبد الله بن عمرَ: صفية بنت أبي عبيد. وذلك حِدْثانَ ما دخلتْ على ابن عمر[5].

فقال: أَبعث به إلى مَنْ هو أحقُّ منها ، أمُّ عُمارة نَسِيْبَة بنت كعب ، سمعتُ

---

(١) (حمراء الأسد): جبل أحمر جنوب المدينة على مسافة (٢٠) كِيلاً. إذا خرجت من ذي الحليفة (آبار علي الآن) تؤمُّ مكة ـ عن طريق بدر ـ رأيت حمراء الأسد جنوباً ، وتقع حمراء الأسد على الضفة اليسرىٰ لعقيق الحسا على الطريق من المدينة إلى الفُرع (المعالم الأثيرة ص: (١٠٣) لأستاذنا محمد شُرَّاب). وانظر غزوة حمراء الأسد في نور اليقين ص (١٣٢) بتحقيقي.

(٢) (نكمِّدُ الجراح): كمَّدَ العضوَ: سَخَّنهُ بالكمادة. والكِمادة: خِرقة تسخَّنُ وتوضع على الورم ، أو موضع الوجع.

(٣) هو أخو أم عمارة ، وكان من أصحاب بدر.

(٤) (مروط): جمع مِرْطٍ ، وهو كساء ، من خَزٍّ ، أو صوف ، أو كتان ، يؤتزر به ، وتتلفع به المرأة.

(٥) أي كان ابن عمر حديث عهدٍ بزواجها.

رسول الله ﷺ يوم أحد يقول: «ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني».

وعن مروان بن أبي سعيد بن المُعَلَّىٰ قال:

قيل لأم عُمارة. هل كُنَّ نساء قريش يومئذ[1] يقاتلن مع أزواجهنَّ؟

فقالت: أعوذ بالله! ما رأيتُ امرأة منهن رمت بسهم ولا بحجر؛ ولكن رأيت معهن الدِّفافُ[2] والأَكْبارُ[3]، يضربن ويذكِّرْنَ القوم قتلىٰ بدرٍ، ومعهن مكاحِلُ، ومَرَاوِدُ[4]، فكلما ولّى رجلٌ، أو تكعكع[5]، ناوَلَتْهُ إحداهنَّ مِرْوداً ومُكْحُلَةَ، وقلن: إنما أنت امرأةٌ!

ولقد رأيتهن وَلَّيْنَ منهزماتٍ مشمِّراتٍ ـ وَلَها عنهنَّ الرجالُ[6] أصحابُ الخيل، ونجوا على متون الخيل ـ يَتْبَعْنَ الرجالَ على الأقدام، فجعلنَ يسقطن في الطريق، ولقد رأيتُ هند بنت عتبة، وكانت امرأة ثقيلة[7] ولها خَلْقٌ، قاعدةً خاشيةً[8] من الخيل، ما بها شيءٌ، ومعها امرأة أخرى حتى كرَّ القوم علينا، فأصابوا منا ما أصابوا؛ فعِند الله نحتسب ما أصابنا يومئذٍ من قبل الرُّماة، ومعصيتهم لرسول الله ﷺ.

وقد شهدت أم عُمارة قتال مسيلمة الكذاب باليمامة[9]. وذلك لمّا تهيأ بعثُ

---

(١) أي يوم أُحُدٍ.
(٢) (الدِّفافُ): جمع دُفٌّ، وهو آلة طربٍ ينقر عليها (الوسيط).
(٣) (الأكبار): جمع كَبَرٍ، وهو الطبل ذو الوجه الواحد (الوسيط).
(٤) (مراوِدُ): جمعُ مِرْوَدٍ، وهو الميل من الزجاج أو المعدن يكتحل به (الوسيط).
(٥) (تكعكع): أي أحجم عن القتال وتأخَّر إلى وراء.
(٦) (لها عنهن الرجال): شغل عنهن الرجالُ من أثر الهزيمة.
(٧) (ثقيلة): أي ليست خفيفة الحركة.
(٨) (خاشية): حَذِرَة.
(٩) (اليمامة): مركز مسيلمة الكذاب بنجد. وكانت وقعَة اليمامة في السنة (١٢) هـ في القرية المسماة اليوم بـ«الجبيلة»: بقرب «العينية» بوادي حنيفة في نجد.
وانتهت بظفر سيف الله المسلول خالد بن الوليد، ومقتل المتنبىء المشعوذ مسيلمة =

خالد بن الوليد إلىٰ اليمامة ، جاءت أبا بكر الصديق ، فاستأذنته للخروج ، فقال : قد عرفنا جزاءك في الحرب ، فاخرجي على اسم الله ، وأوصىٰ خالدَ بن الوليد بها ، وقد جاهدت باليمامة أجلَّ جهاد ، وهي تريد عدوَّ الله مسيلمة الكذاب . فقطعت يدُها فما كانت ناهية لها ، ولا عرَّجَت عليها حتى وقفت على مسيلمة مقتولاً .

سألتها أمُّ سعد بنت سعد بن الربيع فقالت : يَدُكِ ، ما أصابها؟

فقالت أم عُمارة : أصيبت يوم اليمامة ، ثم أنشأت تحدث عن تلك المعركة قائلةً : لما جعلتْ الأعراب ينهزمون بالناس؛ نادتْ الأنصار : أخلصونا؛ فَأُخْلِصَتْ الأنصارُ ، فكنت معهم ، حتى انتهينا إلى حديقة الموت[1] ، فاقتتلنا عليها ساعة ثم قتل أبو دُجَانة[2] على باب الحديقة ، ودخلتها وأنا أريد عدوَّ الله مسيلمة ، فيعترض لي رجل منهم ، فضرب يدي فقطعها ، فوالله! ما كانت لي ناهية ، ولا عرَّجْتُ عليها ، حتى وقفت على الخبيث مقتولاً ، وابني عبد الله ابن زيد المازني يمسح سيفه بثيابه . فقلتُ : قَتَلْتَهُ؟

قال : نعم ، فسجدت شكراً لله .

قال ابن إسحاق[3] : كانت شهدت الحرب مع رسول الله ، وشهدت معها أختها ، وزوجها زيد بن عاصم بن كعب ، وابناها : حبيب بن زيد ، وعبد الله ابن زيد .

= الكذاب . قال الزركلي في الأعلام (ترجمة مسيلمة) : «ولا تزال إلى اليوم آثار قبور الشهداء ، من الصحابة ، ظاهرة في قرية «الجبيلة» حيث كانت الواقعة ، وقد أكل السيلُ من أطرافها حتى إن الجالس في أسفل الوادي يرى على ارتفاع (١٥) متراً تقريباً ، داخل القبور ولحدها» .

(١) (حديقة الموت) : بستان كان بِقَنا حجر من أرض اليمامة لمسيلمة الكذاب ، كانوا يسمونه حديقة الرحمن ، وعنده قتل مسيلمة ، فسموه حديقة الموت (معجم البلدان) .

(٢) هو سِماكُ بن خَرَشَة الأنصاري . صحابي من الشجعان الأبطال .

(٣) كما في سيرة ابن هشام (١/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧) .

وابنها حبيبٌ الذي أخذه مسيلمة الكذَّاب الحنفي ، صاحب اليمامة ، فجعل يقول له : أتشهد أن محمداً رسول الله؟

فيقول: نعم ، فيقول: أفتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع ، فجعل يقطعه عضواً عضواً حتى مات في يده ، لا يزيده على ذلك ، إذا ذكر له رسول الله ﷺ آمنَ به وصلى عليه ، وإذا ذكر له مسيلمةُ قال: لا أسمع[1] .

---

(١) ومن هذا الباب ما رواه الحافظ أبو نعيم في الحلية (٢/١٢٩) ، والحافظ ابن عساكر والإمام ابن الزَّمَلْكاني والحافظ ابن كثير في شمائل الرسول ص (٥١٦) ، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ص ١٢٩ ، والعمادي في الروضة الريا فيمن دفن بداريا ص: (٧٤ ـ ٧٦) بتحقيقي وغيرهم عن إسماعيل بن عيَّاشٍ ، قال: حدثني شُرَحْبيل بن مسلم الخولاني ، أن الأسود العنسي الكذّابَ ، تنبَّأ باليمن فأرسل إلى زاهد العصر وسيد التابعين سيدنا أبي مسلم الخولاني الداراني ، فأتيٰ به ، فلما جاء قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع .
قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟
قال: نعم .
فردَّدَ عليه ذلك مراراً ، وهو يجيبه بما ذكر ، ثم أمر بنار عظيمة فأجّجت ، وألقي فيها أبو مسلمٍ ، فلم تضرَّه ، فقيل للأسود انْفِهِ من بلادك ، وإلا أفسد عليك من اتبعك ، فأمره بالخروج من بلاده ، فارتحل أبو مسلمٍ ، فأتىٰ المدينة ، وقد قُبض رسول الله ﷺ ، فأناخ أبو مسلم راحلته ، ثم دخل المسجد ، وقام يصلي إلى سارية من سواري المسجد ، فبصر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأتاه ، فقال: مِمَّنْ الرجلُ؟
فقال: من أهل اليمن .
فقال: ما فعل الرجل الذي أحرقه الكذاب بالنار؟
قال: ذلك عبد الله بن ثواب (هو أبو مسلم الخولاني ذاته) .
قال: أنشدك الله ، أنت هو؟
قال: اللهم نعم. فاعتنقه ، ثم بكىٰ ، وذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه ، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد من فُعِلَ به ، كما فُعِلَ بإبراهيم ، خليل الرحمن .
قال الإمام النووي في بستان العارفين ص (١٨٦): «وقوله: (لا أسمع) يحتمل وجهين: أحدهما: معناه لا أقبل. والثاني: أنه على ظاهره ، وأن الله تعالى سد مسامعه عن هذا

فخرجت إلى اليمامة مع المسلمين ، فباشرت الحرب بنفسها حتى قتل الله مسيلمة ، ورجعت وبها اثنا عشر جُرحاً ، من بين طعنة وضربة .

ولما آبت أم عُمارة إلى مدينة رسول الله ﷺ ، بعد أن شهدت مصرع عَدُوِّ الله مسيلمة ، جاءها خالد بن الوليد يطلب من العرب مداواتها بالزيت المغلي ، فكان أشد عليها من القطع .

وكان خالد كثير التعاهد بها ، حسن الصحبة ، يعرف حقها ، ويحفظ فيها وصية النبي ﷺ .

ولما قدمت المدينة وبها الجراحة رُئي أبو بكر يأتيها يسأل عنها وهو يومئذ خليفة .

وقد روت هذه الصحابية عن رسول الله ﷺ ، وروىٰ عنها الحارث بن عبد الله بن كعب ، وابنُ ابنها عبَّاد بن تميم ، وكُرَيبٌ مولىٰ ابن عباس . وروىٰ حبيب بن زيد الأنصاري عن مولاة لهم يقال لها ليلى ، عنها . روىٰ لها الأربعة : أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجهْ .

ومن حديثها عن النبي ﷺ ما رواه الترمذي (٣٢١١) من طريق عكرمة عنها ، أنها أتت النبي ﷺ فقالت : ما أرىٰ كل شيء إلا للرجال ، وما أرىٰ النساء يذكرن بشيء؟ فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ . . . ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

قال الترمذي : «هذا حديث حسن غريب . . . » .

توفيت هذه المرأة الصالحة نحو سنة (١٣) هـ . بعد أن أعطت للمسلمين دروساً لا تنسىٰ في الصدق والإخلاص والبذل في سبيل الله عز وجل ، وإعلاء كلمته ودينه ، رحمها الله رحمة واسعة ، وحشرنا وإياها في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

= الباطل الشديد الفحش . وقد اقتصر بعض الأئمة على الاحتمال الأول . والاحتمال الثاني عندي أظهر» .

لَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلَ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ

أسماءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ الخَثْعَمِيَّةُ ، أُمُّ عبد اللهِ ، صحابيةٌ جليلةٌ . كان لها شأنٌ وصفها أبو نُعَيم بـ: «مهاجرة الهجرتين ، ومصلية القبلتين».

أسلمت قديماً قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم[1] بمكة ، وبايعت ، ثم هاجر بها زوجها جعفرٌ الطَّيَّارُ إلى أرض الحبشة[2] ، فولدت له هناك: عبد الله ، ومحمداً ، وعوناً ، ثم هاجرت مع زوجها إلى مدينة رسول الله ﷺ ، فوصلتها في السنة السابعة من الهجرة عام خَيْبَرَ[3] .

ولما قتل عنها زوجُها جعفرُ بْنُ أبي طالبٍ ، واستشهد في غزوة مؤتة[4] سنة ثمانٍ من الهجرة . تزوَّجها أول الخلفاء الراشدين ، سيدنا أبو بكر الصديق رضي

---

(١) دار بمكة عند الصَّفَا . تجدد بناؤها في التوسعة الجديدة للحرم المكي ، وأصبحت مقرّاً لبعض هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصار جزءٌ منها مقرّاً لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه ، ثم هدمت وأصبحت أثراً بعد عينٍ؛ حتى إنها لا تكاد تعرف اليوم . انظر في رحاب البيت الحرام ص: (٣٧٦) ، وأخبار مكة للأزرقي (٢/ ٢٠٠) .

(٢) (الحبشة): هي إثيوبية اليوم . ولعلها في زمن النبي ﷺ كانت تشمل أيضاً جزءاً من السودان والصومال ، قال الحافظ في الفتح (٧/ ١٩٠): «أرض الحبشة بالجانب الغربي من بلاد اليمن ومسافتها طويلة جداً ، وهم أجناسٌ ، وجميع فرق السودان يعطون الطاعة لملك الحبشة . . .» .

(٣) (خيبر): بلدة معروفة في السعودية تبعد عن المدينة المنورة (١٦٥) كِيلاً شمالاً على طريق الشام .

(٤) (مؤتة): قرية في المملكة الأردنية الهاشمية ، تقع على مسيرة (١١) كِيلاً جنوب الكَرَك .

الله عنه ، فولدت له في السنة العاشرة من الهجرة ـ وقت الإحرام في ذي الحُلَيْفَةِ[1] ـ مُحَمَّدَ بْنَ أبي بكرٍ ، ثم تابعت سيرها نحو بيت الله الحرام فأكرمها الله عز وجل بحجة الوداع مع سيدنا محمد ﷺ.

ثم توفي الصديق رضي الله عنه ، فغسلته تنفيذاً لوصيته.

أخرج عبد الرزاق في المُصَنَّفِ برقم (٦١١٧) عن ابن أبي مُلَيْكَةَ؛ أن امرأة أبي بكرٍ غَسَّلَتْهُ حين توفي ، أوصى بذلك.

وروى الإمام مالك في الموطأ (١/ ٢٢٣) عن عبدالله بن أبي بكرٍ؛ أن أسماءَ بنت عُمَيْسٍ غَسَّلَتْ أبا بكرٍ الصديق ، حينَ توفي.

ثم خرجت فسألت من حضرها من المهاجرين ، فقالت: إني صائمة ، وإن هذا يومٌ شديد البردِ ، فهل عليَّ مِنْ غُسْلٍ؟ فقالوا: لا[2].

وتزوجها بعده الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فولدت له يحيى. وماتت بعد عليٍّ نحو سنة (٤٠) هـ.

أخرج ابن السكنِ بسند صحيح كما في الإصابة (٤/ ٢٢٦): عن الشعبي ، قال: تزوج عليٌّ أسماءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ ، فتفاخر ابناها: محمدُ بْنُ جَعْفَرٍ ، ومحمدُ ابْنُ أبي بَكْرٍ. فقال كُلٌّ منهما: أنا أكرمُ منكَ ، وأبي خيرٌ من أبيكَ.

فقال لها علي: اقْضِي بينهما.

فقالت: ما رأيتُ شاباً[3] خيراً من جعفرٍ ، ولا كهلاً[4] خيراً من أبي بكرٍ.

فقال لها عليٌّ: فما أبقيتِ لنا؟

---

(١) قرية تُسمَّى الآن: «آبار علي» بينها وبين المدينة تسعة أكيال ، على طريق مكة.

(٢) للعلماء في الغسل من غسل الميت ثلاثة أقوال: أنه سُنَّةٌ ، وهو أقربها ، وأنه واجبٌ ، وأنه لا يستحب. انظر سبل السلام ص (١٥٣ ـ ١٥٤) طبعة دار ابن عفَّان.

(٣) (الشابُّ): الإنسان ما دام بين الثلاثين والأربعين. انظر فقه اللغة للثعالبي ص (١١١).

(٤) (الكَهْلُ): الإنسان بعد الأربعين إلى أن يستوفي الستين. المصدر السابق. وفي المعجم الوسيط: الكهل: من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين.

وفي السِّيَرِ (٢/ ٢٨٧): فقال عليٌّ: ما تركْتِ لنا شيئاً، ولو قلتِ غير الذي قلتِ لَمَقَتُّكِ.

قالت: إنَّ ثلاثةً أنت أخسُّهم[1] خِيارٌ.

وأسماء هذه أخت ميمونةَ بنت الحارِث، زوجِ النبي - ﷺ - لأُمِّها، وأخت أم الفضل امرأة العباس بن عبد المطلب.

وكانت أسماء أكرمَ الناس أصهاراً: فمن أصهارها: سيد ولد آدم، سيدنا ونبينا محمد ﷺ.

ومن أصهارها: العباس بن عبد المطلب.

ومن أصهارها: سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله.

قال الحافظ في الإصابة: ويقال: إنها لما بلغها قتل ولدها مُحَمَّدٍ بمصرَ، قامت إلى مسجد بيتها وكظمت غيظها حتى شخب ثدياها دماً.

ولابن سعدٍ بإسنادٍ صحيح عن عامر بن شَراحيل الشَّعْبي، قال: قالت أسماء بنت عُمَيْسٍ: يا رسول الله! إن رجالاً يفخرون علينا، ويزعمون أنا لسنا من المهاجرين الأولين. فقال: «بل لكم هجرتانِ: هاجرتم إلى أرض الحبشةِ، ثم هاجرتم بعد ذلك».

ومن وجه آخر عن الشعبي نحوه، وقال فيه: «كَذَبَ[2] مَنْ يَقُولُ ذٰلكَ».

ومن وجه آخر عنه قال: يقول: «للناس هجرةٌ واحدةٌ».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٨٦): «وظاهره تفضيلهم علىٰ غيرهم من المهاجرين، لكن لا يلزم منه تفضيلهم علىٰ الإطلاق، بل من الحيثية المذكورة».

وروىٰ البخاري (٤٢٣٠، ٤٢٣١)، ومسلم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣) وأبو يعلىٰ

---

(١) (أخسُّهم): أدناهم.

(٢) (كذب): أي أخطأ.

(٧٣١٦) واللفظ له ، من طريق أبي بُرْدَةَ بن أبي موسىٰ الأشعري عن أبي موسَى الأشعري ، قال: بَلَغَنَا مَخْرَجُ رسول الله ـ ﷺ ـ ونحن باليَمَنِ ، فخرجنا مهاجرين إليه ، وأخوانٍ لي ، أنا أصغرهما: أحدهما أبو بُرْدَةَ ، والآخرُ أبو رُهْمٍ إما قال: بضع ، وإما قال: في ثلاثة أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي ، فركبنا سفينةً ، فَأَلْقَتْنا سفينَتُنا إلى النَّجاشيِّ[١] بالحَبَشَةِ ، فَوَافَقْنا جعفَر بْنَ أبي طالبٍ ، وأصحابَهُ عندهُ.

قال جعفرٌ: إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ بعثنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه ، حتى قدمنا جميعاً.

قال: فوافَقْنا رسولَ الله ـ ﷺ ـ حين فتح خَيْبَرَ ، فأسهم لنا ـ أو قال: فأعطانا منها[٢] ـ وما قسم لأحدٍ غاب عن فتح خَيْبَرَ شيئاً ، إلاَّ من شَهِدَ معه ، إلاَّ أصحابَ سفينَتِنا مع جعفرٍ ، وأصحابِهِ ، قَسَمَ لهم معهم.

قال: فكان ناس من الناس يقولون لنا ـ يعني: أَهْلَ السفينةِ ـ: سَبَقْنَاكُمْ بالهجرةِ.

قال: فَدَخَلَتْ أسماءُ بنتُ عُمَيْسٍ ـ وهي ممن قدم معنا ـ على حَفْصَةَ زوج النبي ـ ﷺ ـ زائرةً ، وقد كانت هاجرت إلى النجاشيِّ فيمن هاجر إليه.

فدخل عُمَرُ علىٰ حَفْصَةَ ـ وأسماءُ عندها ـ فقال عمر حين رأى أسماءَ: مَنْ هذه؟ آلْبَحْرِيَّةُ[٣] هذه؟

فقالت أسماءُ: نعم.

قال عمر: سبقناكم بالهجرة. نحن أَحَقُّ برسول الله ـ ﷺ ـ فغضبت ، وقالت كلمةً: كَذَبْتَ[٤] يا عُمَرُ! كلا ، والله! كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم

---

(١) (النجاشي): لقب لكل مَنْ ملك الحبشة. وهذا النجاشي اسمه: أَصْحَمَةُ.

(٢) هذا الإعطاء محمول على أنه برضا الغانمين.

(٣) نسبها إلى البحر لركوبها إياه (الفتح: ٧/ ٤٨٦).

(٤) (كذبت): أي أخطأت.

جائعكم ، ويَعِظُ جاهِلَكُمْ ، وكُنَّا في دارٍ ، أو في أرضِ البُعَدَاءِ البُغَضَاءِ[1] بالحبشةِ؛ وذلك في الله ، وفي رسول الله ﷺ ، وايْمُ اللهِ! لا أَطْعَمُ طعاماً ، ولا أَشْرَبُ شَرَاباً حتى أذكرَ ما قُلْتَ لرسول الله ﷺ ، ونحن كنا نُؤْذَى ونُخَافُ ، وسأذكر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ وأسأله.

والله! لا أكذبُ ، ولا أزيغ ، ولا أزيد على ذلك.

فلما جاء النبيُّ ـ ﷺ ـ قالت: يا نَبِيَّ اللهِ! إنَّ عُمَرَ قال: كذا وكذا.

قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «فَمَا قُلْتِ لَهُ؟».

قالت: قلت: كذا وكذا.

قال: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ ، وَلَهُ وَلأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ واحِدَةٌ ، ولكم أَنْتُمْ أَهْلَ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ».

قالت: فلقد رأيتُ أَبا مُوسَى وأَصْحابَ السَّفينة يأتونني أَرْسالاً[2] ، يسألونني عن هذا الحديث. ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هم به أَفْرَحُ ولا أَعْظَمُ في أَنْفُسِهِمْ مما قال رسولُ اللهِ ﷺ.

قال أبو بُرْدَةَ: قالتْ أسماءُ: فلقد رأيتُ أَبا مُوسَى ، وإنه ليستعيدُ هذا الحديثَ مِنِّي.

* * *

(١) (البُعَداء البُغَضاء): قال العلماء: البُعداء في النسب ، البغضاء في الدين ، لأنهم كفارٌ ، إلَّا النجاشيَّ أَصْحَمة ، وكان يستخفي بإسلامه عن قومه ، ويوري لهم.

(٢) (أرسالاً): أي أفواجاً ، أي يجيئون إليها ناساً بعد ناس (الفتح: ٧/ ٤٨٧).

مَرْحَباً بِرسولِ اللهِ وبَرسُولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

أخرج أحمد (٦/٤٠٨ ـ ٤٠٩) ، وأبو يعلىٰ في المسند (٢٢٦) من حديث أُمِّ عَطيةَ الأنصاريةِ قالت:

لما قَدِمَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ المدينَة ، جَمَعَ نِساءَ الأَنْصارِ في بيتٍ ، ثم أرسلَ إليهنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب ، رضي الله عنه ، فقام على الباب فَسَلَّمَ عليهنَّ ، فَرَدَدْنَ السَّلامَ.

فقال: أنا رسولُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إليكُنَّ.

فَقال: تُبَايِعَنْ[1] على أَنْ لا تُشْرِكْنَ بالله شيئاً ، ولا تَسْرِقْنَ ، ولا تَزْنِيْنَ ، ولا تقتلنَ أولادَكُنَّ ، ولا تَأْتِينَ بِبُهْتان[2] تَفْتَرِيْنَهُ[3] بين أيديكنَّ وأرجلكنَّ ، ولا تَعْصينَ في معروف[4].

قُلْنَ: نَعَمْ؛ فَمَدَّ عُمَرُ يَدَهُ من خارج البابِ ، ومَدَدْنَ أَيْدِيَهُنَّ من داخِلٍ ، ثم

---

(١) (تُبَايِعَنَ): البيعة: المُعَاقَدةُ علىٰ الإسلام والإمامة والإمارة ، والمعاهدة علىٰ كل ما يقع عليه اتفاق ، والمراد بها في هذا الحديث: المعاقدةُ على الإسلام ، وإعطاء العهود به (جامع الأصول: ١/ ٢٥٢).

(٢) (بِبُهْتان): البُهْتان: الكذب ، وهو هنا كناية عن ولد الزنا ، يريد: أَنَّ المرأة لا تأتي بولد من غير بعلها ، فتنسبه إلى بعلها (جامع الأصول: ١/ ٢٥٢).

(٣) (تفترينه): الافتراء: الكَذِبُ.

(٤) (معروف): المعروف: اسم جامعٌ لكل ما عُرِف من طاعة الله ، والتقرب إليه ، والإحسان إلى الناس ، وكُلّ ما نَدَب إليه الشرعُ ، ونهىٰ عنه من المُحَسِّنات والمُقَبِّحات (النهاية).

قال: اللهمَّ! اشْهَدْ. وأَمَرَنا أَنْ نُخْرِجَ في العيدين الحُيَّضَ، والعُتَّقَ[1]، ونُهينا عن اتِّباع الجنائزِ، ولا جُمُعَةَ عَلَيْنَا.

فسألته عن البهتان، وعن قوله: ولا يعصينك في معروف؛ قال: «هي النياحةُ» قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٨): «رواه أبو داود (٣١٢٧) باختصار كثير. رواه أحمد وأبو يعلىٰ والطبراني ورجاله الثقات».

قلت: وأخرجه أيضاً باختصارٍ: البخاريُّ برقم (٣٢٤) و(١٢٧٨)، ومسلم برقم (٨٩٠) و(٩٣٦) و(٩٣٨).

وأخْـرَج أحمـد (٦/٣٧٩)، وأبـو يَعْلَـىٰ رقـم (٧٠٧٠)، والطبـرانـي (٢٤/٢٩٧) من حديث سَلْمىٰ بنت قَيْسٍ رضي الله عنها ـ وكانت إحدى خالاتِ رسول الله ﷺ[2]، قد صَلَّتْ معه القبلتَيْنِ، وكانت إحدىٰ نساء بني عَدِيِّ بنِ النجار ـ قالت:

جِئْتُ رسولَ الله ﷺ، فبايَعْتُهُ في نسوة من الأنصار، فَلَمَا شَرَطَ علينا أَنْ لا نُشْرِكَ بالله شيئاً، ولا نَسْرِقَ، ولا نَزْنِي، ولا نَقْتُلَ أَوْلادَنا، ولا نأتي بِبُهْتانٍ نَفْتَرِيه بين أَيْدِينا وأَرْجُلِنا، ولا نَعْصِيه في معروف؛ قال: «ولا تَغْشُشْنَ أَزْواجَكُنَّ».

قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلتُ لامرأة مِنْهُنَّ: ارْجِعي فَسَلِي رسولَ الله ﷺ: ما غِشُّ أَزْواجِنَا؟

قالت: فسأَلَتْهُ. قال: «تَأْخُذُ مَالَهُ فَتُحابِي بِهِ غَيْرَهُ».

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٨) وقال: «رواه أحمد، وأبو يعلىٰ، والطبراني، ورجاله ثقات».

---

(١) (العُتَّقُ): جمع عاتِقٍ. وهي الشابة أول ما تدرك. وقيل: هي التي لم تَبِنْ من والديها ولم تُزَوَّجْ، وقد أدركت وشَبَّتْ (النهاية).

(٢) (إحدىٰ خالات رسول الله ﷺ): أي من جهة جده عبد المطلب؛ لأن أم جَدِّه عبد المطلب من بني عدي بن النجار، وأهل الرجل مِنْ قبل النساء له ولآبائه وأجداده كلهن خالات.

وأخرج الطبراني في الكبير والأوسط عن غفيْلَةَ[١] بنت عُبَيْدِ بن الحارث رضي الله عنهما ، قالت: جئتُ أنا وأمي قَرِيرَة بنت الحارث العُتْوَارِيّة ، في نساءٍ من المهاجرات ، فبايَعْنَا رَسولَ الله ﷺ ، وهو ضارب عليه قبةً بالأبطح ، فأخذ علينا أن لا نشرك بالله شيئاً . . الآية كلها.

فلما أَقْرَرْنا وبَسَطْنا أيدينا لنبايِعَهُ قال: «إِنِّي لا أَمَسُّ أَيْدِي النِّسَاء[٢]» ، فاستغفر لنا ، وكانتْ تلكَ بَيْعَتُنا.

ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٩) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه موسىٰ بن عبيدة وهو ضعيف».

وأخرج مالك في الموطأ (٢/ ٩٨٢) ، والترمذي (١٥٩٧) ، والنسائي (٧/ ١٤٩) ، وابن ماجه (٢٨٧٤) من حديث أُمَيْمَةَ بنت رُقَيْقَةَ قالت:

أتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ في نسوة يبايعنه ، فقلنا: نبايعك ، يا رسول الله! على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك في معروفٍ.

فقال رسول الله ﷺ: «فيما اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَعْتُنَّ».

فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا. هَلُمَّ[٣] نبايِعْكَ ، يا رسول الله!

قال: «إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأةٍ واحدة».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح . . . .».

---

(١) ويقال: عَقِيْلَة. انظر أسد الغابة (٦/ ١٩٨).

(٢) مصافحة المرأة الأجنبية حرام ، وهي عادة خبيثة ، وفدت إلينا من الغرب مع عصر «تحرير المرأة»!

(٣) (هَلُمَّ): بمعنىٰ تعالَ وهاتِ ، وفيها لغتان ، فأهل الحجاز يُسَوُّون فيها بين المذكر والمؤنث ، والواحد والاثنين والجمع ، بصيغة واحدة ، مبنية على الفتح ، وبنو تميم يلحقونها علامةَ ما اقترنَتْ به ، فيقولون: هَلُمَّا ، وهَلُمِّي ، وهَلُمُّوا (جامع الأصول: ١/ ٢٥٦).

اسْتَضْعَفْتَهُ أَنْ غَابَ عَنْهُ سَيِّدُهُ؟!

أخرج ابن إِسحاقَ ـ كما في سيرة ابن هشام (١/ ٦٤٦ ـ ٦٤٧) من حديث حُسين بن عبد الله بن عُبيد الله بن عَبَّاسٍ ، عن عِكْرِمَةَ مولىٰ ابن عباسٍ ، قال: قال أبو رافعٍ مولىٰ رسول الله ﷺ:

كنتُ غُلاماً للعباسِ بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دَخَلَنَا أَهْلَ البيت ، فأسلمَ العباسُ ، وأَسْلَمَتْ أُمُّ الفَضْلِ[١] ، وأَسْلَمْتُ.

وكان العباس يهابُ قومَهُ ، ويكره خلافهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مالٍ كثير متفرِّقٍ في قومه.

وكان أبو لَهَبٍ قد تَخَلَّفَ عَنْ بدرٍ ، فبعث مكانه العاصَ بن هشامِ بن المغيرةِ. وكذلك كانوا صَنَعُوا ، لم يَتَخَلَّفْ رجلٌ إلاَّ بعث مكانه رجلاً ، فلما جاءه الخبر عن مُصاب أصحاب بدر من قُريش ، كَبَتَهُ اللهُ[٢] وأخزاه ، ووجدنا في أَنْفُسنا قُوَّةً وعِزّاً.

---

(١) هي لُبَابَةُ بنت الحارث الهلالية ، زَوْجُ العباس عم رسول الله ﷺ ، وأُمُّ الفَضْلِ ، وعبد الله ، ومعبد ، وعُبيد الله ، وقُثَم ، وعبد الرحمن ، وغيرهم من بني العباس بن عبد المطلب ، وهي أخت ميمونة زوج النبي ﷺ ، وخالةُ خالد بن الوليد. كانت من نبيلات النساء ومنجباتهنَّ ، أسلمت بمكة بعد إسلام خديجة ، وكان رسول الله ﷺ يزورها ، ويَقِيْلُ في بيتها. توفيت نحو سنة (٣٠) هـ. انظر ترجمتها في أسد الغابة والأعلام وغيره.

(٢) (كبته الله): أَذَلَّهُ.

قال: وكنت رجلاً ضعيفاً ، وكنت أعملُ الأَقْدَاحَ[1] ، أَنْحَتُها في حُجْرَة زَمْزَمَ ، فوالله! إنِّي لجالسٌ فيها ، أَنْحَتُ أقداحي ، وعندي أُمُّ الفضل جالسة ، وقد سَرَّنا ما جاءنا من الخبر؛ إذْ أقبل أبو لهب يَجُرُّ رجليه بِشَرٍّ ، حتىٰ جلس على طُنُبِ الحُجْرَةِ[2] ، فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالسٌ ، إذ قالَ الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب[3] ـ قال ابن هشامٍ: واسم أبي سُفيان المُغيرة ـ قد قَدِمَ.

قال: فقال أبو لَهَبٍ: هَلُمَّ إليَّ ، فعندك لَعَمْرِي الخَبَرُ.

قال: فجلس إليه ، والناس قيامٌ عليه ، فقال: يا ابن أخي! أخبرني: كيف كان أَمْرُ الناسِ؟

قال: واللهِ! ما هو إلاَّ أَنْ لَقِينَا القومَ ، فمنحناهم أكتافَنَا ، يقودوننا كيف شاؤوا ، ويأسِرُوننا كيف شاؤوا.

وايْمُ اللهِ! ـ مع ذٰلكَ ـ ما لُمْتُ الناسَ ، لَقِينا رجالاً بِيْضاً ، علىٰ خَيْلٍ بُلْقٍ[4] ، بين السماء والأرضِ. والله! ما تُلِيْقُ[5] شيئاً ، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعتُ طُنُبَ الحُجْرَةِ بيدي ، ثم قلت: تلك ، والله! الملائكةُ.

قال: فرفع أبو لَهَبٍ يده فضرب بها وجهي ضربةً شديدةً.

قال: وثاوَرْتُهُ[6] ، فاحتملني ، فضرب بي الأرضَ ، ثم بَرَكَ عليَّ يَضْرِبُني وكنتُ رجلاً ضعيفاً ، فقامت أُمُّ الفَضْلِ إلىٰ عمودٍ من عُمُدِ الحُجْرَةِ ، فَأَخَذَتْهُ ،

---

(١) (الأقداح): جمع قِدْحٍ ، وهو السهم قبل أن يُراشَ ويُرَكَّب نَصْلُهُ.

(٢) (طُنُبِ الحجرة): طَرَفها.

(٣) هو ابن عم رسول الله ﷺ. وهو غير أبي سفيان والد معاوية ، أسلم وحسن إسلامه.

(٤) (خيل بُلْقٍ): التي فيها سواد وبياض.

(٥) (ما تُلِيق): ما تُبْقي.

(٦) (ثاورْتُهُ): وثبت إليه.

فضَربَتْهُ به ضربةً فَلَقتْ[1] في رأسه شَجَّةً مُنكَرةً ، وقالت: اسْتَضْعَفْتَهُ أَنْ غابَ عنه سَيِّدُهُ؟!

فقام مُوَلِّياً ذليلاً ، فوالله! ما عاش إلاَّ سبعَ ليالٍ حتى رماه الله بالعَدَسَةِ[2] فقتلَتْهُ.

* * *

(١) (فَلَقَتْ): شَقَّتْ ، وهذه اللفظة من العامي الفصيح.

(٢) (بالعَدَسَةِ): العَدَسَةُ: هي بَثْرَةٌ تشبهُ العَدَسَةَ ، تخرج في مواضع من الجسد ، من جنس الطاعون ، تَقتل صاحبها غالباً (النهاية).

قَدْ كانَ ذَاكَ على رَغْمِ أَنْفِكَ

رَوىٰ الدَّارَقُطْنِيُّ في سننه (١/ ١٢٣) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٩) واللفظ له من حديث القاسم بن عثمان ، عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه : أن رجلاً من بني زُهْرَةَ لقي عُمَرَ قبل أن يسلم ، وهو متقلد بالسيف[١] فقال : إلى أين تعمد؟

قال : أريد أن أقتل محمداً.

قال : أفلا أدلك على العجب؟ يا عمرُ! إن خَتَنَكَ سعيداً[٢] وأُخْتَكَ قد صَبَوَا[٣] ، وتركا دينهما الذي هما عليه .

قال : فمشىٰ إليهم عمر ذامراً[٤] ، حتى إذا دنا من الباب ، قال : وكان عندهما رجل يقال له خَبَّابٌ[٥] يقرئهما سورة (طه) .

فلما سمع خَبَّابٌ بِحِسِّ عمر ، دخل تحت سرير لهما . فدخل عمر ، فقال : ما هذه الهَيْنَمة[٦] التي رأيتها عندكن؟

---

(١) (متقلد بالسيف) : تقلَّدَ السيف : عَلَّقه عليه (الوسيط) .

(٢) (إن ختنك سعيداً) : الخَتَنُ : الصِّهْرُ . وسعيد هو ابن زيد بن عمرو بن نُفَيل . أحد العشرة المبشرين بالجنة .

(٣) (صَبَوا) : أي أسلما . كانوا يقولون لمن أسلم : صبا ، وأصله الخروج من دين إلى غيره .

(٤) (ذامراً) : أي متهدداً (النهاية) .

(٥) هو خبَّابُ بن الأَرَتِّ ، صحابي من السابقين توفي سنة (٣٧) هـ .

(٦) (الهينمة) : هَيْنَمَ فلان : تكلَّم وأخفى كلامه . (الوسيط) .

قالا: ما عدا حديثاً تَحَدَّثْناه بيننا.

قال: لعلكما صَبَوْتُما[1] وتركتما دينكما الذي أنتما عليه؟

فقال له خَتَنُهُ سعيدُ بن زُيدٍ: يا عمرُ! أرأيت إن كان الحقُّ في غير دينك؟! فأقبل على خَتَنِهِ فوطئه[2] وطئاً شديداً.

قال: فدفعته أختُهُ عن زوجها، فضربَ وجهها، فأدمىٰ وجهها.

فقالت وهي غضبىٰ: يا عمر! أرأيتَ إنْ كان الحقُّ في غير دينك؟ أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

قال: فلما يئس عمر، قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه.

فقالت أخته: إنك رِجْسٌ[3] ولايمسه إلا المطهرون[4]. قم فاغتسل، أو توضأ.

قال الإمام الدارقطني: «القاسم بن عثمان ليس بالقوي».

وفي رواية عند الحاكم (٤/ ٥٩ ـ ٦٠) عن عمر رضي الله عنه قال:

لما فتحت لي أختي. قلت: يا عدوة نفسها! أَصَبَوْتِ؟

---

(١) (صبوتما): أي أسلمتما.

(٢) (وطئه): وَطِىء الشيء. داسه (الوسيط).

(٣) (الرِّجْسُ): القَذَرُ، وقد يعبَّرُ به عن الحرام والفعل القبيح، والعذاب، واللعنة، والكفر، والمراد هنا: الكفر.

(٤) المذاهب الأربعة المتبوعة في العالم الإسلامي على حرمة مس وحمل المصحف بدون طهارة، والظاهرية ـ الذين اندثر أتباعهم ـ أباحوا المسَّ والحمل بدون طهارة. وحاول بعضهم أن ينتصر لمذهب الظاهرية. فأتىٰ بالعجب العجاب، وأبان عن قول قبيح، وجهل صريح. وانطبق عليه قولهم:
إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم
ومن جهله: دعواه أن حديث «لا يمس القرآن إلا طاهر» لم يحسنه أو يصححه أحدٌ من العلماء. فتأمَّل!

قالت: ورفعت شيئاً، فقالت: يا ابن الخطاب! ما كنت صانعاً فاصنعه، فإني قد أسلمتُ!!

قال: فدخلتُ، فجلسْتُ على السرير؛ فإذا بصحيفة وسط البيت.

فقلتُ: ما هذه الصحيفة هاهنا؟

فقالت: دعنا عنك، يا ابن الخطاب! أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر، وهذا لا يمسه إلا المطهرون.

وفي رواية عن أَسْلَم مولى عمرَ، قال: قال عمر بن الخطاب: أتحبون أن أعلمكم أول إسلامي؟

قال: قلنا: نعم.

قال: كنت أشدَّ الناس على رسول الله ﷺ، فبينا أنا في يوم شديد الحر، في بعض طرق مكة، إذ رآني رجل من قريش، فقال: أين تذهب؟ يا ابن الخطاب!

قلت: أريد هذا الرجل.

قال: يا ابن الخطاب! قد دخل هذا الأمر في منزلك، وأنت تقول هذا؟

قلتُ: وما ذاك؟

فقال: إن أختك قد ذهبتْ إليه.

قال: فرجعتُ مُغضباً، حتى قرعت عليها الباب.

وكان رسول الله ﷺ إذا أسلم بعضُ مَنْ لا شيءَ له، ضَم الرجلَ والرجلين إلى الرجل ينفق عليه.

قال: وكان ضَمَّ رجلين من أصحابه إلى زوج أختي.

قال: فقرعتُ الباب، فقيل لي: مَنْ هذا؟

قلتُ: عمر بن الخطاب، وقد كانوا يقرؤون كتاباً في أيديهم، فلما سمعوا صوتي قاموا حتى اختبؤوا في مكان، وتركوا الكتاب. فلما فتحت لي أختي

الباب ، قلت: أيا عدوةَ نفسها! صَبَوْتِ؟

قال: وأرفع شيئاً فأضرب به على رأسها ، فبكت المرأة وقالت: يا ابن الخطاب! اصنعْ ما كنت صانعاً. فقد أسلمتُ ، فذهبت ، وجلست على السرير ، فإذا بصحيفة وسط الباب.

فقلت: ما هذه الصحيفة هاهنا؟

فقالت لي: دعنا عنك يا ابن الخطاب! فإنك لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهر ، وهذا لا يمسه إلا المطهرون. فما زلت بها حتى أعطتنيها ، فإذا فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم» قال: فلما قرأت «الرحمن الرحيم» تذكرتُ مِنْ أَيْنَ اشْتُقَّ ، ثم رجعتُ إلى نفسي فقرأتُ[1] ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ حتى بلغ ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾.

قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسولُ الله. فخرج القوم متبادرين[2] ، فكبّروا واستبشروا بذلك. ثم قالوا لي: أبشرْ يا ابن الخطاب! فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الإثنين فقال: «اللهم! أعِزَّ الدين بأحبِّ الرجلين إليكَ ، عمر بن الخطاب ، وأبي جهل بن هشامٍ»[3] ، وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لكَ.

فقلت: دلوني على رسول الله ﷺ ، أينَ هو؟

فلما عرفوا الصدق ، دلوني عليه في المنزل الذي هو فيه ، فجئت ، حتى قرعتُ البابَ ، فقالوا: مَنْ هذا؟

قلت: عمر بن الخطاب ، وقد علموا شدتي على رسول الله ﷺ ، ولم يعلموا بإسلامي ، فما اجترأ أحد منهم أن يفتح لي ، حتى قال لهم رسول الله ﷺ: «افتحوا له ، فَإِنْ يُرِدِ اللهُ به خيراً يَهْدِهِ».

---

(١) أي من الصحيفة ذاتها.

(٢) (متبادرين): أي متسابقين مسرعين.

(٣) وأخرجه أيضاً الترمذي (٣٦٨١) من حديث ابن عمر. و(٣٦٨٣) من حديث ابن عباس ، وهو حديث حسن. انظر جامع الأصول (٨/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧).

قال: فَفُتِحَ لي البابُ ، فأخذ رجلان بِعَضُدَيَّ حتىٰ دنوتُ مِنْ رسولِ الله ﷺ: فقال لهم رسول الله ﷺ: «أَرْسِلُوهُ ، فأرسلوني ، فجلستُ بين يديه ، فأخذ بمجامع قميصي ، ثم قال: «أسلمْ يا ابن الخطاب! اللهم! اهده».

فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنكَ رسول الله.

قال: فكبَّرَ المسلمون تكبيرة سمعت في طرق مكة. . . الحديث.

ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٦٣ ـ ٦٤) وقال: «رواه البزار وفيه أسامة بن زيد بن أسلم وهو ضعيف» وقال الحافظ ابن حجر: «فيه من هو أضعَفُ من أسامة وهو إسحاق بن إبراهيم الحنيني وقد ذكر البزار أنه تفرَّد به».

وروى مجاهد عن ابن عباس كما في أسد الغابة (٦/ ٢٢٠) والإصابة (٤/ ٣٧٠) قال: سألتُ عمرَ عن إسلامه ، فقال: خرجتُ بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام ، فإذا فلانٌ المخزومي ، وكان قد أسلم فقلت: تركتَ دين آبائك ، واتبعت دين محمد؟

قال: إن فعلتُ ، فقد فعله من هو أعظم عليك حقاً مني.

قلت: مَنْ هو؟

قال: أختك وخَتَنُكَ[1].

قال: فانطلقت فوجدتُ الباب مغلقاً ، وسمعت همهمة ، ففتح الباب ، فدخلتُ ، فقلت: ما هذا الذي أسمع؟

قالت: ما سمعت شيئاً.

فما زال الكلام بيننا حتى أخذتُ برأس خَتَني فضربته فأدميته ، فقامت إليَّ أختي ، فأخذت برأسي فقالت: قد كان ذاك على رغم أنفك!

قال: فاستحييت حين رأيت الدمَ ، وقلت: أروني الكتاب. . . وذكر قصة إسلام عمر.

---

(١) (أختكَ وَخَتَنُكَ): يعني فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْلٍ.

قلت: فاطمة بنت الخطَّاب بن نُفَيْلٍ القرشية العدوية ، صحابية ، من فواضل نساء عصرها ، كانت من السابقات إلى الإسلام ، ذات إيمان قوي بالله تعالى ، وبالرسالة الجديدة ، زوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة . ولدت له ابنه عبد الرحمن .

قال أبو عُمَرَ بن عبد البَرِّ القرطبي : «خبرها في إسلام عمر خبر عجيب» .

وقال ابن الأثير : «وهي كانت سبب إسلام أخيها عمر» لم يذكر لها الزركلي في الأعلام تاريخ ميلاد ولا تاريخ وفاة ، وليس لها رواية في الكتب الستة .

روىٰ الواقدي بسنده إليها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا تزال أمتي بخير ، ما لم يظهر فيهم حب الدنيا ، في علماء فُسَّاق ، وقُرَّاء جُهَّال ، وجبابرة ، فإذا ظهرت خشيت أن يَعُمَّهُمُ الله بعقاب» . والواقدي متروك مع سعة علمه كما في التقريب .

* * *

امْرأَةٌ أَصَابَتْ ورَجُلٌ أَخْطَأَ

عن أبي العَجْفَاءِ السُّلَمِيِّ[1] قال: خَطَبَنا عمرُ ـ رحمه الله ـ فقال: ألا لا تُغَالُوا بِصُدُقِ النساءِ[2]؛ فإنَّها لو كان مَكْرُمَةً في الدنيا، أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها النبيُّ ﷺ. ما أَصْدَقَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ امرأةً من نسائه، ولا أُصْدِقَتْ امرأة من بناته أكثر من ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوقيةً[3]. أخرجه أبو داود (٢١٠٦) في كتاب النكاح باب: الصدَّاق.

وفي رواية الترمذي (١١١٤ م) بعد قوله: «لكان أولاكم بها نبيُّ الله ﷺ»: ما علمتُ رسول الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه، ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوقيَّةً. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

وأخرج النسائي (٦/١١٧ ـ ١١٨)، وابن ماجه (١٨٨٧)، وعبد الرزاق (١٠٣٩٩) الأولى، وزادوا عليها: وإن الرجل ليُغْلِي بَصَدُقَةِ امرأته[4] حتى يكون لها عداوة في نفسه[5]، وحتى يَقولُ: كَلِفْتُ لكم عَلَقَ القِرْبَةِ[6] ـ وكنت

---

(١) قيل اسمه: هَرِم بن نسيب، وقيل بالعكس، وقيل بالصاد بدل السين المُهْمَلَتَيْن. مات بعد سنة (٩٠) هـ.

(٢) (صُدُق النساء): أي مُهُورهن.

(٣) (أوقية): هي أربعون دِرهماً.

(٤) (بصَدُقَةِ امرأته): أي بمهرها.

(٥) أي حتى يعاديها في نفسه عند أداء ذلك المهر لثقله عليه حينئذ أو عند ملاحظة قدره وتفكره فيه بالتفصيل.

(٦) (كلفت لكم عَلَقَ القِرْبة): أي تحمَّلْتُ لأجلكِ كل شيءٍ حتى عَلَقَ القِرْبَةِ. وهو حَبْلُها=

غلاماً عربيّاً مُوَلَّداً[1] ، فلم أَدْرِ ما عَلَقُ القِرْبَةِ؟ ـ قال: وأخرى يقولونها لمن قتل في مغازيكم هذه ، أو مات: قُتل فلان شهيداً ، أو مات فلانٌ شهيداً ، ولعله يكون قد أَوْقَرَ عَجُزَ دابته[2] ، أو دَفَّ رَحْلِهِ[3] ذهباً ، أو ورِقاً[4] ، يطلب التجارة[5] ، فلا تقولوا ذاكم ، ولكن قولوا كما قال النبي ﷺ: «مَنْ قُتِلَ في سَبِيلِ اللهِ ، أَوْ مَاتَ ، فَهُوَ في الجَنَّةِ» وصححه ابن حِبَّان (١٢٥٩) موارد ، والحاكم (٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

وأخرج سعيدُ بن مَنْصورٍ ، في «سُنَنِهِ» وأبو يَعْلى المَوْصِليُّ في مسنده الكبير[6] من حديث مَسْرُوقِ بن الأَجْدَع ، التابعي الجليل ، قال:

رَكِبَ عُمَرُ ـ رضي الله عنه ـ منبرَ رسول الله ﷺ ، ثم قال: يا أيها الناس! ما إِكْثارُكُمْ في صُدُقِ النساء؟ وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه وإنما الصَّدُقاتُ فيما بينهم أربع مئةِ درهمٍ ، فما دون ذلك.

فلو كان الإكثار في ذلك تَقْوَى عند الله ، أو مَكْرُمَةً لَمْ تَسْبِقُوهُمْ إليها. فلا

= الذي تُعَلِّقُ به. وفي رواية: «عَرَق القِرْبة» بالراء: قال في النهاية: «أي تَكَلَّفْتُ إليكِ وتعبتُ حتى عرقتُ كَعَرَقِ القِرْبةِ ، وعَرَقُها: سَيَلان مائها. وقيل: أراد بعَرَقِ القِرْبة عَرَقَ حاملها من ثقلها.
وقيل: أراد إني قصدتكِ وسافرت إليك واحتجت إلى عَرَقِ القِرْبَةِ ، وهو ماؤها.
وقيل: أراد تَكَلَّفْتُ لكِ ما لم يبلغه أحدٌ وما لا يكون؛ لأنَّ القِرْبَةَ لا تَعْرَقُ.
وقال الأَصْمَعِيُّ: «عَرَقُ القِرْبة معناه الشِّدَّةُ ، ولا أدري ما أصله».

(١) (مُوَلَّداً): قال الجوهري: «رجلٌ مُوَلَّدٌ: إذا كان عربيّاً غير مَحْضٍ».
(٢) (أَوْقَرَ عجز دابته): أي حَمَّلها وِقْراً. والوِقْرُ: الحِمْلُ ، وأكثر ما يستعمل في حِمْلِ البغال والحمير.
(٣) (أو دَفَّ رَحْلِهِ): قال في النهاية: دَفُّ الرَّحْلِ: جانب كُور البعير ، وهو سَرْجُهُ.
(٤) (وَرِقاً): فِضَّة.
(٥) أي من خرج للتجارة فليس بشهيد.
(٦) وهو مفقود ، لكن المسند الصغير برواية أبي عمرو بن حمدان طبع طبعة متقنة في ثلاثة عشر مجلداً بتحقيق أستاذنا الفاضل حسين أسد. وصدر عن دار المأمون للتراث بدمشق.

أَعْرِفَنَّ ما زاد رجل في صَدَاق امرأةٍ على أربع مئة درهمٍ.

قال: ثم نزل، فاعترضَتْهُ امرأةٌ من قُرِيش، فقالت: يا أمير المؤمنين! نَهَيْتَ النَّاسَ أن يزيدوا في مَهْرِ النساء على أربع مئة درهم؟

قال: نعم.

قالت: أما سمعت ما أنزلَ الله في القرآن؟

قال: وأَيُّ ذلك؟

قالت: أما سمعت الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ يقولْ: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا[1] فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾؟ [النساء: ٢٠].

فقال: اللَّهُمَّ! غُفْراً. كُلُّ الناسِ أَفْقَهُ من عُمَرَ.

قال: ثم رجع، فركب المنبر، فقال: أَيُّها الناس! إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صَدُقَاتِهِنَّ على أربع مئة درهمٍ؛ فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحبَّ.

قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابَتْ نَفْسُهُ فَلْيَفْعَلْ.

ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد في كتاب النكاح (٤/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤) باب: الصَّداق، وقال: «رواه أبو يعلى في الكبير، وفيه مُجَالد بن سعيد، وفيه ضعف، وقد وُثِّقَ». وأورده الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية (٢٠) من سورة النساء وقال: «إسناده جيد قوي».

وأخرج سعيد بن منصور في سننه رقم (٥٩٧)، والبيهقي (٧/ ٢٣٣)، عن عامر بن شراحيل الشَّعبيِّ، قال: خطب عمر بن الخطاب؛ فحمد اللهَ، وأثنى عليه، وقال: ألا لا تُغَالُوا في صَدَاقِ النساء، وإنه لا يبلغني عن أحدٍ ساق[2]

(١) (قنطاراً): أي مالاً عظيماً، كثيراً. والقنطار: وزنٌ لا يُحَدُّ. انظر تفصيل ذلك في المعجم الاقتصادي الإسلامي ص: (٣٧٠).
(٢) (ساق): أي قدَّم مَهراً.

أكثر من شيءٍ ساقه رسول الله ـ ﷺ ـ أو سِيْقَ إليه ـ إلاَّ جَعَلْتُ فَضْلَ ذلك[1] في بيت المال ، ثم نزل ، فعرضت له امرأة من قريش ، فقالت : يا أمير المؤمنين! كتاب الله أَحَقُّ أن يُتَّبَعَ أم قَوْلُكَ؟

قال : كتابُ الله ، فما ذاك؟

قالت : نَهَيْتَ الناسَ آنفاً[2] أن يَتَغَالَوْا في صَداقِ النساء ، والله تعالى يقول في كتابه : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النساء : ٢٠] .

فقال عمر : كُلُّ أحدٍ أَفْقَهُ من عُمَرَ ، مرتين أو ثلاثاً ، ثم رجع إلى المنبر ، فقال للناس : إني كنتُ نَهَيْتُكُمْ أن تَغَالَوْا في صَداقِ النساء ، فَلْيَفْعَلْ رجلٌ في ماله ما بدا له . قال البيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ٢٣٣) : «هذا منقطع» .

وعند أبي عمر بن فَضَالَةَ[3] في «أَماليه» عن عُمَرَ ، قال : لو كان المهر سَنَاءً ورِفْعَةً في الآخرة كانت بناتُ النبيِّ ـ ﷺ ـ ونساؤُهُ أَحَقَّ بذلك .

وفي رواية منقطعة للزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّار ـ كما ذكر ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٥٩) ، والحافظ ابن كثير في التفسير (١/ ٤٦٧) ـ حدثني عمي ، عن جدي عبد الله بن مصعب قال : قال عمر بن الخطاب : لا تزيدوا في مهور النساء وإن كانت بنتَ ذي الغَصَّةِ[4] ـ يعني حُصَيْنَ بن يزيد الحارثي[5] ـ فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال .

---

(١) (فَضْل ذلك) : أي ما زاد عن (٤٠٠) درهم .

(٢) (آنفاً) : أي قريباً .

(٣) هو الشيخ المحدث المسند محمد بن موسى بن فَضَالَةَ الأموي القرشي ، مولى عمر بن عبد العزيز توفي سنة (٣٦٢) هـ . له ترجمة في سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٥٧) وفي حاشيته عدد من مصادر ترجمته .

(٤) (ذو الغَصَّة) : بفتح الغين المعجمة كما في الإصابة ترجمة (١٧٥١) . لُقِّب بذلك لأنه كان في حلقه شبه الحوصلة . وقيل : لقب به لأنه كان إذا تكلَّم أصابه كالغصص .

(٥) صحابي ، عاش طويلاً ، ورأس بني الحارث بن كعب مئة سنة . انظر ترجمته في الإصابة (١٧٥٠) ، وفي أسد الغابة (١١٩٧) وغيرهما .

فقالت امرأة من سِطَةِ[1] النساء ، طويلة ، في أنفها فَطَسٌ[2] : ما ذاك لك!

قال : ولِمَ؟

قالت : إن الله قال : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا . . . ﴾ [النساء : ٢٠] فقال عمرُ : امرأةٌ أَصابَتْ ، ورَجلٌ أَخْطأَ .

وفي رواية الإمام عبد الرزَّاق الصَنْعَاني برقم (١٠٤٢٠) من حديث أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ ، فقال عمر : «إِنَّ امْرَأَةً خَاصَمَتْ عُمَرَ فَخَصَمَتْهُ» .

نعم ، لم يحدد الإسلام سقفاً لأكثر المهر ، لكنه كره المغالاة فيه ، والتنافُسَ بين العائلات في رفْعِهِ ، مُحذِّراً من آثامٍ لا تدفع ، وشرور يطال ضررها الفرد والمجتمع .

قال سيد سابق في فقه السنة (٢/ ١٥٨) : «ومهما يكن من شيء ، فإن الإسلام يحرص على إتاحة فرص الزواج لأكثر عدد ممكن من الرجال والنساء ، ليستمتع كل بالحلال الطيب ، ولا يتم ذلك إلا إذا كانت وسيلته مُذَلَّلَةً ، وطريقتُهُ مُيَسَّرةً؛ بحيثُ يقدر عليه الفقراء الذين يجهدهم[3] بذل المال الكثير ، ولا سيما أنهم الأكثرية ، فكره الإسلام التغالي في المهور ، وأخبر أن المهر كلما كان قليلاً كان الزواج مباركاً ، وأن قِلَّةَ المَهْرِ من يُمْنِ المرأة[4]» .

فَعَنْ عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال : «إِنَّ أَعظَمَ النِّكَاحِ بَرَكَةً ، أَيْسَرُهُ مُؤْنَةً»[5] وقال : «يُمْنُ المَرْأَةِ خِفَّةُ مَهْرِهَا ، وَيُسْرُ نِكَاحِها ، وحُسْنُ

---

(١) (من سِطَةِ النساء) : أي من أوساطهنَّ حَسَباً ونَسَباً ، وأصل الكلمة الواو وهو بابها ، والهاء فيها عِوَضٌ من الواو كعِدَة وزِنَة ، من الوعْدِ والوزن (النهاية) .

(٢) (الفَطَسُ) : انخفاض قصبة الأنف وانفراشُها (النهاية) .

(٣) (يجهدهم) : يرهقهم ويتعبهم .

(٤) (يُمْنُ المرأة) : بركتها . وضِدُّهُ الشُّؤم .

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٨٢ ، ١٤٥) ، والذهبي في السير (٥/ ٥٨) ، وأبو نُعيم في الحلية (٢/ ١٨٦ ، ٦/ ٢٥٧) ، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ٢٣٥) ، والقضاعي في مسند الشهاب برقم (١٢٣) ، والبزار (٢/ ١٥٨) برقم (١٤١٧) كشف الأستار من حديث =

خُلُقِهَا ، وشُؤْمُها: غَلاءُ مَهْرِها ، وعُسْرُ نِكَاحِها ، وسُوءُ خُلُقِها»[1].

وكثير من الناس جهل هذه التعاليم ، وحاد عنها ، وتعلَّق بعادات الجاهلية من التغالي في المهور ، ورفض التزويج إلا إذا دفع الزوج قَدْراً كبيراً من المال يرهقه ، ويضايقه ، كأن المرأةَ سلعةٌ يُسَاوَمُ عليها ، ويتجر بها.

وقد أدى ذلك إلى كثرة الشكوى ، وعانى الناس من أزمة الزواج التي أضرَّت بالرجال والنساء على السواء ، ونتج عنها كثير من الشرور والمفاسد ، وكسدت سوقُ الزواج ، وأصبح الحلالُ أصعبَ مَنالاً من الحرام».

= عائشة ، وصححه الحاكم (٢/ ١٧٨) ، ووافقه الذهبي في التلخيص. ورمز لصحته السيوطي في الجامع الصغير (١١٨٧) ، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢/ ٤٠): «إسناده جيد». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٥٥): «فيه ابن سخبرة ، يُقال: اسمه عيسى بن ميمون ، وهو متروك». وفي الباب عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «خير النكاح أيسره» أخرجه أبو داود (٢١١٧) ، وغيره ، وصححه ابن حِبَّان (١٢٥٧) موارد ، فانظره -إن شئت- لاستيفاء تخريجه. (بركة): أي على زوجها (مُؤْنَةً): أراد المرأة التي قنعت بالقليل من الحلال عن الشهوات ، وزينة الحياة الدنيا ، فخفَّتْ عنه كُلْفَتُها ، ولم يلتجىء بسببها إلى ما فيه حُرْمة أو شبهة ، فيستريح قلبه وبدنه من التعنت والتكلف فتعظم البركة لذلك (فيض القدير: ٢/ ٥).

(١) لم أقع عليه بهذا اللفظ فيما لديَّ من مصادر ، وأخرج أحمد (٦/ ٧٧ ، ٩٩) ، والطبراني في الصغير (١/ ١٦٩) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٣٥) ، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٦٣) ، (٨/ ١٨٠) من حديث عُروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من يمن المرأة أن يتيسر خِطبتها ، وأن يتيسر صَدَاقُها ، وأن يتيسر رَحِمُها». قال عروةُ: يعني: تيسير رحمها للولادة. قال عروة: وأنا أقول من عندي: من أول شؤمها أن يكثر صَداقُها. وصححه ابن حبان (١٢٥٦) موارد ، والحاكم (٢/ ١٨١) ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢/ ٤٠): «إسناده جيد». وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٥٥) وقال: «رواه أحمد وفيه أسامة بن زيد بن أسلم ، وهو ضعيف وقد وُثِّقَ ، وبقية رجاله ثقات» ثم ذكره (٤/ ٢٨١) وقال: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط... وفي إسناده أسامة بن زيد بن أسلم وهو ضعيف وقد وثق ، وبقية رجال أحمد ثقات».

مَنْ خَافَ المَوْتَ خَشِيَ الفَوْتَ

خولة ـ ويقال: خُوَيْلَةُ ـ بنتُ ثَعْلَبَةَ الأنصاريةُ الخزرجيةُ ، زَوْجُ أَوْسِ بن الصَّامِتِ ، أخي عبادةَ بن الصَّامِتِ. صحابيةٌ من رَبَّات الفصاحة والبلاغة ، كانت حسنةَ الجسم ، غنيةً ، ذاتَ أهلٍ ومالٍ.

روىٰ خُلَيْدُ بن دَعْلَجٍ ، عن قَتَادَةَ قال: خرج عمر من المسجد ، ومعه الجارُودُ العَبْدِيُّ[1] ، فإذا بامرأة بَرْزَةٍ[2] علىٰ ظهر الطريق ، فسلَّم عليها عُمَرُ ، فردَّتِ عليه السلامَ ، وقالت: هِيْهاً[3] يا عُمَرُ! عَهِدْتُكُ وأنت تسمىٰ عُميراً في سوق عُكاظٍ[4] ترعىٰ الضأن بعصاكَ ، فلم تذهب الأيامُ حتى سُمِّيتَ عُمَرَ ، ثم

---

(١) هو بشر بن عمرو ، سيد عبد القيس. وفد على النبي ﷺ ، ومعه جماعة من قومه ، وكانوا نصارىٰ فأسلم. مات شهيداً بفارس سنة (٢٠) هـ (الأعلام: ٢/ ٥٥).

(٢) قال في النهاية: يقال امرأة بَرْزَةٌ إذا كانت كهلةً لا تحتجب احتجاب الشواب ، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة ، تجلس للناس وتحدثهم. من البُروز وهو الظهور والخروج.

(٣) (هِيْهاً): هِيْهِ بمعنىٰ إِيه ، فأبدل من الهمزة هاءً. وإِيه: اسمٌ سُمي به الفعل ومعناه الأمرُ. تقول للرجل: إِيْهِ ، بغير تنوين: إذا استزدته من الحديث المعهود بينكما ، فإن نَوَّنْتَ: استزدتَهُ من حديثٍ ما غير معهودٍ؛ لأن التنوين للتنكير ، فإذا سَكَّنته وكَفَفْته قلتَ: إيهاً ، بالنصب (النهاية). وتعرب هِيْهاً اسم فعل أمر بمعنىٰ «كُفَّ واسكت» مبني على الفتح ، وفاعله ضمير مستتر.

(٤) (عُكاظ): اسم سوق كان للعرب في الجاهلية ، مدته عشرون يوماً من أول ذي القَعْدَةِ. وكان هذا السوق في الجهة الشرقية الشمالية من بلدة الحوِيّة اليوم ، وهو شمال شرق الطائف ، علىٰ مسافة (٣٥) كيلاً أسفل وادي شرب ، وأسفل وادي العرج عندما يلتقيان هناك. انظر المعالم الأثيرة ص: (١٩٩).

لم تذهب الأيامُ حتى سُمِّيتَ أميرَ المؤمنين.

فاتق اللهَ في الرعية؛ واعلم أنه مَنْ خافَ الوعيدَ قَرُبَ عليه البعيدُ، ومن خاف الموتَ خَشِي الفَوْتَ.

وفي رواية: فاتق الله يا عمر! فإنه من أيقن بالموت خاف الفوتَ، ومن أيقن بالحسابِ خاف العذابَ.

فقال الجَارُوْدُ العَبْدِيُّ: قد أكثرتِ ـ أيتها المرأةُ ـ علىٰ أمير المؤمنين!

فقال عمر: دَعْها. أَمَا تَعْرِفُها؟ هذه خَولةُ بنت حَكِيم امرأةُ عُبادَةَ بن الصامت التي سمع الله قولها من فوق سبع سماواتٍ، فَعُمَرُ والله! أحقُّ أَن يسمع لها.

قال الحافظ أبو عُمَرَ بن عبد البَرِّ في ترجمتها في «الاستيعاب»: هكذا في هذا الخبر: «خولة بنت حكيم، امرأة عبادة بن الصامت» وهو وَهْمٌ. وخُلَيْدٌ ضعيف، سَيِّءُ الحفظ، وإنما هي امرأة أَوْسِ بن الصامت علىٰ الاختلاف في اسم أبيها».

وروىٰ ابن عبد البر القرطبي مِنْ وُجُوهٍ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب «أنه خرج ومعه الناسُ، فمرَّ بعجوزٍ، فاستوقفته، فوقف، فجعل يحدثها وتحدثه، فقال له رجُلٌ: يا أميرَ المؤمنين! حَبَسْتَ الناسَ على هذه العجوز؟!

فقال: ويلكَ! أتدري مَنْ هذه؟ هذه امرأةٌ سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة التي أنزل الله فيها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

والله! لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقْتُها إلا للصلاة، ثم أرجع إليها».

وخولة هذه هي التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فقال لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي. ثم ندم على ما قال.

فأتت خولةُ رسول الله ﷺ وعائشةُ تغسل شَقَّ رَأْسِهِ، فقالت: يا رسول الله! إن زَوجي أوسَ بن الصامتِ تزوجني وأنا شابة غنية، ذاتُ أَهلٍ ومالٍ، حتىٰ إذا أكل مالي، وأفنىٰ شبابي، وتفرَّق أهلي، وكَبِرَ سِنِّي، ظاهَرَ مني، وقد ندم.

فهل من شيءٍ تجمعني وإياه ، وتنعشني به؟

فقال رسول الله ﷺ: «ما أراكِ إلا قَدْ حَرُمْتِ عليه».

فقالت: يا رسول الله! والذي أنزل عليك الكتاب! ما ذَكَرَ الطلاقَ ، وإنه أبو وَلَدي ، وأَحَبُّ الناسِ إليَّ!

فقال رسول الله ﷺ: «ما أراكِ إلاّ قد حَرُمْتِ عليه».

فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي. قد طالت له صحبتي ، ونَثَرْتُ له بطني[1]؟

فقال رسول الله ﷺ: «ما أراكِ إلاّ قَد حَرُمْتِ عليه ، ولم أُومَرْ في شَأْنِكِ بشيءٍ».

فجعلت تُراجع رسول الله ﷺ ، وكلما قال لها رسول الله ﷺ: «حَرُمتِ عليه» هَتَفَتْ ، وقالت: أشكو إلى الله فاقتي ، ووحدتي ، وشدة حالي ، وإنَّ لي صبيةً صغاراً: إنْ ضَمَمْتُهُمْ إليَّ جاعوا ، وإن ضَمَمْتُهُمْ إليه ضاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: «اللّهُمَّ! أشكو إليكَ. اللّهُمَّ! فأَنْزِلْ علىٰ لسان نبيِّكَ فَرَجِي.

وهذا كان أول ظِهارٍ في الإسلامِ ، فقامت عائشة تغسل شَقَّ رأسه الآخر ، فقالت: انْظُرْ في أمري ، جعلني الله فداكَ ، يا نبيَّ الله!

فقالت عائشة: اقْصُرِي حَدِيْثَكِ ، ومُجَادَلتكِ ، أَمَا تَرَيْنَ وَجْهَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إذا نزل عليه الوَحْيُ ، أخذه مِثْلُ السُّبَاتِ[2].

فلما قضى الوحي ، قال: ادعي لي زَوْجَكِ ، فتلا عليه رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ الآية [المجادلة: ١].

وروىٰ البخاري تعليقاً في التوحيد باب ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ عن

---

(١) (ونثرت له بطني): أرادت أنها كانت شابّةً تلد الأولاد عنده. وامرأةٌ نَثُورٌ: كثيرة الولد (النهاية).

(٢) (السُّبَات): النوم الخفيف.

عائشة ، قالت: الحمد لله الذي وَسِع[1] سَمْعُهُ الأصواتَ. لقد جاءت المُجَادِلَةُ: خَوْلَةُ إلى رسول الله ﷺ ، وكلمته في جانب البيت ، وما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ. . .﴾ [المجادلة: ١].

وفي رواية عن عائشة عند ابن ماجهْ (٢٠٦٣) قالت: تبارك الذي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شيءٍ ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفىٰ عليَّ بَعْضُهُ ، وهي تشتكي زوجها إلى رسولِ الله ﷺ. وهي تقول: يا رسول الله! أكل شبابي ، ونثرتُ له بطني ، حتى إذا كبرت سني ، وانقطع ولدي ، ظَاهَرَ مني!

اللَّهُمَّ! إني أشكو إليك. فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ. . .﴾ [المجادلة: ١].

وصححه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨١) ، ووافقه الذهبي في التلخيص.

* * *

---

(١) (وَسِعَ): أدرك (الفتح: ١٣/ ٣٧٤).

عَرْضُ الرَّجُلِ بِنْتَهُ وغَيْرَهُا مِمَّنْ إليهِ تَزْوِيْجُها علىٰ أَهْلِ الفَضْلِ والخَيْرِ لِيَتَزَوَّجُوها

أخرج البخاري في كتاب النكاح (٥١٢٠) باب: عَرْض المرأةِ نَفْسَها على الرَّجُلِ الصَّالح ، من حديث ثابتٍ البُنَانِيِّ قال: كُنْتُ عند أَنَسٍ ، وعنده ابْنَةٌ له .

قال أنسٌ: جاءت امرأةٌ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ تَعْرِضُ عليه نَفْسَها .

قالت: يا رسولَ اللهِ! أَلَكَ بِيَ حَاجةٌ؟

فقالت بِنْتُ أَنَسٍ[1]: ما أَقَلَّ حياءها! واسَوْأَتَاه[2]!

قال: هي خيرٌ مِنْكِ ، رَغِبَتْ في النبي ﷺ ، فَعَرَضَتْ عليه نَفْسَها .

وروى البخاري في فضائل القرآن (٥٠٣٠) باب: القراءة عن ظهر القلب ، ومسلم في النكاح (١٤٢٥) باب: الصَّداق وجواز كونه تعليم قرآن ، وخاتم حديد ، وغير ذلك من قليل وكثير ، واستحباب كونه خمس مئة درهم لمن لا يُجْحِفُ به ، من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِديِّ ، قال:

جاءت امرأةٌ إلى رسولِ الله ﷺ ، فقالت: يا رسولَ الله! جِئْتُ أَهَبُ لَكَ

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٢٤): «اسم ابنته فيما أظن أُمَيْنَة ، بنون مُصغَّر».

(٢) (واسوأتاه): أصل السَّوْءة: الفعلة القبيحة ، وتطلق على الفَرْج ، والمراد ـ هنا ـ الأول ، والألف للندبة ، والهاء للسكت (فتح: ٩/ ١٧٥).

نَفْسي[1] ، فَنَظَرَ إليها رسولُ اللهِ ﷺ ، فَصَعَّدَ النَّظَرَ فيها وَصَوَّبَهُ[2] ، ثُمَّ طَأْطَأَ رسولُ الله ﷺ رَأْسَهُ.

فَلَمَّا رَأَتِ المَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيها شيئاً[3] ، جَلَسَتْ ، فَقَام رجلٌ من أصحابه ، فقال: يا رسولَ اللهِ! إنْ لَمْ يكُنْ لَكَ بِها حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيها.

فقال: «فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟».

فقال: لا ، واللهِ! يا رسولَ اللهِ!

فقال: «اذْهَبْ إلى أَهْلِكَ ، فانْظُرْ: هَلْ تَجِدُ شَيئاً؟» فذهب ، ثم رجع ، فقال: لا ، واللهِ! ما وجدْتُ شيئاً.

فقال رسول الله ﷺ: «انْظُرْ وَلَوْ خَاتِمٌ[4] مِنْ حَدِيْد» فذهب ، ثم رجع ، فقال: لا. واللهِ! يا رسولَ اللهِ! ولا خاتَمٌ من حديدٍ. ولكنْ هذا إزاري[5] (قال سَهْلٌ: مَالَهُ رِدَاءٌ) فَلَها نِصْفُهُ.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ؟ إنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يكُنْ عَلَيْها مِنْهُ شَيءٌ ، وإنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يكُنْ عَلَيْكَ مِنْهُ شَيءٌ» فجلس الرجلُ ، حتى إذا طال مَجْلِسُهُ ، قامَ ، فرآه رسول الله ـ ﷺ ـ مُوَلِّياً[6] ، فَأَمَرَ به فَدُعِيَ فَلَمَّا جاء ، قالَ: «ماذا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ؟».

قال: معي سورةُ كذا وسورةُ كذا (عَدَّدَها).

---

(١) أي أتزوجك من غير عِوَضٍ.

(٢) (فَصَعَّد النظر فيها وصَوَّبه): أي نظر إلى أعلاها وأسفلها ، يتأمَّلُها ، وفعل ذلك بعد أن وهبت نفسها له.

(٣) وقع في رواية حماد بن زيد أنها «وهبت نفسها لله ولرسوله ، فقال: ما لي في النساء حاجة». قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٠٦): ويجمع بينها وبين ما تقدَّمَ أنه قال ذلك في آخر الحال ، «فكأنه صمت أولاً لتفهم أنه لم يردها ، فلما أعادت الطلب أفصح لها بالواقع».

(٤) أي: ولو حَضَر خاتمٌ من حديد. انظر شرح صحيح مسلم للنووي (٩/ ٢١٣).

(٥) (إزاري): الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن (الوسيط).

(٦) (مُوَلِّياً): مُدْبراً.

فقال: «تَقَرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟».

قال: نَعَمْ.

قال: «اذْهَبْ، فَقَدْ مُلِّكْتَها بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ».

وفي رواية لمسلم (١٤٢٥/٧٧) أيضاً: «انْطَلِقْ فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا، فَعَلِّمْها القُرْآنَ».

وفي رواية للبخاري (٥١٢١): «أَمْلَكْنَاكَها بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ».

وأخرج البخاري في النكاح (٥١٢٢) باب: عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير، من حديث سالم بن عبد الله؛ أنه سمع عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يحدث: أَنَّ عمر بن الخطاب حين تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ[١] بنتُ عُمَرَ من خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ[٢] ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فتوفي بالمدينة ـ فقال عمر بن الخطاب: أتيتُ عثمانَ بْنَ عَفَّانَ فَعَرَضْتُ عليه حَفْصَةَ، فقال: سأنظر في أمري[٣].

فَلَبِثْتُ ليالَي، ثم لقيني، فقال: قد بدا لي أن لا أَتَزَوَّجَ يومي هذا.

قال عمر: فَلَقِيْتُ أبا بكر الصِّدِّيْقَ، فقلتُ: إن شِئْتَ زَوَّجْتُكَ حَفْصَةَ بنتَ عمر، فصمت[٤] أبو بكرٍ، فلم يَرْجِعْ إليَّ شيئاً، وكُنْتُ أَوْجَدَ عليه[٥] مِنِّي على عُثمانَ.

فلبثْتُ ليالَي، ثم خطبها رسولُ الله ﷺ، فَأَنْكَحْتُها إِيَّاهُ، فلقيني أبو بكرٍ، فقالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ[٦] عليَّ حين عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ، فلم أَرْجِعْ

---

(١) (تأيمت حفصةُ): أي صارتْ أَيِّماً. وهي التي يموت زوجها، أو تبين منه، وتنقضي عدتها، وأكثر ما تطلق على من مات زوجها (الفتح: ٩/ ١٧٦).

(٢) وكان من أهل بدرٍ.

(٣) (سأنظر في أمري): أي أتفكَّر.

(٤) (صمت): سكت، وزناً ومعنًى.

(٥) (أَوْجَدَ عليه): أي أشد مَوْجِدةً ـ أي غضباً ـ على أبي بكر من غضبي على عثمان.

(٦) (وَجَدْتَ): غَضِبْتَ.

إليكَ[1] شيئاً؟

قال عمرُ: قلتُ: نعم.

قال أبو بكرٍ: فإنه لم يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إليك فيما عَرَضْتَ عَليَّ إلاَّ أَنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قد ذَكَرها، فلم أكن لأفشي سِرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ـ ﷺ ـ قَبِلْتُها.

وفي هذه الأحاديث من الفوائد:

استحباب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح ليتزوجها، وأن لا غضاضة عليها في ذلك.

وفيها: أنه يستحب لمن طلبت منه حاجة لا يمكنه قضاؤها أن يسكت سكوتاً يفهم السائلُ منه ذلك، ولا يخجله بالمنع، إلاَّ إذا لم يحصل الفهم، إلا بصريح المنع، فيصرِّحُ.

وفيها: أن الهبة في النكاح خاصة بالنبيِّ ﷺ.

وفيها: أن الهبة لا تتم إلا بالقبول.

وفيها: أنه يجوز أن يكون الصَّداقُ (المهر) قليلاً وكثيراً مما يتموَّل، إذا تراضى به الزوجان، لأن خاتم الحديد في نهاية من القلة.

وفيها: أنه لا حَدَّ لأَقَلِّ المهر[2].

وفيها: استحباب تعجيل تسليم المهر إليها.

وفيها: أن الأوْلى أن يذكر الصداق في العقد لأنه أقطع للنزاع، وأنفع للمرأة.

---

(١) (فلم أَرْجِعْ إليك): أي لم أعد عليك الجواب.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢١١): «وقد وردت أحاديث في أَقَلِّ الصدَّاق لا يثبت منها شيء».

وفيها: جواز تأمل محاسن المرأة لإرادة تزويجها، وإن لم تتقدم الرغبة في تزويجها، ولا وقعت خطبتها.

وفيها: جواز الحلف من غير استحلاف، ولا ضرورة.

وفيها: جواز تزويج المعسر وتزوجه.

وفيها: دليل على نظر كبير القوم في مصالحهم، وهدايته إياهم إلى ما فيه الرفق بهم.

وفيها: جواز لبس الرجل ثوب امرأته، إذا رضيت، أو غلب على ظنه رضاها.

وفيها: دليل لجواز كون الصَّداق (المهر) تعليم القرآن، وجواز الاستئجار لتعليم القرآن، وكلاهما جائز عند الشافعي. ومنعه جماعة من العلماء منهم: الزُّهري وأبو حنيفة.

وفيها: فضل كتمان السِّرِّ فإذا أظهره صاحبه ارتفع الحرج عَمَّن سمعه.

وفيها: عتاب الرجل لأخيه، وعتبه عليه، واعتذاره إليه، وقد جبلت الطباع البشرية على ذلك.

وفيها: أن من حلف لا يفشي سِرَّ فلانٍ، فأفشى فلانٌ سِرَّ نفسه، ثم تحدث به الحالف، لا يحنث، لأن صاحب السِّرِّ هو الذي أفشاه، فلم يكن الإفشاء من قبل الحالِفِ.

وفيها: أن الأب يخطب إليه بنته الثِّيب كما يخطب إليه البكر.

وفيها: أنه يزوج بنته الثيب من غير أن يستأمرها، إذا علم أنها لا تكره ذلك، وكان الخاطب كفؤاً لها.

وفيها: وفور أدب المرأة مع شدة رغبتها؛ لأنها لم تبالغ في الإلحاح في الطلب، وفهمت من السكوت عدم الرغبة، لكنها لمَّا لم تيأس من الردِّ، جلست تنتظر الفرج، وسكوته ﷺ إمَّا حياءً من مواجهتها بالردِّ، وإمَّا انتظاراً للوحي، وإمَّا تفكراً في جواب يناسب المقام.

وفيها: أن مَنْ رغب في تزويج مَنْ هو أعلى قَدْراً منه ، لا لَوْمَ عليه ، وأَنَّ مَنْ رغبت في تزويج مَنْ هو أعلى منها ، لا عارَ عليها أصلاً ، ولا سيما إن كان هناك غرض صحيح ، أو قصد صالحٌ؛ إمَّا لفضل دِينيٍّ في المخطوب ، أو لهوًى فيه ، يخشى من السكوت عنه الوقوع في محذور.

وفيها: أنه لا يشترط في صحة العقد تقديم خطبة النكاح.

وفيها: أن الكفاءَة في الحرية وفي الدين وفي النسب لا في المال.

وفيها: أن طالب الحاجة لا ينبغي له أن يلحَّ في طلبها ، بل يطلبها برفقٍ وتَأَنٍّ ، ويدخل في ذلك طالب الدنيا والدين: من مُسْتَفْتٍ ، وسائلٍ ، وباحثٍ عن علمٍ.

وفيها: أن الفقير يجوز له نكاح من علمت بحاله ، ورضيت به إذا كان واجداً للمهر ، وكان عاجزاً عن غيره من الحقوق.

وفيها: المراوضة في الصَّداق ، وخطبة المرء لنفسه.

وفيها: عرض الإنسان بنته وغيرها من مولياته على مَنْ يعتقد خيره وصلاحه لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه ، وأنه لا استحياء في ذلك.

وفيها: أنه لابأس بعرضها عليه ، ولو كان متزوجاً ، لأنَّ أبا بكر كان حينئذٍ متزوجا[1].

ومن أطرف ما قرأت في هذا الباب قصة عَلاَّمة الشام الشيخ عبد الرزاق البيطار الدمشقي الميداني[2] في تزويج بناته الثلاث.

---

(١) هذه الفوائد استقيتُها من شرح صحيح مسلم للإمام النووي ، ومن فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني.

(٢) عالم ، أديب ، مؤرخ ، مشارك في أنواع من العلوم ، سَلَفي العقيدة ، طيب النفس ، حَسَنُ المفاكهة ، ولد بدمشق سنة (١٢٥٣) هـ وتوفي بها سنة (١٣٣٥) هـ. من مؤلفاته: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، المِنَّة في العمل بالكتاب والسنة ، وغيرهما. انظر ترجمته في الأعلام ، ومعجم المؤلفين ، وغيرهما.

يقول الأستاذ الدكتور عبد اللطيف فرفور في كتابه «صفحات مشرقة من تاريخنا المجيد» ص: (١٠): كان للشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ من البنات ثلاثٌ ، هُنَّ في الذُّرْوة من الحياءِ ، والخَفَرِ[١] ، والدِّين ، والعفاف ، والصَّوْن ، وقد قرأن على أبيهنَّ العَلاَّمة الجِهْبِذ[٢] كثيراً من العلوم الإسلامية ما أَهَّلَهُنَّ لإمامة النساء في العلم والمعرفة ، إلى نُسُكٍ ، وزهادةٍ ، وجمالٍ ، ومالٍ. حتى كادت تكتمل فيهن صفات المرأة المؤمنة القانتة ، فَكُنَّ مَضْرِبَ المَثَلِ في ذلك كله.

وكان الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ حريصاً كُلَّ الحرص على أن يزوجَ بناتِهِ مُبَكِّراً ، وقد سعى إلى ذلك كُلَّ السَّعْيِ ، وبذل قُصارىٰ جهده لم يَأْلُهُ ، امتثالاً لأمر الشرع ، ورعاية لحق المروءة ، وسَتْراً لَهُنَّ من غدر الزمن ، وفسادِ أهله.

ولكن الله ـ عز وجَلَّ ـ شاءت حكمته أن يَنْسَأَ[٣] زواج هاته البنات الثلاث ، فلم يقيض لهن أصهاراً صالحين ، يرضى الله عنهم ، ورسولُهُ ، وصالحو المؤمنين.

وطال الأمر ، ونَفِدَ صبرُ الشيخ ، فعزم على أَنْ يتخذَ لذلك الأمر العصيب حَلاًّ جذرياً من صُلْبِ الشريعة الغَرَّاء ورُوحِها ، وهو بَعْدُ سُنَّةٌ هجرها المسلمون المعاصرون من حَيْثُ قام عليها أكابر السَّلَفِ الصَّالح ، وهل هناك مَنْ يوزَنُ بعمر بن الخطَّاب أمير المؤمنين ، رضي الله عنه؟ فلقد عَرَض بنته حَفْصَةَ ـ رضي الله عنهما ـ على أبي بكرٍ ، وعثمان ، رضي الله عنهما.

وخطب الشيخ خطبة الجمعة في جامع الدَّقَّاق من مَحَلَّةِ الميدان بدمشق ، ولما انتهى من خطبته المعهودة ، وتلا الآية التي أمر بها الخليفة الراشد عُمَرُ بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ أن تختم بها الخطب المنبرية بَدَلاً عن سِفْسَافِ

---

(١) (الخَفَر): شِدَّة الحياء (مختار الصحاح).
(٢) (الجِهْبِذ): النَّقَّاد الخبير بغوامض الأمور.
(٣) (يَنْسأ): يُؤَخِّر.

القولِ(١) ، وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] قال للناس قبل أن ينزل من المنبر:

أيها الناسُ! اسمعوا مني؛ فإن عندي ثلاثَ بناتٍ ، وإنَّ اللهَ لا يستحيي من الحق. وإني أرغب في تزويجهن على كتاب الله ، وسنة رسوله ، صلوات الله عليه ، وإن كُبراهُنَّ اسمُها كذا ، وإنَّ وُسْطاهُنَّ اسْمُها كذا ، وإنَّ صُغْراهُنَّ اسمُها كذا.

أما الأولى فوضيئة ، حُسَّانة(٢) ، بيضاء ، وشعرها أسود ، وإنَّ وُسطاهنَّ وسَطٌ نصفٌ(٣) ، وشعرها أشقر ، وإنَّ صُغراهن دون أختيها ، لكنها ذكية ، لَوْذعية(٤) ، جذَّابةٌ فاتنة ، ذات غُنْج(٥) ، وإني لا أبغي غير الدين والخلق ، وأريد أصهاراً ثلاثةً معا لبناتي الثلاثً من ذلك الطراز الرفيع؛ فمن كانت لديه الكفاءة والأهلية فليتقدم إلى مُصاهرتي ، وله عندي ما يحبُّ ، إنْ شاء الله تعالى.

وبعد ثلاث سنين ، وبينما الشيخ يقول قالته تلك على منبره قبل نزوله للصلاة ، قام ثلاثة رجال إخوة معاً ، فقالوا للشيخ بصوت واحد: يا شَيْخَنَا! إنَّ هذا الذي تطلبه إلى رَبِّكَ ، وتعرضه على إخوتك المسلمين لهو عندنا ، فَصَلِّ بنا حتى نُحَدِّثَكَ بحديثنا الذي يسرُّك ، إنْ شاء الله تعالى.

والتفت الشيخ إليهم يملأ عينيه منهم متوسِّماً ، يَحْدُجُهُمْ(٦) حِصَّةً من الزمن ، يستخير اللهَ ـ جَلَّ شأْنُهُ ـ بقلبه فيهم ، فلمَّا انشرح صدره إلى تزويجهم

---

(١) (سفْسَاف القول): رديئه.
(٢) (حُسَّانة): شديدة الحُسْنِ.
(٣) (نصف): أي من أواسط النساء.
(٤) (لَوْذَعيَّة): أي خفيفة ذكية ، ظريفة الذهن ، حديدة الفؤاد والنفس.
(٥) (الغُنج): الدَّلالُ ، وملاحة العينين (الوسيط).
(٦) (يَحْدُجُهُمْ): أي يُحدُّ النظرَ إليهم ويحدِّق.

من بناته ، قال لهم ـ وهو يريد أن يستوثق لديهم ، وأمانتهم وكفاءتهم ـ: أهلاً بكم ، أيها الفتيانُ! ولكن ، ألا تخبروني ، مَنْ أنتم؟ وما هي أسماؤكم؟ وألقابكم؟ ومن آباؤكم وذووكم؟

فقال له واحدٌ منهم بلسان الجماعة ، وهم يسمعون: يا شيخَنَا! نحن إخوة أَشِقَّاءُ مِن آل فُلانٍ ، ووالدُنا هو فلانٌ ، ونحن نعمل في الدنيا ونطلب العلم على الأَشْياخِ ، وسِنُّ الكبير منا كذا ، والأوسطِ كذا ، والأصغرِ كذا.

فلمَّا وقف الشيخ على حقيقة أمرهم سُرَّ سروراً بالغاً ، وجلس إلى الأرض ، واستوقف جموعَ المصلِّين كَيْلا يخرجوا من الجامع ، وعقد عقود زواجهم بنفسه بالولاية والوكالة ، وأشهد الجميع على ذلك ، وكان صَدَاقُ[1] كل واحدة منهم عشرةَ دراهم من الفضة فقط ، أو ما يوازيها آنئذٍ بالعملة التركية.

فلما انتهى للشيخ ما يريد ، دعا وجوه القوم ، والفتيانَ الثلاثةَ إلى داره الغربية من الجامع ، وأَوْلَمَ[2] لهم بما حضر من كريم الرِّفَادةِ[3] ، وانصرف الناسُ مع غروب الشمس ، وبقي الأصهار في الدار ينتظرون أمر الشيخ ، فصلَّى بهم إماماً المغربَ والعشاء الآخِرةَ ، فلما انفتل من صلاته دعا لهم ، وبَرَّكَ عليهم[4] ، وأخذ بأيديهم إلى غرف ثلاثة في جناحٍ من أجنحة داره الكبيرة ، وقال لأصهاره:

إنكم لم تَرَوا أزواجكم ، ولكم حقُّ الخيار ، فادخلوا فلينظر كُلٌّ إلى زوجته في غرفة خاصة دون إغلاق الباب ، كَيْلا تكون خَلْوَةٌ شَرعيةٌ توجبُ كلَّ المهر ، ثم أنتم بَعْدُ بالخيار.

فدخلوا ، فنظر كُلٌّ منهم إلى زوجه الفتاة البكرِ الحسناء ، فأعجبتهم ،

---

(١) (الصَّداق): المَهْرُ.

(٢) (أولم): صنع وليمةً ، وهي طعامُ العُرْسِ.

(٣) (الرِّفادة): الطعام والضيافة.

(٤) (بَرَّكَ عليهم): دعا لهم بالبركة.

وأعلنوا ذلك للشيخ فأمرهم بالبناء بأزواجهم الليلةَ في هذه الغُرفِ ، كلٌّ يبني بزوجه في غرفته تلك ، وَدَلَّهُمْ على المرافق الخاصة بذلك الجناح ، ودعا لهم ، وخرج.

رَقَدَ الشيخُ بعدَ يومٍ عانئ فيه مِنْ تعب الجسم ، ولكنه كان تملؤُه البهجة والحبور ، بما وصل إليه من الخير الكثير ، فهذه بناته الأبكار تزوّجنَ الأصهار الصالحين ، وكُنَّ زوجاتٍ لإخوةٍ أشِقَّاءَ ، ثلاثةٍ من خير الشُّبَّانِ ، الذين جمع الله لهم خَيْرَي الدنيا والآخرة من طلبة العلم النجباء ، والتجار الأبرار ، فاللَّهُمَّ لك الحمد لِما أَوْلَيْتَ ، ولك الشكر لِما أعطيتَ ، سبحانك ، أنت البادىء بالإنعام ، والمفضل بعوائد الإحسان.

داعَب الكَرَى جَفْني الشيخ الوقور ، وهو في فراشه يذكر الله ، فيحمده حمد الشاكرين من عباده ، ورجع في ذكرياته إلى سِنِّ ا لشباب ، يومَ تزوّج تلك المرأة الصالحة ، فَأَوْلدها هذه الذرية المُباركَةَ ، ودارت في رأسه مشاهِدُ البناتِ ، يوم مَجيئِهِنَّ إلى الدنيا ، وفَرَحه بِهِنَّ من حيثُ غَصَّ بذلك الأَهْلُ والأقاربُ والأَحْماءُ[1] ، وكان الراضي بذلك من القوم الزوجة التي وَلَدَتْهُنَّ ، وقلبه الطَّهور الذي كان لسان حاله يقول: أَحَبَّ اللهُ أمراً فأَحْبَبْناهُ.

وتذكَّر الشيخ طُفولَتَهُنَّ البريئة ، وحلاوةَ تربيتِهِنَّ ، وعطفهنَّ عليه أكثرَ من أبنائه الذكور ، وإِنْ كانوا كلُّهُمْ في البرِّ والرِّضا سواءً ، غير أن البنت تفكِّرُ بقلبها من حيثُ يفكِّر الصبيُّ بنفسه.

تذكَّر الشيخ ذلك كله وهو راقدٌ في فراشه حتى أخذ بجفونه النوم ، فلما استيقظ باكراً ، قام إلى الوضوء والصلاة ، فصلّى بأصهاره الثلاثةِ إماماً ، ثم دعا لهم ، وقال:

الضيافةُ ثلاثةُ أيّام ، وبعدها أنتم بالخيار: مَنْ شاء أن يذهبَ ذَهَبَ ، ومن شاء أن يُقيمَ ، أقامَ.

---

(١) (الأحماء): حَمَا المرأة: أبو زوجها ومَنْ كان مِنْ قِبَلِهِ من الرجال ، وحَمَا الرَّجُلِ: أبو امرأته ومَنْ كان مِنْ قِبَلِهِ من الرجال (الوسيط).

وفي اليوم الثالث وَدّع الأصهارُ الثلاثةُ شَيْخَهُمْ ، وذهب كُلٌّ إلى داره ، ولكن بقي لهم في قلب الشيخ مكانٌ ، لا يناله أحدٌ غيرهم ، وفي دار الشيخ لهم كذلك بيوتاتٌ وجَناحٌ .

وصدق الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم : ٩٦] . صدق الله العظيم» .

* * *

أَنْجَحُ لِحَاجَتِي أَنْ تَقُومَ مَعِي

أخرج أبو عُبَيْدٍ في «الأموال» ، عن عُمَير بن سَلَمَةَ الدُّؤَلي ، رضي الله عنه ، قال: بينا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، نصف النهار ، قائلٌ[1] في ظل شجرةٍ ، وإذا أعرابية ، فتوسَّمَتِ الناسَ فجاءته ، فقالت: إني امرأة مسكينةٌ ، ولي بَنُونَ ، وإن أميرَ المؤمنين عُمَرَ بن الخطاب كان بعث محمد بن مَسْلَمَةَ سَاعِياً[2] ، فلم يُعْطِنا ، فَلَعَلَّكَ ـ يرحمكَ الله ـ أن تشفع لنا إليه؟

قال: فصاح بـ يَرْفَا[3]: أَنْ ادْعُ محمدَ بن مَسْلَمَةَ.

فقالت: إنه أنجحُ لحاجتي أن تقوم معي إليه.

فقال: إنه سيفعل إنْ شاءَ الله ، فجاءه يَرْفَأُ ، فقال: أَجِبْ. فجاء فقال: السلامُ عليكَ ، يا أمير المؤمنين!

فاسْتَحْيَتِ المرأة منه. فقال عمر: والله! ما آلو أَنْ أختار خياركم ، كيف أنت قائلٌ إذا سألك الله ـ تعالى ـ عن هذه؟

فدمعت عينا محمد ثَمَّ.

---

(١) (قائل): القَيْلُولَةُ: الاستراحة نصف النهار ، وإنْ لم يكن معها نوم (النهاية).

(٢) (الساعي): عامل الصدقة.

(٣) (يَرْفا): حاجِبُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ترجمه النووي في تهذيب الأسماء واللغات برقم (٦٩٣) بتحقيقي ، وقال: «هو بفتح الياء ، وإسكان الراء ، ومنهم من همزه ، والصحيح المشهور؛ أنه غير مهموز. . .».

فقال عمر: إن الله بعث إلينا نبيَّهُ ـ ﷺ ـ فصدَّقناه، واتبعناه، فعمل بما أمره الله به، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين حتىٰ قبضه الله على ذلكَ؛ ثم استخلف اللهُ أبا بكر، فعمل بسنته حتى قبضه الله، ثم استخلفني فلم آلُ أن أختار خياركم. إنْ بعثتُكَ فأدِّ إليها صدقة العام، وعامِ أوَّل، وما أدري؟ لَعَلِّي لا أبعثكَ!

ثم دعا لها بَجَمَلٍ، فأعطاها دقيقاً وزَيْتاً، وقال: خذي هذا حتىٰ تلحقينا بخيبر[1]، فإنا نريدها، فأتته بخيبر، فدعا لها بجملَيْنِ آخَرين، فقال: خذي هذا فإن فيه بلاغاً حتى يأتيكم محمد (بن مَسْلَمَةَ)، فقد أَمَرْتُهُ أن يعطيَكِ حقَّكِ للعام، وعام أول. كذا في حياة الصحابة (٢/ ٣٣٧).

* * *

(١) (خيبر): بلدة معروفة في السعودية، تبعد عن المدينة المنورة (١٦٥) كِيْلاً شمالاً على طريق الشام.

أَنَا المَسْؤُولُ عَنهُمْ فِي الآخِرَةِ

أخرج الدِّيْنَوَرِيُّ ، وابن شاذان ، وابنُ عساكر (كما في المنتخب من كنز العمال: ٤/ ٤١٥ ـ ٤١٦) ، عن أَسْلَمَ: أَنَّ عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه طاف ليلة ، فإذا هو بامرأة في جَوْف دارٍ لها ، وحولها صبيان يبكون ، وإذا قِدْرٌ على النار قد مَلأَتْها ماءً.

فدنا عمرُ من الباب ، فقال: يا أَمَةَ اللهِ! ما بُكاءُ هؤلاء الصِّبيانِ؟

قالت: بُكاؤُهم من الجوعِ.

قال: فما هذا القِدْرُ التي على النار؟

قالت: قد جعلت ماءً ، هو ذا أُعَلِّلُهُمْ بهِ[١] حتىٰ يناموا ، وأُوْهِمُهُمْ أَنَّ فيها شيئاً.

فبكىٰ عمرُ ، ثم جاء إلى دار الصَّدَقَة ، وأخذ غِرارَةً[٢] ، وجعل فيها شيئاً من دقيق ، وشحم ، وسَمْن ، وتمر ، وثياب ، ودراهمَ حتى ملأ الغِرارَةَ.

ثم قال: يا أَسْلَمُ[٣]! احْمِلْ عَلَيَّ.

---

(١) (أُعَلِّلُهُمْ به): أشغلهم به.

(٢) (الغِرارَة): وعاءٌ من الخيش ونحوه ، يوضع فيه القمح ونحوه (الوسيط).

(٣) هو أَسْلَمُ العَدَوي ، مولىٰ سيدنا عمر بن الخطاب. ثقة مخضرم. والمخضرم: من أدرك الجاهلية والإسلام ، ويقيده المحدثون بمن لم يَرَ النبيَّ ﷺ مؤمناً به. مات سنة (٨٠) هـ. وقيل: بعد سنة (٦٠) هـ وهو ابن (١١٤) سنة.

فقلت: يا أمير المؤمنين! أنا أحمله عنك.

فقال لي: لا أُمَّ لك، يا أَسْلَمُ! أنا أحمله لأني أنا المسؤول عنهم في الآخرة؛ فحمله حتى أتىٰ به منزل المرأة. فأخذ القِدْرَ فجعل فيها دقيقاً وشيئاً من شحم وتمر، وجعل يحركه بيده، وينفخ تحت القدر، فرأيتُ الدُّخَان يخرج من خَلَلِ لِحْيَتِهِ حتى طبخ لهم، ثم جعل يَغْرِفُ بيده، ويطعمهم حتى شبعوا.

ثم خرج ورَبَضَ بحذائهم كأنه سَبُعٌ، وخِفْتُ أَنْ أُكَلِّمَهُ، فلم يَزَلْ كذلك حتى لَعِبَ الصبيان وضحكوا، ثم قام، فقالَ: يا أَسْلَمُ! تدري لم رَبَضْتُ بحذائهم؟

قلت: لا.

قال: رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا، طابَتْ نفسي.

وذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ١٣٦) عن أَسْلَمَ قال: خرجتُ ليلةً مع عُمَرَ إلىٰ حَرَّةِ واقِمٍ[١]، حتى إذا كنا بِصِرار[٢]، إذا بنارٍ.

فقال: يا أَسْلَمُ! هاهنا رَكْبٌ، قد قَصَّر بهم الليل. انْطَلِقْ بنا إليهم. فأتيناهم، فإذا بامرأة معها صبيان لها، فذكره بمعناه.

وأخرجه الطبري (٥/ ٢٠) بمعناه مع زيادات.

* * *

---

(١) (حَرَّةُ واقِم): هي حَرَّة المدينة الشرقية. والحَرَّةُ: بفتح الحاء وتشديد الراء: هي أرض ذات حجارةٍ نَخِرَةٍ، كأنها أحرقت بالنار. وقد ذكر حِرارَ المدينة أستاذنا البحاثة محمد شُرَّاب في كتاب القيم: «المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» ص: (٩٨ ـ ١٠٠).

(٢) (صِرار): بكسر أوله وبالراء المهملة في آخره. قال البكري: بئر قديمة علىٰ ثلاثة أميال من المدينة، تلقاء حَرَّةِ واقِمٍ. انظر المعالم الأثيرة ص: (١٥٨).

قَدْ بَرَّمْتَنِي هٰذِهِ اللَّيلة!

أخرج ابنُ سَعْدٍ في الطبقات الكُبرىٰ (٣/ ٢١٧) ، وأبو عُبيد ، وابن عساكر ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال: قَدِمَتْ رُفْقَةٌ[١] من التجار ، فنزلوا المُصَلَّى[٢] .

فقال عمرُ لعبد الرحمٰن بن عَوْفٍ ، رضي الله عنهما: هل لكَ أَنْ نحرسَهُمْ الليلة من السَّرَقِ؟

فباتا يحرسانهم ويصلِّيان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبيٍّ ، فتوجه نحوه ، فقال لأمِّهِ: اتقي الله ، وأحسني إلى صَبِيِّكِ ، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءَهُ ، فعاد إلى أمه ، فقال لها مثل ذلكَ. ثم عاد إلىٰ مكانه .

فلما كان في آخر الليل سمعَ بكاءَهُ ، فأتى أُمَّهُ ، فقال: ويحك! إني لأُراكِ أُمَّ سَوْءٍ ، ما لي أرىٰ ابنكِ لا يقرُّ[٣] منذ الليلة؟

---

(١) (رُفقة): جماعة ترافقهم في سفرك. وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٠٣): هم الجماعة المختلطون سواء كانوا في سَفَرٍ أَمْ لا .

(٢) (المُصَلَّى): مُصَلَّى العيد بالمدينة ، وأظنه مكان مسجد الغَمامة ، وموضع بعينه في عَقِيق المدينة (المعالم الأثيرة ص: ٢٧٥).

(٣) (لا يقرُّ): لا يهدأ.

قالت: يا عبد الله! قَدْ بَرَّمْتَني[1] هذه الليلةَ ، إني أُرِيغُهُ علىٰ الفِطام[2] ، فيأبىٰ.

قال: وَلِمَ؟

قالت: إنَّ عمر لا يَفْرِضُ إلاَّ للفُطْمِ[3].

قال: وكم له؟

قالت: كذا وكذا شهراً.

قال: ويحكِ! لا تعجليه ، فصلىٰ الفجرَ ، وما يستبين الناسُ قراءَتَهُ من غَلَبَةِ البكاء.

فلمَّا سَلَّم ، قال: يا بُؤْساً لعمرَ! كم قتل من أولاد المسلمين!

ثم أمر منادياً فنادىٰ: ألا ، لا تُعْجلوا صبيانكم عن الفِطَام ، فإنا نفرض لكل مولودٍ في الإسلام ، وكتب بذلك إلى الآفاق: إنا نفرض لكل مولود في الإسلام.

* * *

---

(١) (بَرَّمْتَني): أي أضجرتني.

(٢) (أُرِيغُهُ علىٰ الفطام): أي أديره عليه ، وأريده منه. يقال: فلان يريغني علىٰ أمرٍ ، وعن أمر ، أي: يُراوِدُني ويطلبه مني (النهاية).

(٣) أي لا يجعل عَطَاءً إلا للطفل الفطيم.

هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ

السيدة المُحَجَّبَة رَمْلَةُ ـ وقيل: هِنْدُ ـ بنت أبي سفيان: صَخْرِ بن حرب، أُمُّ حبيبةَ القرشيةُ الأُمَويةُ، أُمُّ المؤمنين، زَوْجُ رسول الله ﷺ، وهي من بنات عمه ﷺ. ليس في أزواجه مَنْ هي أقرب نسباً إليه منها، ولا في نسائه مَنْ هي أكثرُ صَداقاً منها، ولا مَنْ تزوَّج بها وهي نائيةُ الدار أبعد منها. أسلمت قديماً بمكة، وهاجرت إلى الحبشةِ مع زَوْجها عُبَيْدِ الله بن جَحْشٍ، فتنصَّر بالحبشة، ومات بها.

وأَبَتْ هي أن تَتَنَصَّرَ، وَثَبَتَتْ على إسلامها، فتزوَّجها رسولُ الله ﷺ وهي بالحبشةِ، وأَمْهَرَها النجاشيُّ عَنْ رسولِ الله ـ ﷺ ـ أربعَ مِئَةِ دينارٍ، وأَوْلَمَ عليها عثمانُ لحماً. وقيل: أَوْلَمَ عليها النجاشيُّ، وحملها شُرَحْبيل بنُ حَسَنَةَ إلى المدينة.

روىٰ أبو داودَ (٢١٠٧) والنسائي (١١٩/٦) بإسنادٍ صحيح من حديث عُرْوَةَ، عن أُمِّ حَبِيبةَ أنها كانت تحت عُبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوَّجها النجاشيُّ[1] النبيَّ ﷺ، وأَمْهَرَها عنه أربعة آلافٍ، وبعث بها إلىٰ رسول الله ﷺ مع شُرَحْبيل بنِ حَسَنَةَ.

ورَوَىٰ الزُّبير بنُ بكّارٍ من حديث إسماعيل بن عَمْرٍو، أَنَّ أُمَّ حبيبةَ قالت:

---

(١) قال الخطابي: معنىٰ قوله: «زوَّجها النجاشي» أي: ساق إليها المَهْرَ، فَأُضِيفَ عقدُ النكاح إليه، لوجود سَبَبٍ منه، وهو المَهْرُ.

ما شعرتُ وأنا بأرض الحبشةِ إلا برسول النجاشي جاريةٍ ، فاستأذَنَتْ ، فَأَذِنتُ لها ، فقالت : إنَّ المَلِكَ يقول لكِ : إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كَتَبَ إليَّ أَنْ أُزَوِّجَكيه ، فقلتُ : بَشَّرَكِ اللهُ بخيرٍ . فقالت : يقول المَلِكُ : وَكِّلي مَنْ يُزَوِّجُكِ . فأرسلتُ إلى خالد بن سعيد بن العاص بن أمية فَوَكَّلْتُهُ ، فأَمَرَ النجاشيُّ جعفر بن أبي طالبٍ ومَنْ هناك من المسلمين يحضرون ، وخطب النجاشيُّ ، وقالَ : إن رسول الله ـ ﷺ ـ كتب إليَّ أن أزوجَهُ أُمَّ حَبِيبةَ ، فباركَ الله لرسوله . ودفعَ النجاشيُّ الدنانير إلىٰ خالدٍ .

ولما بلغَ الخبرُ إلىٰ أبي سفيان أَنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ نَكَحَ أم حبيبة ابْنَتَهُ ، قال : «ذلك الفَحْلُ ، لا يُقْدَعُ أَنْفُهُ»[1] .

قال ابن الأثير في أسد الغابة (٦/ ١١٦) : «تزوجها رسولُ الله ﷺ سنة ستٍّ ، وتوفيت سنة أربع وأربعين . وقيل : إنَّ رسول الله ﷺ أرسل عَمْرو ابن أمية الضَّمْريَّ إلى النجاشي يخطب أم حبيبة ، فزوجها إياه .

روىٰ ابن سعد في الطبقات (٨/ ٩٩ ـ ١٠٠) من حديث الحافظ ابن شِهاب الزُّهري ، قال : لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة ، جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يريد غزو مكةَ ، فكلَّمه أن يزيد في هُدْنة الحُديبية ، فلم يُقْبِلْ عليه رسولُ الله ﷺ ، فقام فدخل على ابنته أم حَبِيبةَ ، رضي الله عنها ، فلما ذهب ليجلس على فراشِ النبي ـ ﷺ ـ طَوَتْهُ دونه .

فقالَ : يا بُنَيَّةُ ! أَرَغِبْتِ بهذا الفراشِ عني ، أَمْ بي عنه؟

فقالت : بَلْ هُو فِراشُ رسول الله ـ ﷺ ـ وأنت امْرُؤٌ نَجِسٌ مشرك ، ولم أُحبَّ أَنْ تجلس على فراشِ رسول الله ﷺ . فقال : يا بنيةُ ! لقد أصابَكِ بعدي شر !

فقالت : بل هداني الله للإسلام ، وأنت يا أبتِ ! سيدُ قُريش وكبيرُها ، كيف

---

(١) المستدرك (٤/ ٢٢) ، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (٨/ ٩٩) . (لا يُقْدَعُ أَنْفُهُ) : أي أنه كفء كريمٌ لا يُرَدُّ . قال في النهاية : ويروىٰ بالراء .

يسقط عنك الدخول في الإسلام ، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر؟! فقام من عندها .

وفي مستدرك الحاكم (٤/ ٢٢ ـ ٢٣) من حديث عوف بن الحارث قال : سمعتُ عائشة رضي الله عنها ، تقول : دعتني أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النبي ـ ﷺ ـ عند موتها ، فقالت : قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر فغفر الله ذلك كله ، وحَلَلْتُكِ من ذلكَ كُلِّهِ .

فقالت عائشة : سررتِني ، سَرَّكِ اللهُ! وأرسلتْ إلى أم سَلَمَةَ ، فقالت لها مثل ذلك ، وتوفيت سنة أربع وأربعين في إمارة معاوية .

* * *

كَمْ تَرَىٰ في هٰذِهِ الحَبَّةِ مِنْ مِثْقَالٍ؟!

أخرج الإمام مالك بن أنس في «الموطأ» (٢/ ٩٩٧) أنه بلغه عن عائشةَ زوجِ النبي ﷺ: أَنَّ مِسْكيناً سألها وهي صائمةٌ ، وليس في بيتها إلا رغيفٌ. فقالت لمولاةٍ لها: أَعطيهِ إيَّاهُ.

فقالت: ليس لكِ ما تُفْطِرين عليه.

فقالت: أَعْطِيْهِ إِيَّاهُ.

قالت: ففعلتُ.

قالت: فلما أَمْسَيْنا ، أَهْدَىٰ لنا أهلُ بيتٍ ، أو إنسانٌ ، ما كانَ يُهْدِي لنا ، شاةً وكَفَنَها[1]. فَدَعَتْني عائشةُ أُمُّ المؤمنينَ ، فقالت: كُلي مِنْ هٰذا. هذا خيرٌ من قُرْصِكِ.

وقال مالك أيضاً في المُوَطَّأ (٢/ ٩٩٧): «بلغني أَنَّ مِسْكِيناً اسْتَطْعَم عائِشَةَ أُمَّ المؤمنينَ ، وبين يديها عِنَبٌ. فقالت لإنسانٍ: خُذْ حَبَّةً فَأَعْطِهِ إِيَّاها ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ ويَعْجَبُ.

فقالت عائِشَةُ: أَتَعْجَبُ؟ كَمْ تَرَىٰ في هٰذِهِ الحَبَّةِ مِنْ مِثْقَال؟».

قلت: تريد قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ[2] خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

---

(١) (شاةً وكَفَنَها): أي ما يغطيها من الرُّغْفَان (النهاية).

(٢) (مثقال ذَرَّة): المثقال في الأصل: مقدار من الوزن ، أيُّ شيء كان من قليل أو كثير ، فمعنى مثقال ذَرَّة: وَزْنُ ذَرَّة (النهاية).

اللَّهُمَّ! ارْزُقْنَا

عن أبي هُرَيْرَةَ قال:

دخل رجل على أهله، فلما رأىٰ ما بهم من الحاجة، خرج إلىٰ البَرِّيَّةِ[1]، فلما رأت امرأته قامت إلىٰ الرَّحا[2]، فوضعتها، وإلى التنور فَسَجَرَتهُ[3]، ثم قالت: اللهم ارزقنا! فنظرت فإذا الجَفْنَةُ[4] قد امتلأت.

قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً.

قال: فرجع الزوجُ، فقال: أصبتم بعدي شيئاً؟

قالت امرأته: نعم، من ربنا. قام إلى الرَّحا فرفعها، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «أما إنه لو لم يرفعها، لم تزل تدور إلى يوم القيامة».

قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٥٦: «رواه أحمد والبزار وقال: فقالت امرأته: اللهم! ارزقنا ما نطحن، وما نعجن ونخبز، فإذا الجفنةُ ملأىٰ خبزاً، والرَّحا تطحنُ، والتنور ملأىٰ جُنُوبَ[5] شِواءٍ.

---

(١) (البَرِّيَّةُ): الصحراء (الوسيط).

(٢) (الرَّحا): الأداة التي يطحنُ بها (الوسيط).

(٣) (سَجَرَتْهُ): ملأته وقوداً وأَحْمَتْهُ.

(٤) (الجفنة): القصعة.

(٥) (الجُنُوب): جمع جَنْبٍ، يريد جَنْبَ الشاة: أي أنه كان في التَّنُّور جُنُوبٌ كثيرة، لا جَنْبٌ واحد (النهاية).

فجاء زوجها ، فقال: عندكم شيء؟

قالت: رزق الله ، أو قد رزق الله .

فرفع الرَّحا فكنس حولها. فقال رسول الله ﷺ: «لو تركها لطحنت إلىٰ يوم القيامة» .

قال الحافظ الهيثمي: ورواه الطبراني في الأوسط بنحوه ، ورجالهم رجال الصحيح غير شيخ البزار وشيخ الطبراني وهما ثقتان» .

وعن أبي هريرة أيضاً قال: بينما رجل وامرأة له في السَّلَفِ الخالي ، لا يقدر علىٰ شيء ، فجاء الرجل من سفره ، فدخل على امرأته جائعاً ، قد أصابته مَسْغَبَةٌ[1] شديدة ، فقال لامرأته: عندكِ شيءٌ؟

قالت: أَبْشِرْ. قد أتاك رزقُ الله ، فاسْتَحَثَّها[2] ، وقال: ابتغي ، ويحك! إِنْ كان عندكِ شيء .

فقالت: نعم ، هُنَيْهَةً[3] نرجو رحمة الله. حتى إذا طال عليه الطول قال: ويحكِ! قومي ، فابتغي إِنْ كان عندكِ خبز ، فائتني به ، فإني قد أبلغتُ وجهدتُ ، قد أبلغتُ وجهدتُ .

فقالت: نعم ، الآن ننضح التنور فلا تعجل .

فلما أن سكت عنها ، وتحيَّنت أيضاً أن تقول ، قالت هي من عند نفسها: لو قمتُ فنظرتُ إلىٰ تنوري. فقامت ، فوجدت تنورها ملآن جُنُوبَ الغنم ، ورحيتها تطحن. فقامت إلىٰ الرَّحا ، فنقضتها ، واستجرَّت ما في التَّنُّور من جُنُوبِ الغنم .

---

(١) (المَسْغَبَةُ): المجاعة .

(٢) (استحثها): أي طلب منها الإسراع في إعداد الطعام .

(٣) (هنيهة): أي قليلاً من الزمان .

فقال أبو هريرة: والذي نفس أبي القاسم بيده! عن قول محمد ﷺ: «لو أخذت ما في رحيتها ، ولم تنقضها لطحنت إلى يوم القيامة».

قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٧: «رواه أحمد ورجاله وثقوا».

* * *

أَرابَكَ مِنَّا شيءٌ؟

طَلْحَةُ بن عُبَيْد الله القُرَشِيُّ التَّيْمِيُّ المَكِّيُّ ، أبو محمد ، أحدُ العشرة الذين شهد لهم رسول الله ـ ﷺ ـ بالجنة ، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وأحد الستة أصحاب الشورىٰ الذين توفي رسول الله ـ ﷺ ـ وهو عنهم راضٍ ، سماه رسول الله ـ ﷺ ـ طلحة الخير ، وطلحة الفياض ، وطلحة الجود.

أخرج الطبراني في الكبير (١٩٧) و(٢١٨) ، والحاكم (٣/ ٣٧٤) وابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ٤٦٨) بإسناد لين عن موسىٰ بن طلحة ، عن أبيه طلحة ابن عُبيد الله قال: لما كان يوم أحد ، سَمَّاهُ النبيُّ ـ ﷺ ـ طلحة الخير ، وفي غزوة ذي العُشَيْرَةِ طلحة الفَيَّاض ، ويوم خيبر: طلحة الجود.

وهو من المهاجرين الأولين ، ولم يشهد بدراً ، ولكن ضرب له رسول الله ـ ﷺ ـ بسهمه وأجره ، كمن حضر.

قال ابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ٤٦٨): «لم يشهد بدراً؛ لأنه كان بالشام ، فقدم بعد رجوع رسول الله ـ ﷺ ـ من بدرٍ ، فكلم رسول الله ـ ﷺ ـ في سهمه ، فقال: لكَ سَهْمُكَ. قال: وأجري؟

قال: وأجرُك؛ فقيل: كان في الشام تاجراً. وقيل: بل أرسله رسول الله ـ ﷺ ـ ومعه سعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسَّسان الأخبار ، ثم رجعا إلى

المدينة. وهذا أصحُّ ، ولولا ذلك لم يطلب سهمهُ وأجره ، وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد».

أخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١/ ١٥٧) ، والطبراني في المعجم الكبير (١٩٤) ، وأبو نُعيم الأصبهاني في حلية الأولياء (١/ ٨٨) ، عن قَبِيصَةَ ابن جابر ، قال: صحبتُ طلحة ، فما رأيتُ أعطى لجزيل مالٍ من غيرِ مسألة منه.

وأورد الحافظ الذهبي في السِّيَرِ (١/ ٣٠ ـ ٣١) من حديث موسىٰ بن طلحة ، عن أبيه طلحة بن عبيد الله ، أنه أتاه مالٌ من حضرموتَ: سبعُ مئةِ ألف ، فبات ليلته يتململ ، فقالت له زوجتُهُ: مالك؟

قال: تفكرتُ منذ الليلة ، فقلتُ: ما ظَنُّ رجل بربه يبيتُ وهذا المالُ في بيته؟

قالت: فأين أنت عن بعض أَخِلاَّئك؟ فإذا أصبحت فادع بجفان وقصاعٍ فَقَسِّمْهُ.

فقال لها: رحمكِ الله! إنكِ موفَّقةٌ بنت مُوَفَّقٍ ، وهي أم كلثوم بنت الصِّدِّيق.

فلما أصبح ، دعا بجفانٍ ، فقسَّمها بين المهاجرين والأنصار ، فبعث إلىٰ عليٍّ منها بجفنةٍ ، فقالت له زوجتُهُ: أبا محمدٍ! أما كان لنا في هذا المال من نَصِيبٍ؟

قال: فأين كنتِ منذ اليوم؟ فشأنكِ بما بقي.

قالت: فكانت صَرَّةٌ فيها نحو ألف درهمٍ.

وأخرج الطبراني بإسناد رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد (٩/ ١٤٨) عن طلحة بن يحيىٰ ، عن جدته سُعْدىٰ بنت عمرٍو المُرِّيةِ ، امرأةِ طلحة بن عبيد الله ، قالت:

دخل عليَّ يوماً طلحة ، فرأيت منه ثِقلاً ، فقلت له: ما لكَ؟ لعله رابك منا شيءٌ فنعتبك؟

قال: لا ، ولنِعْمَ حَلِيْلَةُ المرءِ المسلم أنت! ولكن اجتمع عندي مالٌ ، ولا أدري ، كيف أصنع به؟

قالت: وما يغمك منه؟ ادْعُ قومك ، فاقسمه بينهم.

فقال: يا غلامُ! عَلَيَّ بقومي.

فسألت الخازن: كم قَسَمَ؟

قال: أربع مئة ألف.

وفي رواية للحاكم (٣/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨) قالت سُعْدىٰ: دخل عليَّ طلحةُ ، فوجدته مغموماً ، فقلت: ما لي أراكَ كالحَ الوجه ، أَرا بكَ من أمرنا شيء؟

قال: لا والله! ما رابني من أمركِ شيء ، ولنعم الصاحبة أنتِ ، ولكنَّ مالاً اجتمع عندي.

قالت: فابعث إلىٰ أهل بيتك ، وقومك ، فاقسم فيهم.

قالت: ففعل ، فسألتُ الخازن: كم قسم؟

فقال: أربع مئة ألفٍ ، وكانت غلته كل يومٍ ألفاً وافياً. قال: وكان يسمىٰ: طلحة الفيَّاض.

* * *

لأنْتَ أَحَبُّ إليَّ مِنْ سَمْعِي وبَصَرِي

أُمُّ هانِيء ، بنتُ أبي طالبٍ القُرَشيةُ الهاشميةُ ، بنتُ عَمِّ النبيِّ ﷺ ، وأخت علي بن أبي طالب لأبويها ، صحابية جليلة ، أسلمت عام الفتح ، وعاشت إلى بعد سنة (٥) للهجرة ، وكانت سيدةً من فواضل نساء عصرها .

قال الإمام النووي في ترجمتها في تهذيب الأسماء واللغات بتحقيقي : «اسم أم هانيء : فاخِتَةُ . هذا هو المشهور . وقيل : اسمها هِندٌ . قاله الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرُهما . وقيل : فاطمة حكاه ابن الأثير» .

وقال الحافظ الذهبي في السير (٢/ ٣١٢) : «كانت تحت هُبَيْرَةَ بن عَمْرِو بن عائذ المخزومي ، فهرب يوم الفتح إلى نَجْرانَ[١] . أَوْلَدَها : عَمْرو بن هُبَيْرة وجَعْدَةَ ، وهانِئاً ويوسفَ» .

وذكر ابن الكلبي كما في الإصابة (٤/ ٤٧٩) عن أبيه ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، قال : خطب النبي ـ ﷺ ـ قبل أن يوحىٰ إليه إلى أبي طالبٍ أُمَّ هانيءٍ ، وخطبها معه هُبَـيْـرَةُ ، فزوَّجَ هُبَـيْـرَةَ ، فعاتبهُ النبيُّ ﷺ .

فقال أبو طالبٍ : يا بنَ أخي! إنا قد صَاهَرْنَا إليهم ، والكريم يكافىء الكريم . ثم فرَّق الإسلام بين أُمِّ هانيءٍ ، وبين هُبَيْرَةَ ، فخطبها النبيُّ ﷺ ،

---

(١) (نَجْران) : مدينة قديمة ، عرفت منذ تاريخ العرب الأول ، تقع في جنوب المملكة العربية السعودية على مسافة (٩١٠) أكيال ، جنوب شرقي مكة ، في الجهة الشرقية من السَّراة ، وفيها آثار ، منها : الأخدود (المعالم الأثيرة ص : ٢٨٦) .

فقالت: والله! إني كنت لأُحِبُّكَ في الجاهلية، فكيفَ في الإسلام؟! ولكني امرأة مُصْبِيَةٌ[1]، فأكره أَنْ يؤذوكَ[2].

فقال رسول الله ﷺ: «خير نساءٍ رَكِبْنَ المَطَايَا[3] نِساءُ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ[4] علىٰ ولدٍ في صِغَرِهِ، وأَرْعَاهُ عَلَىٰ زَوْجٍ[5] في ذَاتِ يَدِه[6]».

وأخرج مسلم في صحيحه (٢٥٢٧/ ٢٠١) عن أبي هريرة، أن النبي - ﷺ - خطب أُمَّ هانىءٍ بنت أبي طالبٍ، فقالت: يا رسول الله! إني قد كَبِرْتُ، ولي عِيَالٌ، فقال رسول الله ﷺ... وذكر الحديث السابق.

وأخرج ابنُ سَعْدٍ بسندٍ صحيح عن الشعبي قال: خطب النبي - ﷺ - أُمَّ هانىءٍ، فقالت: يا رسولَ الله! لأنتَ أحبُّ إليَّ مِنْ سَمْعي وبَصَري، وحَقُّ الزوج عظيم، فأخشىٰ إنْ أَقْبَلْتُ علىٰ زوجي أَنْ أُضِيْعَ بعضَ شأن وَلَدِي، وإن أقبلتُ علىٰ وَلَدي أَن أُضيعَ حَقَّ الزَّوْجِ.

فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ خَيْرَ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ[7] نِساءُ قُرِيشٍ، أَحْنَاهُ على ولدٍ في صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ علىٰ بَعْلٍ في ذاتِ يَدِهِ».

وأخرج أحمدُ بإسناد حسن (الفتح: ٩/ ٥١٢) من حديث ابن عباس؛ أن

---

(١) (مُصْبِيَةٌ): ذات صِبْيَانٍ (النهاية).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣).

(٣) (المطايا): جمع مَطِيَّة، وهي الناقة التي يُركبُ مَطاها: أي ظهرُها (النهاية).

(٤) (أَحْنَاهُ): أي: أعطفه وأشفقه (جامع الأصول: ٩/ ٢١١). والحانية التي تقوم بولدها بعد موت الأب. وحَنَتِ المرأة على ولدها: إذا لم تتزوج بعد موت الأب. قال ابن التِّين: فإن تزوَّجت فليست بحانية (الفتح: ٦/ ٤٧٣).

(٥) (وأرعاه علىٰ زوج): أي أَحْفَظُ وأَصْوَنُ لما له بالأمانة فيه، والصيانة له، وترك التبذير في الإنفاق (الفتح: ٩/ ١٢٥).

(٦) (في ذات يده): أي فيما يملك من مالٍ وأثاثٍ وغيره (جامع الأصول: ٩/ ٢١١).

(٧) (ركبن الإبل): أي نساء العرب. ولهذا قال أبو هريرة في الحديث: لم تركب مريم بنتُ عمران بعيراً قَطُّ. والمقصود: أَنَّ نساء قريش خير نساء العربِ (شرح صحيح مسلم للنووي)، وانظر الفتح (٩/ ١٢٥).

النبيَّ ﷺ خطب امرأةً من قومه ، يقال لها : سَوْدَةُ ، وكان لها خمسة صبيان ـ أو ستةٌ ـ من بَعْلٍ لها مات .

فقالت له : ما يمنعني منك أن لا تكون أحبَّ البريَّةِ إليَّ ، إلاَّ أني أُكرمك أن تضغوَ هؤلاء الصبيةُ[1] عند رأسك .

فقال لها : «يرحمكِ الله! إن خيرَ نساءٍ ركبن أعجاز الإبل صالحُ نساء قُريش . . . » قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٥١٢) : «وهذه المرأة يحتمل أن تكون أُمَّ هانىءٍ المذكورة في حديث أبي هريرة ، فلعلَّها كانت تلقب سودة ؛ فإن المشهور أن اسمها فاختة ، وقيل غير ذلك ، ويحتمل أن تكون امرأة أخرى ، وليست سَوْدَةَ بنت زَمْعَةَ . . . » .

روىٰ مالك في الموطأ (١/ ١٥٢) ، والبخاري (٣٥٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٣٣٦/ ٨٢) عن أبي النَّضْرِ ، أَنَّ أبا مُرَّةَ مولىٰ أُمِّ هانىءٍ بنتِ أبي طالبٍ ، أخبره ؛ أنه سمع أُمَّ هانىءٍ بنتَ أبي طالبٍ تقول :

ذهبتُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ عام الفتح ، فوجدتُهُ يغتسل ، وفاطمة ابْنَتُهُ تستره بثوبٍ .

قالت : فَسَلَّمْتُ ، فقال : «مَنْ هٰذِهِ؟» .

قلت : أُمَّ هانىءٍ بنتُ أبي طالبٍ .

قال : «مَرْحَباً بأم هانىءٍ» ، فلما فرغ من غسله قام فصلَّى ثماني ركعات ، مُلْتَحِفاً في ثوبٍ واحدٍ .

فلما انصرف قلتُ : يا رسولَ الله! زَعَمَ ابْنُ أُمي عليُّ بن أبي طالبٍ أنه قاتلٌ رجلاً أجرتُهُ ، فلانٌ ابنُ هُبَيْرَةَ[2] .

فقال رسول الله ﷺ : «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ ، يا أُمَّ هانِىءٍ» .

قالت أُمُّ هانىءٍ : وذلك ضُحىً .

---

(١) (تضغو هؤلاء الصبية) : أي تصيحُ وتبكي .

(٢) انظر لزاماً الفتح (١/ ٤٧٠) .

وفي قصة أم هانىءٍ من الفوائد والآثار الإيمانية :

● الحث على نكاح الأشراف ، خصوصاً القرشيات ، ومقتضاه أنه كلما كان نسبها أَعْلَىٰ تأكَّد الاستحبابُ .

● ويؤخذ منها اعتبار الكفاءة في النسب .

● ويؤخذ منها فضل الحنو والشفقة ، وحسن التربية ، والقيام على الأولاد ، وحفظ مال الزوج ، وحسن التدبير فيه .

● ويؤخذ منها مشروعية إنفاق الزوج على زوجته[١] .

* * *

(١) الفتح (٩/ ١٢٦).

رَبِّي قادِرٌ علىٰ رَدِّ بَصَري

زِنِّيرَةُ الرُّومِيَّةُ. كانت من السابقات إلى الإسلام. أسلمت في أول الإسلام، وعذَّبها المشركون.

قيل: كانت مولاة بني مخزوم، فكان أبو جهل يعذبها.

وقيل: كانت مولاة بني عبد الدار.

فلما أَسْلَمَتْ عَمِيَتْ، فقال المشركون: أعمتها اللات والعُزَّىٰ لكفرها بهما!

فقالت: وما يدري اللاتُ والعُزَّىٰ مَنْ يعبدهما؛ إنما هذا من السماء، وربي قادر على رَدِّ بصري، فأصبحت من الغد، وقد رَدَّ بصرها ـ وفي رواية ابن هشام في السيرة (١/ ٣١٨): «فقالت: كذبوا، وبيتِ الله! ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، فرد الله بصرها ـ فقالت قريش: هذا مِنْ سِحْرِ محمدٍ.

ولما رأى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ما ينالها من العذاب، اشتراها فأعتقها، وهي أحد السبعة الذين أعتقهم أبو بكر[١]، وأنقذهم من التعذيب، وهم، كما رواه يونس بن بكير في زياداته على سيرة ابن إسحاق، عن هشام ابن عروة، عن أبيه عُروة بن الزبير:

● بلال بن رباح.

---

(١) أسد الغابة (٦/ ١٢٣).

- وعامر بن فُهَيرَةَ.
- وزِنِّيرةُ.
- وجاريةُ بني مُؤَمَّل.
- والنَّهَديةُ.
- وابنتها.
- وأمُّ عُبَيْسٍ[1].

* * *

---

(١) أسد الغابة (٦/ ٣٦٥)، سيرة ابن هشام (١/ ٣١٨ ـ ٣١٩).

عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ

هندُ بنت عُتبة: صحابيةٌ، قُرَشِيَّةٌ، عاليةُ الشُّهرة، وهي أُمُّ الخليفة الأُمَوي مُعاويةَ بنِ أبي سُفيانَ، تزوجت أباه بعد مفارقتها لزوجها الأول: الفاكِهِ[١] بن المغيرة المخزومي، في خبر طويل من طرائف أخبار الجاهلية.

وكانت فصيحة جريئة، صاحبة عقل ورأي وحزم، ونَفْسٍ وأَنَفَةٍ، تقول الشعر الجيد. وأكثر ما عرف من شعرها مراثيها لقتلى بَدْرٍ من مشركي قريش قبل أن تسلم.

وقفت بعد غزوة بدر (في غزوة أُحُدٍ) ومعها بعض النسوة يُمَثِّلْنَ[٢] بقتلىٰ المسلمين، ويَجْدَعْنَ[٣] آذانَهُمْ، وأنوفَهُم، وتجعلها هندٌ قلائد[٤] وخلاخيل، وترتجز في تحريض المشركين، والنساء من حولها يضربن الدفوف:

نَحْـــنُ بَنَـــاتُ طَـــارِقْ　　نَمْشِـــي علـــى النَّمَـــارِقْ[٥]

---

(١) في بعض المصادر «حفص» بدل «الفاكِهِ».

(٢) (يمثلن): المُثْلَةُ: تشويه خلقة القتيل والتنكيل به (جامع الأصول: ٢/ ٥٩٢).

(٣) (يَجْدَعْنَ): يَقْطَعْنَ.

(٤) (قلائد): القِلادة: ما يجعل في العنق من حلي ونحوه (الوسيط).

(٥) (طارق): الطارق: النجم، أي: آباؤنا في الشرف ....=

إنْ تُقْبِلـــــوا نُعَـــــانِـــــقْ أَوْ تُــــدْبِــــروا نُفَــــارِقْ
فِـــــــراقَ غَيْـــــــرِ وَامِـــــقْ[1]

ويوم فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة أسلمت بعد إسلام زوجها أبي سفيان: صخر بن حرب بن أمية، وحسن إسلامها، وأقرها رسول الله ـ ﷺ ـ على نكاحها، كان بينهما في الإسلام ليلة واحدة.

روىٰ هشام بن عروة ـ كما ذكر ابن الأثير في أسد الغابة ٦/ ٢٩٣) ـ عن أبيه قال: قالت هند لأبي سفيان: إني أريد أن أبايع محمداً.

قال: قد رأيتكِ تُكَذِّبينَ هذا الحديثَ أَمْسِ!

قالت: والله! ما رأيتُ اللهَ عُبِدَ حَقَّ عبادته في هذا المسجد قبل الليلة. والله! إنْ باتوا إلا مُصَلِّين.

قال: فإنَّكِ قد فعلتِ ما فعلتِ! فاذهبي برجل من قومك معكِ. فذهبت إلى عثمانَ بنِ عفَّانَ، وقيل: إلى أخيها أبي حُذيفةَ بنِ عُتْبَةَ، فذهب معها، فاستأذن لها، فدخلت وهي مُنْتَقِبةٌ[2]، فقال لها: «تبايعيني على ألا تشركي بالله شيئاً...» وفي رواية الحافظ ابن مندة: قالت هندٌ: إني أريد أَنْ أبايعَ محمداً. قال ـ أي زوجها أبو سفيان ـ: قد رَأَيْتُكِ تكْفُرينَ؟

قالت: إي والله! والله! ما رأيتُ الله تعالى عُبِدَ حَقَّ عِبَادَتِهِ في هذا المسجد قبل الليلة. والله! إنْ باتوا مُصَلِّين: قياماً، وركوعاً، وسجوداً.

قال: فإنكِ قد فعلتِ ما فعلتِ! فاذهبي برجل من قومك معكِ، فذهبت إلى عمر، فذهب معها، فاستأذنَ لها، فدخلتْ وهي مُنْتَقِبَةٌ...

وروى الإمام ابن جرير الطبري من طريق العَوْفي، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ـ ﷺ ـ أَمَرَ عمر بن الخطاب، فقال: «قل لَهُنَّ: إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ

= والعُلُوُّ كالنجم (النهاية). (النمارق): الوسائد.

(١) (وامِق): مُحِبّ.

(٢) أي لابسة النِّقابَ، وهو الذي يبدو منه مَحْجِرُ العين.

يُبَايِعْكُنَّ على أَنْ لا تُشْرِكْنَ باللهِ شيئاً» وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة ـ التي شَقَّتْ بَطْنَ حَمْزَةَ ـ مُتَنَكِّرَةً في النساء ، فقالت: إني إنْ أتكلم يعرفني ، وإنْ عرفني قتلني ، وإنما تنكرت فَرَقاً[١] من رسول الله ﷺ ، فسكت النسوة اللاتي مع هند وأَبَيْنَ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ ، فقالت هندٌ ـ وهي متنكرة ـ: كيف تَقْبَلُ من النساء شيئاً لم تَقْبَلْهُ من الرجالِ؟

فنظر إليها رسول الله ـ ﷺ ـ وقال لعمر: «قُلْ لَهُنَّ: ولا يَسْرِقْنَ».

قالت هندٌ: والله! إني لأصيب من أبي سفيان الهَنَاتِ[٢]. ما أدري أَيُحِلُّهُنَّ لي أم لا؟

قال أبو سفيان: ما أَصَبْتِ من شيءٍ مضى ، أو قد بقي ، فهو لك حَلالٌ. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فدعاها ، فأخذت بيده[٣] فعاذَرَتْهُ ، فقال: «أنتِ هندٌ؟».

قالت: عفا الله عما سلفَ ، فصرف عنها رسولُ الله ﷺ.

«ولا يَزْنِيْنَ» فقالت: يا رسول الله! وهل تزني امرأةٌ حُرَّةٌ؟ قال: «لا ، واللهِ! ما تَزْنِي الحُرَّةُ».

قال: «ولا يَقْتُلْنَ أَوْلادهُنَّ» قالت هندٌ: أنتَ قَتَلْتَهُمْ يومَ بَدْرٍ ، فأنت وهم أَبْصَرُ.

قال: «ولا يَأْتِيْنَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ».

قال: «ولا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ».

قال: مَنَعَهُنَّ أَنْ يَنُحْنَ ، وكانَ أهل الجاهليةِ يُمَزِّقْنَ الثيابَ ، ويَخْدِشْنَ

---

(١) (فرقاً): خوفاً.

(٢) (الهناتِ): تريد المال الذي كانت تأخذه من زوجها دون علمه.

(٣) أي من فوق الثياب فإن النبي ﷺ كان لا يصافح النساء ، ومصافحة غير المحارم حرامٌ.

الوجوهَ ، ويُقَطِّعْنَ الشُّعورَ ، ويَدْعونَ بالوَيْلِ والثُّبورِ[1]. قال الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الممتحنة: «هذا أثر غريب وفي بعضه نكارة ، والله أعلم؛ فإنَّ أَبا سفيانَ وامرأتَهُ لما أسلما لم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ يخيفهما بل أظهر الصفاء والود لهما ، وكذلك كان الأمر من جانبه عليه السلام لهما».

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده برقم (٤٧٥٤) من حديث عائشة قالت: جاءتْ هندُ بنت عُتبةَ بن ربيعةَ إلى رسول الله ﷺ لتبايِعَهُ ، فنظر إلى يديها ، فقال لها: «اذْهَبِي فَغَيِّري يَدَكِ».

قال: فذهبت فغيرتْها بِحِنَّاءٍ ، ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ فقال: «أُبايِعُكِ عَلَى أَنْ لا تُشْركي باللهِ شيئاً ، ولا تَسْرِقي ولا تَزْني».

قالت: أَوَتَزْنِي الحُرَّة؟!

قال: «ولا تَقْتُلْنَ أَوْلادَكُنَّ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ»[2].

قالت: وهل تركْتَ لنا أولاداً نقتلهم؟

قال: فبايَعَتْهُ ثم قالت له وعليها ـ سِواران من ذهبٍ ـ: ما تقول في هذين السِّوارَيْنِ؟

قال: «جَمْرتان مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ[3]» قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٧): «رواه أبو يَعْلىٰ وفيه من لم أعرفهن».

وأخرجه ابن أبي حاتم مختصراً كما في تفسير سورة الممتحنة عند ابن كثير.

وقال الحافظ في ترجمتها في الإصابة: «وقصتها ـ في قولها عند بيعة النساء: «وأن لا يسرقن ولا يزنين». فقالت: وهل تزني الحرةُ؟ وعند قوله: «ولا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ»: وقد رَبَّيْنَاهُمْ صِغاراً ، وقَتَلْتَهُمْ كِباراً مَشْهُورَةٌ.

---

(١) (الويل): الحزن والهلاك والمشقة من العذاب. (الثبور): الهلاك.

(٢) (إملاق): فَقْر.

(٣) الجمهور على جواز التحلي بالذهب للنساء. لأحاديث أخرى واردة في الإباحة.

ومن طرقه ما أخرجه ابنُ سَعْدٍ بسند صحيح مُرْسَلٍ عن الشَّعبي ، وعن مَيمون بن مِهْرانَ .

ففي رواية الشَّعْبِيِّ: «ولا يَزْنِيْنَ» ، فقالت هندٌ: وهل تزني الحُرَّةُ؟ «ولا تَقْتُلْنَ أَوْلادكُنَّ» ، قالت: أَنْتَ قَتَلْتَهُمْ.

وفي رواية نحوه ، لكن قالت: وهل تركْتَ لنا وَلَداً يَوْمَ بَدْرٍ؟ » .

هذه الصحابية ـ التي فعلَتْ قَبْلَ إِسْلامها ما فَعَلَتْ ـ ما إِنْ بايَعَتْ رسول الله ـ ﷺ ـ على الإسلام ودخل نور الإيمان قلبها ، حتى تمكَّن حُبُّ اللهِ وحُبُّ رسولِهِ من فُؤادها ، ومَلَكَ عليها جوانحها ، وما تركت ذلك مُسْتكِناً في خبايا نفسها؛ بل جهرت به على الملأ ، قائلةً ـ فيما رواه البخاري (٦٦٤١) ومسلم (١٧١٤/٨): يا رسولَ اللهِ! ما كانَ عَلَىٰ ظَهْرِ الأرضِ أَهْلُ خِبَاءٍ[١] أَحبَّ إِليَّ مِنْ أَنْ يُذِلَّهُمْ اللهُ مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ. وما عَلَى ظَهْرِ الأرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ أَحَبَّ إِليَّ مِنْ أَنْ يُعِزَّهُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ. فقال النبيُّ، ﷺ: «وأيضاً، والذي نفسي بيده[٢]!» .

ثُمَّ قالت: يا رسولَ اللهِ! إِنَّ أبا سُفْيَانَ رَجُلٌ مُمْسِكٌ[٣] ، فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ[٤] أَنْ أُنْفِقَ عَلَى عِيَاله مِنْ مالِهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ؟

فقال النبي ﷺ: «لا حَرَجَ عَلَيْكِ أَنْ تُنفِقِي عَلَيْهِمْ بالمعرُوفِ» .

وكان لها صنم في بيتها تعبده ، فلما أسلمت عادت إليه ، وجعلت تضربه بالقَدُوْمِ حتى فَلَذَتْهُ[٥] ، وهي تقول: كُنَّا منكَ في غرور!

---

(١) (أهل خباء): قال القاضي عِيَاضٌ اليحصبي: أرادت بقولها: «أهل خِباءٍ» نَفْسَهُ ﷺ. فَكَنَتْ عنه بـ(أهل الخباء) إجلالاً له. قال: ويحتمل أن تريد بأهل الخباءِ أهل بيته. والخِباء يعبر به عن سكن الرجل وداره.

(٢) (وأيضاً والذي نفسي بيده): معناه: وستزيدين من ذلك ، ويتمكن الإيمان من قلبكِ ، ويزيد حُبُّكِ لله ولرسوله ﷺ ، ويقوى رجوعك عن بغضه.

(٣) في بعض الروايات: «مِسِّيك»: أي شحيح وبخيل.

(٤) (حرج): إثمٌ.

(٥) (فلَذَتْهُ): قطعته وكسرته.

قال ابن الأثير في ترجمتها: شهدت اليرموك[1]، وحرَّضت على قتال الروم مع زوجها أبي سُفيان وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب (سنة ١٤ هـ) في اليوم الذي مات فيه أبو قُحافَةَ والدُ أبي بكر الصديق.

* * *

(١) كانت معركة اليرموك في السنة (١٣) هـ بين المسلمين والروم، وجرت في سهل الواقوصة. وهي قرية من أعمال درعا، تقع في غربها على مسيرة (٦٣) كِيْلاً منها. انظر المعالم الأثيرة ص: (٢٩٧).

شَكَرَتْكَ يَدٌ افْتَقَرَتْ بَعْدَ غِنًى

سَفَّانَةُ بنت حاتم الطَّائي ، صحابيةٌ من ربات الفصاحة والبلاغة ، والحسن والجمال ، والجود والكرم . كان أبوها يعطيها من إبله فتهبها وتعطيها الناس ، فقال لها أبوها : يا بُنَيَّةُ! إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه ، فإما أن أعطي وتمسكي ، وإما أن أُمسكَ وتعطي ، فإنه لا يبقى على هذا شيء . فقالت : والله! لا أُمسكُ أبداً ، وقال أبوها : وأنا ، والله! لا أمسكُ أبداً .

قالت : فلا نتجاور . فقاسمها مالَهُ ، وتباينا .

روىٰ يونس بن بُكير ـ كما في أسد الغابة : ٦/ ١٤٣ ـ عن محمد بن إسحاقَ قال : أصابت خيل رسول الله ـ ﷺ ـ ابنة حاتم ، فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا طَيِّىءٍ ، فجعلت ابنة حاتم في حظيرة[1] بباب المسجد ، فمرَّ بها رسول الله ﷺ ، فقامت إليه ، وكانت امرأة جَزْلَةً[2] ، فقالت : يا رسول الله! هلك الوالد وغاب الوافد ، فامْنُنْ عَلَيَّ ، مَنَّ اللهُ عليكَ!

قال : مَنْ وافدُكِ؟

قالت : عَدِيُّ بن حاتم .

---

(١) (حظيرة): هي في الأصل: الموضع الذي يحاط عليه لتأويَ إليه الغنم والإبل ، يقيهما البرد والريح (النهاية) ، والمقصود بها ـ هنا ـ المكان المخصص لحبس السبايا .

(٢) (جَزْلة): أي ذات رأي وعقل (شرح صحيح مسلم للنووي: ٢/ ٦٦). وفي النهاية: جزلة: أي تامة الخَلْقِ .

قال: الفارُّ من الله ورسوله؟ ثم مضى رسول الله ﷺ وتركني، حتى مرَّ بي ثلاثاً، فأشار إليَّ رجل من خلفه أَنْ قومي فَكَلِّميه، فقمت فقلت: يا رسول الله! هلك الوالد، وغاب الوافد؛ فامنن عَلَيَّ، مَنَّ اللهُ عليك!

قال: قد فعلتُ، فلا تعجلي حتى تجدي ثقةً يبلغك بلادكِ، ثم آذنيني[1]، فسألتُ عن الرجل الذي أشار إليَّ، فقيل: عليُّ بنُ أبي طالب.

وقدم رَكْبٌ[2] من بَلِيٍّ[3]، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: قدم رَهْطٌ[4] من قومي.

قالت: فكساني رسول الله ﷺ، وحملني[5]، وأعطاني نفقةً، فخرجت حتى قدمتُ الشام[6] علىٰ أخي عدي بن حاتم، فقال لها عديٌّ: ما تَرَيْنَ في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرىٰ أن تَلْحَقَ به.

قال ابن الأثير: كذا رواه يونس، ولم يسمِّ سَفَّانَةَ، وسماها غيرُهُ، ورواه عبد العزيز بن أبي رَوَّاد نحوه، وزاد: «وكانت أسلمت فحسن إسلامها».

وقال العلامة الخضري في نور اليقين ص: (٢٢٠) بتحقيقي: «في ربيع

---

(١) (آذِنيني): أي أخبريني وأعلميني.

(٢) (الرَّكْبُ): الرَّاكبون، العَشَرةُ فما فوق (الوسيط). وهو: اسم من أسماء الجمع، كنَفَرٍ ورَهْطٍ، وقيل: هو جمع راكب، كصاحِبْ وصَحْبٍ.

(٣) اسم قبيلة عربية.

(٤) (رهط من قومي): أي جماعة من عشيرتي. قال في النهاية: الرَّهْطُ من الرجال ما دون العَشَرةِ. وقيل إلى الأربعين، ولا تكون فيهم امرأة، ولا واحد له من لفظه، ويجمع على أَرْهُط وأَرْهاطٍ، وأَراهِط جمع الجمع.

(٥) (وحملني): أي أعطاني بعيراً يحملني إلى عشيرتي.

(٦) (الشام): مصطلح جغرافي يطلق على سورية والأردن وفلسطين ولبنان. بالإضافة إلى جزء من شمال السعودية، وجزء من العراق غربي الفرات، ويدخل في الشام أيضاً جزء من تركية الآسيوية مثل: مرعش، وديار بكر، وماردين، واسكندرونة، وأنطاكية، انظر المعالم الأثيرة، وكتاب: أبو عبيدة بن الجراح ص: (١٢٧ ـ ١٢٩) كلاهما لأستاذنا البحّاثة محمد شُرَّاب.

الأول (أي من السنة التاسعة للهجرة) أرسل عليه الصلاة والسلام عليَّ بن أبي طالبٍ في مئة راكبٍ ، وخمسين فارساً لهدم الفُلُسِ[1] ـ صنمٍ لِطَيِّىءٍ ـ فسار إليه وهدمه وأحرقه ، ولما حارب عُبَّاده هزمهم واستاق نَعَمَهُمْ[2] وشاءهم وسَبْيَهُمْ ، وكان فيه سَفَّانة بنت حاتم الطائي .

ولما رجع عليٌّ إلى المدينة طلبت سَفَّانة من رسول الله ﷺ أن يَمُنَّ عليها ، فأجابها ، لأنه كان من سنته ﷺ أن يكرم الكرام ، فدعت له ، وكان من دعائها. شَكَرَتْكَ يدٌ افتقرَتْ بعد غِنًى ، ولا مَلَكَتْكَ يدٌ اسْتَغْنَتْ بعد فقر ، وأصاب اللهُ بمعروفك مواضِعَهُ ، ولا جَعَلَ لك إلى لئيم حاجةً ، ولا سَلَبَ نِعْمَةَ كريم إلا وجعلكَ سَبَباً لردِّها عليه .

وكانت هذه المعاملة من رسول الله سبباً في إسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي الذي كان فَرَّ إلى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده .

وكان من حديث مجيئه ، أَنَّ أخته توجهت إليه بالشام ، وأخبرته بما عوملت به من الكرمِ ، فقال لها : ما تَرَيْنَ في أمر هذا الرجل؟ فقالت : أرى أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن نبيّا فللسابق إليه فضل ، وإن يكن ملكاً فأنت أنت .

قال : والله! هذا هو الرَّأْيُ .

وأورد الحافظ ابن كثير في السيرة (٤/ ١٣١) من حديث كُمَيْل بن زياد النَّخَعي ، قال : قال علي بن أبي طالبٍ : يا سبحان الله ، ما أَزْهَدَ كثيراً من الناس في خيرٍ!

عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم في الحاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً! فلو كان لا يرجو ثواباً ، ولا يخشى عقاباً لكان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق ؛ فإنها تَدُلُّ على سبيل النجاح .

---

(١) (الفُلُس) : اسم صنم كان بنجد ، وتعبده طَيِّىء ، وفي روايه أنه بالقاف : القُلُس (المعالم الأثيرة ص (٢١٨ ـ ٢١٩) .

(٢) (النَّعَمُ) : المال السائم ، وأكثر ما يقع على الإبل .

فقام إليه رجل فقال: فِداكَ أبي وأمي! يا أمير المؤمنين! سَمِعْتَهُ من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، وما هو خير منه:

لمَّا أُتي بسبايا طَيِّئٍ، وقفت جاريةٌ حَمْراءُ، لَعْسَاءُ[1]، ذَلْفاءُ[2]، عَيْطاءُ[3]، شَمَّاءُ الأنفِ[4]، معتدلة القامة[5] والهامة[6]، دَرْمَاءُ الكَعْبَيْن[7]، خَدْلَة الساقين[8]، لَفَّاء الفخذين، خميصة الخصرين[9] ضامرة الكَشْحَيْنِ[10]، مصقولة المَتْنَيْن[11].

قال: فلما رأيتها أُعجبت بها، وقلتُ: لأَطْلُبَنَّ إلى رسول الله ﷺ يجعلها في فَيْئي[12].

فلما تكلَّمَتْ أُنْسيتُ جَمالَها من فَصَاحتها، فقالت: يا محمدُ! إنْ رأيتَ أَنْ تُخَلِّيَ عَنَّا، ولا تُشْمِتْ بنا أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومي، وإنَّ أبي كان

---

(١) (لَعَسَاء): في النهاية: يقال جارية لَعْسَاء، إذا كان في لونها أدنى سواد وشُرْبَةٌ من الحمرة.
(٢) (ذَلْفاء): الذَّلَفُ: قِصَرُ الأنف وانبطاحه، وقيل: ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته (النهاية).
(٣) (العَيْطاء): الطويلة العنق في اعتدال (النهاية).
(٤) (شَمَّاء الأنف): الشَّمَمُ: ارتفاع قصبة الأنف، واستواء أعلاها، وإشراف الأرنبة قليلاً (النهاية).
(٥) (معتدلة القامة): أي ليست بطويلة ولا قصيرة.
(٦) (الهامة): الرأس.
(٧) (دَرْماءُ الكعبين): الأَدْرَمُ الذي لا حجم لعظامه، يريد أن كعبها مستوٍ مع الساق ليس بناتئ؛ فإن استواءه دليل السِّمَنِ، ونتوءَهُ دليل الضعف (النهاية).
(٨) (خَدْلَةُ الساقين): أي ممتلئة الساقين.
(٩) (خميصة الخصرين): دقيقة الخصرين.
(١٠) (الكَشْحُ): الخَصْرُ.
(١١) (المَتْنان): مُكْتَنِفا الصُّلْب من العصب واللحم، عن يمينه وشماله (الوسيط).
(١٢) أي في سهمي من الغنيمة.

يحمي الذِّمارَ[1] ، ويفكُّ العاني[2] ، ويشبع الجائع ، ويكسو العاري ، ويَقْرِي الضيفَ[3] ، ويطعم الطعامَ ، ويفشي السلامَ ، ولم يردَّ طالب حاجةٍ قَطُّ . أنا ابنةُ حاتمِ الطائيِّ .

فقال رسول الله ﷺ : «يا جاريةُ! هذه صفة المؤمنين حَقّاً ، لو كان أبوكِ مسلماً لترحمنا عليه . خَلُّوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاقِ» .

فقام أبو بُرْدةَ بنُ نِيَارٍ ، فقال : يا رسول الله! تُحِبُّ مكارمَ الأخلاق؟ فقال رسول الله ﷺ : «والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ! لا يَدْخُلُ أحدٌ الجَنَّةَ إلاَّ بِحُسْنِ الخُلُقِ» .

قال الحافظ ابن كثير : «هذا حديث حسن المتن ، غريب الإسناد جدّاً ، عزيزُ المخرج» . وأورد حديث عليٍّ أيضاً الخرائطيُّ في مكارم الأخلاق .

قال الحافظ في الإصابة في ترجمة سفانة : «وفي سنده مَنْ لا يعرف» .

* * *

---

(١) (الذِّمار) : ما ينبغي حياطته والذَّودُ عنه ، كالأهل والعِرْضِ (الوسيط) .
(٢) (العاني) : الأسير .
(٣) (يقري الضيف) : أي يضيفه ويكرمه ، والقِرىٰ : ما يقدم إلىٰ الضيف .

مُكَفِّرَةُ الذُّنُوْبِ

أم السَّائِبِ ـ أو أُمُّ المُسَيَّب ـ الأَنصاريةُ راويةٌ من راويات الأحاديث النبوية الشريفة ، أَدْرَكَتْ رسول الله ﷺ وأَسْلَمَتْ .

روت عن النبي ﷺ. وروىٰ عنها شيخ الإسلام أبو قِلابَةَ الجَرْميُّ : عبدُ الله ابنُ زيد البصري الدَّاراني (نسبةً إلى مدينتنا داريًّا) .

روىٰ مسلم في صحيحه برقم (٢٥٧٥) من حديث جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺدخل على أم السائب ـ أو أم المُسَيَّبِ ـ فقال: «ما لَكِ؟ يا أُمَّ السَّائِبِ! أو يا أُمَّ المُسَيَّب تُزَفْزِفِيْنَ[١]؟» .

قالت : الحُمَّىٰ[٢] . لا باركَ اللهُ فيها .

فقال: «لا تَسُبِّي الحُمَّىٰ ، فإنها تُذْهِبُ خَطَايا بني آدمَ[٣] ، كما يُذْهِبُ الكيرُ[٤] خَبَثَ الحَدِيْدِ[٥]» .

---

(١) (تزفزفين): أي تتحركين حركة سريعة ، ومعناه: ترتعدُ وترتجف. وفي رواية: «تُزَفْزِفين» ، وفي أخرىٰ: «تُرَفْرِقين». وكلها بمعنى.

(٢) (الحُمَّىٰ): عِلَّةٌ يصحبها ارتفاع في حرارة الجسم (الوسيط).

(٣) (خطايا بني آدم): ذنوبهم وآثامهم ومعاصيهم.

(٤) (الكير): جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النار لإذكائها (الوسيط).

(٥) (خبث الحديد): شوائبه.

وروى ابن ماجهْ (٣٤٦٩) بإسناد ضعيف عن أبي هريرة قال: ذُكِرَتْ الحُمَّىٰ عند رسول الله ﷺ ، فسبَّها رجلٌ ، فقال النبي ﷺ: «لا تَسُبَّها ، فإنَّها تَنْفي الذُّنُوبَ ، كما تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الحَدِيْدِ».

في هذا الحديث الشريف نهي عن التبُّرمِ بالحمى وسَبِّها ، وليس فيه ترك العلاج والتداوي.

والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله. كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب.

والحمى أنواع ، وبعضها نافع للبدن ، كما قرر ذلك الأطباء.

يقول الدكتور عادل الأزهري: «إن بعض الأمراض الزَّمِنَةِ[1] مثل مرض الروماتزم المفصلي الزَّمِن ، الذي تَتَصَلَّبُ فيه المفاصل ، وتصبح غير قادرة على التحرك ، أو مرض الزهري الزَّمِنِ في الجهاز العصبي ، تتحسَّن كثيراً بارتفاع حرارة الجسم ، أي في حالات الحُمَّيات ، ولذلك من ضمن طرق العلاج الطبي ـ في مثل هذه الحالات ـ الحُمَّىٰ الصناعية ، أي: إحداث حالة حُمَّى في المريض بحقنه بمواد معينة».

وقال العلاَّمة ابن القيم في زاد المعاد (٤/ ٣٠ ـ ٣١): «لما كانت الحمى يتبعها حِمْيَةٌ عن الأغذية الرديئة ، وتناول الأغذية ، والأدوية النافعة ، وفي ذلك إعانة على تنقية البدن ، ونفي أخباثه وفضوله ، وتصفيته من مواده الرديئة ، وتفعل منه كما تفعل النار في الحديد في نفي خَبَثِهِ[2] ، وتصفية جوهره ، كانت أشبه الأشياء بنار الكير التي تُصَفِّي جوهر الحديد. وهذا القَدْرُ هو المعلوم عند أطباء البدن.

وأما تصفيتها القلب من وسخه ودرنه ، وإخراجها خبائثه ، فأمر يعلمه أطباء القلوب ، ويجدونه كما أخبرهم به نَبِيُّهُمْ رسولُ الله ﷺ ، ولكن مرض

---

(١) (الأمراض الزمنة): هي التي تدوم زماناً طويلاً.

(٢) (خبثه): شوائبه.

القلب إذا صار مَأيُوساً من بُرْئِهِ ، لم ينفع فيه هذا العلاج .

فالحمَّى تنفع البدن والقلب ، وما كان بهذه المثابة فسبُّهُ ظلم وعدوان.

وذكرتُ مرةً وأنا مَحْمومٌ قولَ بعض الشعراء يَسُبُّها :

زَارَتْ مُكَفِّـرَةُ الـذُّنُـوبِ وَوَدَّعَـتْ تَبّـاً لهـا مِـنْ زَائِـرٍ وَمُـوَدِّعِ
قَالَتْ وَقَدْ عَزَمَتْ عَلَى تَرْحَالِها مَاذا تُرِيْدُ؟ فَقُلْتُ: أَنْ لا تَرْجِعِي

فقلت : تَبّاً له إِذْ سَبَّ ما نهىٰ رسول الله ﷺ عن سَبِّهِ ، ولو قال :

زَارَتْ مُكَفِّـرَةُ الـذُّنُـوبِ لِصَبِّهـا أَهـلاً بِهـا مِـنْ زَائِـرٍ وَمُـوَدِّعِ
قَالتْ وَقَدْ عَزَمَتْ عَلَىٰ تَرْحَالِها مَـاذا تُـرِيْـدُ؟ فَقُلْـتُ: أَنْ لا تُقْلِعـي

لكان أولى به؛ ولأَقْلَعَتْ عنه ، فَأَقْلَعَتْ عني سَرِيعاً .

* * *

امرأةٌ تَبْتَغِي التبرُّكَ بآثاره ﷺ

أَمُّ ثابتٍ ، كَبْشَةُ ـ ويقال: كُبَيْشَةُ ـ بنتُ ثابت الأنصاريةُ ، أختُ حسان بن ثابتٍ ، شاعر الرسول ﷺ.

راوية من راويات الحديث. روت عن النبي ﷺ ، وروى عنها حفيدها عبد الرحمن بن أبي عَمْرَةَ. كان يقال لها البَرْصاء.

كانت هذه الصحابية عظيمة المحبة للرسول ﷺ. ومن مظاهر حبها وتعظيمها للنبي ﷺ ما رواه الترمذي في السنن برقم (١٨٩٢) ، وفي الشمائل برقم (٢١٦) بتحقيقي ، وابن ماجهْ برقم (٣٤٢٣) وغيره من حديثها قالت:

دخل عَلَيَّ رسولُ الله ﷺ ، فَشَرِبَ مِنْ في قِرْبَةٍ[1] مُعَلَّقَةٍ قَائِماً[2] ، فَقُمْتُ إلىٰ فِيها فقَطَعْتُهُ.

زاد رَزِيْنٌ: «فاتَّخَذْتُهُ رَكْوَةً[3] أَشْرَبُها».

---

(١) (فشرب من في قِرْبةٍ): أي شرب من فمها ، وهو مخرج الماء منها. والقِرْبة: ظرف من جلد يخرز من جانبٍ واحدٍ ، وتستعمل لحفظ الماء أو اللبن ونحوهما.

(٢) (قائماً): قال العلامة ابن قيم الجوزية في زاد المعاد (١/ ١٤٩): «وكان أكثر شربه ﷺ قاعداً؛ بل زجر عن الشرب قائماً». قلت: جَمَعَ أحاديث الباب الحافظ النووي في شرح صحيح مسلم (١٣/ ١٩٥) ثم قال: «وليس في هذه الأحاديث إشكال ، ولا فيها ضعف؛ بل كلها صحيحة ، والصواب فيها أن النهي محمول علىٰ كراهة التنزيه ، وأما شربه ﷺ قائماً ، فبيانٌ للجواز ، فلا إشكال ولا تعارض...» وانظر فتح الباري (١٠/ ٨١ ـ ٨٤).

(٣) (رَكوة): إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء ، والجمع رِكاء (النهاية).

وفي رواية ابن ماجهْ: «تبتغي بركة موضع فِي رسول الله ﷺ».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الحافظ ابن حبان برقم (١٣٧٢) موارد الظمآن.

قال النووي في رياض الصالحين (٨٠٠) بتحقيقي: «إنما قطعتها لتحفظ موضع فم رسول الله ﷺ، وتتبرك به، وتصونه عن الابتذال، وهذا الحديث محمولٌ على الجواز» أي جواز الشرب قائماً.

ولم تقتصر هذه الحادثة المعبرة عن حب النساء الصحابيات للنبي ﷺ على أم ثابت: كبشة الأنصارية؛ بل جرت أيضاً مع أُمِّ سُلَيْمٍ الأنصارية وهي أم أنس ابن مالك خادم النبي ﷺ، وزوج الصحابي الجليل أبي طلحة الأنصاري.

يروي أنس بن مالك؛ أن النبي - ﷺ - دخل على أم سُلَيْمٍ وقِرْبَةٌ مُعَلَّقَةٌ، فشربَ من فَمِ القِرْبَةِ وهو قائمٌ، فقامتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إلىٰ فَم القِرْبَةِ فَقَطَعَتْها.

أخرجه أحمد (٣/ ١١٩)، والترمذي في الشمائل (٢١٨) بتحقيقي، والطبراني في الكبير (٢٥/ ١٢٧) برقم (٣٠٧)، والبغوي في شرح السنة (٣٠٤٤) وحَسَّنَهُ الشيخ شُعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنة (١١/ ٣٨٠).

* * *

لا أَتَهوّدُ أَبَداً

أخرج يونُسُ بن بُكَيْرٍ في زياداته على سيرة ابن إسحاق ص: (٢٨٤) عن أبي هُريرةَ، قال: كانت امرأة من دَوْسٍ، يقال لها: أُمُّ شَرِيْكٍ، أسلمت في رمضان، فأقبلت تطلب من يصحبها إلى رسول الله ﷺ، فلقيت رجلاً من اليهود، فقال: ما لَكِ؟ يا أَمَّ شَرِيكٍ؟

قالت: أطلب رجلاً يصحبني إلى رسول الله ﷺ.

قال: فتعالي، أنا أصحبكِ!

قالت: فانتظرني حتى أملأ سِقائي ماءً.

قال: معي ما تريدين من ماء، فانطلقتْ معهم، فساروا يومهم، حتى أَمْسَوا، فنزل اليهودي، ووضع سُفْرَتَهُ، فتعشَّىٰ، وقال: يا أم شَرِيكٍ! تعالَيْ إلى العشاء فقالت: اسقني من الماء فإني عطشى، ولا أستطيع أن آكل حتى أشرب.

فقال: لا أسقيك، حتى تَهَوَّدي[1].

قالت: لا جزاك الله خيراً! غَرَرْتَني ومنعتني أحمل ماءً.

قال: لا والله! لا أسقيك منه قطرة حتى تَهَوَّدينَ.

فقالت: لا، والله! لا أتهوَّد أبداً بعد إذ هداني الله للإسلام، فأقبلت إلى

---

(١) (حتى تهوَّدي): أي حتىٰ تتحولي إلىٰ دين اليهود.

بعيرها فَعَقَلَتْهُ[1] ، ووضعت رأسها على ركبته ، فنامت.

قالت: فما أيقظني إلاَّ بَرْدُ دَلْوٍ قد وضع على جبيني. فرفعت رأسي إلى دَلْوٍ أَشد بياضاً من اللَّبَنِ ، وأحلىٰ من العسل ، فشربت حتى رَوِيت ، ثم نضحتُ على سقائي حتى ابْتَلَّ ، ثم مَلأْتُهُ ثم رجع بين يدي ـ وأنا أنظر ـ حتى توارىٰ عني[2] في السماء ، فلما أصبحتُ جاء اليهودي ، فقال: يا أم شريك!

فقلت: قد والله! سقاني الله.

قال: من أينَ؟ أنزل عليكِ من السماءِ؟

قلت: نعم ، والله! قد أنزل الله عليَّ من السماءِ ، ثم رفع بين يدي حتى توارىٰ عني في السماء.

ثم أقبلَتْ حتى دخلت على رسول الله ﷺ ، فقصَّتْ عليه القصَّةَ ، فخطب إليها رسول الله ﷺ ، فقالت: يا رسول الله! لست أرضىٰ بنفسي لكَ ، ولكن بُضْعي لك[3] ، فزوجني مَنْ شئتَ ـ وفي رواية البيهقي كما في شمائل ابن كثير ص (١٩٧): «فخطبها إلى نفسها فرأت نفسها أقل من ذلك فزوَّجها زيداً ، وأمر لها بثلاثين صاعاً[4]. وقال: «كلوا ولا تكيلوا» وكان معها عُكَّةُ[5] سَمْنٍ هديةً لرسول الله ﷺ.

فقالت لجارية لها: أبلغي هذه العُكَّةَ رسول الله ﷺ ، وقولي: أُمُّ شَرِيكٍ تقرئك السلام ، وتقول: هذه عُكَّةُ سَمْنٍ أهديناها لك ، فانطلقت بها ، فأخذوا يفرغونها ، وقال لها رسول الله ﷺ: «علقوها ولا توكوها[6]». فعلقوها في

---

(١) (فَعَقَلَتْهُ): عقل البعيرَ. ضم رسغ يده إلىٰ عضده ، وربطهما معاً بالعِقال ليبقىٰ باركاً (الوسيط).

(٢) (توارىٰ عني): أي غاب عني.

(٣) (بُضْعي لك): أي أمر زواجي بيدك.

(٤) (الصاع): أربعة أمداد. والمد: ملء الكفين مجتمعين لا مقبوضين ولا مبسوطين.

(٥) (العكة): زِقٌّ (وعاء) صغير للسمن.

(٦) (لاتوكوها): أي لا تربطوا فمها بالوكاء. والوكاء هو الخيط الذي يربط به.

مكانها ، فدخلت أم شريك ، فنظرت إليها مملوءة سمناً ، فقالت: يا فلانةُ! أليس أَمَرْتُكِ أن تنطلقي بهذه العُكَّةِ إلى رسول الله ﷺ؟

فقالت: قد والله! انطلقت بها كما قلتِ ، ثم أقبلتُ بها أُصَوِّبُها[1] ما يقطر منها شيء. ولكنه قال: «علقوها ، ولا توكوها» فعلقتها في مكانها ، وقد أَوْكَتْها[2] أُمُّ شريكٍ حين رأتها مملوءة ، فأكلوا منها حتىٰ فنيت. ثم كالوا الشعير ، فوجدوه ثلاثين صاعاً لم ينقص منه شيء.

قلت: رویٰ هذا الحديث أيضاً الحافظ ابن كثير في شمائل الرسول ص: (١٩٧) وسكت عنه.

* * *

---

(١) (أُصَوِّبُها): أي أُنكِّسُها.

(٢) (أَوْكَتْها): أي ربطتها بالوكاء ، والوكاء هو الخيط الذي يربط به فم القربة أو الزق.

لا تَغُرَّنَّكُمُ الدُّنيا كَما غَرَّتْني

أخرج البيهقي في الزهد الكبير ص: (٢٠٢ ـ ٢٠٣) بإسناده عن هَزَّانَ قال: قالت لي أُمُّ الدرداءِ:

يا هَزَّانُ! ألا أُحدثكَ ما يقول الميتُ إذا وضع على سريره[١]؟

قال: قلت: بلىٰ.

قالت: فإنه ينادي: يا أَهْلاه! ويا جيراناه! ويا حملة سريراه! لا تَغُرَّنكم الدنيا كما غرتني، ولا تلعبنَّ بكم كما تلعبت بي؛ فإن أهلي لم يحملوا عني من وِزْري شيئاً، ولو حاجُّوني اليوم عند الجبار لَحَجُّوني.

ثم قالت أم الدرداء: لَلدُّنيا أسْحَرُ لقلب العبد من هاروتَ وماروتَ[٢]، وما آثرها قَطُّ إلا أصرعت خَدَّهُ.

وأخرج الطبراني في معجمه الكبير ـ كما في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٨٩ ـ وابن حبان في روضة العقلاء ص: (٢٧٧ ـ ٢٧٨)، وأبو نُعيم في الحِلْيَة (٥/ ٢٩٤)، والقُضاعي في مسند الشهاب برقم (٥٣٩) من حديث أم الدرداء،

---

(١) (السرير): النعش قبل أن يحمل عليه الميت.

(٢) قال القاضي عياض في الشفا ص: (٧١٣) بتحقيقي: «قيل: هما رجلان تعلّماه ـ أي تعلما السحر ـ قال الحسن: هاروت وماروت عِلجان من أهل بابل. وقيل: كانا مَلِكين من بني إسرائيل فمسخهما الله».

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح معافى في بدنه[1] ، آمناً في سِرْبِهِ[2] ، عنده قُوت يومه[3] فكأنما حيزت له الدنيا[4] ، يا ابن آدم! جُفَيْنَةٌ[5] يكفيك منها ما سَدَّ جَوْعَتَكَ ، ووارى عَوْرَتَكَ[6] ، وإن كان بيتٌ يواريك فذاك ، وإن كانت دابةٌ تركبها فَبَخٍ. فِلَقُ الخبز ، وماءُ الحُبِّ[7] ، وما فوق الإزار فحساب عليك». وصححه مختصراً ابن حبان (٢٥٠٣) موارد الظمآن ، ورمز لحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٨٤٥٥) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٨٩): «رواه الطبراني ، ورجاله وثقوا علىٰ ضعفٍ في بعضهم».

وأخرج الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) ، وابن ماجهْ (٤١٤١) ، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٣٠٠) وغيره من حديث عبيد الله بن مِحْصَنٍ الأنصاري الخَطْمِيِّ ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أصبح منكم آمناً في سِرْبِهِ ، معافىً في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا [بحذافيرها][8]» قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

قال أبو حاتم بن حبان البُسْتي في روضة العُقلاء ص: (٢٧٨): «الواجب

---

(١) أي صحيحاً بدنه.

(٢) (سربه): بكسر السين على الأشهر أي: في نفسه ، وروي بفتحها: أي في مسلكه ، وقيل: بفتحتين: أي في بيته.

(٣) (عنده قوت يومه): أي غداؤه وعشاؤه الذي يحتاجه في يومه ذلك. يعني: مَنْ جمع الله له بين عافية البدن ، وأمن قلبه حيث توجه ، وكفاف عيشه بقوت يومه ، وسلامة أهله؛ فقد جمع الله له جميع النعم التي مَنْ مَلَكَ الدنيا لم يحصل علىٰ غيرها ، فينبغي ألا يستقبل يومه ذلك إلا بشكرها بأن يصرفها في طاعة المنعم ، لا في معصيته ، ولا يفتر عن ذكره.

(٤) (حيزت له الدنيا): أي ضمت وجمعت (فيض القدير: ١/ ٦٨).

(٥) (جُفَينة): تصغير جَفْنَةٍ ، وهي القصعة: آنية من أواني الطعام.

(٦) (وارى عورتك): سترها.

(٧) (الحُبّ): وعاء الماء ، كالجرَّة.

(٨) (بحذافيرها): بجوانبها ، أي: فكأنما أعطي الدنيا بأسرها.

على العاقل أن لا يغترَّ بالدنيا وزهرتها ، وحسنها وبهجتها ، فيشتغل بها عن الآخرة الباقية ، والنعم الدائمة: بل ينزلها حيث أنزلها الله ، لأن عاقبتها لا محالة تصير إلى فناء ، يَخْرَبُ عِمرانها ، ويموت سكانها ، وتذهب بهجتها ، وتَبيد خضرتها ، فلا يبقى رئيس متكبر مُؤَمَّرٌ ، ولا فقير مسكين محتقر ، إلا ويجري عليهم كأسُ المنايا ، ثم يصيرون إلىٰ التراب ، فيبلون حتى يرجعوا إلى ما كانوا عليه في البداية إلى الفناء ، ثم يرثُ الأرضَ ومَنْ عليها علاَّمُ الغيوبِ .

فالعاقل لا يركن إلى دارٍ هذا نعتها ، ولا يطمئن إلى دنيا هذه صفتها ، وقد ادَّخرَ ما لا عَينٌ رَأَتْ ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قلب بشر ، فَيَضَنُّ[1] بترك هذا القليل ، ويرضى بِفَوْتِ ذلك الكثير .

حدثنا محمد بن المسيب بن إسحاق ، حدثنا يعقوبُ بن إبراهيم الدَّوْرَقِيُّ ، قال: سمعتُ بشر بن الحارث[2] ، يقول:

لا تَـأْسَ فـي الـدُّنيـا علىٰ فـائِـتٍ وعِنْـدَكَ الإسْـلامُ والعَـافِيَـهْ
إنْ فَـاتَ أَمْـرٌ كُنْـتَ تَسْعَـىٰ لَـهُ فَفِيْهِمـا مِـنْ فَـائِـتٍ كَـافِيَـهْ

قال أبو حازم: «بضاعة الآخرة كاسدة ، فاستكثر منها في أوان كسادها ، فإنه لو جاءَ ، أوان نفاقها لم تصل منها لا إلى قليل ، ولا إلى كثير» .

وما أُحَيْلىٰ أن نعمل جميعاً بقوله تعالى في سورة الصف: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

---

(١) أي يبخل.

(٢) هو بشر بن الحارث الحافي ، إمام ، عالم ، محدث ، زاهد ، عابد ، رباني ، قدوة ، ثقة ، جبل ، ولد سنة (١٥٠) هـ أو (١٥٢) هـ ومات ببغداد سنة (٢٢٧) هـ. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٦٩) وفي حاشيته عدد من مصادر ترجمته.

عَلَى يَسَارِكِ إذا دَخَلْتِ النَّارَ

أخرج الحاكم (٢/٤٨٦) بإسناده عن فاطمةَ بنتِ عُتْبَةَ بن رَبيعةَ بنِ عبدِ شمسٍ ، خالةِ معاويةَ بن أبي سفيان ؛ أَنَّ [أخاها] أبا حُذَيْفَةَ بْنَ عُتْبَةَ ـ رضي الله عنه ـ أتى بها وبهند بنت عُتْبَةَ رسولَ الله ﷺ تبايعه[١] ، فقالت : أخذ علينا ، فشرط علينا .

قالت : قلت له : يا ابن عَمّ! هل علمتَ في قومك من هذه العَاهَاتِ أو الهَنَاتِ شيئاً؟

قال أبو حُذيفةَ : إِيْهاً[٢] ، فبايعيهِ ، فإن بهذا يبايع ، وهكذا يشترط .

فقالت هندُ : لا أبايعك على السرقة ؛ إني أسرقُ من مال زوجي[٣] ، فكفَّ النبي ﷺ يده ، وكَفَّتْ يدها ، حتى أرسل إلى أبي سفيان ، فتحلَّلَ لها منه . فقال أبو سفيان : أما الرَّطْبُ[٤] ، فنَعَمْ . وأما اليابس ، فلا ، ولا نِعْمَتْ .

---

(١) أي عام فتح مكة ، سنة (٨) للهجرة .

(٢) (إيهاً) : اسكتي .

(٣) (زوجي) : هو أبو سفيان : صخر بن حرب . وكانت تأخذ من ماله دون علمه تنفقه على بنيه .

(٤) (الرَّطْب) : أراد ما لا يُدَّخر ولا يبقى كالفواكه والبقول والأطبخة ، وإنما خص الرَّطْبَ لأن خَطْبهُ أيسر ، والفساد إليه أسرع ، فإذا ترك ولم يؤكل هلك ورُمي ، بخلاف اليابس ، إذا رُفِعَ وادُّخِرَ . وكان أبو سفيان رجلاً شحيحاً ، وقد أذن النبي ﷺ لزوجه هند أن تأخذ من ماله ما يكفيها وولدها بالمعروف .

قالت: فبايعناه. ثم قالت فاطمةُ: ما كانت قُبَّةٌ[1] أبغضَ إليَّ مِنْ قُبَّتِكَ، ولا أحب أَنْ يُبيحها اللهُ وما فيها. ووالله! ما من قُبَّةٍ أَحَبُّ إليَّ أَنْ يَعمُرَها الله، ويباركَ فيها من قُبَّتِكَ.

فقال رسول الله ﷺ: «وأَيْضاً، والله! لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ».

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الحافظ الذهبي في التلخيص.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن عُرْوَةَ، عن عائشة، قالت: جاءت فاطمة بنت عُتْبَةَ تبايع رسول الله ﷺ، فأخذ عليها: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية [الممتحنة: ١٢].

قال: فوضعت يدها على رأسها حَيَاءً، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أَقِرِّي أيتها المرأة! فوالله! ما بايعنا إلَّا على هذا.

قالت: فَنَعَمْ إذاً، فبايعها بالآية. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٧) وقال: «رواه أحمد إلا أنه قال: عن معمر عن الزهري أو غيره عن عروة، والبزار ولم يشكَّ، ورجاله رجال الصحيح».

ويوم الفرقان في غزوة بدرٍ قَتَل المسلمون ثلاثةً من صناديد قريش:

أباها: عُتبة بن ربيعة.

وأخاها: الوليد بن عُتبة.

وعمَّها: شَيْبة بن رَبيعة.

وكانت فاطمة كثيرة المال. ومن ربات الفصاحة والبلاغة والبيان.

---

(١) (قُبَّة): بيت صغير مستدير من بيوت العرب. وأرادت بقولها: (قبة): نَفْسَهُ ﷺ، أو أهل بيته.

من طريف خبرها ما أخرجه الإمام محمد بن سعد ، بسند صحيح ـ كما في الإصابة ـ عن ابن أبي مُلَيْكة ، قال :

تزوج عَقِيلُ بن أبي طالبٍ فاطمةَ بنت عُتبةَ بن ربيعةَ ، فقالت : أتزوج بك على أن تضمن لي ، وأنفق عليك ، فتزوجها ، فكان إذا دخل عليها ، قالت : أين عتبةُ بن رَبيعةَ؟

فدخل يوماً وهو بَرِمٌ[1] ، فقالت : أين عُتبةُ بنُ رَبِيعةَ؟

قال : على يسارِكِ إذا دَخَلْتِ النار .

فشدَّت عليها ثيابها ، وقالت : لا يجمعُ رأسي ورأسَهُ بيتٌ . فأتت عثمانَ ، فبعث معاويةَ وابنَ عبَّاسٍ ، فقال ابنُ عبَّاسٍ : والله! لأُفرِّقَنَّ بينهما .

وقال معاويةُ : ما كنت لأفرق بين شخصين من بني عبد مَنَافٍ . فأتيا وقد شَدّا عليهما أثوابَهما ، فأصلح أمرهما .

* * *

(١) (برِم) : أي ضَجِر .

دِيْنِي دِيْنُكَ

الطُّفَيْلُ بن عَمْرٍو الأزدي الدَّوسيُّ: صحابي من الأشراف، في الجاهلية والإسلام. كان شاعراً، غنيّاً، كثير الضيافة، مُطاعاً في قومه. أسلم قبل الهجرة بمكة، وكان يلقب ذا النور.

روىٰ ابن هشام في السيرة (١/ ٣٨٢) عن شيخ المغازي والسير الإمام محمد ابن إسحاق، قال: كان رسول الله ﷺ على ما يَرىٰ من قومه ـ يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه. وجعلت قريش ـ حين مَنَعَهُ اللهُ منهم ـ يُحَذِّرُونَهُ الناسَ، ومَنْ قدم عليهم من العرب.

وكان الطفيل بن عَمْرٍو الدَّوْسيُّ يحدث: أنه قدم مكة ورسولُ الله ـ ﷺ ـ بها، فمشىٰ إليه رجالٌ من قُرَيشٍ، وكان الطفيلُ رجلاً شريفاً، شاعراً، لبيباً[١]، فقالوا له: يا طُفَيلُ! إنكَ قدمتَ بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أَعْضَلَ بنا[٢]، وقد فرَّق جماعتنا، وشتَّتَ أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشىٰ عليكَ، وعلى قومك، ما قد دخل علينا، فلا تُكَلِّمَنَّهُ، ولا تَسْمَعَنَّ منه شيئاً.

قال: فوالله! ما زالوا بي حتى أجمعتُ أن لا أسمعَ منه شيئاً ولا أكلمه،

---

(١) (لبيباً): عاقلاً.

(٢) (أَعْضَلَ بنا): أي ضاقت علينا الحِيَلُ في أمره.

حتىٰ حَشَوْتُ في أذنيَّ ـ حين غَدَوْتُ إلىٰ المسجد ـ كُرْسُفاً[١] ، فَرَقاً[٢] من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أَنْ أسمعه .

قال: فَغَدوتُ إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة .

قال: فقمت منه قريباً ، فأبىٰ اللهُ إلاَّ أَنْ يُسْمِعَني بعضَ قوله .

قال: فَسمِعْتُ كلاماً حسناً .

قال: فقلتُ في نفسي: واثُكْلَ أُمِّي! والله! إني لرجل لبيبٌ عاقل شاعر ، ما يخفىٰ عليَّ الحَسَنُ من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟! فإِنْ كان الذي يأتي به حَسَناً قبلتُهُ ، وإِنْ كان قبيحاً تركتُهُ .

قال: فمكثْتُ حتى انْصَرَف رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى بيته ، فاتبعتُه حتى إذا دخل بيته ، دخلتُ عليه ، فقلتُ: يا محمدُ! إنَّ قومَكَ قد قالوا لي كذا وكذا ، لِلَّذي قالوا ، فوالله! ما برحوا يُخَوِّفونني أَمْرَكَ حتى سَدَدْتُ أُذُنَيَّ بِكُرْسُفٍ ، لِئَلاَّ أسمعَ قولك ، ثم أبى الله إلا أن يُسمِعَني قولَكَ ، فسمعتُهُ قولاً حسناً ، فاعْرِض عليَّ أمركَ .

قال: فأسلمتُ ، وشهدتُ شهادةَ الحقِّ ، وقلتُ: يا نبيَّ الله! إني امرُؤٌ مُطاعٌ في قومي ، وأنا راجع إليهم ، وداعيهم إلى الإسلام ، فادْعُ الله أن يجعل لي آيةً تكون لي عَوْناً عليهم ، فيما أدعوهم إليه . فقال: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْ له آيةً» .

قال: فخرجتُ إلى قومي ، حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر[٣] ، وقع نورٌ بين عَيْنَيَّ مثلُ المصباح ؛ فقلتُ: اللَّهُمَّ! في غير وجهي ، إني أخشىٰ أن يظنوا أنها مُثْلَةٌ[٤] وقَعَت في وجهي لِفراق دينهم .

---

(١) (كُرْسُفا): قُطْناً.

(٢) (فَرَقا): خوفاً.

(٣) (الحاضر): القوم النازلون علىٰ الماء . وفي الاستيعاب: «فخرجتُ حتىٰ أشرفتُ على ثنية أهلي التي تهبطني على حاضر دَوْسٍ».

(٤) (مُثْلَة): أي تشويه في خِلْقَتي.

قال: فتحول فوقع في رأس سوطي[1].

قال: فجعل الحاضر يتراءَوْنَ ذلك النور في سوطي، كالقنديل المُعَلَّق، وأنا أهبط إليهم من الثنية. قال: حتىٰ جئتهم، فأصبحتُ فيهم.

قال: فلما نزلتُ، أتاني أبي، وكان شيخاً كبيراً.

قال: فقلتُ: إليكَ عني، يا أبتِ! فلستُ منكَ ولستَ مني!

قال: وَلِمَ؟ يا بنيَّ!

قال: قلتُ: أسلمتُ، تابعتُ دين محمد ﷺ.

قال: أي بُنَيَّ! فدِيني دِيْنُكَ.

قال: فقلتُ: فاذهب فاغتسل وطهِّر ثيابكَ، ثم تَعَالَ حتىٰ أعلمَكَ ما عُلِّمْتُ. قال: فذهب فاغتسل، وطهَّر ثيابه. قال: ثم جاء فعرضتُ عليه الإسلام، فأسلم.

قال: ثم أتتني صاحبتي[2]، فقلتُ: إليكِ عني، فلستُ منكِ ولستِ مني!

قالت: لِمَ؟ بأبي أنتَ وأمي!

قال: قلتُ: قد فرَّق بيني وبينكِ الإسلامُ، وتابعتُ دين محمد ﷺ.

قالت: فَدِيْنِي دِيْنُكَ.

قال: قلت: فاذهبي إلى حِنَا ذِي الشَّرىٰ ـ قال ابن هشام: ويقال: حِمَىٰ ذي الشَّرىٰ ـ فتطهَّري منه.

---

(١) رواه الطبراني وابن عبد البر في الاستيعاب على هامش الإصابة (٢/ ٢٢٢) من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي. وهذا إسناد منقطع، وراويه ابن الكلبي. قال الدارقطني وغيره: «متروك»، وقال ابن عساكر: «رافضي ليس بثقة». وأورده الحافظ في الفتح (٨/ ١٠١ ـ ١٠٢) وسكت عنه.

(٢) (صاحبتي): زوجتي.

قال: وكان ذو الشَّرىٰ صنماً لَدوْسٍ ، وكان الحِمىٰ حِمىً حَمَوْهُ له ، وبه وَشَلٌ من ماء[1] يهبط من جبل.

قالت: فقلت: بأبي أنت وأمي! أتخشىٰ على الصبية من ذي الشَّرىٰ شيئاً؟

قال: قلتُ: لا ، أنا ضامن لذلك ، فذهبت فاغتسلت ، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام. فأسلمت.

وفي أُسد الغابة (٢/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣): ثم دعوتُ دَوساً فأبطؤوا عن الإسلام ، فرجعتُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة ، فقلتُ: يا رسول الله! إنه قد غلبني علىٰ دَوْسٍ الزنا ، فادْعُ الله عليهم.

فقال: «اللَّهُمَّ! اهْدِ دَوْساً[2] ، ارْجِعْ إلى قومكَ ، فادْعُهُمْ ، وارفُقْ بهم».

قال: فرجعتُ ، فلم أزل بأرض قومي دَوْسٍ أدعوهم إلى الإسلام حتى هَاجَرَ النبي ـ ﷺ ـ إلى المدينة ، وقضىٰ بدراً وأُحُداً ، والخندق. ثم قدمتُ على رسول الله ـ ﷺ ـ بمن أسلم معي من قومي ، ورسولُ الله ﷺ بخيبر ، حتىٰ نزلتُ المدينة بسبعين ، أو ثمانين من دَوْسٍ ، ثم لحقنا برسول الله ـ ﷺ ـ بخيبر ، فَأَسْهَمَ لنا مع المسلمين.

ثم لم أَزَلْ مع رسول الله ـ ﷺ ـ حتى فتح الله ـ عز وجلَّ ـ عليه مكةَ ، فقلت: يا رسول الله! ابعثني إلى ذي الكَفَّين ـ صَنَمِ عَمْرِو بن حُمَمَةَ ـ حتى أُحْرِقَهُ.

فخرج إليه طُفيلٌ يقول وهو يحرقه ، وكان من خَشَب:

يا ذا الكَفَيْنِ[3] لَسْتُ مِنْ عُبَّادِكا ... مِيلاَدُنا أَقْدَمُ مِنْ مِيلادِكا

إنِّي حَشَوْتُ النار في فُؤادِكا

---

(١) (وَشَلٌ من ماء): الوَشَلُ: الماء القليل.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٩٢) ، ومسلم (٢٥٢٤) من حديث أبي هريرة.

(٣) (يا ذا الكَفَيْنِ): ذو الكَفَّيْن: تثنية كَفِّ اليد. وخفف لضرورة الشعر. قال أستاذنا البحاثة محمد شُرَّاب في المعالم الأثيرة ص: (٢٣٢): «هو صنم كان في بلاد زهران».

ثم رجع طفيلٌ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فكان معه بالمدينة ، حتى قبض الله رسول الله ﷺ.

فلمَّا ارتدَّتِ العربُ خرج مع المسلمين مجاهداً أَهْلَ الرِّدَّةِ ، حتى فرغوا من نجدٍ ، وسار مع المسلمين إلى اليمامة ، فقال لأصحابه: إني رأيت رُؤْيا فَاعْبرُوها؛ إني رأيتُ رأسي حُلِقَ ، وأنه خرج من فمي طائر ، وأنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها ، وأرىٰ ابْنِي عَمْراً يطلبني طلباً حثيثاً ، ثم رأيته حُبِسَ عني.

قالوا: خيراً.

قال: أما أنا فقد أوَّلْتُها.

قالوا: ماذا؟.

قال: أما حَلْقُ رأسي فَقَطْعُهُ.

وأما الطائرُ: فَرُوحِي.

وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها ، فالأرضُ تُحْفَرُ لي ، فَأُغَيَّبُ فيها.

وأما طلب ابني لي ثم حَبْسُهُ عني؛ فإني آراه سَيَجْهَدُ أن يصيبه ما أصابني ، فقتل الطفيل باليمامة شهيداً ، وجُرِحَ ابنُهُ عَمْرُو بن الطُّفَيل ، ثم عُوفي ، وقتل عام اليرموك في خلافه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ شهيداً.

* * *

رَأَيْتُ وَجْهَ رَجُلٍ لَمْ يَكُنْ لِيُخْفِرَكُمْ

طارِقُ بن عبد الله المُحَارِبي ، من مُحَارِبِ خَصَفَةَ ، صحابيٌّ نَزَلَ الكوفة ، له حديثانِ أو ثلاثةٌ .

روىٰ عنه أبو صَخْرَةَ: جامعُ بنُ شَدَّاد ، ورِبعيُّ بن حِراشٍ ـ بالحاء المهملة ـ وأبو الشَّعْثاءِ: سُلَيم بن أسود المُحَارِبي .

من بديع حديثه ما أخرجه أبو يعلىٰ في «المفاريد» رقم (١٠٩) ، والدَّارَقُطْنِيُّ في السُّنن (٣/ ٤٤ ـ ٤٥) وغيرُهُ من حديث جامعِ بن شَدَّادٍ ، عن طارق بن عبد الله المُحَارِبي قال :

رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ في سوق ذي المَجَازِ[1] ، وعليه حُلَّةٌ[2] حَمْراءُ ، وهو يقول: «يا أَيُّها الناسُ! قولوا: لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ تُفْلِحوا» ورجل يتبعه ، يرميه بالحجارة ، وقد أَدْمَىٰ عُرقُوبَيْهِ[3] وكَعْبَيْهِ ، وهو يقول: يا أَيُّها الناسُ! لا تُطيعوه؛ فإنَّهُ كَذَّابٌ .

---

(١) (ذي المَجَاز): بفتح الميم ، وتخفيف الجيم ، وفي آخره زاي: هو موضع عند عرفات ، كان يقام به سوقٌ من أسواق العرب في الجاهلية ، ثمانية أيامٍ من ذي الحجة ، ثم يعرِّفون في التاسع إلى عرفة . انظر المعالم الأثيرة ص: (٢٤٠).

(٢) (حُلَّة): الحُلَّةُ: ثوبان من جنس واحدٍ ، بمثابة «الطقم» في أيامنا. قال الإمام أبو سليمانَ الخَطَّابي: ولا تكون حُلَّةً إلاَّ وهي جديدة ، تُحَلُّ من طَيِّها فتلبس .

(٣) (العُرقوب): وتر غليظ فوق العَقِبِ .

فقلتُ: مَنْ هذا؟

فقيلَ: هذا غُلام بني عبد المُطَّلِب.

قلتُ: فمن هذا الذي يتبعه بالحجارَةِ؟

قيلَ: هذا عَمُّهُ: عبد العُزَّىٰ، أبو لَهَبٍ.

فلما أظهر اللهُ الإسلامَ، خَرَجْنا في رَكْبٍ[1] حتى نَزَلْنا قريباً من المدينةِ ومعنا ظَعِينة[2] لنا، فبينما نحن قُعُودٌ؛ إِذْ أتانا رَجُلٌ، عليه بُرْدَانِ[3] أبيضان، فَسَلَّمَ، فقال: مِنَ أينَ أَقْبَلَ القَوْمُ؟

قلنا: من الرَّبَذةِ[4]. قال: ومعنا جَمَلٌ.

قال: أتبيعونَ هٰذا الجَمَلَ؟

قلنا: نعم.

قال: بِكَمْ؟

قلنا: بكذا وكذا صاعاً[5] من تَمْرٍ. قال: فَأَخذه ولم يَسْتَنْقِصْنا.

قال: قد أَخَذْتُهُ. ثم تَوارىٰ[6] بِحِيطان المدينة[7]، فتلاوَمْنَا فيما بيننا، فقلنا: أَعْطَيْتُمْ جَمَلَكُمْ رَجُلاً لا تعرفونهُ؟

قال: فقالتِ الظَّعينةُ: لا تلاوَموا؛ فإِنِّي رَأَيتُ وَجْهَ رَجُلٍ لم يكنْ

---

(١) (رَكْب): الرَّكْبُ: الراكبون، العشرة فما فوق (الوسيط).

(٢) (ظعينة): امرأة. قال في النهاية: وأصل الظعينة: الراحلة التي يُرْحَلُ ويُظْعَنُ عليها، أي: يُسار. وقيل للمرأة ظعينة؛ لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظَعَنَ، أو لأنها علىٰ الراحلة إذا ظَعَنَتْ.

(٣) (بُرْدان): البُرْدُ: نوع من الثياب.

(٤) (الرَّبَذة): قرية كانت عامرةً، ولكنها خربت سنة (٣١٩) هـ بسبب الحروب، وتقع في الشرق إلى مهد الذهب علىٰ مسافة (١٥٠) كيلاً. انظر المعالم الأثيرة ص: (١٢٥).

(٥) (صاعاً): الصاع: مكيال يسع أربعة أمداد، ويساوي المد حوالي (٦٠٠) غرام.

(٦) (تواریٰ): غاب واستتر.

(٧) (حيطان المدينة): بساتينها.

لِيُخْفِرَكُمْ[1]. ما رأيتُ أحداً أَشْبَهَ بالقمر ليلةَ البَدْرِ مِنْ وَجْهِهِ.

قال: فلما كانَ مِنَ العَشِيِّ أَتَانا رَجُلٌ فَسَلَّم علينا، فقال: أنا رسولُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إليكم، يقول: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تأْكُلوا حَتَّى تَشْبَعوا، وتَكْتَالُوا حَتَّىٰ تَسْتَوْفُوا[2]».

قال: فأكلنا حتى شَبِعْنَا، وكِلْنا حتى اسْتَوْفَيْنَا.

قال: ثم قَدِمْنَا المدينةَ من الغَدِ؛ فإذا رسولُ الله ـ ﷺ ـ قائمٌ يخطب على المِنْبَرِ، وهو يقول: «يَدُ المُعْطي العُلْيا، وابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ[3]: أُمَّكَ وأباكَ، وأُخْتَكَ وأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ».

فقام رجلٌ، فقال: يا رسولَ الله! هؤلاء بنو ثَعْلَبَة بن يُرْبوع، قَتَلُوا قَتْلانا في الجاهلية، فَخُذْ لنا بِثَأْرِنا منه.

فرفع رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَدَيْهِ، حتى رأيتُ بَيَاضَ إِبْطَيْه، وقال: «أَلا لا تَجْنِي أُمٌّ علىٰ وَلَدٍ، أَلا لا تَجْني أُمٌّ علىٰ وَلَدٍ»[4]. وصححه الحاكم في المستدرك ٢/ (٦١١ ـ ٦١٢) ووافقه الذهبي، كما صححه ابن حبان (١٦٨٣) موارد الظمآن، وفي الأخير استوفينا تخريجه.

* * *

---

(١) (لِيُخْفِرَكُمْ): ليخونكم، ويأكل ثمن الجمل.

(٢) أخرج البخاريُّ في البيوع باب الكيل على البائع والمعطىٰ، الفقرةَ الثانية من الحديث تعليقاً بقوله: وقال النبيُّ ﷺ: «اكْتَالُوا حَتَّى تَسْتَوْفوا».

(٣) (ابدأ بمن تعولُ): أي بمن تَمُونُ وتَلْزَمُكَ نفقَتُهُ من عيالك. يقال: عال الرجل عِيَالَهُ يَعُولُهُمْ: إذا قام بما يحتاجون إليه من قُوتٍ وكِسْوَةٍ، وغيرهما (النهاية).

(٤) (لا تجني أمٌّ علىٰ وَلَدٍ): الجناية: الذنب والجرم وما يفعله الإنسان مما يوجبُ عليه العذاب أو القصاص في الدنيا والآخرة. والمعنىٰ: لا يطالَبُ أحَدٌ بجنايه غيره من أقاربه وأباعِدِهِ، فإذا جنىٰ أحدُهما جِنايةً، لا يُعاقَبُ الآخَرُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. انظر النهاية (جنىٰ).

سَاعِدُوا المُحامِي عَنْ دِيْنِ اللهِ

خَوْلَةُ بِنْتُ الأَزْوَرِ ، أُخْتُ الفارس الشجاع ، والشاعر المشهور ، ضِرار بن الأَزْوَرِ الأَسَدي[1] . . شاعرةٌ من رَبَّاتِ النجدة والفروسية .

كانت من أشجع النساء في عصرها ، وتُشَبَّهُ بسيف الله المسلول خالد بن الوليد في حملاتها .

أظهرت في المعارك التي دارت رَحَاها بين المسلمين والرُوم بسالة فائقة ، وشجاعة نادرة ، خلَّد التاريخ اسمها في سجل الأبطال البواسل .

لها أخبار كثيرة في فتوح الشام ، وفي شِعْرِها جزالة وفخر . توفيت في أواخر عهد عثمان بن عفان نحو سنة (٣٥) هـ .

من وقعاتها ـ كما في أعلام النساء (١/ ٣٧٥) ـ أن خالد بن الوليد نظر إلى فارِسٍ طويل ، وهو لا يَبِيْنُ منه إلا الحَدَقُ ، والفروسيةُ تَلُوح من شمائله ، وعليه ثياب سود ، وقد تظاهر بها من فوق لأَمَتِهِ[2] ، وقد حزم وسطه بعمامة

---

(١) هو ضرار بن مالك (الأزور) بن أوس بن جَذِيْمَةَ الأسدي ، أحد الأبطال في الجاهلية والإسلام ، وكان شاعراً مطبوعاً ، له صحبة . قاتل يوم اليمامة أشدَّ القتالِ ، حتى قطعت ساقاه ، فجعل يحبو على ركبتيه ويقاتل ، والخيل تطؤه ، ومات بعد أيامٍ في اليمامة . وقيل : في غيرها (الأعلام : ٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦) .

(٢) (اللَّأْمَةُ) : مهموزة : الدِّرْعُ ، وقيل : السلاح ، ولأْمَةُ الحربِ : أداتُهُ ، وقد يترك الهمز تخفيفاً (النهاية) .

خضراء ، وسحبها على صدره من ورائه ، وقد سبق أمام الناس ، كأنه نارٌ ، فقال خالدٌ: ليت شِعْرِي[1]! مَنْ هذا الفارسُ؟ وايْمُ الله! إنه لفارس شُجاعٌ.

ثم اتبعه خالدٌ والناسُ ، وكان هذا الفارسُ أسبقَ إلى المشركين ، فحمل على عساكر الروم ، كأنه النار المحرقة ، فَزَعْزَعَ كتائِبَهُمْ ، وحطم مواكبهم ، ثم غاب في وسطهم ، فما كانت إلا جولة الجائل حتى خرج وسِنَانُهُ[2] مُلَطَّخٌ بالدماء من الروم ، وقد قتل رجالاً ، وجَنْدَلَ أبطالاً ، وقد عرض نفسه للهلاك ، ثم اخترق القوم غير مكترث بهم ، ولا خائفٍ ، وعطف على كراديس[3] الروم.

فقلق عليه المسلمون ، وقال رافع بن عُمَيْرَةَ[4]: ليس هذا الفارسُ إلا خالد بن الوليد.

ثم أشرفَ عليهم خالدٌ ، فقال رافِعٌ: مَنِ الفارسُ الذي تقدم أمامكَ؟ فلقد بذلَ نفسه ومهجته!!

فقال خالدٌ: والله! إنني أَشَدُّ إنكاراً منكم له ، ولقد أعجبني ما ظهر منه ، ومن شمائله.

فقال رافعٌ: أيها الأمير! إنه منغمس في عسكر الروم ، يطعن يميناً وشِمالاً.

فقال خالدٌ: معاشرَ المسلمين! احملوا بأجمعكم ، وساعدوا المُحامي عن دين الله ، فَأَطْلِقُوا الأَعِنَّةَ[5] ، وقَوِّموا الأَسِنَّةَ.

---

(١) (ليتَ شِعْرِي): ليتني أعلمُ.

(٢) (السِّنانُ): نَصْلُ الرمح (الوسيط).

(٣) (كراديس): جمع كُرْدُوسة ، وهي الطائفة العظيمة من الخيل والجيش (الوسيط).

(٤) هو أبو الحسن: رافع بن عُمَيرة الطائي. كان دليل خالد بن الوليد لما سار من العراق إلى الشام ، فسلك به البر ، فقطعه في خمسة أيام ، وشهد غزوة ذات السلاسل ، وصحب أبا بكر الصديق فيها. توفي سنة (٢٣) هـ ، قبل عمر بن الخطاب. انظر أُسْدَ الغابة (٢/ ٤٣ ـ ٤٤).

(٥) (الأعِنَّة): جمع عِنَان ، وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة. وهو طاقان مستويان (الوسيط).

والتصق بعضهم ببعض ، وخالدٌ أمامَهم ، ونظر إلى الفارس فوجده كأنه شعلةٌ من نارٍ ، والخيلُ في أَثَرِهِ ، وكلما لحقت به الروم ، لوىٰ عليهم ، وجَنْدَلَ.

فحمل خالدٌ ومَنْ معه ، ووصل الفارس المذكور إلى جيش المسلمين ، فتأمَّلوه ، فَرَأَوْه ، وقد تخضب بالدماء.

فصاح خالدٌ والمسلمون: لله دَرُّكَ من فارسٍ بَذَلَ مهجته في سبيل الله ، ويظهر شجاعته على الأعداء! اكْشِفْ لنا عن لِثَامِكَ ، فمال عنهم ، ولم يخاطِبْهُمْ ، وانغمس في الروم.

فتصايحت به الرومُ من كل جانبٍ ، وكذلك المسلمونَ ، وقالوا: أيها الرجلُ الكريمُ! أميرُكَ يخاطبك وأنت تُعْرِضُ عنه؟! اكشِفْ عن اسمكَ ، وحَسَبِكَ لتزداد تعظيماً.

فلم يَرُدَّ عليهم جواباً.

فلما بَعُدَ عن خالدٍ ، سار إليه بنفسه ، وقال له: ويحك! شَغَلْتَ قلوب الناس وقلبي بفعلك! مَنْ أَنتَ؟

فلمَّا أَلَحَّ خالدٌ خاطبه الفارسُ مِنْ تحتِ لِثامه بلسان التأنيث ، وقال: إنني يا أميرُ! لم أُعْرِض عنكَ إلاَّ حَياءً منكَ؛ لأنك أمير جليل ، وأنا من ذوات الخُدور[1] ، وبنات الستور.

فقال لها: مَنْ أنتِ؟

فقالت: أنا خولةُ بنتُ الأَزْوَرِ ، وإني كنتُ مع بنات العرب ، وقد أتاني الساعي؛ بأنَّ ضراراً أَسِيرٌ ، فركبتُ ، وفعلتُ ما فعلتُ.

قال خالد: نحمل بأجمعنا ، ونرجو من الله أن نصل إلى أخيك ، فَنَفُكَّهُ.

---

(١) (الخُدور): جمع خِدْرٍ ، والخِدْرُ: ناحية في البيت يترك عليها ستر فتكون فيه الجارية البِكْرُ (النهاية).

قال عامِرٌ بن الطُّفَيلِ[1]: كنت عن يمين خالد بن الوليد حين حملوا ، وحملتْ خَوْلَةُ أمامه ، وحَمَلَ المسلمونَ ، وعَظُمَ على الروم ما نزل بهم من خَوْلَةَ بنت الأزور ، وقالوا: إنْ كانَ القومُ كُلُّهم مِثْلَ هذا الفارس ، فما لنا بهم طاقة.

وجعلت خولةُ تجولُ يميناً وشمالاً ، وهي لا تطلبُ إلاَّ أخاها ، وهي لا ترىٰ أَثَراً ، ولا وقفتْ له على خبر إلى وقت الظهر.

وافترق القوم بعضهم عن بعض ، وقد أظهر اللهُ المسلمينَ على أعدائهم ، وقتلوا منهم عدداً عظيماً.

ثم أقبلت خولةُ على المسلمين ، وجعلت تسألهم: رَجُلاً رَجُلاً عن أخيها ، فلم تَرَ مِنَ المسلمين من يخبرها؛ أنه نَظَرَهُ ، أَوْ رآه أسيراً أو قتيلاً.

فلما أَيِسَتْ منه بَكَتْ بُكاءً شديداً ، وجعلت تقول: يا ابن أُمي! ليت شِعْري! في أي بَيْداءَ طرحوكَ ، أم بأي سنانٍ طعنوكَ ، أم بالحُسَام قتلوكَ!

يا أخي! أُخْتُكَ لك الفِداءُ. لو أني أراكَ ، أنقذْتُكَ من أيدي الأعداء.

ليت شِعْري! تُرىٰ ، إني أراكَ بعدها أبداً؟ فقد تركتَ ، يا ابن أُمي! في قلب أختك جَمْرةً لا يخمد لهيبُها.

ليت شِعْرِي! لحقت بأبيكَ[2] المقتولِ بين يدي النبي ﷺ ، فعليك مني السلام إلى يوم اللقاء؟

فبكىٰ الناسُ من قولها ، وبكىٰ خالدٌ ، وهَمَّ أَنْ يعاود بالحملة ، لولا كُرْدُوسَةٌ من الروم ، فتأَهَّب الناسُ لحربهم ، وتقدم خالدٌ وخولةُ أبطالَ المسلمين.

---

(١) هو أبو علي عامر بن الطُّفَيل العامري ، من بني عامر بن صَعْصَعَةَ: فارس قومه ، وأحد فُتَّاكِ العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية. اختلف العلماء في إسلامه. انظر الأعلام (٣/ ٢٥٢) ، أسد الغابة (٣/ ٢٣).

(٢) لم أجد في أسد الغابة ولا الإصابة ترجمة للأزْوَر (مالك بن أوس) والد ضرار.

فلما قربوا من القوم رَمَوْا رماحهم من أيديهم والسيوفَ ، وتَرَجَّلُوا ، ونادَوا بالأمان.

فقال خالدٌ: اقْبَلَوا أَمانهم ، وائتوني بهم ، فَأَتَوْا إليه.

فقال خالدٌ: مَنْ أنتم؟

فقالوا: جندُ هذا الرجل: وَرْدانَ ، ومُقامُنا بحمصَ ، وقد تحقق عندنا أنه ما يطيقكم ، ولا يستطيع حربكم ، فَأَعْطُونا الأمانَ ، واجْعَلُونا مِنْ جُملةَ مَنْ صالحتم من سائر المُدُنِ ، حتى نؤدي لكم المال الذي أردتم في كل سنة ، فَكُلُّ مَنْ في حِمْصَ يرضىٰ بقولنا.

فقال خالدٌ: إذا وصَلْتُ إلى بلادكم يكون الصلحُ ـ إنْ شاء الله تعالىٰ ـ إنْ كانَ لكم فيه مَأْرَبٌ ، ولكن نحن هاهُنا لا نصالحكم ، ولكن كونوا معنا إلى أن يقضي الله ما هو قاضٍ.

ثم قال لهم: هَل عندكم عِلْمٌ من صاحبنا الذي قتل ابنَ صاحبكم ، يعني: ضرارَ بنَ الأزور؟

قالوا: لعله عاري الجسد الذي قتل منا عدداً عظيماً ، وفجع صاحبنا في ولده؟!

قال خالد: عنه سألتكم.

قالوا: بعث به وَرْدَانُ عندنا أسيراً علىٰ بغلٍ ، ووَكَلَ به مئة فارسٍ ، وأنفذه إلى حمص ليرسله إلىٰ المَلِكِ ، ويخبره بما فعل.

ففرح خالدٌ بقولهم ، ثم دعا برافع بن عميرة ، وقال: ما أعلمُ أحداً أَخبرَ منك بالمسالك ، وأنت الذي قطعت بنا المفازة من أرض السَّماوَةِ[1] ، وأنت أَوْحَدُ أهل الأرض في الحِيَلِ والتدبير ، فخذ معك مَنْ أحببتَ ، واتبع أثر

(١) (السَّمَاوَةَ): هي البادية التي بين الكوفة والشام.

القوم ، فَعَلَّكَ تلحق بهم ، وتخلِّصُ صاحبنَا من أيديهم ، فَلَئِنْ فعلتَ ذلك ، لتكونَنَّ الفرصةُ الكبرى .

فقال رافعٌ: حُبّاً وكرامةً. وانتخب مئة فارسٍ شِداد من المسلمين ، وعزم على المسير .

وبُشِّرَتْ خولةُ بمسير رافعٍ ومَنْ معه في طلب أخيها ضِرار ، فتهلَّلَ وجْهُها فَرَحاً ، وأسرعت إلى تَقَلُّد سلاحها واعتلاء جوادها ، وأتت إلى خالد بن الوليد ، فقالت له : يا أيها الأميرُ! سألتكَ بالطاهر المُطَهَّرِ ، محمدٍ سَيِّدِ البشرِ إلاَّ ما سَرَّحْتَني[1] مع مَنْ سَرَّحْتَ ، فلَعَلِّي أن أكون مشاهدة لهم؟

فقال خالدٌ لرافعٍ : أنت تعلم شجاعتها ، فخذها معك .

فقال له رافع : السمع والطاعة ، وارتحل رافع ومَنْ معه ، وسارت خولة أَثَر القوم ، ولم تختلطْ بهم[2] ، وسار إلى أن قَرُبَ من سَلَمِيَّةَ[3] ، فنظر فلم يجد للقوم أَثَراً ، فقال لأصحابه: أَبْشِروا؛ فإن القوم لم يصلوا إلى هاهُنا ، فكمن بمن معه في وادي الحياة ، فبينما هم كذلك ، إذا بِغَبْرَةٍ قد لاحَتْ ، فكبَّرَ رافِعٌ وكبَّرَ المسلمون معه ، وحملوا عليهم ، فلم يكن غير ساعة حتى خَلَّصوا ضِراراً ، وقتلوهم جميعاً ، وأخذوا سَلَبَهُمْ .

ومن وَقْعاتها الشهيرة التي أظهرت فيها بسالة عظيمة ، وفروسيَّةً نادرة وقْعَةُ صحورا من أعمال الشام ، وقد أُسِرَتِ النسوةُ في تلك الوقعة ، فجمعت خَوْلَةُ النساءَ ، فقامت فيهن خطيبةً ، وكانت من ضمن المأسورات ، فقالت :

---

(١) (سَرَّحتني): أي أرسلتني .

(٢) اختلاط الرجال بالنساء الأجانب ـ من غير ضوابط ـ عادة غربيّة ، صَدَّرها إلىٰ بلادنا الاستخراب الغربي إبَّان احتلاله لديار العرب والمسلمين .

(٣) (سَلَمِيَّة): مدينة في سورية ، تتبع محافظة حماة .

يا بناتِ حِمْيَرَ[١] وبقية تُبَّعٍ[٢]! أَترضين لأنفسكن عُلوجَ[٣] الروم ، ويكون أولادكنَّ عبيداً لأهل الروم؟

فأين شجاعتكنَّ وبراعتكنَّ التي تتحدث بها عنكنَّ أحياءُ العرب ، ومحاضر الحضر؟ وإنِّي أراكن بمعزلٍ عن ذلكَ ، وإني أرىٰ القتل عليكن أهون من هذه الأسباب ، وما نزل عليكن من خِدْمةِ الروم .

فقالت عَفْراءُ بنتُ غفارٍ الحِمْيَرِيَّةُ : صَدَقْتِ ، والله! يا بنتَ الأزْوَرِ! ونحن في الشجاعة كما ذكرتِ ، وفي البراعةِ كما وصَفْتِ؛ غير أن السيف يَحْسُنُ فِعْلُهُ في مثل هذا الوقت وإنما دَهِمَنا العدوُّ على حين غفلةٍ ، وما نحن إلاَّ كالغنم بدون سلاحٍ!

فقالت خولةُ : يا بناتِ التَّتَابعةِ! خذوا أعمدة الخيامِ ، وأوتاد الأطنابِ[٤] ، ونحمل بها على هؤلاء اللِّئام ، فلعَلَّ الله ينصرنا عليهم ، فنستريح من مَعَرَّةِ[٥] العرب .

فقالت عَفْراء بنت غفارٍ : والله! ما دعوتِ إلاَّ ما هو أحبُّ إلينا مما ذكرتِ .

ثم تناولتْ كلُّ واحدةٍ عموداً من أعمدة الخيامِ ، وصِحْنَ صيحةً واحدةً ، وأَلْقَتْ خولةُ على عاتقها عموداً ، وسَعَتْ من ورائها عفراءُ أم أبان بنت عتبة ، ومسلمة بنت وازع ، وروعة بنت عملون ، وسلمة بنت النعمان ، وغيرهن .

فقالت لهنَّ خولةُ : لا ينفكُّ بعضكنَّ عن بعضٍ ، وكُنَّ كالحَلَقَةِ الدائرة ،

---

(١) (حِمْيَر) هو حِمْيَرُ بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يعرب بن قحطان : جَدٌّ جاهلي قديم كان ملك اليمن ، وإليه نسبة الحِمْيَريين : ملوكِ اليمن وأَقْيالِه (الأعلام : ٢٠/ ٢٨٤) .

(٢) كان الملك الأكبر من ملوك الدولة الحِمْيَرية الثانية في بلاد اليمن ، يلقَّب بِتُبَّع (الأعلام : ٢/ ١٧٥) .

(٣) (عُلوج) : جمع عِلْجٍ ، وهو الرجل من كُفَّار الروم وغيرهم .

(٤) (الأطناب) : واحدها طُنُبٌ : حَبْلٌ يُشَدُّ به الخِباء والسُّرادقُ ونحوهما .

(٥) (مَعَرَّة) : سُبَّة .

ولا تفترقْنَ ، فَتُمْلَكْنَ ، فيقع بكنَّ التشتيتُ ، واحْطِمْنَ رماح القوم ، واكْسِرْنَ سيوفهم.

وهجمت خولة ، وهجمت النساء وراءها ، وقاتَلْنَ قتالاً شديداً ، حتى استخلصت النسوة من أيدي الروم.

* * *

هَديَّةٌ!

أخرج البخاري في كتاب الجنائز (١٢٧٧) من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعديِّ رَضي الله عنه؛ أَنَّ امرأةً جاءت النبيَّ ﷺ بِبُرْدَةٍ[١] مَنْسُوجَةٍ فيها حاشِيَتُها[٢].

أَتَدْرُونَ[٣] ما البُرْدَةُ؟

قالوا: الشَّمْلَةُ[٤].

قال: نَعَمْ.

قالت: نَسَجْتُها بِيَدِي، فَجِئْتُ لأَكْسُوَكَها، فَأَخَذَها النبيُّ ﷺ مُحتاجاً إليها، وإِنَّها إِزارُهُ، فَحَسَّنَها فلانٌ[٥]، فقال: اكْسُنِيْها، ما أَحْسَنَها!

---

(١) (بُـرْدة): كِساء.

(٢) (فيها حاشيتُها): قال الداودي: يعني أنها لم تقطع من ثوب فتكون بلا حاشية، وقال غيره: حاشية الثوب: هُدْبُهُ؛ فكأنه قال: إنها جديدة لم يقطع هُدْبُها، ولم تلبس بَعْدُ. وقال القَزَّازُ: حاشيتا الثوب: ناحيتاه اللتان في طرفهما الهُدْبُ (الفتح: ٣/ ١٤٣).

(٣) (أتدرون): هو مقولة سهل بن سعد راوي الحديث كما جاء في رواية البخاري برقم (٦٠٣٦).

(٤) (قالوا: الشملة): في تفسير البُرْدَةِ بالشملة تَجَوُّزٌ؛ لأن البردةَ كِسَاءٌ، والشملة ما يشتمل به فهي أَعَمُّ، لكن لما كان أكثر اشتمالهم بها أطلقوا عليها اسمها (الفتح: ٣/ ١٤٣).

(٥) (فلان): هو عبد الرحمن بن عوف أو سهل بن سعد أو أعرابي.

قالَ القومُ: مَا أَحْسَنْتَ ، لَبِسَها النبيُّ ﷺ مُحْتاجاً إليها ، ثُمَّ سَأَلْتَهُ ، وعَلِمْتَ أَنَّهُ لا يَرُدُّ[1]!

قال: إنِّي واللهِ! ما سَأَلْتُهُ لأَلْبِسَها ، إنَّما سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي.

قال سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ.

قال الحافظ في الفتح (٣/ ١٤٤): «وفي هذا الحديث من الفوائد:

حسن خلق النبي ﷺ ، وسَعَةُ جوده ، وقبوله الهديةَ ، واستنبط منه المُهَلَّبُ جواز ترك مكافأة الفقير على هديته ، وليس ذلك بظاهر منه؛ فإن المكافأة كانت عادة النبي ﷺ مستمرة ، فلا يلزم من السكوت عنها ـ هنا ـ أن لا يكون فعلها ، بل ليس في سياق هذا الحديث الجزم بكون ذلك كان هدية فيحتمل أن تكون عرضتها عليه ليشتريها منها.

قال: وفيه جواز الاعتماد على القرائن ولو تجردت لقولهم: «فأخذها محتاجاً إليها» وفيه نظر ، لاحتمال أن يكون سبق لهم منه قول يدل على ذلك كما تقدم.

قال: وفيه الترغيب في المصنوع بالنسبة إلى صانعه إذا كان ماهراً ، ويحتمل أن تكون أرادت بنسبته إليها إزالة ما يخشى من التدليس.

وفيه جواز استحسان الإنسان ما يراه على غيره من الملابس وغيرها ، إمَّا ليعرفه قَدْرَها ، وإمَّا ليعرض له بطلبه منه حيث يسوغ له ذلك.

وفيه مشروعية الإنكار عند مخالفة الأدب ظاهراً ، وإن لم يبلغ المنكر درجة التحريم.

وفيه التبرك بآثار الصالحين.

وقال ابن بطَّالٍ: فيه جواز إعداد الشيء قبل وقت الحاجة إليه ، قال: وقد حفر جماعة من الصالحين قبورهم قبل الموت ، وتعقَّبه الزَّيْنُ بْنُ المنير بأن

---

(١) (لا يردُّ): أي سائلاً.

ذلك لم يقع من أَحَدٍ من الصحابة. قال: ولو كان مستحباً لكثر فيه.

وقال بعض الشافعية: ينبغي لمن اسْتَعَدَّ شيئاً من ذلك أن يجتهد في تحصيله من جهة يثق بحِلِّها، أو من أَثَرِ مَنْ يعتقد فيه الصلاح والبركة».

* * *

امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ

أخرج البخاري في كتاب المرضى (٥٦٥٢) ، واللفظ له ، ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٧٦) من حديث عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابنُ عباسٍ: ألا أريك امرأةً من أهل الجنة؟

قلت: بلى.

قال: هذه المرأَةُ السَّوْدَاءُ ، أتت النبي ﷺ ، فقالت: إني أُصْرَعُ[١] ، وإني أتكشَّفُ[٢] ، فادعُ اللهَ لي.

قال: «إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنةُ ، وإنْ شِئْتِ دَعَوْتُ الله أَنْ يعافيكِ».

فقالت: أصبرُ. فقالت: إني أتكشف ، فادعُ الله لي أن لا أتكشف ، فدعا لها.

حدثنا محمد ، أخبرنا مَخْلَدٌ ، عن ابن جُرَيج ، أخبرني عطاءٌ؛ أنه رأى أُمَّ زُفَرَ ، تلكَ المرأة الطويلة السوداء على سِتْرِ الكعبة[٣].

وفي أُسْدِ الغابة (٦/ ١٤٢): عن عطاء الخُراساني ، عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباسٍ: ألا أريك إنساناً من أهل الجنة؟

---

(١) في رواية: «إن بي هذه المُوْتَة». والمُوتَةُ: الجنون.

(٢) من التكشُّف ، والمراد أنها خشيت أن تظهر عورتها وهي لا تشعر.

(٣) أي جالسة عليها معتمدة.

قال: فأراني حبشيةً صفراءَ عظيمةً.

قال: هذه سُعَيْرَةُ الأَسَدِيَّةُ، أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن بي هذه المُوْتَةَ ـ تعني: الجنونَ ـ فادع اللهَ أن يشفيني مما بي.

فقال لها رسول الله ﷺ: «إن شئتِ دعوتُ الله ـ عز وجلَّ ـ أن يعافيكِ مما بكِ، ويكتب لك حسناتك وسَيِّئاتك، وإِنْ شئتِ فاصبري ولكِ الجنة؟» فاختارت الصبر والجنة.

وذكر ابن سعد وعبد الغني في المبهمات من طريق الزبير، أَنَّ هذه المرأة هي ماشطة خديجة التي كانت تتعاهد النبيَّ ـ ﷺ ـ بالزيارة.

وأخرج البزار (٧٧٢) كشف الأستار، والبغوي في شرح السنة (١٤٢٤) من حديث أبي هريرة شبيهاً بقصتها، ولفظهُ: جاءت امرأة بها لَمَمٌ[1] إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! ادْعُ اللهَ أن يشفيني.

قال: «إِنْ شئتِ دعوتُ اللهَ أن يشفيكِ، وإن شئتِ فاصبري، ولا حسابَ عليكِ».

قالت: بل، أصبرُ ولا حسابَ عَليَّ.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٣٠٧) وقال: «رواه البزار وإسناده حسن» وصححه ابن حبان (٧٠٨) موارد، والحاكم في المستدرك (٤/٢١٨) ووافقه الحافظ الذهبي في التلخيص.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ١١٥): «وفي الحديث فضل من يُصْرَعُ، وأن الصبر على بلايا الدنيا يورث الجنة، وأن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه الطاقة، ولم يضعف عن التزام الشدة، وفيه دليل على جواز ترك التداوي، وفيه أن علاج الأمراض كلها بالدعاء والالتجاءِ إلى الله أنجع وأنفع من العلاج بالعقاقير، وأن تأثير ذلك، وانفعال البدن عنه

(١) (لَمَمٌ): أي طرف من الجنون يُلِمُّ بالإنسان: أي يقرب منه ويعتريه (النهاية).

أعظم من تأثير الأدوية البدنية ؛ ولكن إنما ينجع بأمرين :

أحدهما : من جهة العَلِيل : وهو صدق القصد .

والآخر من جهة المداوي : وهو قوة توجهه وقوة قلبه بالتقوىٰ والتوكل ، والله أعلم» .

* * *

يا عائِشَةُ! أَحْسِنِي صَلاتَكِ

أخرج الترمذي في الشمائل رقم (١٣٠) بتحقيقي ، والطبراني في الكبير والأوسط ، وأبو يعلىٰ في مسنده برواية أبي عَمْرِو بن حمدان برقم (٦٨٢٤) ـ واللفظ له ـ من حديث عطاءٍ ، عن الفضل بن عَبّاسٍ ، قال:

دَخَلتُ على النبيِّ ـ ﷺ ـ في مرضه ، وعند رأسه عصابة حمراء ـ أو قال: صفراءُ ـ فقال: «ابْنَ عَمِّي! خُذْ هٰذِهِ العصابَةَ فَاشْدُدْ بِها رَأْسِي».

فشددت بها رأسه.

قال: ثم تَوَكَّأَ عَلَيَّ حتى دخلنا المسجدَ ، فقال: «يا أَيُّها النَّاسُ! إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يكونَ قد قَرُبَ مِنِّي خُفُوفٌ[1] مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ ، فَمَنْ كُنْتُ أَصَبْتُ مِنْ عِرْضِهِ[2] ، أَو مِنْ شَعْرِهِ ، أَوْ مِنْ بَشَرِهِ ، أَوْ مِنْ مَالِهِ شيئاً ، هذا عِرْضُ مُحَمَّدٍ ، وشَعْرُهُ ، وبَشَرُهُ ، ومَالُهُ ، فَلْيَقُمْ ، فَلْيَقْتَصَّ ، ولا يَقُولَنَّ أحدٌ منكمْ؛ إِنِّي أَتَخَوَّفُ مِنْ مُحَمَّدٍ العَداوَةَ والشَّحناءَ.

أَلا وَإِنَّهُما لَيْسا مِنْ طَبِيْعَتِي ، وَلَيْسا مِنْ خُلُقِي».

قال: ثم انْصَرَفَ. فَلَمَّا كان من الغَدِ أَتَيْتُهُ ، فقال: «ابْنَ عَمِّيَ لا أَحْسَبُ أَنَّ

---

(١) (خُفُوفٌ): أي حركةٌ وقرب ارتحالٍ. يريد الإنذارَ بموته ﷺ (النهاية).

(٢) (العِرْضُ): موضع المدح والذم من الإنسانِ ، سواء كان في نفسه أو في سَلَفِهِ ، أو مَنْ يلزمه أمرُهُ. وقيل: هو جانبه الذي يصونه من نفسه وَحَسَبِهِ ، ويحامي عنه أن ينتقص ويثلب. وقال ابن قتيبة: عِرضُ الرجل: نَفْسُهُ وبَدَنُهُ لا غير (النهاية).

مَقَامي بالأمسِ أَجْزَى عَنِّي. خُذْ هٰذِهِ العِصَابَةَ؛ فاشْدُدْ بها رَأْسِي».

قال: فَشَدَدْتُ بِها رَأْسَهُ.

قال: ثُمَّ تَوَكَّأَ عَلَيَّ، حتى دَخَلَ المَسْجِدَ، فقال مِثْلَ مَقَالَتِهِ بالأَمْسِ، ثم قال: «فَإِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنا مَنِ اقْتَصَّ».

قال: فقام رجلٌ، فقال: يا رسول الله! أرأيتَ يوم أتاك السائلُ، فسألكَ، فقلتَ: «مَنْ مَعَهُ شَيءٌ يُقْرِضُنا؟». فَأَقْرَضْتُكَ ثَلاثَةَ دَرَاهِمَ[1].

قال: فقال: «يا فَضْلُ! أَعْطِهِ». قال: فَأَعْطَيْتُهُ.

قال: ثُمَّ قال: «وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْه شَيءٌ فَلْيَسْأَلْنا نَدْعُ لَهُ».

قال: فقام رجل، فقال: يا رسول الله! إِنِّي رجل جَبَانٌ، كثيرُ النَّوْمِ.

قال: فدعا له.

قال الفضلُ: فَلَقَدَ رَأَيْتُهُ أَشْجَعَنَا، وَأَقَلَّنا نَوْماً.

قال: ثُمَّ أَتَى بَيْتَ عائِشَةَ، فقال للنساءِ مِثْل ما قال للرِّجالِ، ثم قال: «وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ شَيءٌ فَلْيَسْأَلْنا، نَدْعُ لَهُ».

قال: فَأَوْمَأَتِ[2] امرأةٌ إِلى لسانها.

قال: فدعا لها.

قال: فَلَرُبَّما قالت لي: يا عائشةُ! أحسني صلاتَكِ. اهـ.

هذا الحديث ضعّف إسناده أستاذنا المحدث حسين أسد حفظه الله تعالى. وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٦): «رواه الطبراني في الكبير

---

(١) (الدرهم): سبعة أعشار الدينار. والدينار حدده بنك فيصل الإسلامي بالسودان بـ (٤,٤٥٧) غرام ذهب. وحدده الدكتور وهبي الزحيلي في كتابه الفقه الإسلامي وأدلته بـ (٤,٢٥) غرام ذهب، أو وزن (٧٢) حبة من الشعير المتوسط. وكان الدرهم زمن النبي ﷺ يشتري شاةً.

(٢) (أومأت): أشارت.

والأوسط وأبو يعلى بنحوه. . . وفي إسناد أَبي يَعْلىٰ عطاء بن مسلم ، وثقه ابن حِبَّانَ وغيره ، وضعَّفَهُ جماعة ، وبقية رجال أبي يعلى ثقات ، وفي إسناد الطبراني مَنْ لم أعرفهم».

وقال الحافظ الذهبي : «أخاف أن يكون كذباً مختلقاً».

* * *

امرأةٌ جَليلةٌ تسألُ عنِ الحَلالِ من الأمْوالِ

أخرج أبو داود في «سننه» برقم (١٦٨٦) باب: المرأة تتصدق من بيت زوجها، من حديث سيدنا سعد بن أبي وقَّاصٍ، خالِ النبي ﷺ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، قال: لما بايع رسول الله ـ ﷺ ـ النساءَ، قامت امرأة جليلة، كأنها من نساء مُضَرَ، فقالت: يا نبي الله! إنَّا كَلٌّ على آبائنا وأبنائنا ـ قال أبو داود: وأرى فيه: وأزواجنا ـ، فما يحل لنا من أموالهم؟

قال: «الرَّطْبُ: تَأْكُلْنَهُ وَتُهْدِيْنَهُ».

قال أبو داود: «الرَّطْبُ: الخبز والبَقْلُ والرُّطَبُ» اهـ.

قال المحدث الشيخ عبد القادر الأرنؤوط في تعليقه على «جامع الأصول» (١٠/ ٥٧١): «إسناده لابأس به».

معنى: «كَلٌّ على آبائنا وأبنائنا» أي: عِبءٌ وعِيَالٌ عليهم.

وقال ابن الأثير في جامع الأصول: «امرأة جليلة: أي كبيرة القَدْرِ عظيمةٌ».

وقال الإمام أبو سليمان: حَمْدُ بن محمد الخَطَّابيُّ المتوفى (٣٨٨) هـ في معالم السنن: «الجليلة تكون بمعنيين، أحدهما: أن تكون خليقةً جسيمةً. يقال: امرأة خليقة، وخليقاء كذلك.

والآخر: أن تكون بمعنى المُسِنَّةِ، يقال: جَلَّ الرجلُ إذا كبر وأَسَنَّ،

وجَلَّتِ المرأةُ إذا عجزت ، وإنما خَصَّ الرَّطْبَ من الطعام؛ لأن خَطْبَهُ أيسرُ ، والفسادَ إليه أسرعُ إذا ترك فلم يؤكل ، وربما عفن ، ولم ينتفع به ، فيصير إلى أن يلقى ويرمى به ، وليس كذلك اليابس منه ، لأنه يبقى على الخزن ، وينتفع به إذا رفع وادّخر ، فلم يأذن لهم في استهلاكه ، وقد جَرَتْ العادة بين الجيرة والأقارب أَنْ يتهادوا رَطْبَ الفاكهة والبقول ، وأن يغرفوا لهم من الطبيخ ، وأن يتحفوا الضيف والزائر بما يحضرهم منها ، فوقعت المسامحة في هذا الباب ، بأن يترك الاستئذان له ، وأن يجري علىٰ العادة المستحسنة في مثله.

وإنما جاء هذا فيمن ينبسط إليه في ماله من الآباء والأبناء دون الأزواج والزوجات؛ فإن الحال بين الوالد والولد ألطفُ من أَنْ يحتاج معها إلىٰ زيادة استقصاءٍ في الاستثمار ، للشركة النسبية بينهما ، والبعضية الموجودة فيهما.

فأما نفقة الزوجة على الزوج فإنها معاوضة علىٰ الاستمتاع ، وهي مقدرة بكمية ومتناهية إلى غاية ، فلا يقاس أَحَدُ الأمرين بالآخر ، وليس لأحدهما أن يفعل شيئاً من ذلك إلاّ بإذنِ صاحبه وقد وضعه أبو داودَ في باب: المرأة تتصدق من بيت زوجها».

قلت: لم يمنع هذه الصحابية جلالةُ قدرها ، ورِفْعَةُ منزلتها من أن تسأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الحلال من أموال الآباء والأبناء والأزواج. وذلك مخافة الوقوع في المعصية والحرام.

وحياء النساء من السؤال عن أمر دينهن يوقعهن في كثير من المخالفات والذنوب.

ومما أذكره في ذلك قصة امرأة في زماننا ، بقيت تصلي خمس سنين ، دون أن تغتسل من حيضها. ثم عَنَّ لها أن تسأل عن ذلك فضيلة الدكتور سعيد رمضان البوطي[1] ، فتَأَمَّلْ!

* * *

(١) ورد ذلك في كتاب «مع الناس مشاورات وفتاوى» ص: (٢٦) لفضيلة الدكتور البوطي.

رُؤْيَا صَالِحَةٌ

أخرج الإمام أحمد في المسند (٣/ ١٣٥) وعَبْدُ بن حُميد في المنتخب من المسند برقم (١٢٧٥) عن أنس بن مالك قال:

كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا الحسنة ، وكان فيما يقول: «هَلْ رَأَىٰ أَحَدٌ منكم رُؤْيا؟».

فإذا رأىٰ الرجل الذي لا يعرفه ، سأل عنه ، فإِنْ أُخبرَ عنه بمعروفٍ ، كان أعجبَ لرؤياه.

قال فجاءت امرأة فقالت: يا رسول الله! رأيتُ في المنام كأني أُخْرِجْتُ ، فأدخلتُ الجنة ، فسمعتُ وَجْبَةً[1] ، ارتجَّتْ لها الجنة. فإذا أنا بفلان ابن فلان ، وفلان ابن فلان ، حتىٰ عدَّتْ اثني عشر رجلاً. وقد بعث رسول الله ﷺ سرية قبل ذلك ، فجيء بهم عليهم ثياب طُلْسٌ[2] ، تشخبُ أوداجهم[3]. فقيل لهم: اذهبوا إلى نهر البيذخ (عند أحمد: البيدج) فغمسوا فيه ، فخرجوا ، وجوههم كالقمر ليلة البدر.

قالت: وأتوا بكراسي من ذهب فقعدوا عليها ، وجيء بصَحْفة[4] من ذهب

---

(١) (الوجْبَةُ): السَّقطةُ مع الهدَّة (النهاية).

(٢) (ثياب طُلْسٌ): أي ثياب وسخة مغبرة.

(٣) (تشخب أوداجهم): أي تسيل دماً.

(٤) (الصَّحْفةُ): إناء من آنية الطعام.

فيها بُسْرٌ[1] ، فأكلوا من بُسْرٍ ما شاؤوا ، فما يقلبونها لوجه إلا أكلوا من فاكهة ما شاؤوا.

قالت: يا رسول الله! وأكلت معهم.

فجاء البشير من تلك السرية ، فقال: يا رسول الله! كان كذا ، وكان كذا ، وأصيب فلان وفلان ، حتى عدَّ اثني عشر رجلاً.

قال: «عليَّ بالمرأة» فجاءت.

فقال: «قُصِّي رؤياكِ على هذا».

فقال الرجل: هو كما قالت ، أصيبَ فلان وفلان.

قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٧٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

* * *

(١) (البُسْرُ): ثَمَرَ النخل قبل أن يصير رُطباً.

ادْخُلوا كُلُّكُمْ

أخرج البخاري في كتاب الأدب برقم (٦٠٧٣ ، ٦٠٧٤ ، ٦٠٧٥) من حديث الزُّهْرِيِّ قال: حدثني عَوْفُ بْنُ مالكِ بن الطُّفَيْلِ هو ابن الحارث ، وهو ابن أَخي عائشة زوج النبيِّ ـ ﷺ ـ لأمِّها[١] ، أَنَّ عائشةَ حُدِّثَتْ أَنَّ عبدَ الله بنَ الزُّبَيْرِ[٢] قال في بَيْعٍ أو عطاءٍ أَعْطَتْهُ عائِشَةُ[٣]: والله! لَتَنْتَهِيَنَّ عائشةُ أو لأَحْجُرَنَّ عليها[٤] ، فقالت: أَهُوَ قال هذا؟

قالوا: نعم.

قالت: هو للهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنَّ لا أُكَلِّمَ ابْنَ الزُّبيْرِ أبداً[٥].

فاستشفعَ ابنُ الزُّبير إليها حين طالت الهِجْرَةُ[٦] ، فقالت: لا ، والله!

---

(١) (لأُمِّها): هي أم رُومان بنت عامر الكنانية.

(٢) هو ابن أخت عائشة ، وكانت قد تولَّتْ تربيته حتى كانت تكنى به.

(٣) في رواية الأوزاعي: «في دارٍ لها باعتها ، فسخط عبد الله بن الزبير بيع تلك الدار».

(٤) (لأَحْجُرنَّ عليها): الحَجْرُ: المَنْعُ ، ومنه حَجْرُ القاضي على السفيه: إذا منعه من التصرف بماله (جامع الأصول: ٦/ ٦٥٠).

(٥) قال ابن التين: «تقديره: عليَّ نذرٌ إنْ كَلمته» (الفتح: ١٠/ ٤٩٤). قال ابن علان في دليل الفالحين (٨/ ٦٨١): «هو نذر لجاج ، والناذر مخير بين بقائه على ترك ما نذر تركه ، أو الحنث فيه والإتيان بكفارة يمين».

(٦) (الهِجْرةُ): ترك الشخص مكالمة الآخر إذا تلاقيا (الفتح: ١٠/ ٤٩٢).

لا أُشَفِّعُ فيه أبداً[١] ، ولا أَتَحَنَّثُ إلىٰ نذري[٢] .

فلما طالَ ذلكَ علىٰ ابن الزُّبَيْرِ كَلَّمَ المِسْوَرَ بن مَخْرَمَةَ ، وعبدَ الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ـ وهما من بني زُهْرَةَ ـ[٣] وقال لهما : أَنْشُدُكُما بالله[٤] لَمَا أدخلتماني علىٰ عائشة ؛ فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتي[٥] .

فأقبل به المِسْوَرُ وعبد الرحمن مُشْتَمِلَيْنِ بأَرْدِيتهما حتى استأذنا علىٰ عائشة ، فقالا : السلام عليكِ ورحمة الله وبركاته ، أَنَدْخُلُ؟

قالت : ادخلوا .

قالوا : كُلُّنا؟

قالت : نعم[٦] ، ادخلوا كُلُّكُمْ ـ ولا تعلم أَنَّ معهما ابْنَ الزُّبيرِ ـ فلما دخلوا دخل ابن الزُّبير الحِجَابَ ، فاعْتَنق عائشةَ ، وطَفِقَ[٧] يُنَاشِدُها[٨] ، ويبكي ، وطَفِقَ المِسْوَرُ وعبدُ الرحمن يُناشِدانها إلاَّ ما كَلَّمَتْهُ ، وقَبِلَتْ منه ، ويقولان : إنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ نهىٰ عَمَّا قد عَلِمْتِ من الهِجْرَةِ ؛ فإنه لا يَحِلُّ لمسلمٍ أَنْ يَهْجُرَ أخاه فوق ثلاثٍ ، فلما أكثروا على عائشةَ من التَّذْكرة[٩] والتَّحْريج[١٠] طَفِقَتْ

---

(١) (لا أشَفِّع فيه أبداً) : أي لا أقبل فيه شفاعة أحدٍ .

(٢) (ولا أتَحَنَّثُ إلىٰ نذري) : أي لا أكتسب الحِنْثَ وهو الذنبُ .

(٣) أي أخوال رسول الله ﷺ .

(٤) (أنشدُكما بالله) : أسألكما به .

(٥) (قطيعتي) : القطيعة : الهجران وترك المكالمة (جامع الأصول : ٦/ ٦٥١) . قال في دليل الفالحين «وهي أداها اجتهادها إلى جوازه ؛ لأنه طاعة فالتزمته بصفة النذر ، وإلا فلو رأته محرماً ، فالظن بها أن لا تفعله فضلاً عن كونها تلتزمه ، فضلاً عن كونها تنذره» .

(٦) في رواية الأوزاعي : «قالا : ومن معنا؟ قالت : ومَنْ معكما» .

(٧) (طفق) : أخذ .

(٨) (يُناشدها) : يسألها ويقسم عليها أَنْ ترضىٰ عنه .

(٩) (التذكرة) : أي التذكير بما جاء في فضل صلة الرحم والعفو وكظم الغيظ .

(١٠) (التحريج) : التضييق والتأثيم ، وذلك أنهما كانا ـ بتكرار المبالغة في القول والخطاب معها ـ ضَيَّقا عليها وجْهَ الاعتذار ، وأوقعاها في الإثم بالامتناع من إجابتهما .

تذكِّرهما وتبكي وتقول: إني نذرتُ ، والنَّذْرُ شديد.

فلم يزالا بها حتى كَلَّمَتْ ابْنَ الزُّبَيْر ، وأَعْتَقَتْ في نذرها ذلك أربعينَ رَقَبَةً ، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكي حتى تَبُلَّ دموعُها خِمارَها[1].

وفي رواية عند البخاري تعليقاً (٣٥٠٥) في المناقب من حديث عروة بن الزبير قال: «كان عبد الله بن الزبير أحبَّ البشر إلى عائشة بعد النبي ـ ﷺ ـ وأبي بكر ، وكان أَبَرَّ الناس بها ، وكانت لا تمسك شيئاً[2] مما جاء من رزق الله تصدَّقت به.

فقال ابن الزبير: ينبغي أن يُؤْخَذَ على يديها[3] ، فقالت: أيؤخذُ على يدَي؟ عَلَيَّ نذرٌ إنْ كلَّمْتُهُ. فاستشفع إليها برجالٍ من قريشٍ ، وبأخوال رسول الله ـ ﷺ ـ خاصةً ، فامتنعت.

فقال له الزُّهْريُّون أخوالُ النبي ـ ﷺ ـ منهم: عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث والمِسْوَرُ بن مَخْرَمَةَ: إذا استأذنَّا فاقتحم الحجابَ[4] ، ففعل ، فأرسل إليها بعشر رقابٍ فأعتقتهم ، ثم لم تزلْ تعتقهم حتى بلغت أربعين ، فقالت: وَدِدْتُ أني جعلتُ ـ حين حَلَفْتُ ـ عملاً أعمله فأَفْرُغَ منه».

وفي رواية طرفٍ منه عند البخاري (٣٥٠٣) عن عروة قال: «ذهب عبد الله ابن الزبير مع أُناسٍ من بني زُهْرَةَ إلى عائشة ، وكانت أَرَقَّ شيءٍ عليهم ، لقرابتهم من رسول الله ﷺ».

* * *

---

(١) (الخِمار) غطاء الرأس والصدر.

(٢) (لا تمسك شيئاً): أي لا تدخر شيئاً مما يأتيها من المال.

(٣) (ينبغي أن يؤخذ على يديها): أي يُحْجر عليها (الفتح: ٦/ ٥٣٦).

(٤) أي ادخله مُسْرِعاً من غير إذْنٍ.

أَفَسَدْتَ عَلَيْهِ دنياهُ وأَفْسَدَ عليكَ آخِرَتَكَ

أسماء بنت أبي بكر الصديق القرشية التيمية ، ذاتُ النِّطَاقَيْنِ ، مهاجرة كريمة ، وسيدة كبيرة بعقلها ، وعزة نفسها ، وقوة إرادتها . وكانت فصِيحةً ، حاضرةَ القلب واللُّبِّ . تقول الشعر .

أبوها : أبو بكر الصديق أول خليفة للمسلمين بعد وفاة المصطفى ﷺ .

وجدها : أبو قُحافة ، صحابي .

وأمها : صحابية[1] .

وزوجها : الزبير بن العوام ، صحابي ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ؛ وابن عمة رسول الله ﷺ ، وحواريُّهُ الذي يعدُّ بألف فارسٍ ، وطالما فرَّج بسيفه الكُرَبَ عن وجه رسول الله ﷺ .

وأم الزبير : صفية بنت عبد المطلب ، صحابية .

وابن أسماء : عبد الله بن الزبير ، صحابي من الخلفاء .

وعروة ابن الزبير ابنُها أحد فقهاء المدينة السبعة .

وعائشة أم المؤمنين أختها لأبيها .

وعبد الله بن أبي بكر الصديق أخ شقيق لها .

---

(١) على خلاف في ذلك انظر ترجمتها في أُسْد الغابة وغيره .

قال أبو نُعَيم الأصبهاني : وُلِدَتْ قبل التاريخ (أي الهجرة) بسبع وعشرين سنةً ، وكان عمر أبيها لما وُلدت نيفاً وعشرين سنة ، وأسلمت بعد سبعة عشر إنساناً ، وهاجرت إلىٰ المدينة وهي حامل بعبد الله بن الزبير ، فوضعتْهُ بقُباءَ[1] .

من حُسْنِ إسلامها أَنَّ أُمَّها قَيْلَةَ ـ وقيل : قُتَيْلَةَ ـ بنت عبد العُزَّىٰ قدمت على ابنتها أسماء بنت أبي بكر ـ وكان أبو بكر طلَّقها في الجاهلية ـ بهدايا : زبيبٍ وتَمْرٍ وقرط ، فأبت أن تقبل هديتها ، أو تدخل بيتها ، فأرسلَتْ إلى عائشة : سلي رسول الله ﷺ ، فكان الجوابُ : لِتَدْخُلْ بَيْتَها وَلْتَقْبَلْ هَديَّتَها .

روىٰ ابن إسحاق (كما في سيرة ابن هشام : ١/ ٤٨٨) عن يحيى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير ؛ أن أباه عَبَّاداً حدثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر ، قالت : لما خرج رسول الله ﷺ ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كُلَّهُ ، ومعه خمسة آلاف درهم ، أو ستة آلافٍ ، فانطلق بها معه .

قالت : فدخل علينا جَدِّي أبو قُحافة ، وقد ذَهَبَ بَصَرُهُ ، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه!

قالت : قلتُ : كلاَّ يا أَبَتِ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً .

قالت : فأخذت أحجاراً فوضعتها في كُوَّةٍ في البيت الذي كان أبي يَضَعُ ماله فيها ، ثم وَضَعَتْ عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أَبَتِ! ضَعْ يدك على هذا المالِ . قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لابأسَ ، إذا كان ترك لكم هذا فَقَدْ أَحْسَنَ ، وفي هذا بلاغٌ لكم . ولا والله! ما ترك لنا شيئاً ، ولكني أردتُ أن أسكن الشيخ بذلك» .

وشهدت أسماء وقعة اليرموك مع زوجها الزبير بن العوام ، وولدها عبد الله ابن الزبير ، وأبلت فيها بلاءً حسناً ، واتخذت خنجراً زمن سعيد بن العاص في الفتنة ، فوضعتها تحت مرفقها ، فقيل لها : ما تَصْنعين بهذا؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٩) ، ومسلم (٢١٤٦) من حديث أسماء بنت أبي بكر .

قالت: إنْ دخَلَ علي لِصٌّ بعجت بطنه. فَعَرض عمر بن الخطاب لأسماء ألف دِرْهَمٍ.

وكانت أسماء ذات جودٍ وكرمٍ، لا تدَّخر شيئاً لغدٍ، فكانت تمرض المرضةَ، فتعتق فيها كل مملوك لها.

وكانت تقول لبناتها ولأهلها: أنفقوا، أو أنفقن وتصدَّقْنَ، ولا تَنْتَظِرْنَ الفَضْلَ، فإنَّكُنَّ إن انتَظَرْتُنَّ الفَضْلَ، لَمْ تُفْضِلْنَ شَيْئاً. وإنْ تَتَصَدَّقْنَ لم تَجِدْنَ فَقْدَهُ.

وأخرج ابن سعد بسند حَسَنٍ عن ابن أبي مُلَيْكَةَ: كانت أسماء تصدع، فتضع يدها على رأسها، وتقول بذنبي، وما يغفرُ اللهُ أكثرُ.

وكانت أسماء مع عظيم شرفها، ورفعة مكانها لا تأنف من خدمة نفسها وزوجها الزبير بن العوام، احتساباً للأجر، وطلباً للمثوبة. روى البخاري (٥٢٢٤)، ومسلم (٢١٨٢) عن أسماء قالت:

تزوجني الزبير وماله في الأرض مالٌ[١]، ولا مملوك، ولا شيء غير ناضح[٢]، وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وأَخْرِزُ غَرْبَهُ[٣]، وأَعْجِنُ[٤]، ولم أَكُنْ أُحْسِنُ أَخْبِزُ، وكان يَخْبِزُ جاراتٌ لي من

---

(١) (مالٌ): المراد بالمال الإبلُ أو الأراضي التي تزرع. وهو استعمال معروف للعرب يطلقون المال على كل من ذلك (الفتح: ٩/ ٣٢٢).

(٢) (ناضح): الناضح: البعير يُستقىٰ عليه الماء (جامع الأصول: ٦/ ٥٠١).

(٣) (غَرْبَهُ): الغَرْبُ: الدَّلو ويعني أنها كانت تخرز له دلوه وراويته (جامع الأصول: ٦/ ٥٠١).

(٤) قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: «هذا كله من المعروف والمروءات التي أطبق الناس عليها. وهو أن المرأة تخدم زوجها بهذه الأمور المذكورة ونحوها من الخبز والطبخ وغسل الثياب وغير ذلك. وكله تبرع من المرأة وإحسان منها إلى زوجها، وحسن معاشرتها، وفعل معروف ولا يجب عليها شيء من ذلك؛ بل لو امتنعت من جميع هذا لم تأثم، ويلزمه تحصيل هذه الأمور لها. ولا يحل له إلزامها بشيء من هذا؛ وإنما تفعله المرأة تبرعاً. وهي عادة جميلة استمرَّ عليها النساء من الزمن الأول إلى=

الأنصار ، وكُنَّ نِسْوَةَ صِدْقٍ[١] ، وكنتُ أَنْقُلُ النَّوىٰ من أرض الزُّبير ـ التي أقطعه رسولُ الله ـ ﷺ ـ علىٰ رأسي ، وهي مِنِّي علىٰ ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ[٢] .

فجئت يوماً ، والنَّوىٰ علىٰ رأسي ، فلقيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ ومعه نفر من الأنصار ، فدعاني ، ثم قال: إِخْ إِخْ[٣] ، ليحملني خلفه[٤] ، فاستَحْيَيْتُ أن أسيرَ مع الرجال ، وذكرتُ الزُّبيرَ وغَيْرَتَهُ ـ وكان أَغْيَرَ الناسِ ـ فعرف رسولُ الله ـ ﷺ ـ أني قد استحييتُ ، فمضىٰ ، فجئتُ الزبيرَ ، فقلتُ: لقيني رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى رأسي النَّوىٰ ، ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركب ، فاستحييتُ منه ، وعرفتُ غَيْرَتَكَ ، فقال: والله! لَحَمْلُكِ النَّوىٰ كان أَشَدَّ عليَّ من رُكوبكِ معه .

قالت: حتى أرسلَ إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسةَ الفَرَسِ[٥] ، فكأنما أَعْتَقَتْنِي .

وفي رواية عند مسلم (٢١٨٢/ ٣٥) عن ابن أبي مُلَيْكَةَ ؛ أن أسماء قالت: كنت أَخْدُمُ الزُّبير خِدْمَةَ البيتِ ، وكان له فَرَسٌ ، وكنت أَسُوسُهُ ، فلم يكن من

= الآن ، وإنما الواجب على المرأة شيئان: تمكينها زوجَها من نفسها ، وملازمة بيته. وانظر زاد المعاد (١٨٦/٥) ، الفتح (٣٢٤/٩) ، مجموعة رسائل الحامد ص (٣٦ ـ ٣٧).

(١) (وكُنَّ نسوة صِدْقٍ): أضافتهن إلىٰ الصدق مبالغةً في تلبسهن به في حسن العشرة والوفاء بالعهد (الفتح: ٩/ ٣٢٣).

(٢) (على ثلثي فرسخ): أي من مَسْكنها بالمدينة . ويساوي الفرسخ (٥٥٤١) متراً. وهو عند القدماء ثلاثة أميال ، والميل: ستة آلاف ذراع . والذراع: أربعة وعشرون إصبعاً معترضة معتدلة . والإصبع: ست شعيرات معترضات معتدلات .

(٣) (إخ إخ): بكسر الهمزة ، وسكون الخاء ، كلمة تقال للبعير لمن أراد أن ينيخه (الفتح: ٣٢٣/٩).

(٤) (ليحملني خلفه): كأنها فهمت ذلك من قرينة الحال ؛ وإلاَّ فيحتمل أن يكون ـ ﷺ ـ أراد أَنْ يُرْكِبَها وما مَعَها ، ويركبَ هو شيئاً آخر غير ذلك (الفتح: ٩/ ٣٢٣).

(٥) (سياسة الفرس): عَلَفُهُ وخدمته .

الخدمة شيء أَشَدَّ عليَّ من سياسة الفَرَسِ ، كنتُ أَحَتَشُّ له[1] ، وأقوم عليه وأسوسه.

قال : ثم إنها أصابت خادِماً. جاء النبيَّ - ﷺ - سَبْيٌ فأعطاها خادماً.

قالت : كَفَتْني سياسةَ الفَرَسِ ، فَأَلْقَتْ عني مُؤْنَتَهُ.

فجاءني رجل ، فقال : يا أم عبد الله ! إني رجل فقير . أردتُ أن أبيع في ظِلِّ دارِكِ.

قالت : إني إنْ رَخَّصْتُ لكَ أبىٰ ذلك الزُّبيرُ ، فتعال ، فاطلبْ إليَّ ، والزبير شاهِدٌ.

فجاء ، فقال : يا أُمَّ عبد الله ! إني رجل فقير ، أردتُ أن أبيعَ في ظِلِّ دارِكِ.

فقالت : ما لكَ بالمدينة إلاَّ داري؟

فقال لها الزبيرُ : ما لكِ أَنْ تمنعي رجلاً فقيراً يبيعُ.

فكان يبيعُ إلى أن كَسَبَ ، فَبِعْتُهُ الجارية ، فدخل عليَّ الزبيرُ ، وثمنها في حَجْري[2] ، فقال : هَبيها لي.

قالت : إني قد تصدقتُ بها.

وكان لها من الحَجَّاج موقف جريء ، يُنْبِىءُ عن شجاعتها ، ومضاء عزيمتها ، وعِزَّة نفسها.

دخل عليها ابنُها عبد الله ليودِّعَها ، وكان يكره أن يأتيها فتعزم عليه أن يأخذ الأمان ، فسلَّم عليها وقد كُفَّ بصرهُا ، فقالت : مَنْ هذا؟

فقال : عبد الله ، فَتَشَمَّمَتْهُ ، ثم قالت : يا بُنَيَّ! مُتْ كريماً.

فقال لها : إن هذا قد أَمَّنني (يعني : الحجاجَ).

قالت : يا بني! لا ترضَ الدنيةَ ، فإن الموت لا بُدَّ منه.

---

(١) (أحتش) : أي آخذ الحشيش ، وهو اليابس من الكلأ.

(٢) (حَجْري) بفتح الحاء وكسرها : حِضْني.

قال: إني أخاف أن يُمَثَّلَ بي.

قالت: إن الكبش إذا ذُبحَ لم يأْمَنِ السَّلْخَ، فخرج، فقاتل، حتى قُتِلَ.

وروىٰ الإمام مسلم في صحيحه (٢٥٤٥) عن أبي نوفل قال:

رأيت عبد الله بن الزبير علىٰ عَقَبَةِ المدينة[١]. قال فجعلتْ قريش تمر عليه[٢] والناسُ. حتى مرَّ عليه عبد الله بن عمر. فوقف عليه فقال: السلام عليك، أبا خُبَيْبٍ[٣]! السلام عليك، أبا خُبَيْبٍ! السلام عليك، أبا خُبَيْبٍ!

أما والله! لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله! لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله! لقد كنت أنهاك عن هذا. أما والله! إنْ كنتَ، ما علمتُ، صوّاماً، قوّاماً، وصولاً للرحم، أما والله! لأمة أنت شرُّها لأُمَّةٌ خيرٌ.

ثم نفذ[٤] عبد الله بن عمر، فبلغ الحجاج موقفُ عبد الله وقوله. فأرسل إليه[٥] فأنزل عن جِذْعِهِ، فألقي في قبور اليهود، ثم أرسل إلى أُمِّه أسماء بنت أبي بكر. فأبت أن تأتيه. فأعاد عليها الرسولَ: لَتَأْتِيَنِّي، أو لأبعثنَّ إليكِ من يَسْحَبُكِ بقرونك[٦]. قال: فأبت، وقالت: والله! لا آتيك حتى تبعث إليَّ من يسحبني بقروني.

قال فقالَ: أروني سِبْتَيَّ[٧]، فأخذ نعليه، ثم انطلق يتوذَّفُ[٨]، حتى دخل عليها، فقال: كيف رَأَيْتِني صنعتُ بعدو الله؟

قالت: رأيتكُ أفسدت عليه دُنْياهُ، وأفسد عليك آخرتك.

---

(١) (عقبة المدينة): هي عَقَبَةٌ بمكة. والعقبة: جبل طويل يعرض للطريق فيأخذ فيه.
(٢) (تمر عليه): أي وهو مصلوب.
(٣) (أبا خبيب): كنية عبد الله بن الزبير بن العوام.
(٤) (ثم نفذ): أي انصرف.
(٥) (إليه): أي إلى عبد الله بن الزبير.
(٦) (من يسحبك بقرونك): أي يجركِ بضفائر شعرك.
(٧) (سِبْتيَّ): السِّبْتُ: هي النعل التي لا شعر عليها.
(٨) (يتوذّف): قال أبو عبيد: معناه يسرع. وقال أبو عمرو. معناه: يتبختر.

بلغني أنك تقول له: يا ابن ذات النطاقين[1]! أنا، والله! ذات النطاقين.

أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ، وطعام أبي بكر من الدوابِّ. وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه. أما إن رسول الله ﷺ حدثنا: «أَن في ثقيف كَذَّاباً[2] ومُبيراً[3]».

فأما الكذَّابُ فرأيناه. وأما المبيرُ فلا إخالك[4] إلا إياه.

قال فقام عنها ولم يراجعها.

توفيت رحمها الله ـ بمكة سنة ثلاث وسبعين للهجرة ـ بعد مقتل ولدها عبد الله.

قال ابن الأثير في أسد الغابة (٦/ ١٠): وعاشت بعد قتله. قيل: عشرة أيام وقيل: عشرون يوماً، وقيل: بضع وعشرون يوماً، حتى أتىٰ جواب عبد الملك ابن مروان بإنزال عبد الله ابنها من الخشبة. وماتت ولها مئة سنة».

* * *

---

(١) (ذات النطاقين): قال العلماء: النطاق أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشيء، وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل. تفعل ذلك عند معاناة الأشغال لئلا تعثر في ذيلها.

(٢) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب ادعىٰ أنَّ الوحي يأتيه. وأنه يعلم الغَيب. قتل سنة (٦٧) هـ. انظر ترجمته في السير ٣/ ٥٣٨ ـ ٥٤٤، والأعلام ٧/ ١٩٢.

(٣) (مُبيراً): أي مهلكاً.

(٤) (إخالُك): أظنك.

أَرَىٰ وَجْهاً هُوَ جَنَاحُ رسُولِ اللهِ ﷺ

رویٰ الحافظ أبو بكرٍ : محمدُ بنُ جعفرِ بنِ سَهْلٍ الخَرائطيُّ في «المنتقىٰ من كتاب مكارم الأخلاق» برقم (٣١٠) من طريق علي بن الأعرابي ، أخبرنا عليُّ ابن عَمْرٍو ، قال : نزل عُبيد الله بن العباس بن عبد المطلب منزلاً مُنْصَرَفَهُ[١] من الشام نحو الحجاز ، فطلب غِلْمانُهُ طعاماً ، فلم يجدوا في ذلك المنزل ما يكفيهم ، لأنه كان مَرَّ به زياد بن أبي سُفيان[٢] ، أو عُبيد الله بن زيادٍ[٣] في جَمْعٍ عظيم ، فَأَتَوْا على ما فيه ، فقال عُبيد الله لوكيله : اذهب في هذه البريَّةِ ، فلعلَّكَ أن تجد راعياً ، أو تجد أَخْبِيَةً[٤] فيها لَبَنٌ أو طعامٌ .

فمضىٰ القَيِّمُ[٥] ومعه غلمان عُبيد الله ، فوقفوا إلى عجوز في خِباءٍ ، فقالوا : هل عندكِ من طعامٍ نبتاعه[٦] منكِ؟

---

(١) (مُنصَرَفَهُ) : أوانَ انصرافه .

(٢) هو زياد بن أبيه : أمير من الدهاة القادة الفاتحين الولاة . ولد بالطائف سنة (١) هـ ، ومات بالعراق سنة (٥٣) هـ (الأعلام) .

(٣) هو عُبيد الله بن زياد بن أبيه . والٍ ، فاتح ، من الشجعان ، جَبَّار ، خطيب . ولد بالبصرة سنة (٢٨) هـ ، قتله ابن الأشتر في الموصل سنة (٦٧) هـ . وكانت الفاجعة بمقتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ في أيامه وعلى يده (الأعلام) .

(٤) (أخبية) : جمع خِباءٍ ، وهو بيت من وبرٍ أو شعرٍ أو صوف يكون علىٰ عمودين أو ثلاثة (الوسيط) .

(٥) (القيم) : قَيِّم القوم : الذي يقوم بشأنهم ويسوس أمرهم (الوسيط) .

(٦) (نبتاعه) : نشتريه .

قالت: أما طعام أبيعه فلا ، ولكن عندي ما إليه حاجة لي ولِبَنِيَّ.

قالوا: وأين بَنُوكِ؟

قالت: في رَعْيٍ لهم ، وهذا أَوَانُ أَوْبَتِهِمْ[1].

قالوا: فما أعْدَدْتِ لَكِ ولهم؟

قالت: خُبْزَةٌ وهي تحت مَلَّتِها[2] ، أنتظر بها أن يجيئوا.

قالوا: فما هو غير ذلك؟

قالت: لا.

قالوا: فجودي لنا بنصفها.

قالت: أما النصف فلا أجود بها ، ولكن إنْ أردتم الكُلَّ فشأنكم بها.

قالوا: ولِمَ تَمْنَعين النِّصْفَ وتجودين بالكُلِّ؟

قالت: لأن إعطاءَ الشَّطْرِ نقيصةٌ ، وإعطاءَ الكُلِّ فضيلةٌ ، فأنا أمنع ما يَضَعُني ، وأَمْنَحُ ما يَرْفَعُني ، فأخذوا المَلَّةَ ، ولم تسألهم مَنْ هم؟ ولا من أين جاؤوا؟

فلما أَتَوْا بها عُبيد الله ، وأخبروه بقصة العجوز ، عَجِبَ ، وقال: ارجعوا إليها ، فاحملوها إليَّ الساعةَ ، فرجعوا ، فقالوا: انطلقي نحو صاحبنا ، فإنه يريدكِ.

قالت: ومَنْ هو صاحبكم؟ أَصْحَبَهُ اللهُ السلامةَ!

قالوا: عبيدُ الله بن العباس.

قالت: ما أعرف هذا الاسمَ ، فمن بعد العباس؟

قالوا: العباسُ عَمُّ رسول الله ﷺ.

---

(١) (أوان أوبتهم): وقت عودتهم من الرعي.

(٢) (المَلَّةُ): التراب الحار والرماد أو الجمر يخبز أو يطبخ عليه ، أو فيه (الوسيط).

قالت: هذا ، وأبيكم! الشَّرَفُ ، العالي ذُرْوَتُهُ ، الرفيعُ عِمادُهُ ، هيه ، أبو هذا عَمُّ رسول الله ﷺ؟

قالوا: نعم.

قالت: عَمٌّ قريبٌ ، أم عَمٌّ بعيدٌ؟

قالوا: عَمٌّ هو صِنْوُ[1] أبيه ، وهو عَصَبَتُهُ[2].

قالت: ويريد ماذا؟

قالوا: يريد مُكافَأَتَكِ وبِرَّكِ.

قالت: عَلامَ؟

قالوا: علىٰ ما كان منكِ.

قالت: أَوَّه ، لقد أفسد الهاشميُّ[3] بعضَ ما أَثَّلَ[4] له ابنُ عَمِّهِ[5]. واللهِ! لو كان ما فعلتُ معروفاً ما أخذتُ بذنبه ، فكيف وإنما هو شيءٌ يجب على الخَلْقِ أَنْ يُشارِكَ بعضهُم فيه بعضاً؟!

قال: فانطلقي ؛ فإنه يحب أَنْ يراكِ.

قالت: قد تقدَّم منكم وعيد ، ما أجد نفسي تسخو بالحركة معه.

قالوا: فأنتِ بالخيار - إنْ بدا لك شيء - بَيْنَ أَخْذِهِ أو تَرْكِهِ.

قالت: لا حاجة لي بشيءٍ مِنْ هذا إذْ كان هذا أَوَّلَهُ.

قالوا: فلا بُدَّ من أن تنطلقي إليه.

---

(١) (الصِّنْوُ): المِثْلُ (النهاية).

(٢) (عَصَبَته): عصبة الرجل: بنوه وقرابته لأبيه ، أو قومُهُ الذين يتعصبون له وينصرونه. وفي الفرائض: مَنْ ليست له فريضةٌ مسماة في الميراث ، وإنما يأخذ ما أبقى ذوو الفروض (الوسيط).

(٣) تريد عُبيد الله بن عباس.

(٤) (أَثَّلَ): أَصَّلَ.

(٥) (ابن عمه): تريد رسول الله ﷺ.

قالت: فإني أنهض على كُرْهِ إلا لواحدةٍ.

قالوا: وما هي؟

قالت: أرىٰ وَجْهاً، هو جَنَاحُ رسول الله ﷺ، وعُضْوٌ من أعضائه[1]، ثم قامت، فحملوها على دابة من دوابه، فلما صارتْ إليه، سَلَّمَتْ عليه، فردَّ عليها السلامَ، وقَرَّبَ مجلسها، وقال: مِمَّنْ أَنْتِ؟

فقالت: أنا مِنْ كَلْبٍ.

قال: فكيف حَالُكِ؟

قالت: أجدُ القائِتَ[2] وأَسْتَمْرِيهِ[3]، وأَهْجَعُ[4] أكثر الليلِ، وأرى قُرَّةَ العين من ولدٍ بارٍّ، وكَنَّةٍ[5] رَضِيَّةٍ، فلم يبق من الدنيا شيءٌ إلاَّ وقد وَجَدْتُهُ وأَخَذْتُهُ، وإنما أنتظر أن يأخذَني.

قال: ما أعْجَبَ أَمْرَكِ كُلَّهُ!

قالت: قِفْني على أول عجبه.

قال: بَذْلُكِ لنا ما كانَ في حَواكِ، فرفعتْ رأسَها إلى القَيِّم فقالت: هذا ما قلتُ لكَ؟!

قال عُبيد الله: وما قالتْ لكَ؟ فأخبره، فازداد تَعَجُّباً، وقال: خَبِّريني فَما ادَّخَرْتِ لِبَنِيْكِ إذا انصرفوا؟

قالت: ما قال حاتم طَيِّىءٍ:

وَلَقَدْ أَبِيْتُ عَلَى الطَّوىٰ وَأَظَلُّهُ ... حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيْمَ المَأْكَلِ

---

(١) أي لم يحملها على الذهاب معهم إلا طمعُها في رؤية قريب للحبيب محمد ﷺ.

(٢) (القائت): من العيش: الكفاية (الوسيط).

(٣) (أستمريه): أجده هنيئاً طيباً.

(٤) (أهجع): أنام.

(٥) (الكَنَّةُ): امرأة الابن.

فازداد منها عُبيد الله تعجباً ، وقال : أرأيتِ[1] لو انصرف بنوكِ وهم جياعٌ ، ولا شيءَ عندكِ ، ما كنتِ تَصْنعينَ بهم؟

قالت : يا هذا! لقد عظمت هذه الخُبزةُ عندك وفي عَيْنَيْكَ حتى أَنْ صِرْتَ لَتُكْثِرُ فيها مقالك ، وتَشْغَلُ بذكرها بالَكَ ، الْهُ عن هذا[2] وما أشبهه ؛ فإنه يفسد النفس ، ويؤثر في الحِسِّ ، فازداد تعجباً ، ثم قال لغلامه : انطلق إلى فتيانها[3] ، فإذا أقبل بنوها فجِئْني بهم ، فقالت العجوز : أما إنهم لا يأتونك إلا بشريطةٍ .

قال : وما هي؟

قالت : لا تَذْكُرْ لهم ما ذكرْتَهُ لي ، فإنهم شبابٌ أحداثٌ[4] ، تحرجهم الكلمة ، ولا آمَنُ بَوَادِرَهُمْ[5] إليك ، وأنت في هذا البيت الرفيع ، والشرف العالي ، فإذا نحن من شَرِّ العرب جِوَاراً ، فازداد عُبيدُ الله تعجباً ، وقال لها : سأفعل ما أمَرْتِ به ، فقالت العجوز للغلام : انْطَلِقْ ، فاقعد بحذاء الخِبَاءِ الذي رَأَيْتَني في ظِلِّهِ ، فإذا أقبل ثلاثة : أحدهم : دائم الطَّرْفِ نحو الأرض ، قليلُ الحركة ، كثيرُ السكون ، فذاك الذي إذا خاصم[6] أفصح ، وإذا طلب أنجح[7] . والآخر دائم النظر ، كثير الحذر ، له أُبَّهَةٌ[8] قد كَلَمَتْ[9] من حَسَبِهِ ، وأثَّرَتْ في نَسَبه ، فذاك الذي إذا قال فعل ، وإذا ظُلِمَ قَتَلَ .

والآخر كأنه شُعلة نارٍ ، وكأنه يطلب الخَلْقَ بثارٍ ، فذاك الموت المائت ،

---

(١) (أرأيتِ) : أي أخبريني .
(٢) (الْهُ عن هذا) : اترُكْ ذكره .
(٣) (فتيانها) : أولادها .
(٤) (أحداث) : صِغار السِّنِّ .
(٥) (بوادرهم) : أي ما يبدر منهم من خطأ أو سقط .
(٦) (خاصم) : جادل ونازع .
(٧) (أنجح) : ظفر بِطْلِبته .
(٨) (أُبَّهة) : عَظَمة ورُواء .
(٩) (كَلَمَتْ) : كَلَمَ : جَرَح .

هو والله! والموتُ قسمان ، فاقرأ عليهم سلامي ، وقل لهم: تقول لكم والدتكُم: لا يُحْدِثَنَّ أحد منكم أمراً حتى تَأْتَوْها.

فانطلق الغلام ، فلما جاء الفِتيةُ أخبرهم ، فما قعد قائِمُهم ، ولا شَدَّ جمعهم حتى تقدَّموا سِراعاً ، فلما دَنَوْا مِنْ عُبيد الله ، ورأَوا أُمَّهُمْ ، سَلَّموا ، فأدناهم عُبيد الله من مجلسِهِ ، وقال: إني لم أبعثْ إليكم ولا إلى أُمِّكم لِما تكرهون.

قالوا: فما بعدَ هذا؟

قال: أُحِبُّ أَنْ أصلحَ من أمركم ، وأَلُمَّ من شَعَثِكُمْ[1].

قالوا: إنَّ هٰذا قَلَّ ما يكون إلاَّ عن سؤالٍ ، أو مُكافَأَةٍ لِفِعْلٍ قديم.

قال: ما هو لشيء من ذلك ، ولكن جاوَرْتكم في هذه الليلة ، وخطر ببالي أَن أَضع بَعْضَ مالي فيما يحب الله.

قالوا: يا هذا! إن الذي يحبُّ اللهُ لا يَجِبُ لَنَا ، إِذْ كنا في خَفْضٍ من العيش[2] ، وكَفافٍ من الرزق[3] ، فإن كنت هذا أردْتَ فوجِّهْهُ نحو مَنْ يستحقُّهُ ، وإن كنت أَرَدْتَ النَّوالَ[4] مبتدئاً لم يتقدَّمْهُ سُؤالٌ ، فمعروفك مشكورٌ ، وبِرُّكَ مقبولٌ ، فَأَمَرَ لهم عُبيد الله بِعَشَرةِ آلاف درهم ، وعشرينَ ناقةً ، وحوَّل أثقاله إلى البغال والدوّاب ، وقال: ما ظننت أن في العرب والعجم من يشبه هذه العجوز ، وهؤلاء الفتيان ، فقالت العجوز لفتيانها: لِيَقُلْ كُلُّ واحدٍ منكم بيتاً من الشِّعْرِ في هذا الشريف ، ولَعَلِّي أَنْ أُعينكم.

فقال الكبيرُ:

شَهِدْتُ عَلَيْكَ بِطِيْبِ الكَلاَمِ ... وَطِيْبِ الفَعالِ وطِيْبِ الْخَبَرْ

---

(١) (الشَّعَثُ): ما تفرَّقَ من الأمور.

(٢) (كنا في خَفْضٍ من العيش): أي كان عيشنا ليناً سهلاً ولم نكن في شدة ولا ضيق.

(٣) (وكَفافٍ من الرزق): أي رزقنا يكفينا ، لا نقص ولا زيادة.

(٤) (النَّوال): العطاء.

وقال الأوسطُ:

تبرَّعْتَ بالجُودِ قَبْلَ السُّؤالِ   فِعَالَ كَرِيْمٍ عَظِيْمِ الخَطَرْ

وقال الأصغرُ:

وحُقَّ لِمَنْ كانَ ذا فِعْلُهُ   بأَنْ يسترقَّ رِقابَ البَشَرْ

وقالت العجوز:

فَعَمَّرَكَ اللهُ مِنْ مَاجِدٍ   وَوُقِّيْتَ سُوءَ الرَّدَىٰ والْحَذَرْ

قال الخرائطي: وحدثناه أيضاً أبو الفضل: العباس بن الفضل الربعي، عن بعض مشايخه، قال: نزل عُبيد الله؛ يعني فذكر مثله سواء.

وكان الصحابي أبو محمد: عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب (١ ـ ٨٧) هـ أميراً، شريفاً، مُمَدَّحاً، تاجراً، عظيم الكرم والجود، يضرب به المثل في السخاء. كان ينحر كل يوم جَزُوراً[١]، فنهاه شقيقه حَبْرُ الأمة عبدُ الله بن عباس، فلم ينته، ونحر كل يوم جَزُورَيْنِ.

وكان هو وأخوه عبد الله إذا قدما المدينة أَوْسَعَهُم عبدُ الله عِلماً، وأوسعهم عُبيد الله طَعاماً. قيل: هو أول من وضع الموائد على الطرق. وفيه يقول أحد شعراء المدينة من أبيات:

وَأَنْتَ رَبِيْعٌ لليتامىٰ وعِصْمَةٌ   إذا المَحْلُ مِنْ جَوِّ السَّماءِ تَطَلَّعَا

وأورد له البغدادي أخباراً حِساناً في الجود.

مِنْ طرائف كرمه وسخائه ما رواه العلامة ابن الأثير الجزري في أسد الغابة (٣/ ٤٢١) بإسناده عن محمد بن الوليد أبي الحجاج الفَزاري؛ أن عُبيد الله بن العباس خرج في سفرٍ له، ومعه مولًى له[٢]. حتى إذا كان في بعض الطريق،

---

(١) (الجَزور): ما يصلح لأن يذبح من الإبل (ولفظه أنثى) يقال للبعير. هذه جَزْورٌ سمينة (الوسيط).

(٢) (مولى له): عبد مملوك.

رُفع[١] لهما بيتُ أَعْرابيٍّ ، قال : فقال لمولاهُ : لو أنَّا مضينا فنزلنا بهذا البيت ، وبِتْنا به؟! قال : فمضى . قال : وكان عُبيد الله رجلاً جميلاً جَهيراً[٢] ، فلما رآه الأعرابي أعظمه وقال لامرأته : لقد نزل بنا رجل شريف! وأنزله الأعرابي ، ثم إنَّ الأعرابيَّ أتى امرأته ، فقال : هَلْ مِنْ عَشَاءٍ لضيفنا هذا؟ فقالت : لا ، إلاَّ هذه السُّوَيْمَةَ[٣] التي حياةُ ابنتكَ من لَبَنِها . قال : لا بُدَّ مِنْ ذبحها! قالت : أَفَتَقْتُلُ ابْنَتَكَ؟ قال : وإنْ! قال : ثم إنه أخذ الشاة والشفرة[٤] ، وجعل يقول :

يا جَارَتي[٥] لاتُوقِظي البُنَيَّه إنْ تُوقظيها تَنْتَحِبْ عَلَيَّهْ

وتَنْزِعِ الشَّفْرَةَ مِنْ يَدَيَّهْ

ثم ذبح الشاة ، وهيَّأ منها طعاماً ، ثم أتى به عُبيدَ الله ومولاهُ ، فعشَّاهما ، وعُبيد الله يسمع كلام الأعرابي لامرأته ومحاورتهما .

فلما أصبح عُبيد الله ، قال لمولاهُ : هل معك شيء؟ قال : نعم ، خمسُ مِئَةِ دينارٍ فَضَلَتْ[٦] من نفقتنا . قال : ادفعها إلى الأعرابي . قال : سبحان الله! أَتُعطيه خمس مِئَةِ دينارٍ ، وإنما ذبح لنا شاةً ثَمَنُها خمسة دراهم؟!

قال : ويحكَ! والله! لهو أَسْخىٰ منا وأجْوَدُ؛ إنما أعطيناه بعض ما نملك ، وجاد هو علينا ، وآثرَنا على مُهْجَةِ[٧] نفسه وولده .

قال : فبلغ ذلك مُعاوية ، فقال : لله دَرُّ عُبيد الله! من أي بَيْضَةٍ خَرَجَ؟ ومِنْ أَيِّ عُشٍّ دَرَجَ؟

* * *

(١) (رُفع) : بدا وظَهَرَ .
(٢) (جَهيراً) : وجهٌ جهيرٌ : ظاهر الوَضاءة ، ورجلٌ جَهيرٌ للمعروف : خليقٌ له (الوسيط) .
(٣) (السُّوَيمة) : الشُّوَيْهَة .
(٤) (الشفرة) : السكين .
(٥) (يا جارتي) : يا زوجي .
(٦) (فضلت) : بقيت .
(٧) (المُهْجَةُ) : دم القلب . و ـ الروح .

أَمِثْلي يَسْأَلُ طَلْحَةَ جُبْناً؟

رَوَىٰ ابْنُ دُرَيْدٍ؛ أَنَّ وَفْداً من أهل المدينة خرجوا إلى خُراسان[1] ، قاصدين طَلْحَةَ الطَّلْحاتِ[2] ، فلما صاروا في بعض البوادي ، رفعت[3] لهم خيمة خفيفة ، وقد جَنَّهم الليل ، فأَوَوا إليها ، وإذا بعجوز ليس عندها من يحل بها ، ولا يرتحل عنها ، وإلى جنب كسر خيمتها عُنَيزةٌ ، فقالوا لها :

هل من منزلٍ؟

فقالت : إِيْ هَا اللهِ! على الرَّحْبِ والسَّعَةِ ، والماء السائغ . فنزلوا فإذا ليس

---

(١) (خُراسان) : كلمة مركبة من «خور» أي شمس ، و«أسان» ، أي : مشرق . كانت مقاطعة كبيرة من الدولة الإسلامية ، تتقاسمها اليوم إيران الشرقية «نيسابور» ، وأفغانستان الشمالية : «هَرَاة وبَلْخ ، ومقاطعة تركمانستان السوفيتية «مرو» قاله أستاذنا البحاثة محمد شُرَّاب في المعالم الأثيرة ص : (١٠٨) .

(٢) هو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي ، المعروف بطلحة الطَّلحات ، أبو المُطَرِّف البصري ، أحدُ الأجواد المشهورين ، أمير سِجِسْتان : قال الأصمعي : الطلحات المعروفون بالكرم : طلحة بن عبيد الله التيمي وهو الفيَّاض ، وطلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر ، وهو طلحة الجواد ، وطلحة بن عبد الله بن عوف الزهري ، وهو طلحةُ النَّدىٰ ، وطلحة بن الحسن بن علي ، وهو طلحة الخير ، وطلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي ، وهو طلحة الطلحات ، سُمي بذلك لأنه كان أجودهم ، وقيل في سبب تسميته بذلك غير ذلك . انظر ترجمته في تهذيب الكمال وفروعه .

(٣) (رفعت) : ظهرت ولاحَتْ .

بقربها ولدٌ ، ولا أخٌ ، ولا بَعْلٌ ، فقالت: لِيَقُمْ أَحَدُكُم إلىٰ هذه العُنيزة فَلْيَذْبَحْها.

فقالوا: إِذَنْ تَهْلَكِي ، والله! أيتها العجوزُ! إِنَّ عندنا من الطعام لَبَلاغاً ، ولا حاجَة بنا إلى عُنَيزَتِكِ.

فقالت: أنتم أضيافٌ ، وأنا المنزلة بها ، ولولا أني امرأة لذبحتُها.

فقام أحدهم مُعجباً منها ، فذبح العُنيزة ، واتخذت لهم طعاماً ، فقربته إليهم ، فلما أصبحوا غَدَّتْهُمْ ببقيتها ، ثم قالت: أين تريدون؟

فقالوا: طَلْحة الطَّلْحات بخراسان.

فقالت: إذنْ ، والله! تأتون سَيِّداً ، ماجداً ، صَميماً ، غير وحش ، ولا كدوم ، هل أنتم مبلغوه كتاباً ، إذا دفعتُهُ إليكم؟

فضحكوا ، وقالوا: نفعل وكرامة. فدفَعَت إليهم كتاباً على قطعة جِرابٍ عندها ، فلما قدموا على طلحة ، جعل يسألهم عمَّا خَلَّفوا ، وما رَأَوا في طريقهم ، فذكروا العجوز ، وقالوا: نخبر الأمير عن عجبٍ رأيناه ، وأخبروه بقصة العجوز ، وصُنعها ، وقولها فيه ، ثم قالوا: ولها عندنا كتاب إليكَ ، ودفعوه إليه.

فلما قرأ الكتاب ضحكَ ، وقال: لحاها الله من عجوز! ما أَحْمَقَها! تكتب إليَّ من أقصىٰ الحجاز تسألني جُبْنَ خُراسان!

فلم يَدَعْ للوفد حاجةً إلاَّ قضاها ، فلما أرادوا الخروجَ ، قال: هل أنتم مُبلغوها الجُبْنَ الذي سَأَلَتْ؟

فقالوا: نعم ، وقد أمر بجبنتين عظيمتين ، وأمر بنقبهما ، ومَلأَهما دنانير ، وسوَّىٰ عليهما ، وقال: بلِّغوها الجُبنتَيْنِ.

فلما قدموا عليها ، نزلوا ، فقالوا لها: ويحك! كتبتِ إلىٰ طَلْحَةَ الطَّلْحاتِ تستطعميه جبن خُراسان؟

قالت: أَوَقَدْ بعثَ إِليَّ بشيءٍ؟

قالوا: نعم ، وأخرجوا الجُبْنَتَيْن ، فَكَسَرَتْهُما ، فتناثَرَتِ الدنانيرُ ، ثم قالت: أَمِثْلي يسأَلُ طَلْحَةَ جُبْناً؟ ثم قالت: أقرأ إليكم كتابي إليه؟

قالوا: نعم. فقرأته ، فإذا فيه:

يـا أَيُّهـا المـايِـحُ[1] دَلْـوِي دُونَكـا إِنِّـي رَأَيْـتُ النَّـاسَ يَحْمَـدُونَكـا

يُثْنُـــون خَيــــراً ويُمَجِّــــدُونَكـــا

ثم قالت: أفأقرأ عليكم جوابه؟

قالوا: نعم ، فإذا جوابه:

أَنَــا مَــلأْتُهــا تَفِيْــضُ فَيْضَــا فَلَـنْ تَخَـافِي مَـا حَيِيتُ غَيْضَـا[2]

خُــذِي لَــكِ الجُبْــنَ وَعُــودِي أَيْضَــا

* * *

---

(1) (المايح): بالياء ، الذي يكون في أسفل البئر يملأ الدلو. والماتح: المستقي من البئر بالدَّلْوِ من أعلىٰ البئر. تقول: متح الدلو ، يمتحها متحاً ، إذا جذبها مستقياً لها ، وماحها يميحها: إذا ملأها (النهاية) قال الزركشي: «دلوي» عندهم منصوب بإضمار فعل الأمر ، و«دونكَ» فعل آخر.

(2) (غَيضاً): قِلَّةً ونقصاً.

لَوْ كَانَ سُوقَةً لَمْ أَفْعَلْ

قال ابن الأثير في أُسْدِ الغابة (٤/ ٢١٤ ـ ٢١٥): لبيدُ بن ربيعة بن عامر بن مالك. . . العامري ثم الجعفري.

كان شاعراً من فحول الشعراء، وفد علىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ سنة وفد قومُهُ بنو جعفرٍ، فأسلم، وحَسُنَ إسلامهُ.

أنشدت له عائشة ـ رضي الله عنها ـ قوله:

ذَهَبَ الَّذينَ يُعَاشُ في أَكْنَافِهِمْ   وبَقِيْتُ في خَلَفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

فقالت: رحم اللهُ لبيداً! كيف لو أدركَ زمانَنا هذا!

وروىٰ أبو هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَها شاعرٌ، كلمةُ لَبيدٍ:

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ»[1]

ولما أسلم لبيدٌ ترك قول الشعر، فلم يقل غير بيت واحد، وهو قولُهُ:

ما عاتَبَ المرءُ الكريمُ كَنَفْسِهِ   والمَرْءُ يُصْلِحُهُ القَرِيْنُ الصَّالِحُ

وقيل: بل قال:

الحَمْدُ للهِ إذْ لَمْ يَأْتِني أَجَلِي   حتَّىٰ اكْتَسَيْتُ من الإسْلاَمِ سِرْبَالاَ

وقيل: إن هذا البيت لغيره.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦). (باطل): هالك.

وقيل: بل قال:

وكُلُّ امْرِىءٍ يَوْماً سَيَعْلَمُ سَعْيَهُ ... إذا كُشِفَتْ عِنْدَ الإِلٰهِ المَحَاصِدُ

وقال أكثر أهل الأخبار: لم يقل شعراً منذ أسلم.

وكان شريفاً في الجاهلية والإسلام، وكان قد نذر أَنْ لا تهبَّ الصَّبا[1] إلاَّ نحر وأطعم.

ثم إنه نزل الكوفة، وكان المغيرةُ بن شُعبَةَ ـ إذا هبَّتْ الصَّبا ـ يقول: أعينوا أبا عَقِيلٍ على مروءته.

قيل: هَبَّتِ الصَّبا يوماً، وهو بالكوفة، ولبيدٌ مُقْتِرٌ مُمْلِقٌ[2]، فعلم بذلك الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْطٍ، وكان أميراً عليها، فخطب الناس، وقال:

إنكم قد عرفتم نَذْرَ أبي عَقِيل، وما وكَّد على نفسه، فأعينوا أخاكم.

ثم نزل، فبعث إليه بمئةِ ناقةٍ، وبعث الناسُ إليه، فقضىٰ نذره.

وكتب إليه الوليد:

أرىٰ الجَزَّارَ يَشْحَذُ شَفْرَتَيْهِ ... إذا هَبَّتْ رِيَاحُ أَبِي عَقِيلِ

أَغَرَّ الوَجْهِ أبيضَ عَامِرِيٍّ ... طويلِ البَاعِ كالسَّيْفِ الصَّقِيلِ

وَفَىٰ ابنُ الجَعْفَرِيِّ بِحَلفَتَيْهِ ... عَلَىٰ العِلاَّتِ[3] والمالِ القَليلِ

بِنَحْرِ الكُومِ[4] إذْ سَحَبَتْ عَلَيْهِ ... ذيولَ صَباً تَجاوَبُ[5] بالأصيلِ

فلما أتاه الشِّعْرُ قال لابنته: أَجِيبيه، فقد رأيتيني، وما أَعيَا بجواب شاعر، فقالت:

إذا هَبَّتْ رِيَاحُ أَبِي عقيلٍ ... دَعَوْنا عند هَبَّتِها الوَلِيدَا

---

(١) (الصَّبا): ريح مَهَبُّها من مشرق الشمس إذا استوىٰ الليل والنهار (الوسيط).

(٢) أي ليس ذا سَعَةٍ.

(٣) (علىٰ العِلاَّتِ): علىٰ كل حال، في عسره ويسره.

(٤) (الكُوم): جمع كَوْماء، وهي الناقة مشرفة السَّنام عاليته.

(٥) (تَجاوب): تتجاوَبُ.

أَشَـمَّ الأنْـفِ أَصْيَـدَ[١] عَبْشَمِيّـاً[٢] أعـانَ علـىٰ مُـرُوءَتِـه لَبِيـدا

بـأمثـالِ الهِضَـابِ كـأنَّ رَكْبـاً عَلَيْهـا مـن بَنـي حَـام قُعُـودا

أبـا وَهْـبٍ! جَـزَاكَ اللهُ خيـراً نَحَـرْنَـاهـا وأطْعَمْنـا الثَّـريـدا

فَعُـدْ إنَّ الكـريـمَ لـه مَعَـادٌ وظَنّـي بـابْـنَ أَرْوىٰ أَنْ تعـودا

ثم عرضت الشعر علىٰ أبيها ، فقال: قد أَحْسَنْتِ ، لولا أنكِ اسْتَزَدْتِيه! فقالت: «والله! ما اسْتَزَدْتُه إلاّ أَنَّهُ مَلِكٌ ، ولو كان سُوقَةً[٣] لَمْ أَفْعَلْ.

* * *

---

(١) (أَصْيَدَ): كريماً.

(٢) (عبشمياً): من بني عبد شمس بن عبد مَناف.

(٣) (سوقة): من الرعية.

إِذَا لَمْ يَرَنِي مُنَادِيهُ أَلَمْ يَرَنِي رَبُّ مُنَادِيهِ؟

روى الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧٠/ ٢٥٤) من حديث يزيدَ بْنِ أبي حبيبٍ؛ أنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ نهى الأَعْرَابَ ، وتَقَدَّمَ إليهم: ألاَّ يَمْذُقُوا اللَّبَنَ[١] .

فبينا هو يَعُسُّ[٢] ليلة من الليالي في نواحي المدينة؛ إذ مَرَّ بأهلِ بيتٍ من الأعراب لبني هلالٍ ، فسمع امرأة منهم تقول لابنتها: يا بُنَيَّةُ! قومي فامْذُقي[٣] ، فقد مَذَقَ الناسُ[٤] .

فقالت لها ابنتُها: يا أُمَّهْ! أوليس قد نهى عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عن الماء؟!

فقالت لها: بلى ، ولكنَّ الناسَ يَمْذُقونَ .

فقالت لها ابنتُها: واللهِ! لا أَمْذُقُ ، وقد نهى عنه عمر ، ولا أكونُ ـ قال أبو جَعْفَرٍ ، أحد رواة الحديث: أحسبها قالت: ممن يعصي عُمَرَ ـ قال: فَتَعَجَّبَ عُمَرُ من قَوْلِها .

---

(١) أي: لا يَغْشُوهُ بمزجه وخلطه بالماء. والأعراب: هم أهل البادية ، يغلب عليهم الجهل بأحكام الشريعة لبعدهم عن مناهل العلم والمعرفة ، لذلك خصَّهم سيدنا عمر بهذا النهي.

(٢) (يَعُسُّ): أي يطوف بالليل ، يحرس الناس ، ويكشف أهل الرِّيبَةِ (النهاية).

(٣) (امْذُقي): أي اخلطي اللبن بالماء.

(٤) أي مَنْ يريد أن يَغُشَّ منهم ، ولا يخلو منهم مجتمع.

فلما انصرف ، قال لابنه عاصمٍ[1]: يا بُنَيَّ! اذهبْ إلى موضع كذا وكذا ، فوصف له مَنْزِلَها ، وقال له: انظُرْ جارية كذا وكذا. فوصفها له ، فَسَلْ عنها ، فإنْ كان لها زوجٌ ، فبارِكَ الله لزوجها ، وإن لم يكن لها زوجٌ فتزوَّجْها؛ فإني أرجو أن يخرج الله منها سَلِيْلَةً تَسُودُ العَرَبَ.

قال: فذهب عاصِمٌ ، فسأل عنها ، فقيل: ليس لها زوجٌ ، فقال: زَوِّجُونِيْها. فقيل: وَمَنْ أَنْتَ؟ قال: أنا عاصمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ. قالوا: فمرحباً بك وأهلاً ، فزَوَّجوها منه ، فولدت له أُمَّ عاصمٍ[2] بِنْتَ عاصِمٍ ، ثم تزوَّج أُمَّ عاصمٍ عبدُ العزيز بْنُ مروانَ ، فجاءت بعُمَرَ بن عبد العزيز.

وروى الحافظ هبة الله بن عساكر سياقة أخرى لهذه القصة من طريق عبد الله بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن جَدِّه أَسْلَمَ[3] ، قال:

---

(١) هو عاصم بن عمر بن الخطاب ، العدوي ، القرشي ، أُمُّهُ: جميلة بنت ثابت بن أبي الأَقْلَح الأنصارية ، كان اسمها عاصية ، فسماها رسول الله ﷺ جميلة. ولد عاصمٌ قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين. ومات سنة (٧٠) هـ. وقيل بعدها. كان خَيّراً ، صالحاً ، فصيحاً ، بليغاً ، فاضلاً ، طويلاً جسيماً. شاعراً حسن الشِّعْرِ. وقيل: ما من أحدٍ إلا وهو يتكلم ببعض ما لا يريد ، إلا عاصم بن عمر بن الخطاب . وكان عبد الله بن عمر يقول: أنا وأخي عاصمٌ لا نغتاب النّاسَ. وهو جَدُّ عمر بن عبد العزيز لأمه. روى له البخاري ومسلم وغيرهما. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٤/ ٩٧) وغيره.

(٢) راوية من راويات الحديث. روت عن أبيها عاصم بن عمر بن الخطاب وروى عنها ابنها الخليفة الراشد الخامسُ عُمَرُ بن عبد العزيز. وتوفيت وهي عند عبد العزيز بن مروان. قال سالم الأفطس: إن عمر بن عبد العزيز رمحته دابة ، وهو غلام بدمشق ، فأتى أَمَّهُ أُمَّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فضمَّتْهُ إليها ، وجعلت تمسح الدم عن وجهه ، ودخل أبوه عليها على تلك الحال ، فأقبلت عليه تعذله وتلومه ، وتقول: ضَيَّعْتَ ابني ، ولم تضمّ إليه خادماً ، ولا حاضناً يحفظه من مثل هذا! فقال لها: اسكتي ، يا أُمَّ عاصمٍ! فطوبى لك إن كان أَشَجَّ بني أُمَيَّةَ.

(٣) (أَسْلَم): مولى عمر بن الخطاب ، ثقة مخضرم. مات سنة (٨٠)هـ وقيل بعد سنة ستين وهو ابن (١١٤) سنة. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٤/ ٩٨) وفي حاشيته عدد من مصادر ترجمته.

بينا أنا مع عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وهو يَعُسُّ بالمدينة ، إذْ أَعْيَا[1] ، فاتكأ على جانب جدارٍ في جوف الليل ؛ فإذا امراةٌ تقول لابنتها : قومي إلى ذلك اللَّبَنْ[2] فَامذقيه[3] بالماء .

فقالت : يا أُمَّاهُ! وما عَلِمْتِ ما كان من عَزْمَةِ[4] أمير المؤمنينَ اليومَ؟!

قالت : وما كان مِنْ عَزْمَتِهِ؟

قالت : إنه أمر منادياً ، فنادى : لا يُشَابُ[5] اللَّبَنُ بالماء .

فقالت لها : يا ابْنَتَاهُ! قومي إلى اللبن ، فامذقيه بالماء ، فإنكِ في موضعٍ لا يراكِ عمرُ ، ولا منادي عُمَرَ .

فقالت الصَّبِيَّةُ : والله! ما كنت لأُطيعَهُ في الملأ[6] ، وأعصيه في الخَلاء[7] ، وعمر يسمع كلَّ ذلك .

فقال : يا أَسْلَمُ : عَلِّمِ البابَ ، واعرف الموضعَ ، ثم مضى في عَسِّهِ[8] .

فلما أصبح ، قال : يا أَسْلَمُ! امضِ إلى الموضع ، فانظر مَنِ القائلةُ؟ ومَنِ المَقُولُ لها؟ وهل لهم من بَعْلٍ[9]؟

---

(١) (أعيا) : تعب تعباً شديداً (الوسيط) .
(٢) (اللبن) : هوالحليب في عُرْفِ أهل دمشق وغوطتها .
(٣) (فامذقيه) : أي امزجيه واخلطيه .
(٤) (من عزمة أمير المؤمنين اليوم) : أي من أوامره التي طلب تنفيذها .
(٥) (لا يُشاب) : لا يُخلط ويُغَشُّ .
(٦) أي أمام الناس .
(٧) أي حيث أَنفرد ولا يراني أحدٌ من الخلق .
(٨) أي في تفقده لأحوال الرعية .
(٩) (بَعْل) : زوج .

فأتيت الموضع ، فإذا أَيِّمٌ[1] ، لا بَعْلَ لها ، وإذا تِيْكَ أُمُّها ، وإذا ليس لهم رجلٌ.

فأتيت عمرَ بن الخطاب ، فأخبرته ، فدعا عُمَرُ وُلْدَهُ ، فجمعهم ، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة ، أزوِّجه ، ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية.

فقال عبد الله : لي زوجةٌ.

وقال عبدُ الرحمن: لي زوجةٌ.

وقال عاصمٌ: يا أبتاه! لا زوجة لي ، فَزَوِّجني ، فبعث إلى الجارية ، فزوَّجها من عاصمٍ ، فولدت لعاصمٍ بنتاً ، وولدت الابنةُ ابْنَةً ، وولدت الابنة عمرَ بن عبد العزيز.

وتعقّب الحافظ ابن عساكر هذه الرواية بقوله: «كذا قال. والصحيح ما تقدَّم أنَّ أمَّ عاصمٍ: بِنْتُ عاصمٍ ، لا بِنْتُ ابْنَتِهِ».

وذكر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي بن عبد الله ، سِبْطُ الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجَوْزي في كتاب «جوهرة الزمان في تذكرة السلطان» عن ابن عمر رضي الله عنهما. قال: بينما أبي يَعُسُّ بالمدينة إذْ سمع امرأة ، وهي تقول لابنتها: يا بُنَيَّة! قومي فشوبي اللبن بالماء.

فقالت: يا أُمَّاه! أما سمعتِ منادي أمير المؤمنين أنه نادى: أَنْ لا يُشَابَ اللَّبَنُ بالماء؟

فقالت: وأين أنْتِ من مُناديه الساعة؟

فقالت: إذا لم يرني مناديه ، ألم يرني ربُّ مناديه؟

قال: فبكى عمرُ ، رضي الله عنه.

---

(١) (أَيِّم): الأَيِّمُ: التي لا زوج لها ، بكراً كانت أو ثيِّباً ، مطلقةً كانت أو متوفى عنها (النهاية).

فلما أصبح دعا بالمرأة وبابنتها وسأل: هل لها زوج؟

فقالت: ليس لها زوج.

فقال: يا عبد الله! تَزَوَّجْ هذه، فلو كانت بي حاجة إلى النساء لتزوجتها.

فقلت: أنا في غنى عنها.

فقال: يا عاصمُ! تزوَّجْها، فتزوَّجَها، فجاءت بابنة فحملت بعمر بن عبد العزيز.

وفي رواية، ذكرها ابْنُ عساكرَ في تاريخه (٧٠/ ٢٥٢)، والقاضي شَمْسُ الدِّين بْنُ خَلِّكان في وَفَيَاتِ الأعيان (٦/ ٣٠٢)؛ أن عمر مَرَّ بعجوز تبيع لبناً معها في سوق الليل[١]، فقال لها: يا عجوزُ لا تغشي المسلمينَ، وزُوَّارَ بيت الله تعالى، ولا تشوبي اللَّبنَ بالماءِ.

فقالت: نعم. يا أمير المؤمنين!

ثم مَرَّ بعد ذلك، فقال: يا عجوزُ! ألم أتقدَّمْ إليكِ؛ ألاَّ تشوبي لبنك بالماء؟!

فقالت: والله! ما فَعلْتُ. فتكلمت ابنة لها من داخل الخباءِ، فقالت: يا أُمَّهْ! أَغِشًّا وكَذِباً جَمَعْتِ على نَفْسِكِ؟!

فسمعها عمر، فَهَمَّ بمعاقبة العجوز، فتركها لكلام ابنتها، ثم التفت إلى بنيه، فقال: أيكم يتزوَّج هذه؟ فَلَعَلَّ اللهَ أن يخرج منها نَسَمَةً[٢] طيبةً مثلها.

فقال عاصِمُ بنُ عُمَرَ: أنا أتزوجها، يا أمير المؤمنين! فزوَّجها إياه، فولدت له أُمَّ عاصِمٍ، فتزوَّج أُمَّ عاصِمٍ عبدُ العزيز بْنُ مروانَ، فَوَلَدَتْ له عمر بن عبد العزيز.

---

(١) في وَفَيات الأعيان: «سوق اللَّبن». وهذه الرواية توحي أن القصة جرت في مكة لا في المدينة. وسوق الليل لا زال معروفاً في مكة، قريباً من بيت الله الحرام.
(٢) (نَسَمَةً): نَفْساً.

ونجد لهذه القصة رواية خامسة ، أخرجها الحافظ ابن حِبَّان في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص: (٥٤) من طريق عُبيد الله بن محمد التَّيميِّ ، عن أبيه ، قال:

كان عمر بن الخطاب بمنىً[1] ، فعطش ، فانتهى إلى عجوزٍ ، فاستسقاها ماءً. فقالت: ما عندنا.

فقال: لبناً؟

فقالت: ما عندنا. فبدرت جارية[2] ، فقالت لها: تَكْذِبين وما تَسْتَحينَ؟

ثم قالت لعمر: هذا السقاءُ ، فيه لبنٌ.

فسأل عمرُ عن الجارية ، فإذا أبوها ثَقَفِيٌّ ، فخطبها على عاصمِ بْنِ عُمَرَ ، فَزَوَّجها منه ، فولد له منها أُمَّ عاصِمٍ ، فتزوَّجها عبدُ العزيز بن مروان ، فولدت له عُمَرَ بْنَ عبد العزيز بن مروان ، رَحْمَةُ الله عليه.

قال أبو حاتم البُسْتِيُّ مُعَلِّقاً على هذه القِصَّة: «الصدق يرفع المَرْءَ في الدارين ، كما أن الكذب يهوي به في الحالين.

ولو لم يكن للصدق خصلة تحمد إلا أن المرءَ إذا عرف به قُبِلَ كَذِبُهُ ، وصار صدقاً عند من يسمعه ، لكان الواجبُ على العاقل أن يبلغ مجهوده في رياضة لسانه ، حتى يستقيم له على الصدقِ ، ومجانبةِ الكذب.

والعِيُّ[3] في بعض الأوقات خيرٌ من النطق؛ لأن كل كلام أخطأ صاحبه موضعه فالعِيُّ خيرٌ منه.

---

(١) (منى): أحد مشاعر الحج ، وأقربها إلى مكة ، ينزله الحاج يوم النحر ، ويقيم فيه إلى اليوم الثاني أو الثالث عشر من شهر ذي الحجة ، وبه الجمرات الثلاثة ، ومسجد الخَيْفِ ، ومسجد الكَبْشِ ، ومسجد الكَوْثَرِ ، وهو اليوم من أحياء مكة ، حيث اتصل به العمران. انظر المعالم الأثيرة ص: (٢٧٩).

(٢) (فَبَدَرَتْ جارية): أي أَسْرَعَتْ شَابةٌ.

(٣) (العيُّ): الجَهْلُ (النهاية).

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

كم من حسيبٍ كريمٍ كان ذا شَرَفٍ قد شَانَهُ[1] الكذب وسط الحيِّ إن عَمَدَا
وآخَرُ كـان صُعْلـوكـاً[2] فَشَـرَّفَـهُ صِدْقُ الحديث، وقولٌ جَانَبَ الفَندا[3]
فَصَـارَ هـذا شـريفـاً فَـوْقَ صـاحِبِـه وصـارَ هـذا وَضِيْعـاً تحتـه أبـدا

قلت: لله دَرُّ الفاروق، عندما انتقى لابنه صاحبة الدين والخلق، التي إنْ نظر إليها بَعْلُها سَرَّتْهُ، وإنْ أمرها أطاعته، وإنْ غاب عنها حفظته في نفسها وماله.

وما أحوج شبابنا اليوم، إلى انتقاء الزوجة التَّقِيَّةِ النَّقِيَّةِ، الحَيِيَّةِ الأَبِيَّةِ، مُنْشِئَةِ الأجيال، ومربية الرجال، وصانعة الأبطال.

وهذه الزوجة أرشدنا إلى صفاتها مَنْ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحْيٌ يوحَى، فقال في الحديث المتفق عليه: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وفي رواية جيدة الإسنادعند أبي يعلى الموصلي (١٠١٢) من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «تنكح المرأة على إحدى خصال ثلاثٍ: على مالها، على جمالها، على دينها، فعليك بذات الدين والخلق، تربت يمينك».

وليس معنى ذلك أن نعرض عن ذات المال والحسب والجمال. بل معناه كما قال الإمام النووي في رياض الصالحين: «إن الناس يقصدون في العادة من المرأة هذه الخصال الأربعَ، فاحرص أنت على ذات الدين، واظفر بها، واحرص على صحبتها».

* * *

---

(١) (شانه): عابه.
(٢) (صعلوكاً): فقيراً لا يُؤْبَهُ له.
(٣) (الفَنَدا): أي الكذب.

اقْبَلْ نصيحةَ أُمٍّ قَلْبُها وَجِعٌ

في أعلام النساء (٢/ ٢٩٣) لكحَّالة؛ أن أم الشَّريف كانت شاعرةً من شواعر العصر العباسي، ذات عقل ودين، ورأي وفصاحة وبلاغة، عاصرت المعتضد بالله.

فسألت شهاباً اليَشْكُرِيَّ: كيف خَلَّفْتَ أمير المؤمنين: المُعتضد؟

فقال: خَلَّفْتُهُ والله! مَلِكاً جَزْلاً[1]، وحَكَماً عَدْلاً، أَمَّاراً بالمعروف، فعَّالاً للخير، متعززاً على أهل الباطل، متذلِّلاً للحق، لا تأخذه في الله لومةُ لائم...

ثم قالتِ لشهابٍ: وكيف رأيتَ صاحِبَنَا؟ تعني: ابنَ أَخيها محمد بن أحمد.

قال: رأيتُ غلاماً حَدَثاً مُعْجَباً، قد استحوذ عليه السفهاء، فاستمدَّ بآرائهم، وأَنْصتَ لأقوالهم، فهم يزخرفون له الكلام، ويوردونه الندمَ.

فقالت له: فهل لك أن ترجع إليه بكتابٍ، فلعلنَّا أَنْ نَحُلَّ ما عقده السفهاء؟

قال: أجَلْ.

فكتبت إليه كتاباً لطيفاً حسناً، أجزلت فيه الموعظة، وأَخْلَصَتْ فيه النصيحة.

---

(١) (جَزْلاً): كريماً مِعْطاءً.

وكتبت في آخره هذه الأبيات :

اقْبَـلْ نَصِيحَـةَ أُمٍّ قَلْبُهَـا وَجِـعٌ ... عَلَيْكَ خَوْفاً وإشْفَاقاً وَقُلْ سَدَدا
واسْتَعْمِلِ الفِكْرَ في قولي فإنّكَ إنْ ... فَكَّرْتَ ، أَلْفَيْتَ في قولي لكَ الرَّشدا
ولاتَثِـقْ بِـرِجَـالٍ فـي قُلُـوبِهِـمُ ... ضَغَائِنُ[1] تَبْعَثُ الشَّنَآنَ[2] والحَسَدا
مِثْلِ النِّعَـاجِ خمـولٍ فـي بُيـوتِهِـمُ ... حَتـى إذا أَمِنُـوا أَلْفَيْتَهـم[3] أَسَـدا
وَدَاوِ ذَلِـكَ والأَدْوَاءُ مُمْكِنَـةٌ ... وإِذا طَبِيْبُـكَ قَـدْ أَلْقَـى إليـكَ يَـدا
وأَعْطِ الخَلِيْفَةَ مَا يُرْضِيهِ مِنْكَ وَلا ... تَمْنَعْـهُ مـالاً ولا أهْـلاً ولا وَلَـدا
وارْدُدْ أخـا يَشْكُـرٍ رَدًّا يكـونُ لَـهُ ... ردّاًمِـنَ السُّـوءِ لا تُشْمِـتْ بِـهِ أَحَـدا

فأخذ شِهابٌ الكتاب ، وسار به إلى محمد بن أحمد ، فلما نظر فيه ، رمى به إليه ، ثم قال: يا أخا يشكر! ما بآراء النساء تُساسُ الدول ، ولا بعقولهن يُساسُ المُلْكُ ، ارجع إلى صاحبك. فرجع إلى أمير المؤمنين ، فأخبره بالخبر عن حقه وصدقه.

فقال: وأينَ كتابُ أم الشريف؟ فأظهره الشهابُ. فلما عرض عليه أعجبه شعْرُهَا وعَقْلُها ، ثم قال: والله! إني لأرجو أن أُشَفِّعها في كثير من القوم.

فلما كان في فتح آمِدَ[4] ما كان ، ونزل محمد بن أحمد على الأمان لما عظم القتال ، وجَّهَ إليَّ أمير المؤمنين ، فقال: يا شعلةُ بن شهابٍ! هل عندكم علم مَن أم الشريف؟

قال: لا والله! يا أمير المؤمنين!

قال: امض مع هذا الخادم ، فإنك تجدها في جملة نسائها. فمضى ، فلما

---

(١) (ضغائن): أحقاد شديدة.
(٢) (الشنآن): البُغْضُ.
(٣) (ألفيتهم): وجدتهم.
(٤) (آمِد): بكسر الميم: هي أعظم مدن ديار بكر. وديار بكر في تركيا الآن.

بَصُرَتْ به ، أَسْفَرَتْ عن وجهها[1] ، وأنشأت تقول :

رَيْبُ الزَّمانِ وصرْفُهُ ... وَعُتُوُّهُ كَشَفَ القِنَاعَا
وأَذَلَّ بَعْدَ العِزِّ مِنَّا ... الصَّعْبَ والبطَلَ الشُّجاعَا
وَلَقَدْ نَصَحْتُ فما أُطِعْتُ ... وكَمْ حُرِمْتُ بِأَنْ أُطَاعَا
فَأَبىٰ بنا المقدورُ إلاَّ ... أَنْ نُقَسَّمَ أَوْ نُبَاعَا
يا لَيْتَ شِعْرِي[2]! هَلْ نَرىٰ ... يَوماً لِفُرْقَتِنَا اجْتِمَاعَا؟

ثم بكت وضربت بيدها على الأخرى ، ثم قالت : يا شِهابُ! كأنِّي والله! كنت أَرى ما أرى ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون .

قال لها : إنَّ أمير المؤمنين قد وجَّهني إليكِ ، وما ذاك إلا لحسن رأي منه فيكِ .

قالت : فهل لك أَنْ تُوصل إليه كتابي هذا بما فيه؟

قال : نعَمْ .

فكتبت إليه بهذه الأبياتِ :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ والإمَامِ المُرْتَضَىٰ ... رَأْسِ الخَلاَئِقِ مِنْ قُرَيشِ الأَبْطَحِ[3]
بِكَ أَصْلَحَ اللهُ البِلادَ وأَهْلَها ... بَعْدَ الفَسَادِ ، وطالَما لَمْ تُصْلَحِ
وَتَزَحْزَحَتْ بِكَ قُبَّةُ العِزِّ التي ... لَوْلاكَ بَعْدَاللهِ لَمْ تَتَزَحْزَحِ
وأراكَ رَبُّكَ ما تُحِبُّ فلا تُري ... ما لا يُحِبُّ فَجُدْ بِعَفْوِكَ واصْفَحِ
يَا بَهْجَةَ الدُّنيا وبَدْرَ مُلوكِها ... هَبْ ظالِميَّ وَمُفْسِديَّ لمصلحي

---

(١) من عادة النساء المسلمات ستر وجوههن قديماً وحديثاً ، وسفور الوجه لم تعرفه المسلمات إلا في قرن العشرين . وأول مسلمة هتكت الحجاب وخرجت سافرة هُدىٰ شعْراوي!

(٢) (يا ليت شعري) : ليتني أعلم .

(٣) (قريش الأبطح) : هم المقيمون بمكة من قريش ، والذين بضواحيها يسمون : قريش الظواهر .

فأخذ شهاب الكتاب ، وساربه إلى أمير المؤمنين .

فلما عُرِضَتْ عليه الأبياتُ أعجبتْهُ ، وأمر أن يُحمل إليها من الثياب ، وجملةٍ من المال ، وإلى ابن أخيها محمد بن أحمد مثل ذلك ، وشفَّعها في كثير من أهلها من عظم جرمه ، واستحق العقوبة عليه .

* * *

هل تَجْمَعَنِّي وَحَبيبي الدَّارُ؟

أخرج ابن عساكر ، وابن المبارك في الزهد ص (٣٦٢ ـ ٣٦٣) عن زيد بن أسلم قال: خرج عمر بن الخطاب ليلة يحرس ، فرأى مصباحاً في بيتٍ ، فدنا ، فإذا عجوز تطرق شعراً لها ـ أي: تنفشه ـ لتغزله ، وهي تقول:

عَلى مُحَمَّدٍ صَلاةُ الأَبْرَارْ   صَلَّىٰ عَلَيْكَ المُصْطَفَونَ الأَخيارْ
قَدْ كُنْتَ قَوَّاماً بُكا الأَسحارْ   يا لَيتَ شِعْرِي! وَالمَنَايا أَطْوارْ
هَلْ تَجْمَعَنِّي وَحَبِيْبي الدَّارْ؟

تعني: النبي ﷺ.

فجلس عمر يبكي ، فما زال يبكي حتى قرع الباب عليها.

فقالت: من هذا؟

فقال: عمر بن الخطاب.

قالت: ومالي ولعمر؟ وما يأتي بعمر في هذه الساعة؟

فقال: افتحي ـ رحمكِ الله ـ فلا بأس عليك.

ففتحت له فدخل.

فقال لها: رَدِّدي عليَّ الكلمات التي قلتِ آنفاً ـ أي قريباً ـ ، فردَّدت عليه ، فلما بلغت آخرها ، قال: أسألك أن تدخليني معكما ـ أي: في الدعاء ـ فقالت:

وعُمَرُ فَاغْفِرْ يا غَفَّارْ

رأَيْتُ العَمَلَ في الشَّبَابِ

حفْصَةُ بنتُ سِيرينَ ، أم الهُذيل الأنصارية البصرية ، أختُ التابعي الجليل محمد بن سيرين : سيدة جليلة من فضليات نساء عصرها ، اشتهرت بالعبادة ، والفقه ، وقراءة القرآن ، والحديث .

روى هشام بنُ حسَّان عن إياس بن مُعاوية ، قال : ما أدركت أحداً أُفَضِّلُهُ على حفصة .

وقال : قَرَأتِ القرآن وهي بنت ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ، وعاشت سبعين سنة ، فذكروا له الحسنَ البصري ، ومحمد بن سيرين ، فقال : أمَّا أنا فما أُفَضِّلُ عليها أحداً .

وكان محمد بن سيرين إذا استشكل عليه شيء من القرآن ، قال : اذهبوا فاسألوا حَفْصَةَ ، كيف تقرأ .

وسيدات التابعيات في قَوْلِ ابن أبي داودَ : حَفْصَةُ بنتُ سيرين ، وعَمْرَةُ بنت عبد الرحمن ، ويليهما أُمُّ الدَّرْداء الصُّغْرى .

وكانت حَفْصَةُ في العبادة على حَظٍّ عظيم ، كانت تدخل مسجدها فتصلي فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح ، ولا تزال فيه حتى يرتفع النهار وتركع ، ثم تخرج فيكون عند ذلك وُضُوءُهَا وَنَوْمُها ، حتى إذا حضرت الصلاة عادت إلى مسجدها إلى مثلها . وكانت تقرأ نصف القرآن في كل ليلةٍ ، وتصومُ الدَهر ، وتفطر العيدين ، وأيام التشريق[1] .

قال مَهْدِيُّ بنُ مَيْمُون (كما في السير : ٤/٥٠٧) : «مكثت حفصة بنت

---

(١) أيام التشريق هي أيام (١١ ، ١٢ ، ١٣) من ذي الحِجَّةِ .

سيرين ثلاثين سنة لا تخرج من مُصَلاَّها إلا لقائلةٍ ، أو قضاء حاجة» .

وذكروا أنه كان لها كَفَنٌ ، فإذا حَجَّت وأحرمت لبسته . وكانت إذا جاء العشر الأخير مِنْ رمضان قامت من الليل فَلَبِسَتْهُ .

ومن أقوالها : يا مَعْشَرَ الشَّبابِ! خذوا من أنفسكم وأنتم شباب ، فإني رأيتُ العمل في الشباب .

قال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب : ماتت سنة إحدى ومئة ، وذكرها البخاري في فصل مَنْ مات من سنة مئة إلى عشر ومئة .

* * *

اصْنَعْ مَا أَمَرَكَ اللهُ تعالى بِهِ

أورد الأَبْشِيهي في «المُسْتَطْرَف» (٢/ ٤٨٠ ـ ٤٨١) عن الهيثم بن عَدِيٍّ، عن التابعي الجليل: عامرِ بن شَراحيل الشَّعْبيِّ، قال: لَقِيَني شُرَيْحٌ[١]، فقال لي: يا شَعْبَيُّ! عليكَ بنساءِ بني تميمٍ؛ فإني رأيتُ لهنَّ عُقولاً.

فقلتُ: وما رأيتَ مِنْ عُقولِهِنَّ؟

قال: أقبلتُ من جِنَازةٍ ظُهْراً، فمررتُ بدُورِهِنَّ، وإذا أنا بعجوز على باب دارٍ، وإلى جانبها جارية[٢]، كَأَحْسَنِ ما رأيت من الجواري، فَعَدَلْتُ إليها، واسْتَسْقَيْتُ وما بي مِنْ عَطشٍ. فقالت لي: أيُّ الشراب أحبُّ إليك؟ قلت: ما تيسَّرَ.

قالت: ويحكِ! يا جاريةُ! ائتيه بِلَبَنٍ؛ فإني أظنُّ الرجلَ غريباً.

فقلت للعجوزِ: ومَنْ تكونُ هذه الجاريةُ منكِ؟

قالت: هي زينب بنت حُدَير، إحدى نساء بني حَنْظَلَةَ.

---

(١) هو شُرَيْحُ بن الحارثِ الكندي، أبو أُميّة: من أشهر القضاة في صدر الإسلام. ولي قضاء الكوفة في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية. وكان ثقةً في الحديث، مأموناً في القضاء، له باع في الأدب والشعر. وعُمِّرَ طويلاً، مات بالكوفة سنة (٧٨)هـ. (الأعلام: ٣/ ١٦١)، وانظر ترجمته في السير (٤/ ١٠٠) وفي حاشيته عدد من مصادر ترجمته.

(٢) (جارية): هي الفتيةُ من النساء (الوسيط).

قلتُ: هي فارغةٌ أم مشغولةٌ؟[1]

قالت: بل فارغة.

قلتُ: أَتُزَوِّجِينِيْها؟

قالت: إنْ كُنْتَ كفأً (ولم تقل: كفواً)، وهي لغة بني تميم، فتركتها ومضيتُ إلى منزلي لأقيْلَ[2] فيه، فامْتَنَعَتْ مِنِّي القَائِلَةُ[3].

فلما صَلَّيْتُ الظُّهر أخذْتُ بيد إخواني من العرب الأشراف: علقمة[4]، والأسودِ[5]، والمُسَيّبِ[6]، ومضيتُ أريد عَمَّها، فاستقبَلَنا، وقال: ما شأنُكَ؟ أبا أميَّة!

قلت: زينب ابنة أخيكَ.

قال: ما بها عنك رَغْبَةٌ، فَزَوَّجَنِيْها.

فلما صارت في حِبالي، نَدِمْتُ، وقلتُ: أيَّ شيءٍ صَنَعْتُ بنساء بني تميم؟ وذكرتُ غلظَ قلوبهنَّ، فقلت: أُطَلِّقها؟ ثم قلتُ: لا، ولكن أَدْخُلُ بها، فإنْ رأيتُ ما أُحِبُّ، وإلاَّ كان ذلك.

فلو شَهِدْتَني، يا شَعْبِيُّ! وقد أَقْبَلَتْ نِساؤُها يُهْدِينَها، حتى أُدْخِلَتْ عَلَيَّ.

فقلت: إنَّ من السُّنَّةِ إذا دخلتِ المرأة على زوجها أَن يقوم ويصلي

---

(١) أي هي ذات زوج أم لا؟

(٢) (لأقيل): أي لأستريح وأنام. قال في النهاية: القيلولة: الاستراحةُ نصف النهار، وإن لم يكن معها نوم.

(٣) أي لم أستطع النوم لانشغالي بتلك الجارية.

(٤) هو عَلْقَمَةُ بن قيس بن عبد الله النَّخَعِيُّ الكوفي. ثقة ثَبْتٌ فقيه عابد. مات بعد سنة (٦٠)هـ، وقيل بعد (٧٠)هـ روى له الستة (التقريب).

(٥) هو الأسود بن يزيد بن قيس النَّخعيُّ مخضرمٌ، ثقة، مكثر، فقيهٌ. مات سنة (٧٤) أو (٧٥)هـ. روى له الستة (التقريب).

(٦) هو المُسَيِّب بن نَجَبَة الكوفي مخضرم. قال في التقريب: مقبول. قتل سنة (٦٥) هـ.

ركعتين[1] ، ويسأل الله تعالى من خيرها ، ويتعوَّذ من شَرِّهَا[2] .

فتوضأتُ ، فإذا هي تتوضأ بِوُضُوئي ، وصلَّيْتُ ، فإذا هي تصلي بصلاتي .

فلما قضيتُ صلاتي ، أَتَتْني جواريها ، فأخذن ثيابي ، وألبسنني مِلْحَفَةً[3] قد صُبِغَتْ بالزَّعْفران .

فلما خلا البيتُ ، دَنَوْتُ منها ، فمددت يدي إلى ناصيتها[4] ، فقالت : علىٰ رِسْلِكَ[5] ، أبا أُمَيَّةَ! ثم قالت : الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأصلي على محمد وآله ، أمَّا بعدُ : فإني امرأةٌ غريبةٌ ، لا عِلْمَ لي بأخلاقكَ ، فَبَيِّنْ لي ما تحبُّ فآتيَهُ ، وماتكره فأَجْتَنِبَهُ ، فإنه قد كان لك منكح في قومكَ ، ولي في قومي مِثْلُ ذلك . ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً ، وقد مَلَكْتَ[6] ، فاصْنع ما أمرك الله ـ تعالى ـ به : إما إمساكٌ بمعروفٍ ، أو تسريحٌ بإحسانٍ . أقول قولي

---

(١) لِما أخرج ابن أبي شيبة في «المُصَنَّفِ» بسندٍ جيد عن شَقيق بن سَلَمَةَ ، قال : جاء رجل يقال له : أبو حَرِيز ، فقال : إني تزوجتُ جارية شابة ، وإني أخاف أن تفركني (أي : تبغضني) ، فقال عبد الله بن مسعودٍ ، رضي الله عنه : «إنَّ الإلْفَ من الله ، والفِرْكَ من الشيطان ، يريد (أي : الشيطان) أن يكره إليكم ما أَحَلَّ الله لكم ، فإذا أتتكَ ، فأْمُرها أن تصلي وراءكَ ركعتين . وقل : اللهم بارك لي في أهلي وبارك لهم فيَّ . اللهمَّ! اجمعْ بيننا ما جمعت بخير ، وفرق بيننا إذا فرقْتَ إلى خيرٍ .

(٢) لما أخرجه أبو داود (٢١٦٠) ، وابن ماجه (١٩١٨) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٠) وغيره من حديث عمرو بن شُعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي ﷺ قال : إذا تزوج أحدكم امرأةً أو اشترى خادماً ، فليقل : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه ، وأعوذ بكَ من شَرِّها وشرِّ ما جَبَلْتَها عليه .
وفي رواية : ثم ليأخذ بناصيتها ، وليدع بالبركة في المرأة والخادم . وصححه الحاكم (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٦) ووافقه الذهبي ، وصححه أيضاً الإمام النووي في الأذكار رقم (٩٠٣) بتحقيقي .

(٣) (مِلْحَفَة) : اللباس فوق سائر اللباس (الوسيط) .

(٤) (ناصيتها) : الناصية : مقدم الرأس (الوسيط) .

(٥) (على رِسْلِكَ) : أي : اتَّئِدْ ولا تَعْجَلْ (الوسيط) .

(٦) (مَلَكْتَ) : أي تَزَوَّجْتَ .

هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ، ولكَ ، ولجميعِ المسلمين .

قال : فَأَحْوَجَتني ، والله! يا شَعْبيُّ! إلى الخُطبة في ذلك الموضع ، فقلتُ : الحمد لله ، أحمدهُ ، وأستعينه ، وأصلي على محمد وآله ، أما بعد : فإنك قُلتِ كلاماً إنْ تَبَتِّ عليه يكُنْ ذلك حَظّاً لي ، وإن تَدَّعيه يكُنْ حُجَّةً عليكِ .

أُحبُّ كذا ، وأكره كذا ، وما رأيتِ من حسنة فَابْثُثِيها ، وما رأيتِ من سيئة فَاسْتُريها .

فقالت : كيف مَحَبَّتُكَ لزيارة الأَهْلِ؟

قلتُ : ما أُحِبُّ أَن يَمَلَّني أصْهاري[1] .

قالت : فَمَنْ تُحِبُّ من جيرانِكَ يَدخُلُ داركَ آذَنُ له ، ومن تكرهه أكرهه؟

قلتُ : بنو فلانٌ قومٌ صالحون ، وبنو فلانٍ قوم سُوءٍ .

قال : فَبِتُّ معها ، يا شعبيُّ! بِأَنْعَمِ ليلةٍ ، ومَكَثَتْ معي حَوْلاً ، لا أرى منها إلاّ ما أُحِبُّ .

فلما كان رأسُ الحولِ ، جئتُ مِنْ مجلس القضاءِ ، وإذا بعجوز في الدار تأمر وتنهىٰ .

قلتُ : مَنْ هٰذِه .

قالوا : فلانةٌ ، أُمُّ حليلتك[2] .

قلتُ : مرحباً ، وأهلاً ، وسهلاً .

فلما جلستُ ، أقبلتِ العجوزُ ، فقالت : السلام عليكَ ، يا أبا أُمَيَّةَ!

فقلتُ : وعليكِ السلامُ ، ومرحباً بكِ ، وأهلاً .

قالت : كيف رأيتَ زوجتكَ؟

---

(١) يعني عدم الإكثار من الزيارة .

(٢) (أم حليلتك) : أم زَوْجِكَ .

قلتُ: خيرَ زوجةٍ، وأوفقَ قرينةٍ؛ لقد أَدَّبْتِ فأَحْسَنْتِ الأَدبَ، ورَيَّضْتِ، فَأَحْسَنْتِ الرياضة، فجزاكِ الله خيراً.

فقالت: أبا أمية! إنَّ المرأة لا يرى أسوأ حالاً منها في حالتين.

قلتُ: وما هما؟

قالت: إذا وَلَدَتْ غُلاماً، أو حَظِيَتْ عند زوجها، فإنْ رَابكَ مُريبٌ، فعليكَ بالسَّوْطِ، فوالله! ما حازَ الرجالُ في بيوتهم أشَرَّ من الرَّوْعَاءِ[1] المُدَلَّلَةِ.

فقلتُ: والله! لقد أَدَّبْتِ، فأَحْسَنْتِ الأدبَ، ورَيَّضْتِ فأحسنتِ الرياضةَ.

قالت: كيف تحب أنْ يَزُورَكَ أَصْهارُكَ[2]؟

قلت: ما شاؤوا، فكانت تأتيني في رأس كل حَوْلٍ، فتوصيني بتلك الوصية.

فَمَكَثَتْ معي، يا شَعْبيُّ! عشرين سنةً، لم أَعِبْ عليها شيئاً. وكان لي جارٌ مِنْ كِنْدَةَ، يُفْزِعُ امرأته ويَضْرِبُها، فقلت في ذلك:

رَأَيْتُ رِجالاً يَضْرِبُونَ نِساءَهُمْ ... فَشَلَّتْ يَميني[3] يَوْمَ تُضْرَبُ زَيْنَبُ
أَأَضْرِبُها مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَتْ بِهِ ... فَماالعَدْلُ مِنِّي ضَرْبُ مَنْ لَيْسَ يُذْنِبُ
فَزَيْنَبُ شَمْسٌ والنِّساءُ كَواكِبُ ... إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وذكر القاضي ابنُ خَلِّكان في «وفيات الأعيان» (٢/ ٤٦٢) أنَّ شريحاً تزوج امرأة من بني تميم تُسمى زينب، فَنَقَمَ عليها شيئاً، فَضَرَبها، ثم نَدِمَ، وقالَ:

رَأَيْتُ رِجالاً يَضْرِبُونَ نِساءَهُمْ ... فَشَلَّتْ يَمِيْني يَوْمَ أَضْرِبُ زَيْنَبَا
أَأَضْرِبُها مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَتْ بِهِ ... فَمَاالعَدْلُ مِنِّي ضَرْبُ مَنْ لَيس مُذْنِبا
فَزَيْنَبُ شَمْسٌ والنِّساء كَواكِبٌ ... إذا طَلَعَتْ لَمْ تُبْقِ مِنْهُنَّ كَوْكَبا

* * *

---

(١) (الرَّوْعاء): المرأة المعجبة بحسنها وجمالها منظرها.
(٢) (أصهارك): الأصهار: أقارب الزوج من قِبَلِ امرأته.
(٣) (فَشَلَّتْ يميني): أُصيبت بالشَّلَلِ.

رُبَّ كَاسِيَةٍ في الدنيا عَارِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ

أخرج البخاري (٥٨٤٤) عن الزُّهْرِيِّ: أخبرتني هِنْدُ بنت الحارث، عن أُم سَلَمَة رضي الله عنها قالت:

استيقظ النبي ﷺ من الليل وهو يقول: «لا إله إلا اللهُ، ماذا أُنزِلَ الليلةَ من الفِتَنِ[١]؟ ماذا أُنْزِلَ من الخزائنِ[٢]؟ مَنْ يُوقِظُ صَواحِبَ الحُجُراتِ[٣]؟

كَمْ من كاسيةٍ في الدنيا عارية يومَ القيامةِ».

قال الزُّهْرِيُّ: وكانت هندٌ لها أزرارٌ في كُمَّيْها بين أصابعها.

وفي رواية للحافظ أبي يعلى في مسنده (٦٩٨٨) من طريق إسماعيل بن إبراهيم، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن هند بنت الحارث، عن أم سَلَمَة قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال:

«سبحان الله، ما أنزلَ الله من الفتن، وماذا فتح من الخزائن، أيقظوا صواحب الحُجُرات، فرُبَّ كاسية في الدنيا، عارية يوم القيامة».

قال إسماعيل: في حديثه: «فرأيت هنداً اتخذت لِكُمِّ دِرْعها[٤] أزراراً».

---

(١) قال ابن حجر في الفتح ١/ ٢١٠: «المراد بالإنزال إعلام الملائكة بالأمر المقدور، أوأن النبي ﷺ أوحي إليه في نومه ذاك بما سيقع بعده من الفتن فعبّر عنه بالإنزال.

(٢) (ماذا أنزل من الخزائن) قال الداودي: الثاني هوالأول والشيء قد يعطف على نفسه تأكيداً، لأن ما يفتح من الخزائن يكون سبباً للفتنة (الفتح ١/ ٢١٠).

(٣) (صواحب الحجرات): يريد أزواجه ﷺ، ليصلّين.

(٤) (درعها): أي القميص الذي تلبسه.

قلت: في هذا الحديث تحذير شديد للنساء من لبس الرقيق من الثياب الواصفة لأجسامهنَّ، لئلاً يعرين في الآخرة. وها هي المحدثة الصالحة هند بنت الحارث الفِراسية، لما سمعت هذا الحديث من صاحبتها أم المؤمنين أم سلمة بادرت إلى وَضْع أَزْرارٍ لكُمِّها لأنها كانت تخشى أن يبدو من جسدها شيء بسبب سَعَةِ الكُمَّيْنِ، فكانت تُزَرِّرُ ذلك لئلا يبدو منه شيء فتدخل في قوله: «كاسية عارية».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١٣/ ٢٣: «واختلف في المراد بقوله: «كاسية عارية» على أوجه:

أحدها: كاسية في الدنيا بالثياب لوجود الغنى، عارية في الآخرة من الثواب لعدم العمل في الدنيا.

ثانيها: كاسية بالثياب لكنها شفَّافة، لا تستر عورتها، فتعاقب في الآخرة بالعري جزاءً على ذلك.

ثالثها: كاسية من نعم الله، عارية من الشكر الذي تظهر ثمرته في الآخرة بالثواب.

رابعها: كاسية جسدها لكنها تشد خمارها من ورائها فيبدو صدرها، فتصير عارية، فتعاقب في الآخرة.

خامسها: كاسية من خلعة التزوج بالرجل الصالح، عارية في الآخرة من العمل، فلا ينفعها صلاح زوجها كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ذكر هذا الأخير الطيبي ورجحه لمناسبة المقام.

واللفظة وإن وردت في أزواج النبي ﷺ، لكن العبرة بعموم اللفظ، وقد سبق لنحوه الداودي فقال: «كاسية للشرف في الدنيا لكونها أهل التشريف، وعارية يوم القيامة».

قال: ويحتمل أن يراد عارية في النار».

قال ابن بطَّالٍ: «في هذا الحديث: أن الفتوح في الخزائن تنشأ عنه فتنة

المال ، بأن يتنافس فيه ، فيقع القتال بسببه ، وأن يبخل به فيمنع الحق ، أو يبطر صاحبه فيسرف. فأراد ﷺ تحذير أزواجه من ذلك كله ، وكذا غيرهن ممن بلغه ذلك ، وأراد بقوله: «من يوقظُ» بعض خدمه ، كما قال يوم الخندق «من يأتيني بخبر القوم» وأراد أصحابه ، لكن هناك عرف الذي انتدب كما تقدم وهنا لم يذكر.

وفي الحديث: الندب إلى الدعاء والتضرع عند نزول الفتنة ، ولا سيمافي الليل لرجاء وقت الإجابة ، لِتُكْشَفَ ، أو يسلم الداعي ، ومن دعا له ، وبالله التوفيق.

* * *

نالوا الفَوْزَ وحَاطُوا الذِّمَارَ

ذكر الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في كتاب «الأذكار» في فَصْل التعزية ، عن جُوَيْرِيَةَ بن أسماء ، عن عَمِّهِ: أن إخوةً ثلاثةً شهدوا يوم تُسْتَرَ[1] ، فاستشهدوا ، فخرجت أمهم يوماً إلى السوق لبعض شأنها ، فتلقاها رجلٌ حَضَرَ تُسْتَرَ ، فعرفته ، فسألته عن أمور بنيها ، فقال: استشهدوا.

فقالت: مُقْبِلين أو مُدْبرين؟

قال: مُقبلين.

قالت: الحمد لله ، نالوا الفوزَ ، وحاطوا الذِّمارَ ، بنفسي هم وأبي وأمي.

قال الإمام النووي: الذِّمار: بكسر الذال المعجمة ، وهم أهل الرجل وغيرهم مما يحق عليه أَنْ يحميَهُ ، وقولها: حاطوا: أي: حفظوا وَرَعَوْا.

* * *

(١) (تُسْتَر): هي أعظم مدينة بخوزستان ، فيها قبر البراء بن مالك. وعندما فتحت جعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقربها منها ، وانظر خبر فتحها في الطبري ٤/ ٧٧ ـ ٨٩ وغيره من كتب التاريخ.

مرحباً بكُنَّ إنْ كُنْتُنَّ جِئْتُنَّ لِلْهَنَاءِ

مُعاذة بنت عبد الله العَدَوِيَّةُ ، أُمُّ الصَّهْباء البَصرِيةُ ، زوجُها السيد القدوة الشهيد أبو الصهباء صِلَةُ بن أَشْيَم ، تابعية ثقة سيدة عالمة ، من ربات الفصاحة والبلاغة والتفقه في الدين والنسك والزهد بالبصرة .

قال ابن أبي مريم عن ابن مَعِين : ثقة حُجَّة . وذكرهاابنُ حبان في «الثقات» وقال : كانت من العابدات ، يقال : إنها لم تتوسد فراشاً بعد أبي الصهباء حتى ماتت .

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمتها في «تهذيب التهذيب» : «روينا في فوائد عبد العزيز المشرقي بسند له ، عن أبي بشرٍ : شيخٍ من أهل البصرة قال : أتيتُ مُعاذَةَ فقالت : إني اشتكيتُ بطني ، فَوُصِفَ لي نَبيذُ الجَرِّ[1] ، فأتيتها منه بِقَدَحٍ ، فَوَضَعَتْهُ ، فقالت : اللَّهُمَّ! إن كنتَ تعلمُ؛ أنَّ عائشةَ حدثتني أنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ نهىٰ عن نبيذ الجَرِّ فاكفنيه بما شئت .

قال : فانكَفَأَ القَدَحُ ، وأُهريقَ ما فيه ، وأذهب الله تعالى ما كان بها» .

وكانت إذا جاء النهار قالت : هذا يومي الذي أموت فيه ، فما تنام ، حتى إذا جاء الليل قالت : هذه ليلتي التي أموت فيها ، فلا تنام حتى تصبح .

وإذا جاء البرد لبست الثياب الرقاق ، حتى يمنعها البرد من النوم ، وكانت

---

(١) (الجَرّ) : واحِدُ جِرار الخَزَف ، وانظر البخاري (٥٥٩٥) ، وصحيح مسلم (١٩٩٥/ ٣٨) وجامع الأصول (٥/ ١٤٦ ـ ١٤٨) .

تحيي الليل بالصلاة ، فإذا غلبها النوم ، قامت ، فجالت في الدار وهي تقول: يا نفس! النوم أمامَكِ لَوْ قَدْ مِتِّ طالت رقدتك في القبر على حسرة. ثم لا تزال تدور إلى الصباح تخاف الموت على غفلة ونوم.

وكانت تصلي في كل يوم وليلة ست مئة ركعة ، ولم ترفع بصرها إلى السماء أربعين سنة.

وعن امرأة أرضعتها مُعاذة ، قالت: قالت لي مُعاذة: يا بنية! كوني من لقاء الله تعالى على حذر ورجاء ، فإني رأيت الراجي محفوفاً بحسن الزلفى لديه يوم يلقاه.

ورأيت الخائف له مؤملاً له زمان يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ثم بكت. ولما مات زوجها لم تتوسد فراشاً حتى ماتت.

وكانت تقول: والله! ما أحب البقاء إلا لأتقرب إلى ربي بالوسائل لعله يجمع بيني وبين أبي الصَّهباء وولده في الجنة ، وكانت تقول: صحبت الدنيا سبعين سنة فما رأيت فيها قرة عين قط[١].

قال الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٩): بلغنا أنها كانت تُحيي الليل عبادة ، وتقول: عجبت لعين تنام ، وقد علمت طول الرقاد في ظلم القبور.

ولما استشهد زوجها صِلَةُ (بْنُ أَشْيم) وابنها في بعض الحروب ، اجتمع النساء عندها ، فقالت: مرحباً بكنَّ ، إن كنتنَّ جئتنَّ للهناءِ ، وإن كنتنَّ جِئْتُنَّ لغير ذلك فارْجِعْنَ.

أَرَّخ أبو الفرج بن الجوزي وفاتها في سنة (٨٣) هـ.

* * *

---

(١) انظر أعلام النساء (٥/ ٦٠ ـ ٦١).

الطَّيِّباتُ للطَّيِّبِيْنَ

قال أبو بكر بن أبي داود: كانت بنتُ سعيد (بنِ المسيَّب)[1] قد خطبها عبد الملك (بن مروان)[2] لابنه الوليد[3] ، فأبى عليه ، فلم يزل يحتال عبد الملك عليه حتى ضربه مئة سوط في يوم بارد ، وصبَّ عليه جرَّة ماءٍ ، وأَلْبَسَهُ جُبَّةَ صوفٍ.

ثم قال: حدثني أحمد ابن أخي [عبد الرحمن] بن وهب ، حدثنا عمر بن وهب ، عن عَطَّاف بن خالد ، عن ابن حَرْمَلَةَ ، عن ابن أبي وَدَاعَةَ ـ يعني: كَثِيْراً ـ[4] قال:

---

(١) هو سيد التابعين ، وأحد فقهاء المدينة السبعة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع. ولد سنة (١٣)هـ. ومات بالمدينة سنة (٩٤)هـ. انظر ترجمته في السير (٤/ ٢١٧ ـ ٢٤٦) ، والأعلام (٣/ ١٠٢).

(٢) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي. خليفة أموي فقيه. قال ابن حجر: كان طالب علم قبل الخلافة ، ثم اشتغل بها ، فتغير حاله ، ملك (١٣) سنة استقلالاً ، وقبلهامنازعة لابن الزبير (٩) سنين. ولد بالمدينة سنة (٢٦)هـ ومات بدمشق سنة (٨٦)هـ انظر ترجمته في السير (٤/ ٢٤٦ ـ ٢٤٩) ، والأعلام (٤/ ١٦٥).

(٣) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان من ملوك الدولة الأموية بالشام. وهو الذي بنى الجامع الأموي بدمشق. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة (٨٦)هـ. ولد سنة (٤٨)هـ وتوفي بدير مرّان من غوطة دمشق سنة (٩٦)هـ ودفن بدمشق. مدة خلافته (٩) سنين و(٨) أشهر. وكان نقش خاتمه: «يا وليد إنك ميت». انظر ترجمته في السير (٤/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨) ، والأعلام (٨/ ١٢١).

(٤) هو كثير بن المطلب بن أبي وداعة القرشي السهمي ، أبو سعيد المكي. قال ابن حجر: مقبول. من الثالثة. ذكره ابن حبان في الثقات (التهذيب وفروعه).

كنت أجالس سعيد بن المسيَّب[1] ، ففقدني أياماً ، فلما جئته ، قال: أين كنت؟

قلت: توفيت أهلي ، فاشتغلتُ بها.

فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها؟ ثم قال: هل استحدثت امرأة؟

فقلت: يرحمكَ اللهُ! ومن يزوِّجُني ، وما أملك إلا درهمينِ أو ثلاثةً؟

قال: أنا.

فقلت: وتفعلُ؟

قال: نعم. ثم تحمَّد وصلى على النبي ﷺ ، وزوَّجني على درهمين ـ أو قال: ثلاثة ـ فقمت ، وما أدري ما أصنع من الفرح ، فصرت إلى منزلي ، وجعلت أتفكَّرُ فيمن أستدين. فصليت المغرب ، ورجعت إلى منزلي ، وكنت وحدي صائماً فقدَّمت عشائي أفطر ، وكان خبزاً وزيتاً ، فإذا بابي يُقْرَع ، فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد.

فأفكرْتُ في كل مَنْ اسمه سعيد إلا ابن المسيَّب ، فإنه لم يُرَ أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد ، فخرجت ، فإذا سعيد ، فظننتُ أنه قد بدا له[2]. فقلت: يا أبا محمد! ألا أرسلت إليَّ فآتيكَ؟

قالا: لا ، أنت أحق أن تؤتى ، إنك كنت رجلاً عَزَباً فتزوجْتَ ، فكرهتُ أن تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك.

فإذا هي قائمة خلفه في طوله. ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب ، وردَّ الباب فسقطت المرأة من الحياء. فاستوثقتُ من الباب ، ثم وضعتُ القصعة في ظِلِّ السِّراج لكي لا تراه ، ثم صعدتُ إلى السطح فرميت الجيران ، فجاؤوني ، فقالوا: ما شأنك؟ فأخبرتهم. ونزلوا إليها ، وبلغ أُمِّي ، فجاءت ، وقالت:

---

(١) (المسيَّب): بفتح الياء المشددة المثناة من تحتها ، وروي عن سعيد أنه كان يقول بكسر الياء ، ويقول: سيَّب الله من يسيِّبُ أبي (وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٨).

(٢) (بدا له): أي جدَّ له رأي في موضوع تزويج ابنته.

وجهي من وجهك حرام إنْ مَسِسْتَهَا قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام.

فأقمتُ ثلاثاً، ثم دخلتُ بها، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج.

فمكثت شهراً لا آتي سعيد بن المسيب، ثم أتيته وهو في حلقته، فسلَّمتُ، فردَّ عليَّ السلام، ولم يكلمني حتى تقوَّضَ المجلس[1]، فلما لم يبق غيري، قال: ما حال ذلك الإنسان؟

قلت: خيرٌ، يا أبا محمد! على ما يحب الصديق، ويكره العدو.

قال: إن رابك شيء فالعصا[2].

فانصرفت إلى منزلي، فوجّه إليَّ بعشرين ألف درهم[3].

قال أبو بكر بن أبي داود: ابن أبي وَداعة هو كثير بن المطلب بن أبي وَداعة.

قال الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٤) بعد أن ذكر القصة: قلتُ: هو سهمي مكي، روى عن أبيه المطلب أحد مُسْلمة الفتح، وعنه: ولده جعفر بن كثير، وابن حرملة. تفرَّد بالحكاية أحمد بن عبد الرحمن بن وهب. وعلى ضعفه قد احتجَّ به مسلم.

قال عمرو بن عاصم: «حدثنا سلاَّم بن مسكين، حدثنا عمران بن عبد الله قال: زوَّج سعيد بن المسيَّب بنتاً له من شاب من قريش، فلما أَمْسَتْ، قال

---

(١) (تقوَّض المجلسُ): تفرَّق أهله.

(٢) يريد الإمام سعيد بن المسيب توجيه صهره إلى تأديب زوجه إذا أقلقه أو أزعجه منها شيء. لكن هذه الفتاة المؤمنة، الحافظة لكتاب الله، والعالمة بسنة المصطفى ﷺ، والعارفة لحق الزوج لا يمكن أن تُلجىء بعلها إلى شيء من هذا. و(العصا) لا تستخدم في حق الزوجة إلا بعد النصح والموعظة، والهجر في المضجع. وإذا لم تُجْدِ الأساليب التربوية جميعها، فآخر الدواء الكي.

(٣) يرى بعض الأزواج أن في قبول الهدايا والعطايا من والد الزوجة للصِّهر ضعةً وذلة ومهانة. وها هو السلف الصالح يفعله، ونعم القدوة هو.

لها: شدي عليك ثيابك واتبعيني ، ففعلَتْ. ثم قال: صَلِّي ركعتين ، فصلَّتْ ، ثم أرسل إلى زوجها فوضع يدها في يده ، وقال: انطلق بها. فذهب بها ، فلما رأتها أمه ، قالت: مَنْ هذه؟

قال: امرأتي.

قالت: وجهي من وجهكَ حرام إنْ أفضيْتَ إليها حتى أصنع بها صالح ما يصنع بنساء قريش ، فأَصْلَحتْها ، ثم بنى بها».

قلت: كان السلف الصالح يبحثون لبناتهم عن صاحب الدين والخلق ، ولو كان من ضعفة المسلمين ، ولا يأبهون بصاحب المال والسطوة والسلطان؛ فقد روى الإمام أحمد في الزهد ص: (١٧٥) من حديث سَيَّار ، حدثنا جعفر ، حدثنا ثابت ، قال:

خطب يزيد بن معاوية إلى أبي الدرداء ابنته؛ فَرَدَّهُ ، فقال رجل من جُلساء يزيد: أصلحك الله! تأذن لي أَنْ أتزوجها؟

قال: اغْرُبْ ، وَيْلَكَ!

قال: تأذن لي؟ أصلحك الله!

قال: نعم. فخطبها ، فأنكحها أبو الدرداء الرجلَ. قال: فسار ذلك في الناس أنَّ يزيدَ خطب إلى أبي الدرداء فردَّهُ ، وخطب إليه رجلٌ من ضعفاء المسلمين فأنكحه.

قال فقال أبو الدرداء: إني نظرت للدرداء. ما ظنكم بالدرداء إذا قامت على رأسها الخِصْيانُ ، ونظرتْ إلى بيوتٍ يلتمع فيها بصرها ، أين دينُها منها يومئذٍ؟!

* * *

والله ! مَا ضَيَّعْته

ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء (٦/ ٩٣ ـ ٩٥) بإسناد منقطع عن مشيخة أهل المدينة أنّ فَرُّوخاً والدَ ربيعة[(١)] ، خرج في البعوث إلى خُراسانَ ، أيام بني أمية غازياً ، وربيعةُ حَمْلٌ في بطن أمه ، وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار ، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة ، وهو راكب فرساً ، في يده رمح ، فنزل عن فرسه ، ثم دفع الباب برمحه ، فخرج ربيعةُ ، فقال: يا عدوَّ الله! أتهجم على منزلي؟ فقال: لا.

وقال: فَرُّوخ: يا عدو الله! أنت رجل دخلْتَ على حرمتي ، فتواثبا ، وتلبث كل واحد بصاحبه حتى اجتمع الجيران ، فبلغ مالك بن أنس والمشيخة ، فأتوا يعينون ربيعة ، فجعل ربيعة يقول: واللهِ! لا فارقتك إلا عند السلطان ، وجعل فروخ يقول كذلك. ويقول: وأنت مع امرأتي. وكثر الضجيج.

فلما أبصروا بمالك ، سكت الناس كلهم. فقال مالك: أيها الشيخ! لك سَعَةٌ في غير هذه الدار.

فقال الشيخ: هي داري ، وأنا فروخ مولى بني فلان. فسمعت امرأته

---

(١) (ربيعة): هو ابن فَرُّوخ المدني ، إمام ، حافظ ، مجتهد. لقب بـ «ربيعة الرَّأي» وكان صاحب الفتوى بمدينة رسول الله ﷺ. وبه تفقَّه الإمام مالك. توفي سنة (١٣٦)هـ. انظر ترجمته في الأعلام.

كلامه ، فخرجت ، فقالت : هذا زوجي ، وهذا ابني الذي خلفته ، وأنا حامل به .

فاعتنقا جميعاً ، وبكيا ، فدخل فروخ المنزل ، وقال : هذا ابني؟! قالت : نعم .

قال : فأخرجي المال الذي عندك ، وهذه معي أربعة آلاف دينار .

قالت : المال قد دفنته ، وأنا أخرجه بعد أيام .

فخرج ربيعة إلى المسجد ، وجلس في حلقته ، وأتاه مالك بن أنس ، والحسن بن زيد ، وابن أبي علي اللِّهْبي ، والمُساحِقي ، وأشراف أهل المدينة ، وأحدق الناس به .

فقالت امرأته : اخرج ، صلِّ في مسجد الرسول ﷺ ، فخرج ، فصلى ، فنظر إلى حلقة وافرة ، فأتاه فوقف عليه ، ففرجوا له قليلاً ، ونكَّسَ ربيعةُ رأسه ، يوهمه أنه لم يره ، وعليه طويلة . فشك فيه أبو عبد الرحمن ، فقال : من هذا الرجل؟

قالوا له : هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن .

فقال : لقد رفع الله ابني .

فرجع إلى منزله ، فقال لوالدته : لقد رأيتُ ولدك في حالةٍ ، ما رأيت أحداً من أهل العلم والفقه عليها .

فقالت أمه : فأيهما أحب إليك : ثلاثون ألف دينار ، أو هذا الذي هو فيه من الجاه؟

قال : لا ، والله! إلا هذا .

قالت : فإني قد أنفقت المال كله عليه .

قال : فو الله ما ضَيَّعْتِهِ .

* * *

لوْ كُنْتَ تَبْقَىٰ

روى البيهقي في الزهد الكبير ص: (٢٣٣) بإسناده عن أبي الحسن المدائني ، قال: لبس سليمان بن عبد الملكِ[١] ثياباً جميلةً ، ثم نظر إلى وجهه في المِرآةِ ، فقال: والله! أنا الملك الشابُّ ، فأَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ. قال: وجاريةٌ تَصُبُّ على يديه ، فقالت:

أنْـتَ نِعْـمَ المَتَـاعُ لَـوْ كُنْـتَ تَبْقَـىٰ ... غَيْـــرَ أَنْ لا بقـــاءَ لـــلإنْســـانِ

أنْـــتَ خِلْــوٌ مِــنَ العُيــوب وِممَّــا ... يكْـرَهُ النَّـاسُ غَيْـرَ أَنَّـكَ فَـانِـي[٢]

قال: فَصَاحَ بها ، وقال للوَليد:

قَــرِّبْ وَضُـوءَكَ[٣] يــاوَلِيـدُ فَـإنَّمـا ... دُنْيَــاكَ هٰــذِي بُلْغَـــةٌ[٤] وَمَتَــاعُ

فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ في حياتِكَ صَالحاً ... فَــالــدَّهْــرُ فِيْــهِ تَفَــرُّقٌ وجِمَــاعُ

---

(١) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان: أبو أيوب ، خليفة أموي ، ولد في دمشق سنة (٥٤)هـ ، ومات في دابق بين حلب ومعرة النعمان سنة (٩٩)هـ. ولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة (٩٦)هـ ، كان ديناً عاقلاً عادلاً فصيحاً مفوهاً محباً للجهاد. جَهَّز جيشاً كبيراً ، وسيَّره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية (استنبول الآن) وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان. مدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أياماً. من محاسنه التي لا تنسى عهده بالخلافة بعده للخليفة العادل عمر بن عبد العزيز. انظر ترجمته في السير (٥/ ١١١) وفي حاشيته عدد من مصادر ترجمته.

(٢) (فاني): أي ميت هالك.

(٣) (الوَضوء): بفتح الواو: الماء الذي يتوضَّأ به.

(٤) (البُلْغَةُ): ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها (الوسيط).

واللهِ! ما أوافقهُ في حَالِ حَيَاتِهِ وأُخَالِفُهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ

فاطمة بنت عبد الملك ، امرأة من فواضل نساء عصرها .

أبوها : الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٢٦ ـ ٨٦) هـ .

وجدُّها : الخليفة الأموي مروان بن الحكم (٢ ـ ٦٥) هـ .

وإخوتها : الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٤٨ ـ ٩٦) هـ ، والخليفة سليمان بن عبد الملك (٥٤ ـ ٩٩) هـ ، والخليفة يزيد بن عبد الملك (٧١ ـ ١٠٥) هـ ، والخليفة هشام بن عبد الملك (٧١ ـ ١٢٥) هـ .

وزوجها : الخليفة الراشد الخامس أبو حفص : عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى (٦١ ـ ١٠١) هـ .

وهي التي يقول فيها وَضَّاح :

بِنْـتُ الخليفـةِ والخليفـةُ جَـدُّهـا ... أُخْـتُ الخـلائِـفِ والخليفـةُ بَعْلُهـا
فَـرِحَـتْ قَـوابِلُهـا بهـا وتبـاشَـرَتْ ... وكـذا كـانـوا فـي المسَـرَّة أَهْلهـا

حكت هذه الفاضلة عن زوجها عمر بن العزيز .

وروى عنها : المغيرةُ بن حكيم الصَّنعانيُّ اليماني ، وهو ثقة من رجال مسلم .

وعطاء بن أبي رباح . تابعي ثقة ، فقيه فاضل . روى له الستة .

وأبو عبيدة بن عقبة بن نافع الفِهْرِيُّ ، يقال اسمه مُرَّة ، روى له مسلم وغيره.

ومُزَاحِم بن أبي مُزاحم المكِّيُّ ، مولى زوجها عمر بن عبد العزيز ، قال الحافظ ابن حجر: مقبول. روى له الأربعة خلا ابن ماجهْ.

وزُفَرُ مولى مَسْلَمَةَ بن عبد الملك.

كانت دارها بدمشق ـ كما قال الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق ـ دار الضيافة ، التي أصبحت مأوى للعميان في العُقَيْبَةِ ، خارج باب الفراديس[١].

سألها يوماً التابعي الجليل عطاء بن أبي رباح: أخبريني عن عمر بن عبد العزيز؟

فقالت: إن عمر ـ رضي الله عنه ـ قد فَرَّغَ للمسلمين نَفْسَهُ ، ولأمورهم ذِهْنَهُ ، فكان إذا أَمسىٰ مساءً لم يَفْرُغْ فيه من حوائج يومه ، وصَلَ يومه بليلته.

وقال عطاء أيضاً: حدثتني فاطمة: امرأة عمر؛ أنها دخلت عليه وهو في مُصَلاَّهُ ، تسيل دموعه على لحيته ، فقالت: يا أمير المؤمنين! ألشيءٍ حَدَثَ؟

قال: يا فاطمةُ! إني تقلَّدْتُ من أمر أمةِ محمد ـ ﷺ ـ أسودِها ، وأحمرِها ، فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، والمظلوم المقهور ، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض ، وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربي سائلي عنهم يوم القيامة ، فخَشِيْتُ أن لا تثبت لي حُجَّةٌ ، فَبَكَيْتُ.

وحكت هذه الفاضلة عن زوجها؛ أنه كان إذا دخل البيت ألقى نفسه في

---

(١) قال العلامة عبد القادر بدران رحمه الله في منادمة الأطلال ص (٤٢): وباب الفراديس من شمالي البلد أيضاً. وهو الآن في سوق العَمارة الممتد إلى جامع بني أمية. وهو باب متين أيضاً بالقرب من نهر بردى ، قال ابن عساكر: وهذا الباب منسوب إلى محلةٍ كانت خارج البلد تسمى الفراديس ، وهي الآن خرابٌ ، وكان للفراديس باب آخر عند باب السلامة فسد. والفراديس بلغة الروم البساتين».

مَسْجدِهِ[1] ، فلا يزال يبكي ، ويدعو ، حتى تغلبَهُ عيناهُ ، ثم يستيقظ ، فيفعلُ مثل ذلك ليلته أجمع .

وقال مسلمة بن عبد الملك بن مروان المتوفىٰ (١٢٠) هـ: دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه ، فإذا عليه قميص وَسِخٌ ، فقلت لفاطمة بنت عبد الملك : ألا تغسلون قميصه؟

قالت : والله! ماله قميص غيره .

وقال أبو أميَّة الخَصِيُّ ، غلامُ عُمَرَ : دخلت يوماً على مولاتي ، فغدَّتني عَدَساً ، فقلتُ : كُلّ يومٍ عَدَسٌ؟

قالت : يا بنيَّ! هذا طعام مولاكَ ، أميرِ المؤمنينَ .

وكانت تحب زوجها عمر بن عبد العزيز حُبًّا جَمًّا ، ورضيت أن تعيش معه عيشة الكفاف واختارته على حياة النعيم ، وطيب الحياة .

فقد روى خُلَيد بن عَجْلانَ ، أنه كان عند فاطمة بنت عبد الملك جوهر ، فقال لها عمر : من أين صار هذاإليكِ؟

قالت : أعطانيه أميرُ المؤمنين .

قال : إما أن ترديه إلى بيت المالِ ، وإمَّا أن تأذني بفراقِكِ؛ فإني أكره أن أكونَ أنا وأنتِ وهوَ في بيتٍ .

قالت : لا ، بل أختارك على أضعافه لو كان لي . فوضعته في بيت المال .

فلما ولي يزيد بن عبد الملك ، قال لها : إنْ شئتِ رددْتُهُ عليكِ ، أو قِيْمَتَهُ قالت : لا أريده . طبتُ به نفساً في حياته ، فأرجع فيه بعد موته؟! لا حاجة لي فيه . فقسمه يزيد بن عبد الملك بين أهله وولده .

وفي رواية الفرات بن السائب؛ أن عمر بن عبد العزيز قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك ـ وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله ـ : اختاري : إمَّا

---

(١) (مسجدِهِ) : أي الموضع الذي كان يصلي فيه في حُجْرتهِ .

أن تردي حُلِيَّكِ إلى بيت المال ، وإما تأذني لي في فراقك ، فإني أكره أن أكون أنتِ وأنا وهو في بيت واحدٍ. قالت: لا ، بل أختارك ، يا أمير المؤمنين! عليه وعلى أضعافه ، لو كان لي.

فأمر به فحمل حتى وضع في بيت مال المسلمين.

فلما هلك عمر ، واستخلف يزيد ، قال لفاطمة: إن شِئْتِ رَدَدْتُهُ عليكِ.

قالت: فإني لا أشاؤُهُ. طبتُ عنه نفساً في حياة عمر ، وأرجع فيه بعد موته؟!

لا ، والله! أبداً. فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وأولاده.

وفي رواية أخرى؛ أن عبد الملك بن مروان وهب بنته فاطمة حين زوجها لعمر بن عبد العزيز قُرْطَيْ مارِيَةَ[1] ، فلمّا ولي عمرُ الخلافة سنة (٩٩) هـ قال لها: إنْ أحببت المقام عندي فضعي القُرْطَيْنِ في بيت المال. فأجابته إلى رغبته دون تردد ، أو تباطؤ.

ولما مات سنة (١٠١) هـ ، وولي أخوها يزيد بن عبد الملك. أرسل إليها يقول: خذي القُرْطَينِ من بيت المال ، فقالت: لا ، والله! ما أوافقه في حال حياته ، وأخالفه بعدوفاته.

وذكر المؤرخون عن قُرْطَي مارية اللَّذَيْن يضرب بهما المثل فيقال: خذه ولو بِقُرْطَي مارية ، ولا تبعه ولو بِقُرْطَي مارية ، أنه كان فيهما لؤلؤتان عجيبتان ، وأنهما أهدتهما إلى الكعبة.

وقيل: جلبهما الأمراء اليمانيون معهم في هجرتهم إلى بلاد الشام. وقُوِّما بأربعين ألف دينار.

ومارِيةُ صاحبة القُرْطَينِ هي يمانيةٌ قيل في نسبها: إنها بنت الأرقم بن ثعلبة بن عَمْرو بن جَفْنَةَ ، من سلالة عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء.

---

(١) القُرْطُ: ما يعَلَّقُ في شحمة الأذن ، من دُرٍّ ، أو ذهبٍ ، أو فضةٍ ، أو نحوها (المعجم الوسيط).

وقيل: بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية، من بني كِنْدَةَ.

وقالوا: هي أم حارث الأعرج الجَفْني الذي عناه شاعر الرسول ﷺ حسَّانُ بن ثابتٍ الأنصاري بقوله:

أَوْلادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيْهِمُ قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الكَرِيم المُفْضِلِ

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلابُهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوادِ المُقْبِلِ

بِيْضُ الوُجوهِ كَرِيْمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شُمُّ الأُنُوفِ مِنَ الطِّرازِ الأَوَّلِ

قُلْتُ: ومدينتنا داريا كانت ـ في الأصل ـ مجمعاً لدور آل جَفْنَةَ الغَسَّانِيِّين ومنازلهم، واليومَ هي حاضرة العلم والأدب في غوطة دمشق الغربية.

* * *

رثـاء

روى الحافظ ابن عساكر في تايخ دمشق (٢٤/٣٥٣) بإسناده عن أبي عمرو بن العلاء ، قال:

توفي الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ[١] في دار عُبيد الله بن أبي غَضَنفر ، وكان قد أوصى ألاَّ تتبع جَنَازَتَهُ امرأته.

فلما دُلِّي في حفرته ، أقبلت بنت لأَوْسٍ السَّعْدِيِّ ثم القُرَيْعِيِّ على راحلتها[٢] ، وهي عجوز كبيرة ، فوقفت عليه ، وقالت: مَنِ المُوافىٰ به حُفْرَتهُ لوقتِ حِمامِهِ[٣]؟

قيل لها: هذاالأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ.

قالت: أَبو بَحْرٍ؟ والله! لئن كنتم سبقتمونا إلى الاستمتاع به في حياته لا تسبقونا إلى الثناء عليه عند وفاته.

[ثم] قالت: للهِ دَرُّكَ من مِجَنٍّ في جَنَنٍ[٤] ، ومُدْرَجٍ في كَفَنٍ ، وإنا لله ، وإنا إليه راجعون.

---

(١) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حُصين المُري السَّعدي المِنْقَري التميمي ، أبو بَحْرٍ: سَيِّد تميم ، وأحد العلماء العظماء الدهاة ، الفصحاء الشجعان الفاتحين. يضرب به المثل في الحِلْمِ ، وكان ثقة مأموناً ، ولد في البصرة سنة (٣) قبل الهجرة وتوفي بالكوفة سنة (٧٢) هـ له ترجمة في السير (٤/ ٨٦) وفي حاشيته عدد من مصادر ترجمته.

(٢) (راحلتها): الراحلة: البعير القوي على الأسفار والأحمال.

(٣) (حمامه): الحِمامُ: الموت. وقيل: هو قَدَرُ الموت وقضاؤه.

(٤) (جنن): الجَنَنُ: القبر والكفن.

نسأل الله الذي ابتلانا بموتك ، وفَجَعَنا[1] بفقدك أَنْ يُوسعَ لك في قبركَ ، وأن يغفرَ لك يوم حَشْرِكَ ، وأَنْ يجعل سبيل الخير سبيلَكَ ، ودليلَ الرَّشاد دليلَكَ . ثم نظرت إلى الناس ، فقالت :

أيها الناسُ! إنَّ أولياءَ الله في بلاده هم شهودُهُ على عباده ، وإنا لقائلون حَقًّا ، ومثنون صدقاً ، وهو أَهْلٌ لِحُسْنِ الثناء .

أمَا والذي كُنْتَ مِنْ أَجَلِهِ في عِدةٍ ، ومن الحياة في مُدَّةٍ ، ومن المِضْمَارِ إلى غايةٍ ، ومن الآثار إلى نِهايةٍ ، الذي رفع عملك عند انقضاء أجلِكَ ، لقد عشتَ مَوْدوداً حميداً ، ولقد مُتَّ سعيداً فقيداً ، ولقد كُنْتَ عظيمَ الحِلْمِ ، فاضل السِّلم ، رفيعَ العماد[2] ، واري الزِّنادِ ، منيعَ الحَرِيْمِ ، سليمَ الأَدِيْمِ ، عظيمَ الرَّمادِ ، قريبَ البيت من النَّادِ .

ولقد كُنْتَ في المحافل شريفاً ، وعلى الأرامِلِ عَطُوفاً ، ومن الناس قَريباً ، وفيهم غَريباً ، وإن كنت فيهم مُسَوَّداً ، وإلى الخلفاء لَمُوفَداً ، وإن كانوا لِقَوْلِكَ لَمُستمعين ، ولرأيك متبعين . رَحِمنا الله! وإيَّاكَ .

قال : وكان مصعب بن الزبير على الكوفة ، وكان حاضراً لقولها . قال : ما رأيتُ كاليوم قطُّ امرأةً أَفْصَحَ للرجال من هذه . وخرج مصعب في جنازته حاسراً ، وتولى الصلاة عليه .

والمرأة المتكلمة بهذا الكلام هي سَوْدَةُ بنت الحارث المِنْقَرِيَّةُ كما روى ابن عساكر عن عبد الرحمن البَجَلي .

* * *

(١) (فجعنا) : فجعه : آلمه إيلاماً شديداً .

(٢) (رفيع العماد) : أي شريف .

لوْ عَادَيْتُ آدَمِيًّا لَكَرِهْتُ لِقَاءَهُ

أُمُّ هارون الخُراسانية[1] الشامية ، الدمشقية ، امرأة فاضلة ، عاقلة ، من ربّات النُّسُكِ ، والعبادة ، والصلاح ، والزهد والتقشف.

من تلاميذها : الزاهدُ الصادقُ أبو سليمان الداراني ـ نسبة إلى مدينتنا داريّا ـ الذي عدَّه ابن تيمية من شيوخ الأمة. حكى عنها : عبد الرحيم بن صالح الداراني ، وريحانة الشام : أحمد بن أبي الحَوارِي تلميذُ أبي سليمان الداراني ، وعبد العزيز بن عُمير ، والزاهد القاسم بن عثمان الجُوعِيُّ.

كانت أم هارون تأكل الخبز وحده ، وقالت : بأبي اللَّيْلُ ما أَطْيَبَهُ! إني لأَغْتَمُّ بالنهار حتى يجيء الليل. فإذا جاء الليلُ ، نمتُ في أوله ، فإذا جاء السَّحَرُ دنا الروحُ قلبي.

وقال تلميذها أبو سليمان : ما كنت أرى أن يكون بالشام مثلها.

وكانت أمُّ هارونَ تأتي بيت المقدس[2] من دمشقَ كل شهر مرة على رجليها.

---

(١) (الخُراسانية) : نسبة إلى خُراسان. وهي كلمة مركبة من «خور» أي : شمس ، و«أسان» ، أي : مشرق كانت مقاطعة كبيرة من الدولة الإسلامية. تتقاسمها اليوم إيران الشرقية «نيسابور» وأفغانستان الشمالية «هراة وبَلْخ» ، وجمهورية تركمانستان «مَرْو» (المعالم الأثيرة ص ١٠٨).

(٢) (بيت المقدس) : في فلسطين ، يرزح الآن تحت نير الاحتلال الصهيوني اليهودي ، المدعوم من الصليبية العالمية ، وينتظر صلاح الدين. ولأستاذنا البحاثة محمد شُرَّاب=

روى ابن عساكر في تاريخه (٧٠/ ٢٦٦) من حديث أحمد بن أبي الحوارِي، قال:

«صليت الغداة[١] ثم جلست أذكر الله قبل طلوع الشمس، إذ دخل أبو سليمان الداراني من باب الساعات[٢]، فوقف بقاسِمِ الجُوْعِيِّ، فسلَّم عليه، وأشار إليه أن يقوم، فقام معه، فمرَّ بي، فسلَّمَ، فرددْتُ عليه، وأَشار إليَّ، فقمت أنا وقاسِمٌ نمشي وراءه، حتى انحدر من الدَّرج، ثم أخذ في سوق الأَحَدِ، حتى أتى المُرَبَّعَة[٣]، فدخل في قنطرة بني مُدْلِجٍ، حتى أتى النيبطون[٤]، وأخذ يسرةً، فمر بدارٍ، فجازها، ثم أتى داراً أُخرى، فدخل، ودخلنا معه، ففتح بابَ بيتٍ، ثم دخل فسلَّم، ودخل قاسم معه، وجلست أنا على يمنة الباب، فلم نر شيئاً في البيت مِنْ ظلمته.

فلمَّا جلسنا ساعةً، تأمَّلْتُ، فإذا بامرأة عليها جُبَّةُ صوفٍ، وخِمارُ صوفٍ، وفي يدها مِسْبَحَةٌ.

فلمَّا دخل ضوء الشمس من كُوَّةٍ في البيت رَدَّتْ علينا السلامَ. فقال لها

= مؤلف نفيس في تاريخه سماه: «بيت المقدس والمسجد الأقصى دراسة تاريخية موثقة» نشر في دار القلم بدمشق. ويعتبره أهل العلم أفضل مؤلف في بابه.

(١) أي صلاة الفجر.

(٢) (باب الساعات): باب من أبواب الجامع الأموي بدمشق، سمي بذلك لأنه كان هناك مكان للساعات يعلم منها كل ساعة تمضي من النهار، وعليها عصافير من نحاس، وحية من نحاس، وغراب من نحاس، فإذا تمَتِ الساعة، خرجت الحية، وصوَّتَتْ العصافير، وصاح الغُرابُ، وسقطت الحصاة.
وكان باب الساعات في القرن الثاني عشر يسمى باب الغبرانية. انظر: منادمة الأطلال للعلامة بدران ص: (٨٦)، وحدائق الإنعام في فضائل الشام لعبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي ص: (١١٢) نشر دار المكتبي بدمشق.

(٣) اسم موضع بدمشق.

(٤) (النيبطون): من محالِّ دمشق، قرب المربعة، وقنطرة بني مُدْلج، وسوق الأحد في شرقي جَيْرون، قرب الأساكفة العتق (معجم البلدان: ٥/ ٣٣٠).

أبو سليمانَ: يا أُمَّ هارونَ! كيف أصبحْتِ؟

قالت: كيف أصبح مَنْ قَلْبُهُ في يد غيره؟! يقول به هكذا وهكذا[1] وأشارت بيدها.

فقال لها أبو سُليمانَ: يا أُمَّ هارونَ! ما تقولينَ في الرجل يحب لقاء الله[2]؟

فقالت: وَيْحَكَ! ذاك رجل ثقلت عليه الطاعةُ، وأحبَّ الراحة منها.

فقال لها: فإنه أحَبَّ البقاء في الدنيا.

قالت: بَخٍ بَخٍ[3]! ذاك رجل أحبَّ الطاعة، وأحب أن يبقى لها، وتبقى له، ثم سلَّمَ، وخرجنا.

فقلت له: يا أبا سليمانَ! مَنْ هَذِهِ؟

قال: هذه أُمُّ هارونَ الخُراسانيةُ أستاذَتي.

وروى عبد الرحيم بن صالح الداراني قال: سمعتُ أبا سليمانَ الدَّاراني يقول لأُمِّ هارونَ: هل تحبينَ الموتَ؟

---

(١) تشير إلى حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم (٢٦٥٤) مرفوعاً: «إنَّ قلوب بني آدم كُلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن. كَقَلْب واحدٍ، يصرِّفه حيث يشاء».

(٢) (يحب لقاء الله): المراد بذلك ـ هنا ـ محبةُ الموت، كما جاء مُفَسَّراً في الرواية التالية. والمؤمن يحب لقاء الله عزَّ وجلَّ، لما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت وغيره مرفوعاً: «مَنْ أَحَبَّ لقاء الله، أحبَّ الله لقاءه، ومَنْ كره لقاء الله، كره الله لقاءه». لكن يكره له تمني الموت لضُر نزل به: من مرضٍ، أو فاقةٍ، أو محنة من عدوٍّ، أو نحو ذلك من مشاقِّ الدنيا. فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس مرفوعاً: «لا يتمنيَّنَّ أحدكم الموت من ضرٍّ أصابه، فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي». وانظر فتح الباري (١١/٣٥٨ ـ ٣٦١).

(٣) (بَخٍ بَخٍ): كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير وهي اسم فعل مضارع مبني، بمعنى «أستحسنُ» وفاعله ضمير مستتر وجوباً، وقد يكرر للتوكيد. ويلفظ مبنياً على الكسر «بَخٍ» وقد يلفظ ساكناً: «بَخْ». انظر معجم الشوارد النحوية ص (١٧٠) لأستاذنا البحاثة محمد شُرَّاب.

قالت: لا.

قال: ولِمَ تكرهين لقاء الله؟ ففاضت دموعها بالانتحاب.

فقالت: يا أبا سُليمانَ! لو عادَيْتُ آدمياً لكرهتُ لقاءه[1]. فصرخ أبو سليمان، ووقع مغشيّاً عليه.

وفي رواية أخرى: يا أبا سليمانَ! والله! لو عاديتُ آدمياً لكرهتُ لقاءه، فكيف أريد لقاء الله، وأنا عاصية؟!

وروى ابن عساكر أيضاً في تاريخه (٧٠/ ٢٦٦) عن القاسم بن عثمان الجُوعي قال: قلت لأم هارون: تَرَيْنَ أحداً يشتغل بالخوف من النيران عن الشوق إلى الجنان بالزهادة؟ فخرَّت مغشيّاً عليها، حتى انكشفَتْ مِقْنَعَتُها[2]، ثم أفاقت، فتغطَّتْ، وبقيت منقبضة مُصْفَرَّةً حتى خرجنا.

قال أبو سليمانَ: من أراد أن ينظر إلى صوت صَعْقٍ صحيح[3]، فلينظر إلى أمِّ هارون.

رحم الله هذه المرأة العاقلة. وجمعنا وإياها في جنان الخلود مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقاً.

* * *

---

(١) لله در هذه المرأة فهي تكره ذلك خشية المؤاخذة.

(٢) (المِقْنعة): ما تغطي به المرأة رأسها.

(٣) يفهم من هذا أن هناك من يصعق تَصَنُّعاً وهم كُثُرٌ.

اكْتُبُوا هٰذَا في مَكارِمِ الأَخْلاقِ

مما يُحكَىٰ في الشَّهَامَةِ والغَيْرَةِ؛ أنَّ موسى بن إسحاق ، قاضي الرَّيِّ[1] والأَهواز[2] جلس في سنة (٢٨٦) هـ ، ينظر في قضايا الناس وخصوماتهم .

وكان بين المتقاضِيَيْن امراةٌ ، ادَّعى وليُّها على زوجها ، أنَّ لها عليه خمس مئة دينارٍ[3] مهراً لها . فأنكر الزوج أنَّ لها في ذمته شيئاً من مالٍ .

فقال القاضي للمدَّعي : شُهودَكَ؟

قال : قد أحضرْتُهُمْ .

فاستدعى بعض الشهود ، وقال له : انظر إلى الزوجة لتشيرَ إليها في شهادَتِكَ[4] .

فقام الشاهد ، وقيل للمرأة : قومي .

فقال الزوج : ماذا تريدونَ منها؟

---

(١) (الرَّيُّ) : هي الآن في جمهورية إيران الإسلامية . والنسبة إليها : الرازي .

(٢) (الأهواز) : هي الآن في الجنوب الغربي لجمهورية إيران الإسلامية .

(٣) حَدَّده بنك فيصل الإسلامي في السودان بـ (٤,٤٥٧) غرام ذهب ، وحدده الدكتور وهبي الزحيلي في كتابه (الفقه الإسلامي وأدلته) (١/٧٦) بـ : (٤,٢٥) غرام ذهب أو وزن (٧٢) حبة من الشعير المتوسط .

(٤) قال العلامة محمد الحامد ـ رحمه الله ـ : «وهذه ضرورةٌ تقدر بوقت الشهادة فقط كما هو مقررٌ في الفقه» .

فقال الوكيلُ: ينظرون إلى امرأتك وهي مسفرةٌ عن وجهها[1] ليصحَّ عندهم معرفتها.

فكره الرجلُ أن تضطرَّ زوجَتُهُ إلى الكشف عن وجهها للشهودِ أمام الناس، فصاح: إني أشهد القاضي على أنَّ لزوجتي في ذمتي هذا المَهْرَ الذي تدعيه، ولا تسفر عن وجهها.

فلما سمعت الزوجةُ ذلك أكبرتْ في رَجُلها أنْ يَضِنَّ بوجهها على رؤية الشهودِ، وأنه يصونها عن أعين الناسِ. فصاحت تقول للقاضي: إني أشهد الله والقاضي أني قد وهَبْتُ له هذا المَهْرَ، وأبرأتُهُ منه في الدنيا والآخرة.

فقال القاضي لمن حوله: اكتبوا هذا في مكارم الأخلاق.

قال العلامة المجاهد محمد الحامد ـ رحمه الله ـ في مجموعة الرسائل ص: (٣٢): «فلنكن نحن كذلك أمثلةً حَيَّةً للمروءة والشَّهامة والغيرة[2] العظيمة، والأخذ بأسباب الوقاية للعِرْضِ دون تساهلٍ في أمورٍ، لها غوائلها[3]، وعواقبها الوخيمة.

ولكن، إياكم والغَيْرَةَ الممقوتة المنبعثة من سوء الظنِّ، والتعنُّت، والتجسس، والتماس العثراتِ، وابتغاء الزَّلَّاتِ.

فقد روى مسلم في صحيحه في الإمارة برقم (٧١٥/ ١٨٤)؛ أن

---

(١) لا عن شَعْرِها وجسمها وزينتها كما سَنَّتْ ذلك المصريةُ: هدى شِعْراوي بنت محمد سلطان باشا رئيس أول مجلس نيابي بمصر. قال العلاَّمة الزركلي في الأعلام في ترجمتها: «كانت أول مصرية مسلمة رفعت الحجاب» قلت: هنيئاً لها ذلك! فقد قال ﷺ «مَنْ سَنَّ سُنَّة سيئةً كان عليه وزرُها ووزرُ من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» أخرجه مسلم برقم (١٠١٧).

(٢) (الغَيْرةُ): الحميَّةُ والأنفة.

(٣) (الغائلة): الفساد والشر. والداهية.

رسول الله ﷺ نهى أن يطرق[1] الرجل أهله ليلاً يتخوَّنُهُمْ[2] ، أو يطلبُ عَثَراتِهم».

وروى أبو داود (٢٦٥٩) ، والنسائي (٥/ ٧٩ ـ ٧٩) ، وابن حِبَّانَ (١٣١٣) موارد الظمآن وغيره من حديث جابرِ بْنِ عَتِيْكٍ رضي الله تعالى عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من الغَيْرَةِ غَيْرَةً يبغضها الله ، وهي غَيْرَةُ الرجل على أهله من غيرِ رِيبَةٍ».

وقال صاحب كتاب تربية الأولاد في الإسلام (١/ ٥٢٦) بعد أن ذكر القصة:

«فما على المربين إلا أن يأخذوا بآداب الإسلام في النظر سواء ما يتعلق: في آداب النظر إلى المحارم ، أو في أدب النظر إلى المخطوبة ، أو في أدب نظر الزوج إلى زوجته ، أو في أدب نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية ، أو في أدب نظر الرجل إلى الرجل ، أو في أدب نظر المرأة إلى المرأة ، أو في أدب نظرِ المرأة الكافرة إلى المرأة المسلمة ، أو في أدب نظر الرجل إلى الأمرد ، أو في أَدب نظر المرأة إلى الأجنبي ، أو في أدب النظر إلى عورة الصغير ، أو في أدب النظر بقصد التعليم ، أو في أدب النظر بقصد المداواة ، أو في النظر بقصد المحاكمة أوالشهادة.

كل هذه الآداب من النظر يجب على الآباء والأمهات والمربين جميعاً أن يعطوا لأبنائهم القدوة العملية فيها ، ثم يلقنوها أبناءهم تعليماً وتوعية.. إنْ أرادوا لهم الخلق الفاضل ، والشخصية الإسلامية المتميزة ، والسلوك الاجتماعي الخير ، والتربية الإسلامية السامية. والله سبحانه لن يَتِرَهم أعمالهم ، ولن ينقصهم أجورهم وثوابهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون».

* * *

(١) (الطُّروقُ): أن يأتي الرجل المكان الذي يريده ليلاً (جامع الأصول: ٥/ ٣١).

(٢) (يتخونهم): يظن خيانتهم ويكشف أستارهم ويكشف: هل خانوا أَمْ لا. ومعنى الحديث: أنه يكره لمن طال سفرُهُ أن يَقْدَمَ على امرأته ليلاً بَغْتَةً.

مَنْ فَاتَهُ اليَوْمَ شَيءٌ لَمْ يُدْرِكْهُ غَداً

زَجْلَةُ العابدة مولاةُ عاتِكَةَ بنت عبد الله بن معاوية[1] ، محدثة ذات صلاح وعبادة. حدثت عن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وأم الدرداء ، وعمر بن عبد العزيز ، وغيرهم.

حدَّث عنها صَدَقَةُ بن خالد ، وكُلَيب بن عيسى بن أبي حجير الثقفي ، وغيرهما.

كَلَّمَها نفرٌ من القُرَّاء لمَّا رَأَوْهَا تُجْهِدُ نفسها بالعبادة ، فقالوا: لها: ارفقي بنفسكِ.

فأجابتهم: مالي وللرفق بها؟ إنما هي أيام مبادرةٌ ، فمن فاته اليومَ شيءٌ لم يُدْرِكْهُ غداً.

والله! لأُصَلِّيَنَّ لله ما أَقْلَتَتْنِي جَوارحي ، ولأَصُومَنَّ لله أيامَ حياتي ، ولأَبْكِيَنَّ له ما حَمَلْتُ أَلَمَ عيني.

ثم قالت: أَيُّكُمْ يأمر عبده بأمر فيحب أَنْ يقصِّرَ فيه؟

وحدَّث أبو عتبة الخواص ، فقال: دخلنا على زجلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودَّتْ ، وبكت حتى عميتْ ، وصَلَّتْ حتى أُقْعدتْ.

---

(١) وقيل: إنها مولاة عاتكة بنت يزيد بن معاوية (تاريخ دمشق لابن عساكر: ٦٩/ ١٦٣).

وكانت زجلة لا ترفع بصرها إلى السماء ، وكانت تخرج إلى الساحل فتغسل ثياب المُرابطين.

وقال سعيد بن عبد العزيز : ما بالشام ولا بالعراق أفضل من زجْلَةَ[1].

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٩/ ١٦٤) من حديث سعيد بن عبد العزيز قال: كانت زجلة أَمَةً لعاتكة بنت عبد الله بن معاوية ،فكانت ترى مِنْ مولاتها مالا تحبُّ ، فقالت لها : ما أرضاكِ لله.

فغضبت عليها عاتكة ، فزوَّجتها عبداً أسود حبشيّاً ، ثم أدخلته عليها.

قال سعيد: فأراها دَعَتِ الله ، فكفَّ عنها الأسودَ ، فبلغ ذلك عبد الرحمن ابن يزيد بن معاوية ، فركب إليها في أمرها ، فلما رأت عاتكةُ أنَّ أمْرَها قد بلغ هذا ، أعتقتها.

* * *

(١) أعلام النساء (٢/ ٣٠ ـ ٣١) بتصرف يسير.

أَعْمىٰ فِي الدُّنيا مِنَ البُكاءِ أَحَبُّ إِليَّ مِنْ أَنْ أعْمىٰ في الآخِرَةِ مِنَ النَّارِ

شعوانة (كما في أعلام النساء: ٢/ ٢٩٩) عابدة من عابدات الأُبُلَّةِ[١]. كانت تبكي في الليل والنهار حتى خيف عليها العمىٰ، فقيل لها في ذلكَ، فقالت: أعْمَىٰ والله! في الدنيا من البكاء أَحَبُّ إليَّ من أَنْ أَعْمىٰ في الآخرة من النَّار.

وأتاها عابدُ الحَرَمَيْنِ الفُضَيْلُ بْن عِيَاضٍ المتوفىٰ سنة (١٨٧ هـ = ٨٠٣ م) وسألها أَنْ تدعوَ له.

فقالت: يا فُضَيْلُ! أَمَا بينكَ وبين الله تعالى ـ سَرِيرَةٌ ـ ما إنْ دَعَوْتَهُ استجاب لك؟! فشهقَ الفُضَيْلُ شَهْقَةً، وخَرَّ مَغْشِيًّا عليه.

وكانت شعوانة تتردد إلى مالك بن دينار[٢]، فسمعت شخصاً يقول: لا يبلغ المتقي حقيقة التقوىٰ حتى لا يكون شيءٌ أَحَبَّ إليه من القدوم على الله، فخَرَّتْ مَغْشيّاً عليها.

---

(١) (الأُبُلَّة): بضم أوله وثانيه، وتشديد اللام وفتحها: بَلْدَةٌ على شاطىء دجلة البصرة العُظمىٰ في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة (معجم البلدان: ١/ ٧٧).

(٢) هو مالك بن دينار البصري. زاهد، عابد، صدوق، ورع، مات بالبصرة سنة (١٣٠) هـ. أو نحوها (التقريب).

وكانت تقول: مَنْ استطاع منكم أَنْ يبكي، فَلْيَبْكِ، وإلاَّ فَلْيَرْحَمِ الباكي، فإنَّ الباكي يَبْكي لمعرفته بما أتىٰ إلىٰ نفسه.

وقالت: لا أبالي على أيِ حالٍ أصبحتُ أو أمسيتُ.

وقال الشَّعراني: كان الناس يقدمونها على رابعة في جميع أحوالها.

* * *

هَلاَّ لنفسكَ كانَ ذا التَّعْلِيمُ!

أبو عبد الله: سفيان بن سعيد بن مسروق الثَّوْريُّ الكوفي، سيد العلماء في زمانه، كان إماماً في علم الحديث، وغيره من العلوم، وآية في الحفظ، ما استودع قَلْبَهُ شيئاً فخانَهُ.

أجمع الناس على دينه وورعه، وزهده وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين، يقال: إن الشيخ أبا القاسم الجُنيد المتوفىٰ سنة (٢٩٧) هـ كان على مذهبه.

ولد الثوري بالكوفة سنة (٩٧) هـ وطلب العلم وهو حَدَثٌ باعتناء والده المحدث الصادق: سعيد بن مسروق الثوري. قال الذهبي: «كان يُنَوِّهُ[1] بذكره في صغره من أجل فَرْطِ ذكائه وحفظه، وحدَّثَ وهو شابٌّ».

راوده المنصور العباسي[2] على أن يلي الحكم فأبىٰ، وخرج من الكوفة سنة (١٤٤) هـ فسكن مكةَ والمدينة، ثم طلبه المَهْدِيُّ[3]، فتوارى، وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً في أوائل سنة (١٦١) هـ.

---

(١) (يُنَوِّه): يُشاد. ومن الأخطاء الشائعة استخدام «نَوَّهَ» بمعنى «أشار».

(٢) هو أبو جعفر المنصور: عبد الله بن محمد بن علي العباسي، ثاني خلفاء بني العباس. مات بمكة سنة (١٥٨)هـ (الأعلام).

(٣) هو أبو عبد الله: محمد بن أبي جعفر المنصور. من خلفاء الدولة العباسية، ولد بالأهواز سنة (١٢٧) هـ، ومات سنة (١٦٩) هـ. انظر ترجمته في تهذيب تاريخ الخلفاء ص (٢١٥) وغيره.

قال أبو قَطَن: قال لي شعبةُ: إنَّ سُفيانَ سادَ الناسَ بالورع والعلم.

وقال قَبِيْصَةُ: ما جلستُ مع سفيان مجلساً إلا ذكرتُ الموتَ، ما رأيتُ أحداً كان أكثر ذكراً للموت منه.

وعن يوسف بن أسباط، قال: قال لي سفيانُ بعد العشاءِ: ناولني الْمِطْهَرَةَ[1] أتوضأ. فناولْتُهُ، فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خَدِّهِ، فبقي مفكراً، ونِمْتُ، ثم قُمتُ الفجر؛ فإذا الْمِطْهَرَةُ في يده كما هي، فقلتُ: هذا الفجرُ قد طلع! فقال: لم أزل منذ ناولْتَني الْمِطهرةَ أتفكَّرُ في الآخرة حتى الساعةِ.

قال وكيع: سمعت سفيان يقول: ليس الزهدُ بأكل الغليظ، ولبس الخشن، ولكنه قِصَرُ الأمل، وارتقاب الموت.

قال الذهبي: «كان سفيانُ رأساً في الزهد، والتَّأَلُّهِ[2]، والخوف، رأساً في الحفظ، رأساً في معرفة الآثار، ورأساً في الفقه، لا يخاف في الله لومة لائم، من أئمة الدين، واغتفر له غير مسألة اجتهد فيها، وكان ينكر على الملوك، ولا يرى الخروج أصلاً...».

قيل: إن عبد الصمد عمَّ المنصور، دخل على سفيان يعوده، فحوَّل وجهه إلى الحائطِ، ولم يَرُدَّ السلامَ، فقال عبد الصمد: يا سَيْفُ! أظنُّ أبا عبد الله نائماً.

قال: أحْسِبُ ذلك، أصلحكَ اللهُ!

فقال سفيان: لا تكذب، لستُ بنائمٍ.

فقال عبد الصمد: يا أبا عبد الله! لك حاجةٌ؟

قال: نعم، ثلاثُ حوائج: لا تعودُ إليَّ ثانيةً، ولا تشهدْ جِنَازتي،

---

(١) (المِطْهَرَةُ): كُلُّ إناءٍ يُتطهَّرُ منه: كالإبريق، والسطل، والركوة وغيرها (الوسيط).

(٢) (التَّأَلُّه): التَّنَسُّك والتَعَبُّد.

ولا تترحَّمْ عليَّ. فخجل عبد الصمد، وقام، فلما خرج قال: والله لقد همَمْتُ أن لا أخرجَ إلا ورأسُهُ معي.

وعن عبد الرزاق قال: بعث أبو جعفرٍ الخَشَّابين[1] حين خرج إلى مكة، وقال: إن رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه، فجاء النجَّارون، ونَصَبوا الخشبَ، ونودي عليه، فإذا رأسه في حِجْرِ الفُضَيْلِ بن عياضٍ[2]، ورجلاهُ في حِجْرِ ابن عُيَيْنَةَ[3]، فقيل له: يا أبا عبد الله! اتق اللهَ، لا تشمت بنا الأعداء، فتقدم إلى الأستار، ثم أخذه وقال: برئتُ منه إنْ دخلها أبو جعفرٍ.

قال: فمات أبو جعفر قبل أن يدخل مكة، فأخبر بذلك سفيانُ، فلم يقل شيئاً.

قال الحافظ الذهبي في السير (٧/ ٢٥١): «هذه كرامة ثابتة».

وعن سفيان قال: وددت أن علمي نسخ مِنْ صدري، ألستُ أريد أن أسأل غداً عن كل حديثٍ رويتُهُ: أَيْش[4] أرَدْتَ به؟

وقال الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان في «سلاح اليقظان لطرد الشيطان» ص: (١٥١ ـ ١٥٢): «روي أن سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ كان يعظ الناس ويشوقهم إلى الله، ويرغبهم في ثوابه، ويحذرهم من عقابه.

وكان الناس يختلفون إليه، فصعد يوماً منبره على عادته، فلما استقرَّ به الجلوسُ وأراد أن يتكلم، رفعت إليه امراةٌ ورقةً، فلما قرأها تغيَّر لونُهُ وبكى بكاءً شديداً، ثم نزل ولم يتكلمْ.

فسأله أصحابه ومَنْ يَعِزُّ عليه أَنْ يخبرهم بما في الورقة التي رَفَعْتها المرأة عندما أراد أن يعظ الناس، فقرأها عليهم، فإذا فيها مكتوب ما يلي:

---

(١) (الخَشَّابُ): بائع الخشب.

(٢) زاهد مشهور، ثقة، إمام عابد مات سنة (١٨٧) هـ وقيل قبلها (التقريب).

(٣) هو أبو محمد: سفيان بن عُيَيْنَةَ، ثقة، حافظ، فقيه، إمامٌ، حُجَّةٌ، مات في رجب سنة (١٩٨) هـ (التقريب).

(٤) (أَيْش): مَنْحوتٌ من (أي شيء)، بمعناه، وقد تكلمت به العرب (الوسيط).

يـا أَيُّهَـا الـرجُـلُ المُعَلِّـمُ غَيْـرَهُ ... هَـلاَّ لِنَفْسِـكَ كـانَ ذَا التَّعْلِيـمُ
تَصِفُ الدَّواء لِذي السَّقام وذي الضَّنَىٰ ... كَيْمَـا يَصِـحُّ بِـهِ وأَنْـتَ سَقِيْـمُ؟!
ونَـرَاكَ تُلْقِـحُ بـالـرَّشَـادِ عُقُـولَنَـا ... أَبَـداً وأَنْـتَ مِـنَ الـرَّشَـادِ عَـدِيْـمُ
ابْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فَـانْهَهَـا عَـن غَيِّهـا ... فـإِذا انْتَهَـتْ عَنْـهُ فَـأَنْـت حَكِيْـمُ
فَهُنَـاكَ يُقْبَـلُ مـا تَقُـولُ ويُقْتَـدىٰ ... بـالـرَّأْيِ مِنْـكَ وَيَنْفَـعُ التَّعليـمُ
لا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِـيَ مِثْلَـهُ ... عَـارٌ عَلَيْـكَ إذا فَعَلْـتَ عَظِيْـمُ[1]

فلما قرأها بكى بكاءً شديداً حتى أغمي عليه ، فلما أفاق قالوا له : أنت كلامُك موزونٌ ، وعِرضُكَ ـ إن شاء الله ـ مَصُونٌ ، تشفي القلوبَ ـ إذا أرادَ الله ـ بوعظك ، وتُسَلِّي المحزونَ ، فكيف يُؤَثِّر فيك هذاالكلام؟! فبكى ، وقال : أنا ما أصلح أن أتَكَلَّمَ على رؤوس الناسِ ، وأنا أَعْرَفُ بنفسي من غيري ، وفاضت عيناهُ ، وقيل : إنه ما عاد بعد ذلك حتى مات رحمه الله .

إخواني! أفلا تنظرون إلى قلوب هؤلاء الأقوام؟ كانت قلوبهم مثل الزجاجة رقيقةً يُؤَثِّرُ فيهاالوعظ والكلامُ ، ونحن نسمع المواعظ ولا تؤثر في قلوبنا ، ولا نَغْسِلُ بماء الدموع دَرَن ذنوبنا؛ بل نتركُ ما ينفعنا وراء ظهورنا ، ونقبل على اللهو ، والمنكر ، والأباطيل ، كما قيل عن بعضهم يوبخ نفسه :

قُلُـوبٌ بِـذِكْـرِ الـوَعْـظِ تَـزْدادُ قَسْـوَةً ... فَلا الوَعْظُ يُجْدِي لا ، ولا العَتْبُ يَنْفَعُ
أُلِيْـنُ مَقَـالاً فـي الكَـلام لَعَلَّهَـا ... تَلِيْـنُ فـلا تُصْغِـي ولا تَتَخَشَّـعُ
إذا قُلْتُ: هٰذا مَدْرَجُ القَوْمِ فَادْرُجي ... يَقُولُ الهَوَىٰ: حَدَّثْتَ مَنْ لَيسَ يَسْمَعُ
وَإِنْ عَرَضَتْ يوماً إلى النَّاسِ شَهْوَةٌ ... تَرَاها إلى ما يُغْضِبُ الرَّبَّ تُسْرِعُ
وأَنْ لَيس للإِنْسانِ إلاَّ الَّذي سَعَىٰ ... وكُـلٌّ مُجازىٰ بـالـذي كـانَ يَصْنَـعُ

---

(١) هذه الأبيات من كلام أبي الأسود الدؤلي الذي ينسب إليه وضع علم النحو . انظر شرح شذور الذهب ص (٢٣٨) ، وقطر الندى ص (١٠٦) بتحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد . (لذي السَّقام): للمريض . (ذي الضَّنىٰ): المريض الذي طال مرضه . واعجب من بعض أدعياء الاجتهاد في عصرنا ، فقد زعم أن البيت الأول والأخير فيها للشاعر أحمد شوقي!

اللَّهُمَّ! يا منِ لا تضرُّهُ المعصيةُ ، ولا تنفعه الطاعةُ! أَيقِظْنا من نوم الغفلةِ ، **ونبِّهْنا لاغتنام أَوْقاتِ المُهْلَةِ ، ووفِّقْنا لمصالحنا ، واعصمنا من قبائحنا** وذنوبنا ، ولا تؤاخذنا بما انطوت عليه ضمائِرُنا ، وأَكَتّهُ سرائِرُنا من أنواع القبائح والمعايب التي تعلمها منا ، واغفر لنا ولوالدينا ، ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين! وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

أمُّ الشافعيِّ ترهَنُ رِداءَها مِنْ أَجْلِ وَلَدِها

أخرج الحافظ ابن عبد البَرِّ القرطبي في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٧ ـ ١١٨) من حديث محمد بن إدريس المكي قال: سمعتُ الحُميديَّ يقول: قال محمد بن إدريسَ الشافعيُّ:

كنت يتيماً في حَجْرِ أمي، فدفعتني في الكُتَّاب، ولم يكن عندها ما تعطي المعلم، فكان المعلم قد رضي مني أن أَخْلُفَهُ إذا قام.

فلما ختمتُ القرآن[١]، دخلتُ المسجد، فكنت أجالِسُ العلماء، وكنت أسمع الحديث، أو المسألة، فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أشتري به قراطيسَ، فكنتُ إذا رَأَيتُ عظماً يلوح آخذُهُ، فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحْتُهُ في جَرَّةٍ كانت لنا قديماً.

قال: ثم قَدِمَ وَالٍ على اليمن، فكلَّمهُ لي بعض القُرَشيِّين أَنْ أصحبه، ولم يكن عند أمي ما تعطيني، أتجمَّلُ به، فَرَهَنَتْ رِدَاءَها بستة عشر ديناراً، فأعطتني، فتجمَّلْتُ بها مَعَهُ.

فلما قدمنا اليمن استعملني على عمل، فَحُمِدْتُ فيه[٢]، فزادني عملاً، فَحُمِدْتُ فيه، فزادني عملاً، وقدم العُمَّارُ مكة في رجب، فأثنوا عليَّ، فطار

---

(١) حفظ الشافعي القرآن الكريم وهوابن سبع سنين (تاريخ بغداد: ٢/ ٦٢ ـ ٦٣)، توالي التأسيس ص (٥٠)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ١١).

(٢) أي كان سيرتي فيه حسنة فحمدني الناسُ.

لي بذلك ذكر ، فقدمت من اليمن ، فلقيتُ ابن أبي يحيى[1] ، فسلَّمتُ عليه ، فوبَّخني ، وقال: تجالسوننا ، وتصنعون ، وتصنعون ، فإذا شرع لأحدكم شيء دخل فيه؟! ونحو هذا الكلام.

قال: فتركتُهُ ، ثم لقيتُ سُفْيَان بن عُيَيْنَةَ ، فَسَلَّمْتُ عليه ، فرحَّب بي ، وقال: قَد بَلَغَتْنا ولايتُكَ ، وما انتشر عنك ، وما أَدَّيْتَ كُلَّ الذي لله عليكَ ، ولا تَعُدْ.

قال: فكانت موعظةُ سفيان إيَّايَ أَبْلَغُ مما صَنَعَ بي ابن أبي يحيى.

* * *

(١) هوإبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي المدني ، أحد الضعفاء المتروكين. قال ابن حبان في كتاب «المجروحين» ص: (١٠٥ ـ ١٠٧): كان مالك وابنُ المبارَكِ ينهيان عنه ، وتركه يحيى القطان ، وابن مَهْدي ، وكان الشافعي يروي عنه. كان إبراهيم يرى القَدَرَ ، ويذهب إلى كلام جَهْمٍ ، ويكذب مع ذلك في الحديث ، وأما الشافعي ، فإنه كان يجالسه في حداثته ، ويحفظ عنه حفظ الصبي ، والحفظ في الصغر كالنقش في الحجر ، فلما دخل مصرفي آخر عمره ، وأخذ يصنف الكتب المبسوطة ، احتاج إلى الأخبار ، ولم تكن معه كتبه ، فأكثر ما أودع الكتب مِنْ حفظه ، فمن أجله ما روى عنه ، وربما كنى عنه ، ولا يسميه في كتبه ، وقال الربيع بن سليمان: كان الشافعي إذا قال: حدثنا مَنْ لا أتهم ، يريد: إبراهيم بن أبي يحيى.

أمَا علِمْتَ أَنَّ زِنَا العَيْنَيْنِ النَّظَرُ؟

أورد الحافظ ابن الجوزي في المنتظم (٥/ ٦٢ ـ ٦٣) بسنده إلى محمد بن سليمان القرشي قال: بينما أنا أسير في طريق اليمن إذا أنا بغلام واقف في الطريق ، في أذنيه قُرْطانِ[1] ، في كل قُرْطٍ جوهرة ، يضيء وجهه من ضوء تلك الجوهرة ، وهو يمجد ربه بثناء بأبيات من الشعر ، فسمعته يقول:

مَلِيْـكٌ فِـي السَّمـاءِ بِـهِ افْتِخَـارِي ... عَـزِيْـزُ القَـدْرِ لَيْـسَ بِـه خَفَـاءُ

فدنوت منه ، فسلمت عليه فقال: ما أنا برادٍّ عليكَ ، حتى تؤديَ من حقي الذي يجب لي عليك.

قلت: وما حقك؟

قال: أنا غلام على مذهب إبراهيم الخليل ﷺ ، لا أتغدى ولا أتعشَّى كل يوم حتى أسيرَ الميل والميلين في طلب الضيف ، فأجبته إلى ذلك ، فرحب بي ، وسرتُ معه ، وقربنا من خيمةِ شعْرٍ.

فلما قربنا من الخيمة صاح: يا أختاه! فأجابته جارية من الخيمة: يا لَبَّيْكَاه! قال: قومي إلى ضيفنا.

فقالت الجارية: حتى أبدأ بشكر المولى الذي سبب لنا هذا الضيف ، وقامت وصلت ركعتين شكراً لله.

---

(١) (القُرْطُ): ما يعلق في شحمة الأذن من دُرّ ، أوذهب ، أو فضة ، أونحوها (الوسيط).

فأدخلني الخيمة ، وأجلسني ، وأخذ الغلام الشَّفرة[1] ، وأخذ عَناقاً[2] ، فذبحها ، فلما جلست في الخيمة نظرتُ إلى أحسن الناس وجهاً ، فكنت أسارقها النظر[3] ، ففطنت لبعض لحظاتي[4] ، فقالت لي : مه! أما علمت أنه قد نقل إلينا عن صاحب يثرب[5] أَنَّ زِنا العينين النظر؟ أما إني ما أردتُ بهذا أن أوبخك[6] ، ولكن أردت أن أؤدبك لكي لا تعود لمثل هذا .

فلما كان وقت النوم بتُّ أنا والغلام خارجاً . وباتت الجارية في الخيمة ، فكنت أسمع دوي القرآن الليل كله بأحسن صوت يكون ، وأرقّه .

فلما أَنْ أصبحتُ ، فقلت للغلامِ : صوت مَنْ كان ذلك؟

قال : تلك أختي تحيي الليل كُلَّهُ إلى الصباح .

فقلت : يا غلام! أنت أحق بهذا العمل من أختك ، أنت رجل وهي امرأة .

قال : فتبسّم ، ثم قال لي : ويحك! يا فتى! أما علمت أنه موفق ومخذول؟

* * *

(١) (الشفرة) : السكين العظيم (مختار الصحاح) .
(٢) (العَناق) : الأنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول (الوسيط) .
(٣) (أسارقها النظر) : أي أطلب غفلة منها لأنظر إليها .
(٤) (لحظاتي) : أي نظراتي التي أسترقها منها .
(٥) (صاحب يثرب) : هو رسول الله ﷺ وقد ورد في الحديث النهي عن تسمية المدينة بيثرب وقد سماها الله «المدينة» وسماها رسوله ﷺ : «طيبة» و«طابة» .
(٦) (أوبخك) : وبّخه : أنَّبهُ .

ما أَنْشَرِحُ إلاَّ بِدُخُول اللَّيْلِ كُلِّهِ

أَمَةُ الجليل بنت عَمْرٍو العَدَوية ، عابدة من عابدات البصرة ، وزاهدة من زاهداتها . كانت تأكل الخبز وحده ، وتقول : ما أنشرح إلاَّ بدخول الليل كُلِّهِ .

وتقول : إذا جاء السَّحَرُ دخل قلبيَ الروحُ .

وحدث أبو عاصِمٍ؛ أنه اختلف العابدون في الولاية ، فقال بعضهم : إذااسْتَحَقَّها عبدٌ لم يَهْتَمَّ بشيء إلاَّ نَالَهُ في دِيْنٍ كان ، أو دُنيا .

وقال آخر : الولي لا يعصي ، غير أنَّهُ لا يدرك الشيء الذي يريده من الدنيا بهمه ، ولا يدركه إلا بطلبه ، كأنهم يقولون : ندعو فنُجاب .

وقال آخرون : المستحق للولاية لا يعرض لانتقاص حَظِّهِ من الآخرة ، فتكلموا في ذلك بكلام كثير ، فأجمعوا على أن يأتوا امرأة من بني عَدِيٍّ يقال لها : أمَةُ الجليل بنتُ عَمْرٍو العدويةُ . وكانت مُنقطعةً جداً مِنْ طول الاجتهاد .

فأتوها فاستأذنوا عليها ، فَأَذِنَتْ ، فعرضوا عليها اختلافَهُمْ ، وما قالوا . فقالت : ساعاتُ الوليِّ ساعاتٌ عن الدنيا ، ليس للولي في الدنيا من حاجَةٍ . كذا في أعلام النساء (١/ ٨٢ ـ ٨٣) .

والعابدات في تاريخنا الإسلامي كثيرات ولله الحمد ، نجد تراجم لبعضهن في صِفَة الصفوة لابن الجوزي : مِنْهُنَّ : حَبِيبة العَدَوِيَّةُ . كانت إذا صَلَّتْ قامت

على سَطْحٍ ، فَشَدَّت عليها دِرْعَها[1] وخمارَها[2] ، فقالت: إلهي! غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوكُ أبوابها ، وبابُكَ مفتوحٌ ، وخَلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديكَ.

فإذا كان السَّحَرُ[3] قالت: اللَّهُمَّ! هذا الليلُ قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر فليت شعري[4]! هل قبلت مني ليلتي فَأُهَنَّىٰ ، أم رَدَدْتها عليَّ فَأُعَزَّى؟

فَوَعِزَّتِكَ! لَو انْتَهَرْتَني ما بَرِحْتُ من بَابِكَ ، ولا وَقَعَ في قلبي غَيْرُ جُودِكَ وكَرَمِكَ.

ومنهن: بُرْدَةُ الصُّرَيمية. كانت إذا قيل لها: كيف أصبحتِ؟ تقول: أصبحنا مُنْتَجِعِيْنَ بأرض عريد ، ننتظر إجابة الداعي.

وكانت تكثر البكاء حتى فَسَدَ بَصَرُها وكانت تقوم الليل ، فإذا سكنت الحركاتُ ، وهدأت العيون ، نادت بصوتٍ لها حزين: هدأتِ العيونُ ، وغارتِ النجومُ ، وخلا كل حبيبٍ بحبيبه ، وقد خَلَوْتُ بك يا محبوبُ.

ومنهن: تحيَّةُ النُّوبِيَّةُ ، من عابدات مِصْرَ. قالت تناجي: يا مَنْ يحبني وأُحِبُّهُ!

فقيل لها: هَبي أنَّكِ تحبين الله تعالى ، فمن أينَ تعلمينَ أنه يُحبكِ؟

فقالت: نعم إنني كنتُ في بلد النُّوبة[5] ، وأبواي كانا نَصْرانِيَّيْنِ ، وكانت أمي تحملني إلى الكنيسة ، وتجيء بأبي إلى عند الصليب ، فإذا هَمَّت بذلك ، أرى كَفًّا يخرج فيرد وجهي ، فعلمتُ أنَّ عنايته لي قديمة.

ومنهنَّ: حَسَنَةُ البَصْريَّةُ. هجرت نَعيم الدنيا وأقبلت على العبادة ، فكانت تصوم النهار ، وتحيي الليل ، وليس في بيتها شيء.

---

(١) (الدرع): قميص المرأة (الوسيط).
(٢) (الخِمَارُ): ثوب تغطي به المرأة رأسها (الوسيط).
(٣) (السَّحَرُ): آخِرُ الليل قُبَيلَ الفجر (الوسيط).
(٤) (ليت شعري): ليتني أَعْلَمُ.
(٥) (النُّوبة): بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر (معجم البلدان: ٥/ ٣٠٩).

حُكي أنها عطشت ، فخرجت إلى النهر فشربت بكفيها ، وكانت جميلةً ، فقالت لها امرأةٌ: تَزَوَّجي.

فقالت: هاتِ رجلاً زاهداً ، لا يكلفني من أمر الدنيا شيئاً ، وما أظنك تقدرين عليه. فو الله! ما في نفسي أَنْ أَعْبُدَ الدنيا ، ولا أَنْعَمَ من رجال الدنيا؛ فإنْ وَجَدْتُ رجلاً يَبْكي ويُبْكيني ، ويصومُ ، ويأمرني ، ويَتَصَدَّق نَعِمْتُ؛ وإلاَّ فَعلى الرجالِ السلامُ.

ومنهن: رابعة بنت سليمان الشامية. كانت محدثة عابدة من محدثات وعابدات الشام. كان لها أحوال شتى. فكانت مرة يغلب عليها الحبُّ ، ومرةً يغلب عليها الأُنْسُ ، وأخرى يغلب عليها الخوف.

ومِنْ كلامها: «إن العبد إذا عمل بطاعة الله ، أطلعه الجبار على مساوي عمله ، فتشاغل به».

وروى أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ ، قال: «طوبىٰ لمن شغله عيبه عن عُيوب الناس».

قال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام (١٥٤٦) بتحقيقي: «أخرجه البَزارُ بإسنادٍ حسن».

توفيت رابعة الشامية بدمشق ، ودفنت في مشهدها بالقرب من المدرسة القيمرية[(١)] بدمشق.

وفي رواية أنها دفنت بالقدس.

ومنهنّ: عائشة بنت عثمان بن سعيد النيسابوري. كانت كثيرة الزهد ، عظيمة الورع.

قالت: لابنتها أم أحمد: لا تفرحي بِفَانٍ ، ولا تجزعي مِنْ ذاهبٍ ، وافرحي بالله عزَّ وجلَّ.

---

(١) انظر منادمة الأطلال ومسامرة الخيال لعبد القادر بدران ص(١٤٠ ـ ١٤٣).

وقالت لها: الزمي الأدبَ ظاهراً وباطناً ، فما أساء أحدٌ الأدبَ في الظاهر إلاَّ عوقب ظاهراً ، وما أساء أحدٌ الأدب باطناً إلاَّ عوقب باطناً.

وقالت: من استوحش من وحدته فذاك لِقِلَّةِ أُنْسِهِ بربه.

وقالت: مَنْ تَهاون بالعبيد فهو لقلة معرفته بالسيِّدِ ، فمن أحبَّ الصانع ، أحَبَّ صَنْعَتَـهُ.

توفيت سنة (٣٤٦) هـ.

* * *

يا نَفْسُ! ساعِدِيني يَوْمِي هٰذا

أخرج البيهقي في الزهد الكبير ص: (٢٨٨) بإسناده عن عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ قال: أدركت امرأة لا أُقَدِّمُ[١] عليها رجلاً ولا امرأةً مِمَّنْ أدركتُ.

كانت إذا أصبحت قالت: يا نَفْسُ! هذا اليومُ ساعديني يومي هذا؛ فَلعلَّكِ لا تَرَيْنَ بياضَ يومٍ أبداً.

وإذا أمْسَتْ قالت: يا نَفْسُ! هذه الليلة ساعديني ليلتي هذه؛ فلعلَّكِ لا تَرَيْنَ سَوَاد ليلةٍ أبداً. فما زالت تخدع وتدفع يومَها بليلتها، ولَيْلَتَها بِنَهارها حتى ماتت على ذلك.

وأخرج البخاري في الرقاق (٦٤١٦) من حديث سُليمان بن مِهرانَ الأعمشِ قال: حدثني مجاهد، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ بِمَنْكِبي[٢] فقال: «كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابِرُ سَبِيْلٍ»[٣].

---

(١) أي: لا أُفَضِّلُ.

(٢) (مَنْكِب): وزن مسجد: مجمع العضد والكتف.

(٣) ذكره الإمام النووي في رياض الصالحين رقم (٥٠٢) بتحقيقي وقال: «معناه: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطناً، ولا تُحدِّث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل الغريب الذي يريد الذَّهاب إلى أهله».

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك.

وفي رواية الترمذي في الزهد (٢٣٣٣) من حديث ليث بن أبي سُلَيم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال: أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ ببعض جسدي ، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ ، أو عابرُ سبيلٍ ، وعُدَّ نَفْسَكَ في أهل القبور».

فقال لي ابن عمر:

إذا أصبحتَ فلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بالمساءِ. وإذا أَمْسَيْتَ فلا تُحَدِّثْ نَفْسَك بالصباح ، وخذ من صحتك قبل سَقَمِكَ ، ومن حياتك قبل موتك ، فإنك لا تدري ، يا عبدَ الله! ما اسمك غداً[1].

وأخرج الحاكم في المستدرك (٤/٣٠٦) وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لرجل ، وهو يعظه: «اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ[2]: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ[3] ، وصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ[4] ، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ[5] ، وفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغلِكَ[6] ، وحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[7].

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الحافظ الذهبي في التلخيص.

---

(١) أي: هل يقال له شقي أو سعيد. وقيل: المراد: هل هو حيٌّ أو ميت (الفتح: ١١/٢٣٥).

(٢) أي افعل خمسة أشياء قبل حصول خمسة أشياء.

(٣) أي اغتنم الطاعة حال قدرتك ، قبل هجوم عجز الكِبَرِ عليك فتندم على ما فرطت في جنب الله.

(٤) أي اغتنم العمل حال الصحة فقد يمنع مانع كمرضٍ ، فتقدَمُ المعاد بغير زاد.

(٥) أي اغتنم التصدق بفضول مالِكَ قبل عروض جائحة تفقرك ، فتصير فقيراً في الدنيا والآخرة.

(٦) أي اغتنم فراغك في هذه الدار قبل شغلك بأهوال القيامة التي أول منازلها القبر ، فاغتنم فرصة الإمكان لعلك تسلم من العذاب والهوان.

(٧) يعني اغتنم ما تلقى نفعه بعد موتك (فَيض القدير: ٢/١٦).

وحسَّنه الزين العراقي ، والسيوطي في الجامع الصغير برقم (١٢١٠) .

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٣٥): «قال بعض العلماء: كلام ابن عمر منتزع من الحديث المرفوع ، وهو متضمن لنهاية قِصَرِ الأمل ، وأن العاقل ينبغي له إذا أمسى لا ينتظر الصباح ، وإذا أصبح لا ينتظر المساء ، بل يظن أن أجلَهُ مُدْرِكُهُ قبل ذلك» .

وروى الحافظ ابن حبان في روضة العقلاء ص: (٢٨١) من حديث مِسْعَر ، عن مَعْنٍ قال: «كم من مستقبل يوماً لا يستكمله ، ومنتظر غداً لا يدركه ، ولو تنظرون إلى الأجل ومسيره ، لأبغضتم الأمل وغروره» .

وروى الحافظ البيهقي في الزهد الكبير ص: (٢٣٠) عن حمزة الزيات ، قال: كان عمرُ بنُ عبد العزيز كثيراً ما يَتَمَثَّلُ:

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلُكَ نَوْمٌ والرَّدَىٰ لَكَ لازِمُ
وتَتْعَبُ فِيما سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ ... كَذَلِكَ في الدُّنْيا تَعِيشُ البَهَائِمُ

قال الحافظ ابن حبان: السبب المؤدي للعاقل إلى إنزاله الدنيا منزلتها ، ترك الركون إليها مع تقديم ما قَدِرَ منها للعيش الدائم ، والنعيم المقيم هو تركُ طول الأمل ، ومراقبة ورود الموت عليه في كل لحظة وطرفة ؛ لأن طول الآمالِ قطعت أعناق الرجال ، كالسراب أَخْلَفَ مَنْ رجاهُ ، وخاب مَنْ رآهُ .

فالعاقل يلزم تركها ، مع الاعتبار الدائم بمن مضى من الأمم السالفة ، والقرون الماضية ، كيف عَفَتْ آثارهم ، واضمحلَّتْ أَنْباؤهم ، فما بقي منهم إلاَّ الذكرُ ، ولا من ديارهم إلاَّ الرسمُ ، فسبحان مَنْ هو قادرٌ على بعثهم وجمعهم للجزاء والعقاب .

ولقد أنشدنا عَمْرُو بن محمد ، قال: أنشدنا الغلابي ، قال: أنشدني مهدي بن سابق:

كُنَّا عَلَى ظُهورِها والعيشُ ذُو مَهَلٍ ... والدَّهْرُ يَجْمَعُنا والدَّارُ والوَطَنُ
فَفَرَّقَ الدَّهْرُ ذُو التَّصْرِيْفِ أُلْفَتَنَا ... فاليومَ يَجْمَعُنا في بَطْنِها الكَفَنُ
كَذلِكَ الدَّهْرُ لا يُبْقِي على أَحَدٍ ... تَأْتِي بِأَقْدَارِهِ الأَيَّامُ والزَّمَنُ

وروى الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) وغيرهما من حديث أبي يعلى: شَدَّاد بن أوسٍ ، عن النبي ﷺ قال: «الكَيِّسُ[1] مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وعَمِلَ لما بَعْد المَوْتِ ، والعاجِزُ[2] مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواها ، وتَمنَّىٰ على اللهِ» وصححه الحاكم (١/٥٧ ، ٤/٢٥١) ، والسيوطي في الجامع الصغير (٦٤٦٨) ، وحسنه الترمذي ، وضعَّفه بعضهم.

وروى البيهقي في شُعَب الإيمان من حديث أنس مرفوعاً: «الكَيِّسُ مَنْ عمل لما بعد الموت ، والعاري العاري مِنَ الدِّيْنِ. اللَّهُمَّ! لا عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرةِ». رمز لحسنه السيوطي في الجامع الصغير برقم (٦٤٦٩).

قال الترمذي: ومعنى قوله: «من دان نفسه» يقول: حاسَبَ نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة.

ويروى عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وتزيَّنوا للعرضِ الأكبر ، وإنما يَخِفُّ الحسابُ يوم القيامة على مَنْ حاسب نفسه في الدنيا.

ويروى عن مَيْمون بن مِهْرانَ قال: لا يكون العبد تقيًّا حتى يحاسبَ نَفْسَهُ كما يحاسبُ شريكَهُ ، من أَيْنَ مَطعمُهُ ومَلبَسُهُ».

فاخترْ ، أخي المسلم! في حياتك طريق العُقَلاء ، الذي بيَّنه لك مَنْ لا ينطق عن الهوى ، إنْ هو إلا وحيٌ يوحىٰ.

واعلم أن الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿ مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ لا يركن إليها إلا جاهلٌ ، أو مستكبر جاحد.

* * *

---

(١) (الكَيِّسُ): العاقل ، وقد كاسَ يكيسُ كَيْساً. والكَيْسُ: العقل (النهاية).

(٢) (العاجز): المقصر في الأمور. ورواه العسكري بلفظ: الفاجر ، بالفاء (فيض القدير: ٥/٦٧).

جَعَلَ اللهُ قِرَاكُمْ مِنْ بيتي الجَنَّة

آمنةُ الرَّمْلِيَّةُ ، عابدةٌ من عابداتِ القَرْنِ الثالثِ للهجرة. انقطعت للتبتل والعبادة ، فكان أكثر زُهَّاد زمانها يتردَّدُون عليها ، ويتبرَّكون بها.

دخل عليها يوماً جماعة من العابدين يزورونها ، فقالت لهم: ما شَأْنُكُمْ؟

قالوا: نسألكِ الدعاءَ.

فقالت: لو أن الخاطبينَ خَرِسُوا ، ما تَكَلَّمتْ عَجُوزُكم من البَكَم ، ولكنَّ الدعاءَ سُنَّةٌ ، ثم قالت: جعل الله قِرَاكُمْ من بيتي الجنة ، وجعلَ ذِكْرَ الموت بيني وبينكم على بالٍ ، وحفظ علينا الإيمانَ ، وهو أرحمُ الراحمين.

روى الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ٣٤٠) بسنده إلى جعفر بن محمد صاحب بشرٍ الحافِي ، قال:

اعْتلَّ بشرُ بن الحارثِ ، فعادَتْهُ آمنةُ الرَّمْلِيَّةُ من الرَّمْلَةِ[1] ، فإنها لعنده؛ إذْ

---

(١) (الرَّملةُ): مدينة عظيمة بفلسطين الجريح. خرَّبها البطلُ المجاهد صلاح الدين الأيوبي بعد أن أنقذها من يد الصليبيين سنة (٥٨٧)هـ حتى لا يستولي عليها الفرنجة مرة أخرى. وبعد ذلك عمرت بالسكان وأصبحت إحدى مدن فلسطين الكبرى ، ثم خربت سنة (١٩٤٧) عندما أحاطت بها قوى العدوان من كل أقطارها ، ولم يجد أهلُها مَنْ يجيب نداء: «وامعتصماه». انظر المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص (١٣٠) لأستاذنا البحاثة محمد شُرّاب.

دَخَلَ أحمدُ بنُ حَنْبَلٍ يعوده[1] ، فقال: مَنْ هذه؟

فقال: هذه آمنةُ الرَّمْلِيَّةُ بَلَغَتْها عِلَّتي[2] ، فجاءتني من الرَّمْلَةِ تعودني.

قال: فَسَلْها ، تدعو لنا.

قالت: اللَّهُمَّ! إنَّ بِشْرَ بن الحارثِ وأحمدَ بنَ حَنْبَلٍ يستجيرانكِ من النار ، فأَجِرْهُما.

فقال أحمد: فانصرفتُ ، فلما كان من الليل طُرِحَتْ إليَّ رُقعةٌ فيها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم ، قد فعلنا ، ولدينا مزيد».

وطلبُ الدعاءِ من أهل الفضل والخير والصلاح مندوب إليه ، مستحب فعله. قال الإمام النووي في الأذكار عند الحديث (١٣٢٢) بتحقيقي: «وهو مجمع عليه ، ومن أَوَلِّ ما يستدلُّ به ، ما رُوِّينا في كتابي أبي داود (١٤٩٨) ، والترمذي (٣٥٦٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال: استأذنتُ النبيَّ ﷺ في العمرة ، فأذِن لي ، وقال: «لا تَنْسنا يا أُخَيَّ! من دُعَائِكَ». فقال كلمةً ما يسرُّني أن لي بها الدنيا.

وفي رواية: «أَشْرِكْنَا يا أُخَيَّ! في دُعَائِكَ». قال الترمذي: «حديث حسن صحيح» وصححه النووي في رياض الصالحين (٣٩٩) بتحقيقي.

قلت: وقصة أُوَيْسٍ القَرَنيِّ التابعي مع عمر مشهورة في صحيح مسلم (٢٥٤٢) ، وفيها قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: «يأتي عليكم أُوَيْسُ بن عامرٍ مع أَمْداد أَهْلِ اليَمَن[3] مِنْ مُرادٍ ، ثم مِنْ قَرَنٍ ، كان به بَرَصٌ ، فَبَرَأَ منه إلاَّ موضعَ دِرْهَمٍ ، له والدةٌ هو بها بَرٌّ ، لو أَقْسَمَ على اللهِ لأَبَرَّهُ؛ فإنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لكَ فافْعَلْ. . . .».

---

(١) (يعوده): أي يزوره من مرضه.

(٢) (علتي): مرضي.

(٣) (أمداد أهل اليمن): الأمداد جمع مَدَدٍ ، وهم: الأعوانُ والناصرون الذين كانوا يُمِدُّون المسلمين في الجهاد (قاله الإمام النووي في رياض الصالحين ، ص/ ١٦٢ بتحقيقي).

إنَّها أَكْرَمُكُمْ

أورد الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧) عن الواقدي[١] قال: أَضَقْتُ[٢] مرة، وأنا مع يحيى بن خالد[٣]، وحضر عيدٌ، فجاءتني الجارية، فقالت: ليس عندنا من آلة العيد شيء، فمضيتُ إلى تاجر صديق لي ليقرضني، فأخرج إليَّ كيساً مختوماً فيه ألف دينار، ومئتا درهم، فأخذته، فما استقررت في منزلي حتى جاءني صديق لي هاشمي[٤] فشكا إليَّ تَأَخُّرَ غَلَّته[٥]، وحاجَتَهُ إلى القرض، فدخلتُ إلى زوجتي، فأخبرتها، فقالت: على أي شيء عزمتَ؟

قلت: على أن أقاسمه الكيسَ.

قالت: ما صنعتَ شيئاً، أتيت رجلاً سُوقة[٦]، فأعطاك ألفاً ومئتي درهم،

---

(١) هو محمد بن عمر بن واقد الأسلمي، مولاهم الواقدي المديني القاضي. صاحب «المغازي» كان أحد أوعية العلم، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ على ضعفه المتفق عليه. ولد بعد (١٢٠) هـ ومات سنة (٢٠٧) هـ. انظر ترجمته في السير ٩/ ٤٥٤ ـ ٤٦٩ وفي حاشيته مصادر ترجمته.

(٢) (أضَقْتُ): أي افتقرتُ.

(٣) هو يحيى بن خالد البرمكي، مؤدب الرشيد ومعلمه ومربيه. ولد سنة (١٢٠)هـ ومات سنة (١٩٠)هـ. انظر ترجمته في الأعلام.

(٤) منسوب إلى هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ.

(٥) (الغَلَّةُ): الدَّخْلُ من كراء دار أو ريع أرض.

(٦) (سوقة): أي من الرعية.

وجاءك رجل من آل رسول الله ﷺ ، تعطيه نصف ما أعطاك السُّوقَةُ؟! فأخرجتُ الكيس كله إليه ، فمضى ، فذهب صديقي التاجر إلى الهاشمي ـ وكان صاحبه ـ فسأله القرضَ ، فأخرج الهاشمي إليه الكيس بعينه ، فعرفه التاجر ، وانصرف إليّ ، فحدثني بالأمر.

قال: وجاءني رسولُ يحيىٰ يقول: إنما تأخر رسولنا عنك لشغلي ، فركبت إليه ، فأخبرته أمر الكيس.

فقال: يا غلام! هات تلك الدنانير ، فجاءه بعشرة آلاف دينار[1]. فقال: خذ ألفي دينار لك ، وألفي دينار للتاجر ، وألفين للهاشمي. وأربعة آلاف لزوجتك فإنها أكرمكم.

قال الحافظ الذهبي: وقد روي بإسناد آخر إلى الواقدي نحومنها ، لكن أمر له بخمس مئة دينار ، ولكل من الثلاثة بمئتي دينار ، وهذا أشبه.

قال الحسن بن شاذان ، عنه: صار إليّ من السلطان ست مئة ألف درهم[2] ، ما وجبت علي زكاة فيها.

* * *

---

(١) (الدينار): حدده بنك فيصل الإسلامي في السودان بـ ٤,٤٥٧ غرام ذهب.

(٢) (الدرهم): يساوي ٧/١٠ من الدينار ، أو ٢,٩٧٥ غرام ذهب.

إنْ كانَ عَصَى اللهَ فيكَ فلا تَعْصِ اللهَ فيَّ

شَكَلَةُ بنتُ شاه ، من ربَّات الفصاحة والبلاغة ، حملت إلى المنصور ، فوهبها لمحياة أُمِّ وَلَدِه ، فَربَّتْها ، وبعثت بها إلى الطائف ، فنشأت هناك ، وتفصَّحت .

فلما كبرت رُدَّتْ إليه ، فرآها المهدي عنده ، فأعجبته ، فطلبها من محياة ، فأعطته إياها ، فولدت منه إبراهيم .

ولما دخل المأمون بغداد ، وكان اختفىٰ إبراهيمُ ولدُها ، بعث المأمون يسألها عن اختفائه ، ويهددها ، ويتوعَّدها ، إنْ لم تَدُلَّ على مكانه .

فبعثت إلى المأمون قائلة :

يا أمير المؤمنين! أنا أُمٌّ من أمهاتك ، فإذا كانَ عصى اللهَ ـ عز وجلَّ ـ فيكَ ، فلا تَعْصِ اللهَ فيَّ .

فَرقَّ لها المأمونُ ، وأمسك عنها ، فلم يطالبها بعد ذلك ، كذا في أعلام النساء (٢/ ٣٠٢) .

* * *

خَلِّصْني مِنْ هذا خَلَّصَكَ اللهُ !

بِشْرُ بن الحارث الحافي أبو نصر المَرْوَزِيُّ ثم البغدادي: إمام ، عالم ، محدث ، زاهد ، رباني ، قدوة ، جَبَلٌ ، ثقةٌ.

ولد سنة (١٥٢)هـ وقيل سنة (١٥٠) هـ ، وهو ابن عم المحدث المشهور علي بن خَشْرَم.

كان من كبار الصالحين ، وأعيان الأتقياء المتورعين ، وكان يَزُمُّ نفسه[١] ، رأساً في الورع والإخلاص.

قال إبراهيم الحربي: «ما أخرجت بغداد أتم عقلاً من بِشْرٍ ، ولا أحفظ للسانه ، كان كل شعرة منه عقل ، وطىء الناس عقبه خمسين سنةً ، ما عرف له غيبة لمسلم ، ما رأيت أفضل منه».

وقال أيضاً: لو قسم عقل بشرٍ على أهل بغداد ، صاروا عقلاءَ.

ارتحل في العلم فأخذ عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، والفُضَيل بن عياضٍ وغيرهما.

حَدَّث عنه: الزاهد الورع سَرِيُّ بن مُغَلِّس السَّقَطِيُّ وغيره.

كان بشرٌ من أولاد الرؤساء والكتاب ، وسبب توبته كما ذكر ابن خَلّكان في وَفَيات الأعيان (١/ ٢٧٥) «أنه أصاب في الطريق ورقةً وفيها اسم الله تعالى مكتوب ، وقد وطئتها الأقدام[٢] ، فأخذها واشترى بدراهم كانت معه

---

(١) (كان يزمُّ نفسه): أي شديداً عليها ، محاسباً لها.

(٢) وهذه طامة في عصرنا ، قلّما يتنبه إليها ، فكم مما كتب اسم الله عليه يُهانُ من حيث ندري أو لا ندري.

غالية[1] فطيَّب بها الورقة ، وجعلها في شَقِّ حائطٍ ، فرأى في النوم كأنَّ قائلاً يقول له: يا بِشْرُ! طَيَّبْتَ اسمي ، لأُطَيِّبَنَّ اسمكَ في الدنيا والآخرة ، فلما تنبَّه من نومه تابَ.

ويحكى أنه أتى باب (شَيْخِهِ) المُعَافى بن عِمْران ، فدقَّ عليه الحَلْقَةَ ، فقيل: مَنْ؟ فقالَ: بشرٌ الحافي ، فقالت بِنْتٌ من داخل الدار: لو اشتريت نعلاً بدانقين[2] لذهب عنك اسم الحافي.

وإنما لقب بالحافي؛ لأنه جاء إلى إسكافٍ يطلب منه شِسْعاً[3] لإحدى نعليه ، وكان قد انقطع ، فقال له الإسْكاف[4]: ما أكثَرَ كُلفتكم على الناس! فألقى النعل من يده ، والأخرى من رجله ، وحلف لا يلبس نعلاً بعدها».

وقال الإمام موفق الدين المقدسي المتوفى سنة (٦٢٠) هـ في كتاب التوابين ص (٢١١): «حكي أن بشْراً كان في زمن لهوه في داره ، وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون ، فاجتاز بهم رجلٌ من الصالحين ، فدقَّ البابَ ، فخرجت إليه جاريةٌ ، فقال: صاحِبُ هذه الدار حُرٌّ أو عبدٌ؟ فقالت: بل حُرٌّ!

فقال: صَدَقْتِ ، لو كان عبداً لاستعمل أدب العبودية ، وترك اللهو والطرب ، فسمع بِشْرٌ محاورتهما ، فسارع إلى الباب حافياً ، حاسراً ، وقد وَلّى الرجل.

فقال للجارية: ويحك! مَنْ كَلَّمَكِ على الباب؟ فأخبرته بما جرى.

فقال: أيَّ ناحية أخذ الرجلُ؟

فقالت: كذا ، فتبعهُ بِشْرٌ حتى لحقه ، فقال له: يا سيدي! أنت الذي وقفتَ بالباب وخاطبت الجارية؟

---

(١) (الغاليةُ): أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر.
(٢) (الدَّانق): سُدُسُ الدرهم.
(٣) (الشِّسْعُ): سَيْرٌ يمسك النَّعْلَ بأصابع القدم.
(٤) (الإسكافُ): صانع الأحذية ومصلحها.

قال: نعم.

قال: أَعِدْ عَلَيَّ الكلام، فأعاده عليه، فمرَّغَ بشرٌ خديه على الأرض، وقال: بل عبدٌ! عبدٌ! ثم هام على وجهه حافياً حاسراً حتى عرف بالحِفاء.

فقيل له: لِمَ لا تلبس نعْلاً؟

قال: لأني ما صالحني مولاي إلاَّ وأنا حَافٍ. فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات.

وفي شذارت الذهب (٢/ ٦٠) «أنه كان في حداثة سنة يطلب العلم، ويمشي في طلبه حافياً حتى اشتهر بهذا الاسم.

قال مِسْعَرٌ: من طلب الحديث فليتقشَّفْ، وَلْيَمْشِ حافياً.

وصَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اغْبَرَّتْ قَدَماهُ في سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ»[1] فرأى بشرٌ أن طالب العلم يمشي في سبيل الله، فأحبَّ تعميم قدميه بالغبار.

وكان يعمل المغازل ويعيش منها حتى مات. وكان لا يقبل من أحدٍ شيئاً، عطيةً أو هدية سوى رجل من أصحابه، ربما قبل منه، وقال: لو علمت أن أحداً يعطي لله لأخذت منه، ولكنه يعطي بالليل ويتحدث بالنهار.

وقال لابن أخته عمر: يا بنيَّ! اعْمَلْ؛ فإنَّ أثَرَهُ في الكَفَّيْنِ أحسنُ من أثر السجدة بين العينين.

مات بشر ببغداد سنة (٢٢٧) هـ وله (٧٥) سنةً وحشد الناس لجنازته وكان أبو نَصْرٍ التَّمَّارُ وعليُّ بن المَدِيْنِيِّ يصيحان في الجنازة: هذا، والله! شرفُ الدنيا قبل شرف الآخرة.

من كلامه:

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة برقم (٩٠٧) من حديث أبي عبسٍ: عبد الرحمن بن جَبْرٍ.

لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك. وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك؟!

* التكبر على المتكبر من التواضع.

* يا أهل الحديث! علمتم أنه يجب عليكم فيه زكاة، كما يجب على من ملك مئتي درهمٍ.

* شاطر سخيٌّ أحبُّ إليَّ من صوفي بخيل.

* أمسي قد مات، واليوم في السياق، وغداً لم يولد.

* لا يفلح من أَلِفَ أفخاذَ النساء.

* إذا أعجبكَ الكلام فاصمُتْ، وإذا أعجبك الصمتُ، فتكلَّمْ.

* قد يكون الرجلُ مُرائياً بعد موته، يحب أن يكثر الخلق في جِنازته.

* لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات سَدّاً.

* ما اتقى الله من أحبَّ الشهرة.

* لا تعمل لِتُذْكَرَ، اكتم الحسنة كما تكتم السيئة.

هذا الإمام الجبل كان له ثلاث أخواتٍ، وهنَّ: مُضْغَةُ[١]، ومُخَّةُ، وزُبْدَةُ[٢]، وكن زاهداتٍ، عابداتٍ، ورعاتٍ، وأكبرهن مُضْغَةُ. ماتت قبل موت أخيها بشر، فحزن عليها بشرٌ حزناً شديداً، وبكى بكاءً كثيراً، فقيل له في ذلك، فقال: قرأت في بعض الكتب؛ أن العبد إذا قَصَّر في خدمة ربه سلبه أنيسه، وهذه أختي مضغة كانت أنيستي في الدنيا[٣].

---

(١) لهاترجمة في أعلام النساء (٥/٥٨) وغيره.

(٢) لها ترجمة في أعلام النساء (٢/١٦) وغيره.

(٣) بشرٌ لم يتزوج قطُّ، ولم يعرف النساء. قيل له: لِمَ لا تتزوجُ؟ قال: لو أظلني زمان عمر وأعطاني كنت أتزوج. وقيل له: لو تزوجْتَ تمَّ نُسُكُكَ (أي عبادتك) قال: أخاف أن تقوم بحقي ولا أقوم بحقها. قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. انظر شذرات الذهب (٢/٦١).

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: دخلت امرأةٌ على أبي فقالت له: يا أبا عبد الله! إني امرأة أغزل في الليل على ضوء السِّراج ، وربما طُفِيءَ السراجُ فأغزل على ضوء القمر ، فهل عليَّ أن أُبيِّنَ غَزْلَ السِّراج من غَزْلِ القمر؟

فقال لها أبي : إنْ كان عندكِ بينهما فرقٌ فعليكِ أن تُبَيِّني ذلك .

فقالت له : يا أبا عبد الله! أَنِيْنُ المريض ، هل هو شكوى؟

فقال لها : إني أرجو أن لا يكون شكوى ، ولكن هو اشتكاء إلى الله تعالى ، ثم انصرفت .

قال عبد الله : فقال لي أبي : يا بُنيَّ! ما سمعتُ إنساناً قَطُّ يسأل عن مثل ما سألت هذه المرأة ، اتبعْها .

قال عبد الله : فتبعتُها إلى أن دَخَلَتْ دار بشرٍ الحافي ، فعرف أنها أُخْتُ بِشْرٍ ، فأتيت أبي ، فقلت له : إن المرأة أختُ بشرٍ الحافي ، فقال أبي : هذا ، والله! هو الصحيح ، مُحالٌ أن تكون هذه المراة إلاَّ أختَ بِشْرٍ الحافي .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبلٍ أيضاً : جاءت مُخَّةُ أختُ بشرٍ الحافي إلى أبي ، فقالت : يا أبا عبد الله! رأسُ مالي دانقانِ أشتري بهما قُطْناً فأغزله وأبيعه بنصف درهم ، فأنفق دانقاً من الجمعة إلى الجمعة ، وقد مرَّ الطَّائِفُ (ابن طاهر) ليلةً ، ومعه مَشْعَلٌ ، فاغتنمت ضوء المَشْعَلِ ، وغزلت طاقَيْنِ في ضوئه ، فعلمت أنَّ لله ـ سبحانه وتعالى ـ فِيَّ مُطالبةً ، فخلصني من هذا ، خلَّصكَ اللهُ!

فقال أبي : تخرجين الدانِقَيْنِ[1] ثم تبقين بلا رأس مال حتى يعوضكِ الله خيراً منه .

---

(١) أي : تتصدقين بهما .

قال عبد الله: فقلت لأبي: لو قلت لها: لو أخرجتِ الغَزْلَ الذي أدركت فيه الطاقات.

فقال: يا بنيَ! سؤلُها لا يحتمل التأويل، فمَنْ هذه المرأةُ؟

فقلت: هي مُخَّةُ أخت بشر الحافي، فقال أبي: من هٰهُنا أُتيتُ!

وقال بشرٌ: تعلمتُ الزهد من أختي؛ فإنها كانت تجتهد أن لا تأكل ما لمخلوق فيه صُنْـعٌ.

* * *

مُحَالٌ أَنْ يَمُوتَ المَظْلُومُ ويَبْقَىٰ الظَّالِمُ

كانت السيدة نَفِيْسَةُ بنت أمير المؤمنين أبي محمد: الحسن بن زيد بن السيد سِبْط النبي - ﷺ - الحسن بن علي بن أبي طالب تقيةً صالحةً، من ربَّات العبادة، والزهد، والورع.

ولدت بمكة سنة (١٤٥) هـ، ونشأت بالمدينة، ودخلت مصر مع زوجها الشريف إسحاق بن جعفر بن محمد الصادق.

وقيل مع أبيها: الحسن بن زيد، الذي عُيِّنَ، والياً على مصر من قبل أبي جعفر المنصور.

حفظت نَفِيْسَةُ القرآن الكريم وتفسيره، وكانت كثيرة البكاء، تُدِيمُ قيام الليل، وصيامَ النهار.

حجَّتْ ثلاثين حجةً، فكانت تَتَعَلَّقُ بأستار الكعبة باكيةً، وهي تقولُ:

إلٰهي، وسيِّدي، ومَولاي! مَتِّعْني برِضَاكَ عني.

قالت زينب بنت يحيى[1]: خدمتُ عمتي نفيسة أربعين سنة، فما رأيتها نامت الليل، ولا أفطرت بنهار، فقلت لها: أما ترفقين بنفسكِ؟ فقالت: كيف أرفق بنفسي وقدامي عقبات لا يقطعها الفائزون؟

وكانت نفيسة ذات مالٍ، وإحسان إلى المَرْضىٰ والزَّمْنىٰ[2].

---

(١) أعلام النساء (٥/ ١٨٧).

(٢) (الزَّمْنىٰ): المرضىٰ بداءٍ عُضَالٍ.

وكانت تحسن إلى الإمام الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤)هـ لمّا ورد الديار المصرية ، رُبَّما صلَّى بها . ولما توفي الشافعي أمرت بجنازته ، فأدخلت إليها فصلَّت عليه .

قيل : لما ظَلَمَ أحمد بن طولون[1] ـ قبل أن يعدل ـ استغاث الناس من ظلمه ، وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها .

فقالت لهم : متى يركبُ؟

قالوا : في غدٍ .

فكتبت رقعة ، ووقفت بها في طريقه ، وقالت : يا أحمدُ بنَ طُولون!

فلما رآها عرفها ، فترجَّل عن فرسه ، وأخذ منها الرُّقْعَةَ ، وقرأها ، فإذا فيها : ملكتُمْ فأسرتم ، وقدرتم فقهرتم ، وخولتم فعسفتم ، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم . هذا ، وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة ، غيرُ مُخطئة ، لا سيّما من قلوبٍ أوجعتموها ، وأكباد جوَّعتموها ، وأجساد عريتموها ، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم .

اعملوا ما شئتم! فإنا صابرون .

وجُوروا! فإنا بالله مستجيرون .

واظلموا! فإنا إلى الله متظلمون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] . فعَدَلَ لوقته .

ومرضت نفيسة بعد أن أقامت بمصر سبع سنين ، فكتبت إلى زوجها إسحاق المؤتمن كتاباً ، وحفرت قبرها بيدها في بيتها ، فكانت تنزل فيه وتصلي كثيراً ، فقرأت فيه مئة وتسعين ختمةً ، وما برحت تنزل فيه وتصلي كثيراً ، وتبكي بكاءً عظيماً حتى احتُضِرَتْ سنة (٢٠٨) هـ وهي صائمة ،

---

(١) أعلام النساء (٥/ ١٨٨). وهذه القصة لا تصح مع أحمد بن طولون؛ لأن السيدة نفيسة ماتت سنة (٢٠٨)هـ ، وأحمد بن طولون ولد سنة (٢٢٠)هـ. فلا معاصرة بينهما. ولعلَّ هذه القصة جرت للسيدة نفيسة مع أمير آخر ، والله أعلم.

فألزموها بالفطر ، وألَحُّوا وأبرموا ، فقالت : واعجباً! منذ ثلاثين سنةً أسأل الله تعالى أن ألقاه ، وأنا صائمة ، أأُفطر الآن؟! هذا لا يكونُ.

ثم قرأت سورة الأنعام ، وكان الليل قد هدأ ، فلمَّا وصلت إلى قوله تعالى : ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٧] غُشي عليها ، ثم شهدت شهادة الحق ، وقبضت إلى رحمة الله ، فوصل زوجُها إلى مصر في يوم وفاتها ، فقال : إني أحملُها إلى المدينة ، وأدفنها بالبقيع[1] ، فاجتمع أهل مصر إلى أمير البلد ، واستجاروا به عند إسحاق ليردَّهُ عما أراد ، فأبى ، فجمعوا له مالاً جزيلاً حتى وسق بعيره الذي أتى عليه ، وسألوه أن يدفنها عندهم ، فأبىٰ ، فباتوا منه في ألم عظيم.

فلما أصبحوا اجتمعوا إليه ، فوجدوا منه غير ما عهدوه بالأمس ، فقالوا له : إنَّ لك لَشَأْناً عظيماً؟

قال : نعم. رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يقول لي : رُدَّ عليهم أموالهم ، وادفنها عندهم ، فدفنها في المنزل الذي كانت تسكنه في محلة كانت تعرف قديماً بدرب السباع ، وقد بادت ، ولم يبق منها سوى قبرها.

قال الذهبي في السير (١٠/١٠٧) : «قيل : كانت من الصالحات العوابد ، والدعاء مستجاب عند قبرها؛ بل وعند قبور الأنبياء والصالحين ، وفي المساجد ، وعَرَفَة ، ومزدلفة ، وفي السفر المباح ، وفي الصلاة ، وفي السَّحَرِ ، ومن الأبوين ، ومن الغائب لأخيه ، ومن المضطر ، وعند قبور المعَذَّبين ، وفي كل وقت وحين؛ لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ولا ينهى الداعي عن الدعاء في وقت إلّا وقت الحاجَةِ ، وشبه ذلك ، ويتأكدُ الدعاء في جوف الليل ، ودُبر المكتوبات ، وبعد الأذان».

* * *

(١) (البقيع) : هو بقيع الغَرْقد ، مدفن أهل المدينة ، معروف لا يجهله أحد.

المُتَكَلِّمَةُ بِالْقُرْآنِ

عن عبد الملك بن قُرَيْبٍ الأَصْمَعيِّ[1] قال: بينما أنا أطوف بالبادية، إذا أنا بأعرابية تمشي وحدها على بعير لها، فقلت: يا أمة الجبار! مَنْ تطلبينَ؟

فقالت: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ [الزمر: ٣٧].

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

قال: فعلمت أنها قد أضلَّت[2] أصحابها. فقلت لها: كأنكِ قد أضْلَلْتِ أصحابكِ؟

قالت: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

فقلت لها: يا هذه! مِنْ أينَ أنتِ؟

قالت: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: ١] فعلمت أنها مقدسيَّة[3].

---

(١) هو عبد الملك بن قُرَيْب، أبو سعيد الأصمعي: راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. ولد بالبصرة سنة (١٢٢) هـ. ومات بها سنة (٢١٦)هـ. كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها، ويتلقى أخبارها. أخباره كثيرة جداً، وكان يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة. انظر ترجمته في الأعلام (٤/ ١٦٢).

(٢) أضلَّت: أي أضاعت.

(٣) (مقدسية): أي من بيت المقدس الذي يئنُّ الآن من وطأة الاحتلال اليهودي. وينتظر صلاح الدين.

فقلت لها: كيف لا تتكلمين؟

فقالت: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [قٓ: ١٨].

فقال بعض أصحابي: ينبغي أن تكون من الخوارج[١].

فقالت: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فبينما نحن نماشيها، إذ رفعت لنا قباب وخِيَمٌ. فقالت: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

قال: فلم أفطنْ لقولها، فقلت: ما تقولين؟

فقالت: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ[٢] فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ[٣] فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ[٤] قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ [يوسف: ١٩].

قلت: بمن أصوِّتُ، وبمن أدعو؟

فقالت: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢].

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ [مريم: ٧].

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص: ٢٦].

قال: فإذا نحن بثلاثة إخوة كاللآلىء.

فقالوا: أمُّنا، وربِّ الكعبة! أضللناها منذ ثلاث.

فقالت: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤] فأومأت إلى أحدهم فقالت: ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ[٥] هَٰذِهِۦٓ إِلَى

---

(١) (الخوارج): فرقة إسلامية ضالة. سموا بذلك لأنهم خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) (سيَّارة): رفقة مسافرون (كلمات القرآن).

(٣) (واردهم): من يتقدم الرفقة ليستقي لهم (كلمات القرآن).

(٤) (فأدلى دلوه): فأرسلها في الجبِّ ليملأها ماءً. (كلمات القرآن).

(٥) (بورقكم): بدراهمكم المضروبة (كلمات القرآن).

ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا[1] فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].

فقلت: إنها أمرتهم أن يرودودنا[2]، فجاؤوا بخبز وكعك.

فقلت: لا حاجة لنا في ذلك. فقلتُ للفتية: مَنْ هذه منكم؟

قالوا: هذه أُمُّنا، ما تكلّمت منذ أربعين سنة إلا من كتاب الله مخافة الكذب، فدنوت منها. فقلت: يا أَمَةَ الله! أوصني.

فقالت: ﴿ لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] فعلمت أنها شيعية[3]، فانصرفت.

روى هذه القصة الحافظ محمد بن حِبّان البُسْتي في كتابه «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» ص (٤٩ ـ ٥٠) وقال:

فالواجب على العاقل أن يروض نفسه[4] على ترك ما أُبيحَ له من النُّطْق، لئلا يقع في المزجورات[5]، فيكون حتفه فيما يخرج منه، لأن الكلام إذا كثر منه أورث صاحبه التلذذ بضد الطاعات.

فإذا لم يوفق العبد لاستعمال اللسان فيما يجدي عليه نَفْعُهُ في الآخرة، كان وجوب الإمساك عن السوء أولى.

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

ولن يهلك الإنسان إلا إذا أتىٰ ... من الأمرِ ما لم يرْضَهُ نُصَحَاؤُهُ
وأقْلِلْ إذا ما قلتَ قولاً فإنه ... إذا قلَّ قول المرءِ قل خطاؤُهُ

* * *

(١) (أزكى طعاماً): أحلُّ، أو أجود طعاماً (كلمات القرآن).

(٢) (أمرتْهم أن يرودونا): أي أمرتهم بالتماس الطعام وإحضاره لنا.

(٣) وأيضاً أهل السنة والجماعة يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ. ويبغضون النواصب الذين يقعون فيهم.

(٤) (أن يروض نفسه): أي يذلّلها.

(٥) (المزجورات): المنهيات.

لا تَخْذُلْني عِنْدَ المَوْتِ

حَكَى عُثْمَانُ بن سَوَادٍ الطُّفاوِيُّ ـ كما في مختصر منهاج القاصدين ص: ٣٩٦ ـ عن أُمه وكانت من العابدات ، وكان يقال لها: راهبة ، قال:

«لما احْتُضِرَتْ[١] رَفَعَتْ رَأْسَها إلى السماء وقالت: يا ذُخْرِي! ويا ذَخِيْرَتي! وَمَنْ عليه اعتمادي في حياتي وبعد مماتي ، لا تَخْذُلْني عند الموت ، ولا توحِشْني في قبري.

قال: فماتت ، فكنت آتيها كُلَّ جُمُعَةٍ وأدعو لها ، واستغفر لها ، ولأهلِ القبور ، فرأيتها ليلةً في منامي ، فقلتُ لها: يا أُمَّاهُ! كيفَ أَنْتِ؟

قالت: يا بُنَيَّ! إنَّ الموتَ لَكَرْبٌ شديدٌ ، وأنا بحمد الله في بَرْزَخٍ[٢] محمودٍ ، يُفْتَرَشُ فيه الرَّيْحانُ ، ويُتَوَسَّدُ فيه السُّنْدُسُ[٣] والإِسْتَبْرَقُ[٤] إلىٰ يوم النُّشُورِ.

فقلت: أَلَكِ حاجةٌ؟

قالت: نَعَمْ. لا تَدَعْ ما كُنْتَ تصنعُ من زيارتنا ، فإنِّي لأُسَرُّ بمجيئك يومَ

---

(١) أي حَضَرَها الموتُ.

(٢) (البرزخ): ما بين الموت والبعثِ.

(٣) (السندس): رقيق الحرير.

(٤) (الإستبرق): غليظ الحرير.

الجمعة ، إذا أقبلْتَ من أهلك ، فيقال لي : يا رَاهِبَةُ! هذا ابْنُكِ قد أقبل ، فَأُسَرُّ ويُسَرُّ بذلك مَنْ حولي من الأموات» .

واتفق العلماء على أن زيارة القبور مستحبة للرجال[1] ، وبخاصة لأداءِ حَقٍّ نحو والدٍ ، ووالدة ، وصديق ، لما فيها من تذكير بالآخرة ، وترقيق للقلوب بذكر الموت وأحواله .

قال ابن القيِّم : «كان النبي ـ ﷺ ـ إذا زار القبور يزورها للدعاء لأهلها ، والترحم عليهم ، والاستغفار لهم» .

وروى مسلم في كتاب الجنائز برقم (٩٧٧) من حديث ابن بُرَيْدَةَ عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوها» .

وزاد النسائي (٧/ ٢٣٤) في رواية هذا الحديث : «وَلْتَزِدْكُمْ زِيَارَتُها خَيْراً» .

وفي حديث ابن مسعود عندالحاكم في المستدرك (١/ ٣٧٥) : «فإنَّهَا تُزَهِّدُ في الدُّنْيا ، وتُذَكِّرُ الآخِرَةَ» .

وفي رواية الترمذي برقم (١٠٥٤) : «قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ ، فَقَدْ أُذِنَ لِمُحَمَّدٍ في زيارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ[2] . فَزُورُوهَا ، فإنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ» قال الترمذي : «حديث بُرَيْدَةَ حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم ، لا يرون بزيارة القبور بأساً . وهو قول ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق» .

وروى مسلم في الجنائز (٩٧٦/١٠٨) من حديث أبي هريرة ، قال : زار

---

(١) أماالنساء فتكره لهن الزيارة ، لما ورد من النهي عن ذلك ، وقد تحرم إذا اقترنت زيارتهن بمحظور شرعي ، كما إذا خشيت الفتنة ، أو رَفَعْنَ أصواتهن بالبكاء ، وقد تباح لهن الزيارة إذا قرب المصاب ولم يكن ثمة محظور شرعي. انظر فتح الباري (٣/ ١٤٨ ـ ١٤٩) ، ونزهة المتقين (١/ ٤٢٥).

(٢) بالأبواءِ ، وهو وادٍ من أودية الحجاز ، به آبار كثيرة ، ومزارع عامرة ، والمكان المزروع منه يسمى اليوم «الخُرَيْبَة» تصغير الخِرْبَة. ويبعد المكان المزروع عن بلدة «مستورة» شرقاً (٢٨) كيلاً ، والمسافة بين الأبواء ورابغ(٤٣) كيلاً. انظر المعالم الأثيرة ، ص: (١٧).

النبيُّ ـ ﷺ ـ قبر أمه ، فبكى وأبكى من حوله ، فقال: «استأذنت ربي في أَنْ أستغفر لها فلم يؤذن لي ، واستأذنته في أن أزورَ قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور؛ فإنها تذكِّر الموت».

وعند الحاكم في المستدرك (١/ ٣٧٦) من حديث أنس مرفوعاً: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها؛ فإنه يرقُّ القلب ، وتدمع العين ، وتذكر الآخرة ، ولا تقولوا هُجراً» أي: كلاماً فاحشاً باطلاً.

وروى مسلم في كتاب الجنائز برقم (٩٧٤) من حديث عائشة؛ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ ، كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ ، يخرج من آخر الليل إلى البَقِيْع[١] ، فيقول: «السَّلامُ عليكمْ دارَ قومٍ مؤمنين ، وأتاكُمْ ما توعدونَ غداً ، مُؤَجَّلُونَ. وإنَّا ، إنْ شَاءَ اللهُ بكم لاحقونَ. اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لأَهْلِ بَقِيْعِ الغَرْقَدِ».

وكان من عادة سلفنا الصالح زيارة القبور للعظةِ وأخذ العبرة ، والدعاء للأموات ، والاستغفار لهم.

قال الفقيه الثقة مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَان الجَزَرِيُّ: خرجتُ مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل عليَّ ، فقال: يا ميمونُ! هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لَذَّاتِهِمْ وعيشِهِمْ.

أما تراهم صَرْعى قد حَلَّتْ بهم المَثُلاتُ[٢] ، واسْتَحْكَمَ فيهم البلاءُ ، وأصاب الهوامُ مَقِيْلاً في أبدانهم؟ ثم بكى ، وقال: واللهِ! ما أعلم أحداً أَنْعَمَ مِمَّنْ صار إلى هذه القبور ، وقد أَمِنَ مِنْ عذابِ اللهِ[٣].

---

(١) (البقيع): مدفن أهل المدينة ، معروف لا يجهله أحد. وسمي بقيع الغرقد ، لغَرْقَدٍ كان فيه ، وهو شُجيرةٌ تسمو من مترٍ إلى ثلاثة ، من الفصيلة الباذنجانية ، ساقها وفروعها بيض ، تشبه العَوْسَجَ في أوراقها اللحمية ، وفروعها الشائكة ، وأزهارها الطويلة العنق ، عَبِقة الريح ، بيضاء مخضرة ، وثمرتها مخروطة تؤكل.

(٢) (المَثُلات): جمع مَثُلَة ، وهي العقوبة والتنكيل.

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص: (٣٩٥).

و من شِعْرِه :

مَنْ كانَ حِيْنَ تُصِيبُ الشَّمْسُ جَبْهَتَهُ أَوِ الغُبَارُ يَخَافُ الشَّيْنَ[1] والشَّعَثَا
وَيَـأْلَـفُ الظِّـلَ كَـيْ تَبْقـىٰ بَشَـاشَتُـهُ فَسَوْفَ يَسْكُنُ يَوْمَاً رَاغِماً جَدَثَا[2]
فِـي قَعْـرِ مُظْلِمَـةٍ غَبْـرَاءَ مُـوْحِشَـةٍ يُطِيْلُ في قَعْرِهَا تَحْتَ الثَّرَى اللَّبَثَا
تَجَهَّـزِي بِجهَـازٍ تَبْلُغِيْـنَ بِـهِ يَا نَفْسُ! قَبْلَ الرَّدَى لَمْ تُخْلَقِي عَبَثَا[3]

ومما رُوي له :

أَيَقْظَانُ أَنْتَ الْيَوْمَ؟ أَمْ أَنْتَ نَائِمُ؟ وَكَيْفَ يُطِيْقُ النَّوْمَ حَيْرانُ هَائِمُ[4]
فَلَـوْ كُنْـتَ يَقْظَـانَ الغَـدَاةَ لَخَـرَّقَـتْ مَدَامعَ عَيْنَيْكَ الدُّمُوعُ السَّواجِمُ[5]
تُسَـرُّ بِمـا يَبْلَـىٰ وَتَفْـرَحُ بِـالمُنَـى كَما اغْتَرَّ بِاللَّذَّاتِ فِي النَّوْمِ حَالِمُ
نَهَـارُكَ يَـا مَغْـرُورُ! سَهْـوٌ وَغَفْلَـةٌ وَلَيْلُـكَ نَـوْمٌ والـرَّدَى[6] لَـكَ لاَزِمُ
وَسَعْيُـكَ فِيْمـا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ[7] كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيْشُ البَهائِمُ[8]

وقد روي ؛ أنه لما مات عاصِمٌ الجَحْدَرِيُّ ، رآه رجل من أهله في المنام بعد موته بسنتين ، فقال له : ألست قَدْ مِتَّ؟

قال : بلىٰ .

قال : وأين أنتَ؟

قال عاصِمٌ: أنا ، والله! في رَوْضَةٍ من رِيَاضِ الجنة ، أنا ونفرٌ من

---

(١) (الشَّين) : العيب والقبح .
(٢) (جَدَثا) : قبراً .
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٨) .
(٤) (هائم) : هام في الأمر : تحيَّر فيه ، واضطرب ، وذهب كُلَّ مذهبٍ .
(٥) (السواجم) : سجم الدمعُ إذا سالَ .
(٦) (الرَّدى) : الموت والهلاك .
(٧) (غِبَّهُ) : عاقبته .
(٨) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٨) .

أصحابي ، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ المُزَنِيِّ[١] ، نتلاقى أخباركم.

قال: قلت له: أجسامُكُمْ أَمْ أَرْوَاحُكُمْ؟

قال: هَيْهاتَ! بَلِيَتِ الأجسامُ ، وإنما تتلاقى الأرواحُ.

قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟

قال: نعلم بها عشية الجمعة ، ويوم الجمعة كُلَّهُ ، ويوم السبت إلى طلوع الشمس.

قلت: وكيف ذلك دون الأيام كلها؟

قال: لشرف يوم الجمعة وعظمه[٢].

وأورد الحافظ ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٤١٥) عن أبي التَّيَّاحِ يزيدَ بن حُميدٍ ، قال: كان مُطَرِّفُ بْنُ عبد اللهِ[٣] يبادر ، فيدخل كُلَّ جمعةٍ ، فَأَدْلَجَ[٤] حتى إذا كان عند المقابر يوم الجمعة ، قال: فرأيت صاحب كل قبرٍ جالساً على قبره ، فقالوا: هذا مطرف يأتي الجمعة.

قال: فقلت لهم: وتعلمون عندكم الجمعة؟

قالوا: نعم ، ونعلم ما تقول فيه الطير.

قلت: وما تقول فيه الطير؟

قالوا: تقول: رَبِّ! سَلِّمْ سَلِّمْ ، يومٌ صالحٌ.

---

(١) هو أبو عبد الله المزني ، إمام ، ثقة ، ثبت ، جليل ، قدوة ، واعظ ، حجة. يذكر مع الحسن وابن سيرين ، وكان مجاب الدعوة ، مات سنة (١٠٨)هـ. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣٢) وغيره.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص (٣٩٥ ـ ٣٩٦) ، وزاد المعاد (١/ ٤١٥ ـ ٤١٦).

(٣) هو أبو عبد الله البصري: مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير العامري. ثقة ، عابد ، فاضل ، إمام ، قدوة ، حجة. مات سنة (٩٥)هـ انظر ترجمته في السير (٤/ ١٨٧).

(٤) (أدلج): سار.

قال الحافظ ابن القيّم «الموتى تدنو أرواحهم من قبورهم ، وتوافيها في يوم الجمعة ، فيعرفون زُوَّارهم ، ومَنْ يَمُرُّ بهم ، ويُسَلِّمُ عليهم ، ويلقاهم في ذلك اليوم أكثر من معرفتهم بهم في غيره من الأيام ، فهو يوم تلتقي فيه الأحياء والأموات».

وعن أنس بن منصورٍ ، قال: كان رجل يختلف إلى الجنائز ، فيشهد الصلاة عليها ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر ، فقال: آنَسَ اللهُ وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن سيئاتكم ، وقبل حسناتكم. لا يزيد على هؤلاء الكلمات.

قال ذلك الرجل: فأمسيت ذات ليلة ، ولم آتِ المقابر ، فأدعو كماكنت أدعو. فبينا أنا نائم إذا أنا بخلق كثير قد جاؤوني ، فقلت: من أنتم؟ وما حاجتكم؟

قالوا: نحن أهل المقابر ، إنك كنت عَوَّدْتنا منك هَدِيَّةً.

فقلتُ: وما هِيَ؟

قالوا: الدعواتُ التي كُنْتَ تدعو بها.

قلتُ: فإنِّي أعود لذلك ، فما تركتها بعد[1].

وقال بَشَّارُ بْنُ غَالبٍ: رأيت رابِعَةَ[2] في منامي ، وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت لي: يا بشارُ! هداياكَ تأتينا على أَطْباقٍ من نُورٍ ، مُخَمَّرةٍ[3] بمناديل الحرير.

قلت: وكيف ذلك؟

قالت: هكذا دعاء الأحياء إذا دَعَوْا للموتَىٰ ، واستجيب لهم. جُعِلَ ذلك الدعاءُ على أطباقِ النورِ ، وخُمِّرَ بمناديلِ الحريرِ ، ثم أُتِيَ به إلى الذي دُعِيَ له

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص: (٣٩٦).

(٢) هي العدوية الزاهدة ، العابدة ، الخاشعة. انظر ترجمتها في السير (٨/ ٢٤١).

(٣) (مُخَمَّرة): مُغَطَّاة.

من المَوْتَى ، فقيل له: هَذِه هَدِيَّةُ فلانٍ إليكَ[1].

وقيل: كان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقعد إلى القبور ، فقيل له في ذلك ، فقال: أجلس إلى قومٍ يذكِّروني مَعادي ، وإِنْ غِبْتُ لَمْ يَغْتَابُونِي»[2].

قال العلامة المُنَاوي في فيض القدير (٤/ ٦٧): «ليس للقلوب ـ سيما القاسية ـ أنفع من زيارة القبور ، فزيارتها وذكر الموت يردع عن المعاصي ، ويلين القلب القاسي ، ويذهب الفرح بالدنيا ، ويهون المصائب.

وزيارة القبور تبلغ في دفع رَيْنِ القلب ، واستحكام دواعي الذنب ، ما لا يبلغه غيرها؛ فإنه وإن كان مشاهدة المُحْتَضِرِ تزعج أكثرَ ، لكنه غير ممكن في كل وقتٍ. وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في كل أسبوع ، بخلاف الزيارة.

وللزيارة آداب: منها: أن يحضر قلبه ، ولا يكون حظه التطوف على الأجداث فقط؛ فإنها حالة تشاركه فيها البهائم ، بل يقصد بها وجه الله ، وإصلاح فساد قلبه ، ونفع الميت بما يتلوه من القرآن ، ولا يمشي على قبرٍ ، ولا يقعد عليه ، ويخلع نعله ، ويسلِّم ويخاطبهم خطاب الحاضرين ، فيقول: السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين».

وفي الفقه على المذاهب الأربعة (١/ ٤٥٢): «وينبغي أن تكون الزيارة مطابقة لأحكام الشريعة ، فلا يطوف حول القبر ، ولا يقبل حجراً ، ولا عتبةً ، ولا خشباً ، ولا يطلب من المزور شيئاً ، إلى غير ذلك».

* * *

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص: (٣٩٦).

(٢) المصدر السابق ص: (٣٩٥).

جَاءَ الغِنَى الأَكْبَرُ

أخرج ابن عبد البَرِّ في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦١) من حديث عَمَّار بن الواهب ـ وكان من العاملين لله عز وجل ـ في دار الدنيا ، قال :

«رأيت مِسْكِينَةَ الطُّفَاوِيَّة في منامي ، وكانت من المواظبات على حِلَقِ الذكر .

قلت : مرحباً ، يا مِسْكينةُ؟

قالت : هيهات! ذَهَبَتْ والله! يا عمارُ المسكينةُ ، وجاء الغِنى الأكبر .

قلت : هيه؟

قالت : عما تسأل؟ عمن أتيح له الجنة بحذافيرها ، فتذهب حيث شاءت ؟

قال : قلتُ : لِمَ ذلك؟

قالت : بمجالس الذكر[1] والصبر على الفقر» اهـ .

قلت : ولحلق الذكر ومجالسه فضل عظيم ، وأجر كبير .

---

(١) الذِّكْرُ : هوالإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها والإكثار منها ، مثل الباقيات الصالحات ، وهي سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وما يلتحق بها من الحوقلة ، والبسملة ، والحسبلة ، والاستغفار ، ونحو ذلك ، والدعاء بخيري الدنيا والآخرة .
قال الحافظ في الفتح (١١/ ٢٠٩) : «ويطلق ذكر الله أيضاً ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه كتلاوة القرآن ، وقراءة الحديث ، ومدارسة العلم ، والتنفل بالصلاة . . . .» .

فقد خرج معاوية كما في صحيح مسلم (٢٧٠) على حَلْقَةٍ في المسجد، فقال: ما أَجْلَسَكُمْ؟

قالوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ.

قال: آللهِ! ما أَجْلَسَكُمْ إلاَّ ذاكَ؟

قالوا: واللهِ! مَا أَجْلَسَنَا إلاَّ ذاكَ.

قال: أَمَا إني لم أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً[١] لكم. وما كانَ أَحَدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقَلَّ عنه حديثاً مني. وإنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ خرج على حَلْقَةٍ من أصحابه، فقال: «مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قالوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ ونَحْمَدُهُ على ما هدانا للإسلامِ، ومَنَّ به علينا. قال: «آللهِ! ما أَجْلَسَكُمْ إلاَّ ذاكَ؟».

قالوا: واللهِ! ما أَجْلَسَنا إلاَّ ذاكَ.

قال: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، ولكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي؛ أَنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ يُبَاهِي بِكُمُ الملائِكَةَ»[٢].

وروى البخاري (٦٤٠٨) من حديث أبي هُرَيرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ للهِ ملائكةً يَطُوفُونَ في الطُّرُقِ يَلْتَمِسونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وَجَدُوا قَوْماً يَذْكُرون اللهَ، تَنَادَوْا[٣]: هَلُمُّوا[٤] إلى حاجتكم.

قال: فَيَحُفُّونهم[٥] بِأَجْنِحَتِهِمْ إلىٰ السماء الدنيا، قال: فيسأَلُهُمْ رَبُّهُمْ ـ عز وجل ـ وهو أعلمُ منهم: ما يقولُ عبادِي؟ قال تقولُ: يُسَبِّحونَكَ،

---

(١) (تهمة لكم): شكًّا في صدقكم. قال في النهاية: «التُّهْمَةُ: فُعْلَة، من الوهم، والتاء بدل من الواو، وقد تفتح الهاء، أي ظننتُ فيه ما نسب إليه.

(٢) (يباهي بكم الملائكة): قال الإمام النووي: «معناه يظهر فضلكم لهم، ويريهم حسن عملكم، ويثني عليكم عندهم. قال في النهاية: المباهاة: المفاخَرَةُ.

(٣) (تنادَوا): أي نادىٰ بعضهم بعضاً.

(٤) (هلموا): تَعَالوا.

(٥) (فيحفونهم): أي يطوفون بهم، ويدورون حولهم من جوانبهم.

ويكبِّرُونَكَ ، ويَحْمدونَكَ ، ويمجِّدونك[1] . قال : فيقول : هَلْ رَأَوْني؟ قال فيقولون : لا واللهِ! ما رَأَوْك . قَالَ : فيقولُ : كيفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قال : يقولونَ لو رَأَوْكَ كانوا أَشَدَّ لكَ عِبادَةَ ، وأَشَدَّ لكَ تمجيداً ، وأكثرَ لك تَسبيحاً . قال يقولُ : فما يَسْأَلُوني؟ قال : يَسألونَكَ الجَنَّة . قال : يقول : وهَل رَأَوْهَا؟ قال يقولونَ : لا ، واللهِ! يا ربِّ! ما رَأَوْهَا . قال فيقولُ : فكيفَ لو أَنَّهُمْ رَأَوْها؟ قال يقولونَ : لو أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كانوا أَشَدَّ عليها حِرْصاً ، وأَشَدَّ لها طَلَباً ، وأعظَم فيها رَغْبَةً .

قال : فَمِمَّ يَتَعوَّذُونَ؟[2] قال يقولون : مِنَ النَّارِ . قال يقول : وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قال فيقولونَ : لا واللهِ! يا ربِّ! ما رَأَوْها . قال يقولُ : فكيفَ لَوْ رَأَوْها؟ قال يقولون : لَوْ رَأَوها كانوا أَشَدَّ مِنها فِراراً ، وأَشَدَّ لها مَخافَةً .

قالَ فيقول : فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ .

قال : يقول مَلَكٌ من الملائكةِ : فيهم فُلانٌ لَيْسَ منهم؛ إنَّما جَاء لحاجةٍ ، قال : هُمُ الجُلَساءُ لاَ يَشْقىٰ جَلِيْسُهُمْ .

وفي رواية لمسلم (٢٦٨٩) عن أبي هُرَيرةَ عن النبي ﷺ ، قال : «إنَّ للهِ تباركَ وتعالى مَلائكةً سَيَّارةً[3] ، فُضُلاً[4] ، يَتَبَّعُون[5] مجالس الذكر ، فإذا وَجَدُوا مَجْلِساً فيه ذِكْرٌ ، قَعَدُوا معهم ، وحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِأَجْنِحَتِهِمْ ، حَتَّى يَمْلَؤُوا ما بينهم وبينَ السَّماء الدُّنيا ، فإذا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا[6] وصَعِدوا إلى السماء .

---

(١) (يمجدونك) : التمجيد : التعظيم ، والمجيد : الشريف العظيم (جامع الأصول : ٤/ ٤٧١) .
(٢) (يتعوَّذون) : يستجيرون ويحتمون .
(٣) (سَيَّارة) : معناه سيَّاحون في الأرض .
(٤) (فُضُلاً) : أي زيادةً ، فاضلاً عن الملائكة المرتبين مع الخلائق (جامع الأصول : ٤/ ٤٧١) .
(٥) (يتَبَّعُون) : أي يَتَتَبَّعُون ، من التتبع ، وهوالبحث عن الشيء والتفتيش . والوجه الثاني : يبتغون ، من الابتغاء ، وهو الطلب . قال النوي : وكلاهما صحيح .
(٦) (عَرَجوا) : عرج يَعْرجُ : إذ صَعِدَ إلى فوقُ (جامع الأصول : ٤/ ٤٧١) .

قال: فيسألُهُمُ اللهُ ـ عز وجل ـ وهو أَعْلَمُ بهم: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟

فيقولونَ: جِئْنا مِنْ عِنْدِ عِبادٍ لك في الأَرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ، ويُكَبِّرونَكَ، ويُهَلِّلونَكَ، ويَحْمَدُونَكَ، ويَسْأَلُونَكَ.

قال: وماذا يَسْأَلُوني؟

قالوا: يَسْأَلونكَ جَنَّتَكَ.

قال: وهل رَأَوْا جَنَّتِي؟

قالوا: لا. أَي رَبِّ!

قال: فكيفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟

قالوا: وَيَسْتَجِيْرُونَكَ[1].

قال: ومِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟

قالوا: مِنْ نَارِكَ. يا رَبِّ!

قال: وهل رَأَوْا نَارِي؟

قالو: لا.

قال: فكيفَ لو رَأَوْا نَارِي؟

قالوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ.

قال فيقول: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَألوا، وأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَاروا.

قال فيقولون: رَبِّ! فيهم فلانٌ. عَبْدٌ خَطَّاءٌ؛ إنَّما جَلَسَ مَعَهُمْ.

قال فيقولُ: ولهُ غَفَرْتُ. هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيْسُهُمْ».

وفي هذا الحديث العظيم من الفوائد كما في الفتح (١١/ ٢١٣):

* فضل مجالس الذكر والذاكرين.

---

(١) (يستجيرونك): الاستجارة: طلب الجِوارِ، والإجارة، الحماية والدفاع والمنعة عن الإنسان (جامع الأصول: ٤/ ٤٧١).

* وفضل الاجتماع على ذلك.

* وأن جليسهم يندرج معهم في جميع ما يتفضل الله ـ تعالى ـ به عليهم ، إكْراماً لهم ، ولو لم يشاركهم في أصل الذكر.

* وفيه محبة الملائكة بني آدم واعتناؤهم به.

* وفيه أن السؤال قد يصدر من السائل ، وهو أعلم بالمسؤول عنه من المسؤول ، لإظهار العناية بالمسؤول عنه ، والتنويه بِقَدْره ، والإعلان بشرف منزلته.

* وقيل: إنه يؤخذ من هذا الحديث أن الذكر الحاصل من بني آدم أعلى وأشرف من الذكر الحاصل من الملائكة ، لحصول ذكر الآدميين ، مع كثرة الشواغل ، ووجود الصوارف ، وصدوره في عالم الغيب ، بخلاف الملائكة في ذلك كله.

* وفيه بيان كذب من ادَّعى من الزنادقة أنه يرى الله ـ تعالى ـ جهراً في دار الدنيا ، وقد ثَبَتَ في صحيح مسلم من حديث أبي أُمامةَ رفعهُ: واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا.

* وفيه جواز القَسَمِ في الأمر المحقق تأكيداً له وتنويهاً به.

* وفيه أن الذي اشتملت عليه الجنة من أنواع الخيرات ، والنار من أنواع المكروهات فوق ما وصفنا به.

* وأن الرغبة والطلب من الله ، والمبالغة في ذلك من أسباب الحصول.

* * *

اللهمَّ ارْزُقْ بِنْتي مِثْلَ الَّذي رَدَّ العِقْدَ عَلَيَّ

عَليُّ بن عَقِيل البغدادي الظَّفَرِيُّ[١] ، أبو الوَفَاءِ ، ويعرف بابن عَقِيل : عالم العراق ، وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته .

كان إماماً مبرزاً ، كثير العلوم ، خارق الذكاء ، مُكِبًّا على الاشتغال والتَّصْنيف ، عديم النظير ، حافظاً للقرآن الكريم ، قارئاً بالقراءات والروايات ، ديِّناً ، حافظاً للحدود ، لا يضيع لحظة من عمره .

قال ابن الجوزي : كان كريماً ينفق ما يجد ، فلم يخلف سوى كتبه ، وثياب بدنه ، وكانت بمقدار كفنه ، وأداء دَيْنِهِ .

وقال السِّلَفيُّ: ما رأيت مثله. وما كان أحد يقدر أن يتكلم معه لغزارة علمه ، وبلاغة كلامه ، وقوة حجته . توفي في جُمادى الأولى سنة (٥١٣ هـ = ١١١٩ م) وله ثلاث وثمانون سنة[٢] .

وكان رحمه الله بارعاً في الفقه وأصوله ، له في ذلك استنباطات عظيمة حسنة ، وتحريرات كثيرة مستحسنة ، وله تصانيف كثيرة في أنواع العلم . وأكبر تصانيفه كتاب «الفُنون»[٣] .

---

(١) منسوب إلى الظَّفَرِيَّة . قال ياقوت في معجم البلدان (٤/ ٦١): «مَحلَّةٌ بشرقي بغداد كبيرة . . . .» .

(٢) شذرات الذهب (٣/ ٣٥) .

(٣) طبع منه جزء في دار المشرق في لبنان سنة (١٩٦٩)م .

قال الذهبي في السير (١٩/ ٤٤٥): «وهو أزيد من أربع مئة مجلد. حَشَدَ فيه كل ما كان يجري له مع الفضلاء والتلامذة، وما يَسْنَحُ له من الدقائق والغوامضِ، وما يسمعه من العجائب والحوادث».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في «ذيل طبقات الحنابلة»: هو كتاب كبير جدّاً، فيه فوائد كثيرة جليلة، في الوعظ، والتفسير، والفقه، والأَصْلَيْنِ، والنحو، واللغة، والشعر، والتاريخ، والحكايات، وفيه مناظراته، ومَجالسُهُ التي وقعت له، وخواطره، ونتائج فكره، قَيَّدها فيه».

قال ابن عقيل: عصمني الله في شبابي بأنواع من العصمة، وقَصَرَ محبتي على العلم، وما خالطتُ لعَّاباً قطُّ، ولا عاشَرْتُ إلاَّ أمثالي من طلبة العلم، وأنا في عشر الثمانين أجد من الحرص على العلم أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين، وبلغتُ لاثنتي عشرة سنة، وأنا اليوم لا أرى نقصاً في الخاطر، والفكر والحفظ، وحدَّة النظر بالعين لرؤية الأهلَّةِ الخفية إلاَّ أن القوة ضعيفة[1].

وقال أيضاً: عانيتُ من الفقر والنسخ بالأجرة، مع عِفَّةٍ، وتُقَى، ولم أزاحم فقيهاً في حلقه، ولا تطلب نفسي رتبة من رتب أهل العلم القاطعة عن الفائدة، وأوذيت من أصحابي، حتى طُلب الدمُ، وأوذيت في دولة النظام بالطلب والحبس[2].

ومن طريف ما جرى لابن عقيل ما حكاه أبو المُظَفَّر سِبْطُ ابن الجوزي عن ابن عقيل، قال: حججتُ، فالتقطتُ عِقْدَ[3] لؤلؤ في خَيْطٍ أحمر، فإذا شيخ أعمى ينشده، ويبذل لملتقطه مئة دينار، فرددته عليه، فقال: خذ الدنانير، فامتنعْتُ، وخرجتُ إلى الشام، وزرتُ القدسَ وقصدت بغداد، فأويتُ بحلب إلى مسجد، وأنا بَرْدَانُ جائعٌ، فقدَّموني، فصليتُ بهم، فأطعموني،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٦).

(٢) المصدر السابق (١٩/ ٤٤٨).

(٣) (العِقْدُ): خيط يُنْظَمُ فيه الخَرَزُ ونَحْوهُ يحيط بالعنق (الوسيط).

وكان أول رمضان ، فقالوا: إمامُنا توفي ، فَصَلِّ بنا هذا الشهر ، ففعلتُ ، فقالوا: لإمامنا بنتٌ ، فزُوِّجْتُ بها ، فأقمت معها سنةً ، وأَوْلَدْتُها ولداً ذكراً ، فمرضَتْ في نِفاسها ، فتأمَّلْتُها يوماً ، فإذا في عنقها العِقْدُ بعينه بخيطه الأحمر ، فقلتُ لها: لهذا قصةٌ ، وحكيت لها ، فبكت ، وقالت: أنتَ هو ، والله! لقد كان أبي يبكي ، ويقول: اللَّهُمَّ! ارزق بنتي مثل الذي رَدَّ العِقْدَ عليَّ ، وقد استجاب الله منه ، ثم ماتت ، فأخذت العِقْدَ والميراث ، وعُدْتُ إلى بغدادَ[1].

* * *

---

(1) انظر مرآة الزمان (٨/ ٥٢ ـ ٥٣).

نِسَاءُ دمشقَ يَتَبَرَّعْنَ بِشُعُورِهِنَّ لِتُصْنَعَ منها شُكُلٌ[1] لِخَيْلِ الجهادِ

يقول العلامة محمد كُرْدُ علي في «غوطة دمشق» ص: (١١٧):

«لما ضاق الملك العادل أبو بكر بن أيوب[2] ذَرعاً بحرب الصليبيين، ورأى فتور الناس في جهادهم، تقدَّم إلى سِبْطِ ابن الجوزي الواعظِ العظيم، أَنْ يحثَّ المسلمين على قتال الصليبيين، فدبَّر هذا مع بعض أهل دمشقَ طريقة لطيفة لتحريك النفوس، وذلك بأن جَزَّ نساءُ دمشق شعورَهُنَّ، وحمله ثلاث مئةِ رجلٍ إلى المسجد الجامع، وقت صلاة الجمعة، والخطيب على المنبر، والحمَّالون ينادون: أن نساء دمشق قَدَّمن شعورهن لتعمل منها شكالات لخيل الجهاد، فَضَجَّ الناس بالبكاء، وانقلبوا من ساعتهم إلى ساحات الوغىٰ، يدفعون الإفرنج عن أرضهم.

قال المؤرخون: إنَّ قرية زَمَلْكا ـ وحدها ـ قَدَّمَتْ ألف فارس لهذه الغاية، ونجح الملك العادل بالتحريض على الجهاد من طريق الواعظ الكبير».

* * *

(١) (شُكُل): جمع شِكالٍ، وهوالعِقالُ.

(٢) هو محمد بن أيوب، أخو صلاح الدين الأيوبي. من كبار سلاطين الدولةالأيوبية. ولد في دمشق وقيل: في بعلبك سنة (٥٤٠)هـ كان مَلكاً عظيماً، حنكته التجارب، حازماً، داهيةً، حسن السيرة، محباً للعلماء. مات بـ «عالقين» من قرى محافظة درعا سنة (٦١٥)هـ، ودفن في مدرسته المعروفة في دمشق إلى اليوم بالعادلية، وهي المتخذة داراً للمجمع العلمي. انظر ترجمته في الأعلام (٦/ ٤٧).

اللهُ لا تَخفَى عَلَيْهِ خَافِيَهْ

الشَّلبيَّةُ الأَنْدَلُسِيَّةُ (كما في أعلام النساء: ٢/٣٠٣) شاعرةٌ ناثرةٌ ، من شَواعر الأندلس ، كتبت إلىٰ السلطان أبي يوسف: يعقوب بن يوسف المنصور تتظلَّمُ[1] من وُلاةِ بلدها ، وصاحِب خَراجها:

قَـدْ آنَ أَنْ تَبكـي العيـونُ الآبِيَـهْ ... وَلَقَـدْ أَرَى أَنَّ الحِجَـارَة بَـاكِيَـهْ

يا قَاصِدَ المِصْرِ الَّذي يُرْجَىٰ بِهِ ... إنْ قَـدَّرَ الـرَّحْمَـنُ رَفْـعَ كَـرَاهِيَـهْ

نَـاد الأَمِيْـرَ إذا وَقَفْـتَ بِبَـابِـهِ ... يـا رَاعيـاً! إنَّ الـرَّعِيَّـةَ فَـانِيَـهْ

أَرْسَلْتَهـا هَمَـلاً[2] وَلاَ مَـرْعَـىٰ لَهـا ... وتَـرَكْتَهـا نَهْـبَ السِّبَـاع العَـادِيَـهْ

سَلْـبٌ تَـلا سَلْبـاً ، وكـانَـتْ جَنَّـةً ... فَـأَعَـادَهَـا الطَّـاغُـونَ نَـاراً حَـامِيَـهْ

خَـافـوا ومـا خَـافـوا عُقُـوبَـةَ رَبِّهِـمْ ... واللهُ لا تَخْفَـىٰ عَلَيْـهِ خَـافِيَـهْ

ثم أَلْقَتْ رسالَتها يوم جمعة من الجمعات على مُصَلَّى المنصور. فلما قضى الصلاة ، وتَصَفَّحها ، بحث عن القَضِيَّة ، فَوَقَفَ على حقيقتها ، وأمر للشَّلبِيَّة المذكورة بِصِلَةٍ[3].

وكان هذا السلطان من ملوك الدولة المؤمنية في المغرب الأقصى ، ومن أعظمهم آثاراً ، ولد بقصر جَدِّهِ: عبد المؤمن ، بِمَرَّاكُش سنة (٥٥٤)هـ ،

---

(١) (تتظلَّمُ): تشكو الظُّلْمَ (الوسيط).

(٢) (هَمَلاً): الهمل: المُهمل المتروك ليلاً ونهاراً بلا رعايةولا عناية (الوسيط).

(٣) (بصلة): بجائزة وعطاء.

وبويع له بعد وفاة أبيه سنة (٥٨٠)هـ ووجَّه عنايته إلى الإصلاح ، ورَفَعَ راية الجهادِ ، ونصب ميزان العدل ، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ، ونظر في أمور الدين والورع ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأقام الحدودَ حتى في أهله ، وعشيرته الأقربين ، كما أقامها في سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال في أيامه ، وعظمت الفتوحات.

وكان ملكاً جواداً ، عادلاً ، متمسكاً بالشرع المطهر ، محسناً ، محباً للعلماء ، مقرباً للأدباء ، مصغياً إلى المدح ، مثيباً عليه ، يصلي بالناس الصلوات الخمس ، ويلبس الصوف ، ويقف للمرأة وللضعيف ، ويأخذ لهم بالحق ، وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر ، وقتل العمال الذين تشكو الرعايا منهم.

وكان يجيد حفظ القرآن ، ويحفظ الحديث ، ويتكلم في الفقه ، ويناظره ويجمع الزكاة ، ويُفَرِّقها بنفسه ، وعمل مكتباً للأيتام ، فيه نحو ألف صبيٍّ ، وعَشَرَةٌ مُعَلِّمون.

وكان يعاقب على ترك الصلاة ، ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها ، فمن غفل عنها ، أو اشتغل بمعيشته عَزَّره تعزيراً بليغاً.

قال الذهبي في السير (٢١/ ٣١٢): «كان تامَّ القامة ، أسمرَ ، صافياً ، جميلَ الصورةِ ، أَعْيَنَ[١] ، أَفْوَهَ[٢] ، أَقْنَى[٣] ، أَكحَلَ[٤] ، سميناً ، مستديرَ اللحية ، جهوريَّ الصوت[٥] ، جَزْلَ العِبَارَةِ ، صادقَ اللهجة ، فارساً ، شجاعاً ، قويَّ الفراسة ، خبيراً بالأمور ، خليقاً للإمارة[٦] ، ينطوي على

---

(١) (أَعْيَنَ): واسع العَيْنِ.

(٢) (أَفْوَهَ): واسع الفم.

(٣) (أقنى): القنا في الأنف: طوله ورقة أرنبته مع حَدَبٍ في وسطه (النهاية).

(٤) (أكحل): رجُلٌ أكحلُ: منابت أجفانه سودٌ كأن فيها كُحلاً ، وهو خِلقة (جامع الأصول): ١٠/ ٧٢٠).

(٥) (جهوري الصوت): أي شديد عالٍ.

(٦) (خليقاً للإمارة): أي جديراً بها.

دينٍ ، وخيرٍ ، وتَألُّهٍ ، ورَزانةٍ. عمل الوزارة لأبيه ، وخبر الخير والشرَّ ، وكشف أحوال الدواوين».

من بطولاته النادرة ، وجهاده العظيم ، ومواقِفِهِ الفَذَّة قتالُهُ الأَذْفُونْش[١] الإفرنجي ، صاحب غرب جزيرة الأندلس.

قال القاضي ابن خَلِّكان في وَفَيات الأعيان (٧/ ٤ ـ ٧):

«وفي سنة ست وثمانين ـ أي وخمس مئة ـ بلغه أن الفرنج ملكوا مدينة شِلْب ، وهي في غرب جزيرة الأندلس[٢] ، فتجهز إليها بنفسه ، وحاصرها وأخذها ، وأنفذ في الوقت جيشاً من المُوَحِّدين ، ومعه جماعة من العرب ، ففتحوا أربع مدن من بلاد الفرنج ، كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة. وخافه صاحب طُلَيْطُلَةَ ، وسأله الصلح ، فصالحه خمس سنين وعاد إلى مَرَّاكُشَ.

فلما انقضت الهدنة ، ولم يبق منها سوى القليل ، خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين ، فنهبوا ، وسَبوا ، وعاثوا[٣] عيثاً فظيعاً ، فانتهى الخبر إلى الأمير يعقوب وهو بمرَّاكُشَ ، فتجهز لقصدهم في جَحْفَلٍ عَرَمْرَمٍ[٤] من قبائل المُوحِّدين والعرب ، واحتفل[٥] وجاز إلى الأندلس ، وذلك في سنة إحدى وتسعين وخمس مئة ، فعلم الفرنج به ، فجمعوا خلقاً كثيراً من أقاصي البلاد وأدانيها ، وأقبلوا نحوه.

قلت: ـ القائل ابن خَلِّكان ـ: ورأيت بدمشق في أواخر سنة ثمان وستين وست مئة جزءاً بخط الشيخ تاج الدين: عبد الله بن حمويه شيخ الشيوخ كان بها ، وكان قد سافر إلى مَرَّاكُشَ ، وأقام بها مدة ، وكتب فصولاً تتعلق بتلك

---

(١) ويكتب: «أَلْفُنش» أيضاً ، وهو ألفونس الثامن ملك قشتالة.

(٢) (الأندلس): إسبانيه اليوم.

(٣) (عاثوا): أفسدوا.

(٤) (جحفل عرمرم): جيش كثير شديد.

(٥) أي اجتمع الجيش.

الدولة ، فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الوقعة ، فينبغي ذكره ها هنا ، فقال: لما انقضت الهدنة بين الأمير أبي يوسف: يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن. صاحب المملكة الغربية ، وبين الأَذْفُونْش الفرنجي ، صاحب غَرب جزيرة الأندلس ، وقاعِدَةُ مملكته[1] يومئذ طُلَيْطُلَة ، وذلك في أواخر سنة تسعين وخمس مئة ، عزم الأمير يعقوب ـ وهو حينئذ بَمَراكُش ـ على التوجه إلى جزيرة الأندلس لمحاربة الفرنج ، وكتب إلى وُلاة الأطراف وقواد الجيوش بالحضور ، وخرج إلى مدينة سَلا ليكون اجتماع العساكر بظاهرها ، فاتفق أنه مَرِضَ مَرَضاً شديداً حتى أَيِسَ منه أطبَّاؤُهُ ، فتوقف الحال عن تدبير ذلك الجيش ، فَحُمِلَ الأميرُ يعقوبُ إلى مَرَّاكُش ، فطمع المجاورونَ لهم من العرب وغيرهم في البلاد ، وعاثوا فيها[2] ، وأغاروا على النواحي والأطراف ، وكذلك فعل الأَذْفُونْش فيما يليه من بلاد المسلمين بالأندلس.

واقتضى الحالُ تفرقة جيوش الأمير يعقوب شرقاً وغرباً ، واشتغلوا بالمُدافعة والمُمانَعَة ، فكثر طمع الأَذْفُونْش في البلاد ، وبعث رسولاً إلى الأمير يعقوب يتهدَّدُ ويتوعَّدُ ، ويطلب بَعْضَ الحصونِ المتاخمة له من بلاد الأندلس ، وكتب إليه رسالة من إنشاء وزير له يعرف بابن الفخار ، وهي:

باسمك اللهم! فاطرَ السماواتِ والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح ، روح الله ، وكلمته الرسول الفصيح ، أما بعد: فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقبٍ ، ولا ذي عقل لازب[3] ، أنَّكَ أميرُ المِلَّةِ الحَنيفيَّة ، كما أَنِّي أميرُ المِلَّةِ النَّصْرانية.

وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس[4] من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية ، وإخلادهم إلى الراحة ، وأنا أَسُومُهُمْ بحكم القهر وجلاء

---

(١) أي عاصمة دولته.
(٢) (عاثوا): أفسدوا.
(٣) (لازب): ثابت.
(٤) أي من المسلمين.

الديار ، وأَسْبِي الذَّراري ، وأُمَثِّلُ بالرجال ، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أَمْكَنَتْكَ يَدُ القُدْرة ، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عَشَرَةٍ منا بواحدٍ منكم ، فالآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فيكم ضَعْفاً.

ونحن الآن نقاتل عَشَرَةً منكم بواحدٍ منا ، لا تستطيعون دفاعاً ، ولا تملكون امتناعاً.

وقد حكي لي عنك؛ أنَّكَ أَخَذْتَ في الاحتفال[1] ، وأشرفت على رَبْوَةِ القتال ، وتُمَاطِلُ نَفْسَكَ ، عاماً بعد عام. تُقَدِّمُ رِجْلاً وتُؤَخِّرُ أخرى ، فلا أَدْري: أكان الجُبْنُ أَبْطَأَ بِكَ أَمِ التكذيبُ بما وعد ربُّكَ؟

ثم قيل لي: إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لِعِلَّةٍ لا يسوغ لك التقحم معها ، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك ، وأعتذر لك وعنك ، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان ، وترسل إليَّ جُمْلَةً من عبيدك بالمراكب ، والشَّواني[2] ، والطَّرائد[3] والمسطحات ، وأجوز بحملتي إليك ، وأقاتلك في أَعَزِّ الأماكن لديك؛ فإن كانت لكَ فغنيمةٌ كبيرةٌ ، جُلِبَتْ إليكَ ، وهديةٌ عظيمة مَثُلَتْ بين يديكَ.

وإنْ كانتْ لي ، كانتْ يَدِي العُلْيا عليكَ ، واستحقيت إمارَةَ المِلَّتَيْنِ ، والحكم على البرين. والله تعالى يوفق للسعادة ، ويسهل للإرادة ، لا رَبَّ غيره ، ولا خير إلاَّ خيرُهُ ، إن شاء الله تعالى.

فلمَّا وصل كتابه إلى الأمير يعقوب ، مَزَّقه ، وكتب على ظهرِ قِطْعَةٍ منه: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٧] الجواب: ما تَرَىٰ لا ما تَسْمَعُ [الطويل]:

وَلا كُتْبَ إلاَّ المَشْرَفِيَّةُ عِنْدَهُ ... ولا رُسُلٌ إلاَّ الخَمِيْسُ العَرَمْرَمُ[4]

---

(١) أي بدأت بتجميع الجيوش استعداداً للقتال.

(٢) (الشَّواني): جمع شَوْنَةٍ ، وهي سفينة حربية قديمة (الوسيط).

(٣) (الطرائد): السفن الصغيرة.

(٤) بيت من قصيدة للمتنبي يمدح فيها سيف الدولة الحمداني ، وهو في ديوانه ص: =

ثم أمر بكتب الاستنفار ، واستدعى الجيوش من الأمصار ، وضرب السرادقات بظاهر البلد من يومه وجمع العساكر ، وسار إلى البحر المعروف بِزُقاق سَبْتَةَ[1] ، فعبر فيه إلى الأندلس ، وسار إلى أن دخل بلادالفرنج ، وقد أَعْتَدُوا[2] واحتشدوا وتَأَهَّبُوا ، فكسرهم كسرة شنيعةً ، وذلك في سنة اثنتين وتسعين وخمس مئة».

قال ابن الأثير: قتل من العدو مئة ألف وستة وأربعون ألفاً ، ومن المسلمين عشرون ألفاً.

وقال الذهبي في السير (٢١/ ٣١٩): «فقيل: غنموا ستين ألف زردية».

قال ابن خلكان في وفيات الأعيان (٧/ ٩ ـ ١٠): «وبعد هذا اختلفت الروايات في أمره ، فمن الناس من يقول: إنه ترك ما كان فيه ، وتجرد وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد الشرق ، وهو مستخفٍ لا يعرف ، ومات خاملاً.

ومنهم من يقول: إنه لما رجع إلى مَرَّاكُشَ توفي في غرة جمادى الأولى. وقيل: في شهر ربيع الآخر في سابع عشره. وقيل: في غرة صفر ، سنة خمس وتسعين وخمس مئة بمَرَّاكُش. وقيل: إنه مات بمدينة سَلا ، والله أعلم».

= (٣٠٢). وجاء هذا البيت في سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٨) هكذا:

ولا كُتْبَ إلاَّ المشرفيَّةُ عندنا ولا رُسْلَ إلاَّ للخميسِ العرمرمِ

(المَشْرَفِيَّة): سيوفٌ تجلب من المشارف ، منسوبة إليها. (الخميس): الجيش الجرَّار؛ سمي بذلك لأنه خمس فرق: المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والساقة. (العرمرم): الكثير الشديد.

(١) أي مضيق جبل طارق. وسَبْتَةُ: مدينة ساحلية مشهورة ، تقع شمال غرب المملكة المغربية ، في مضيق جبل طارق ، حيث يلتقي البحر المتوسط مع المحيط الأطلسي ، وقد دخل أهلها في الإسلام طوعاً سنة (٩٢)هـ ، وخَصَّها القاضي عياض بكتاب سماه: «الفنون الستة في أخبار سَبْتَةَ»: وهي الآن مثل: «مَلِيْلَةَ» تقع تحت الاحتلال الإسباني.

(٢) (أَعْتَدُوا): أي أَعَدُّوا وهيَّؤوا قوتهم للنزال.

أيْنَ مَكُوْكِبُها؟

خرج أعرابي بالليل ، فإذا بجارية جميلة ، فراودها ، فقالت : أمالكَ زاجرٌ من عقلكَ ، إذ لم يكن لك واعظٌ من دِيْنِكَ؟

فقال : والله! ما يرانا إلا الكواكبُ .

فقالت له : يا هذا! وأين مُكَوْكِبُها؟ فَأَخْجَلَهُ كلامُها .

فقال لها : إنما كنت مازحاً .

فقالت :

فإيَّاكَ إيَّاكَ المِزاحَ فإنَّهُ يُجَرِّي[1] عَلَيْكَ الطِّفْلَ والرَّجُلَ النَّذْلا[2]
ويُذْهِبُ مَاءَ الوَجْهِ بَعْدَ بَهَائِهِ ويُورِثُ بَعْدَ العِزِّ صَاحِبَهُ ذُلَّا

كذا في المُستطرف في كل فنٍّ مُسْتَظْرف للأَبْشيهي (٢/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤) .

* * *

---

(١) (يُجَرِّي) : أي يُجَرِّىء .

(٢) (النَّذْلا) : أي السَّافِل الحقير الخسيس .

اللَّيْلَة عِبادَتي نَاقِصَةٌ

عائِشَةُ بنت عمران بن سليمان المنوبي ، من فواضل نساء عصرها ، ولدت بمنوبة[1] فنشأت في حَجْرِ أَبيها ، فاعتنىٰ بتربيتها ، فعلَّمها القرآن الكريم ، فأتقنت حفظه ، ثم عكفت على الزهد والصلاح ، وكانت تغزل الصوفَ ، وتقتات من مورده .

ومن مناقبها : أنها ختمت في حياتها القُرآنَ العظيم ألفاً وخمس مئة وعشرين مَرَّةً .

وكانت تَبَرُّ الفقراء والمساكين ، وتسد عوز المحتاجين ؛ فكانت لا تدخر شيئاً من كسبها .

روي عنها : أنها كانت تقول إذا بات بجيبها درهمٌ ، ولم تتصدق به : الليلة عبادتي ناقصة .

ومن كلامها : لا خير في ذكر اللسان ما لم يكن القلبُ حاضراً .

وقالت لما حَضَرَتْها الوفاةُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وتوفيت يوم الجمعة في (٢١) رجب سنة (٦٦٥)هـ عن عمر ناهزَ السادسة والسابعين ، وحضر جنازتها أكثر علماء تونس ، ودفنت بروضة القرجاني خارج شَرَف المركاض[2] .

---

(١) قرية من قُرىٰ مدينة تونس .

(٢) أعلام النساء (٣/ ١٨٣ ـ ١٨٤) نقلاً عن كتاب شهيرات التونسيات لحسن حسني عبد الوهَّاب .

ماذا أَصْنَعُ إِذا كَانَ القُرْآنُ أَقْوىٰ مِنْ فرنسة؟

من أهداف الصليبية العالمية واليهودية العالمية القضاء على الإسلام ، والقرآن الكريم ، ومحوه؛ لأنهما تعتبران الإسلام والقرآن المصدر الأساسي لقوة العرب والمسلمين ، وعودتهم إلى سالف عزهم ، وغابر مجدهم وحضارتهم. والدلائل على ذلك واضحة لكل ذي لُبٍّ ، وضوحَ الشمس في رابعة النهار.

* وقف وزير المستعمرات البريطاني «غلادستون» عام (١٨٩٥)م يقول لزملائه في مجلس العموم البريطاني ، وقد أمسك بنسخة من القرآن في يده:

«لن تحقق بريطانيا شيئاً من غاياتها في العرب والمسلمين إلاَّ إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب أولاً . . .

أخرجوا سِرَّ هذاالكتاب مما بينهم ، تَتَحَطَّمْ أمامكم جميعُ السدود».

وقال أيضاً: «ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين ، فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»[1].

* وقال رئيس وزراء إسرائيل السابق ابن غوريون عام ١٩٧٢ : «نحن لا نخشى الثوريَّات ، ولا الديمقراطيات ، ولا الاشتراكيات في هذه المنطقة.

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص: (٣٩).

نحن نخشى الإسلام فقط ، هذا العِملاق الذي طالَ نَومُهُ ، ثم بدأ يتململ من جديد»[١].

* وقال جَزَّار (قانا) الإرهابي شمعون بيريز عام (١٩٧٨)م: «لا يمكن أن يقوم السلام في هذه المنطقة ما دام الإسلام شاهراً سيفه.

ولن نطمئن إلى مستقبلنا إلاَّ إذا عاد السيف إلىٰ غِمْدِهِ إلى الأبد»[٢].

* ويقول المبشر الصليبي «وليم جيفورد بالكراف»: «متى توارىٰ القرآن، ومدينة مكة[٣] عن بلاد العرب، يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية ، بعيداًعن محمدٍ وكتابه»[٤].

* ويقول المبشر الحقود «كاتلي»: يجب أن نستخدم القرآن ـ وهو أمضى سلاحٍ في الإسلام ـ ضِدَّ الإسلام نفسه ، حتى نقضي عليه تماماً.

---

(١) نقاط على حروف في الصراع العربي الصهيوني ص: (٦٨) للدكتور إبراهيم يحيىالشهابي.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في شهر آذار عام (٢٠٠٢)م نشرت مجلة انترناشيونال مقالاً للصحفي ريتش لوري يقترح فيه ضرب مكة المكرمة بالقنبلة النووية ، انتقاماً من الإسلام والمسلمين على هجوم (١١) أيلول عام (٢٠٠١)م على نيويورك والبنتاغون.
يقول الدكتور خالد عبد الله تقي (اختصاصي أمراض داخلية ، ولديه عيادة خاصة في مدينة ميامي ـ فلوريدا ـ الولايات المتحدة الأمريكية): «وكان الرد الإلهي سريعاً ، حيث كما أخبرني قبل لحظات [أي يوم الأربعاء (٢٧) آذار (٢٠٠٢)م] صديقي الذي يعمل في مشفى أوهايو الطبي؛ أنَّ هذا الصحفي قد نقل مساء أمسِ إلى مشفاهم ، وهو مصابٌ بشلل كامل ، وهو يرقد حاليّاً في غرفةالعناية الفائقة ، ووضعه الصحي يسير نحو الأسوأ» اهـ.
وصدق الله حيث يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ وكُلُّ مَنْ تسوِّل له نفسه مَسَّ الكعبة بسوء ـ لا شك ـ سيكونُ عصفاً مأكولاً.

(٤) تربية الأولاد في الإسلام ص (٨٠٠) نقلاً عن جذور البلاء ص (٢٠١).

يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديداً ، وأن الجديد ليس صحيحاً»[١] .

* ويقول الحاكم الفرنسي للجزائر بمناسبة مرور مئة عام على احتلالها : «يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم ، حتى ننتصر عليهم»[٢] .

وقد أثار هذاالمعنى حادثة طريفة جرت في فرنسا ، وهي أنها من أجل القضاء على القرآن في نفوس شباب الجزائر ، قامت بتجربة عملية. قامت بانتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات ، أدخلتهن الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية ، وألبستهن الثياب الفرنسية ، ولقَّنَتْهُنَّ الثقافة الفرنسية ، وعَلَّمَتْهُنَّ الثقافة الفرنسية ، فأصبحن كالفرنسيات تماماً.

وبعد أحد عشر عاماً من الجهود ، هَيَّأَتْ لهنَّ حفلة تخريج رائعة ، دُعي إليها الوزراء والمفكرون والصحفيون. . . .

ولمَّا ابتدأت الحفلة ، فوجىء الجميعُ بالفتيات الجزائريات ، يدخلن بلباسهن الإسلامي الجزائري.

فثارت ثائرة الصحف الفرنسية ، وتساءلت : ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مئة وثمانية وعشرين عاماً[٣] ؟!

أجاب «لاكوست» وزير المستعمرات الفرنسي : «وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوىٰ من فرنسا؟!»[٤] .

* * *

(١) التبشير والاستعمار ص : (٤٠) تأليف الأستاذين خالدي وفرُّوخ.
(٢) المنار : العدد (٩ ـ ١١) لعام ١٩٦٢م.
(٣) احتلت فرنسة الجزائر في صباح (٥) تموز عام (١٨٣٠)م.
(٤) تربية الأولاد في الإسلام ص : (٨٠١) نقلاً عن جريدة الأيام عدد : (٧٧٨٠) عام (١٩٦٢).

قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً

روى البخاري في التفسير (٤٧٥٩) باب: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ» عن صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ؛ أَنَّ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ كانت تقول: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[١] [النور: ٣١] أخذن أُزُرَهُنَّ[٢] فَشَقَقْنَهَا مِنْ قبلِ الحَواشي، فَاخْتَمَرْنَ بها[٣].

وفي رواية لابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٨٤ ـ عن صفيةَ أيضاً قالت: بينا نحن عند عائشة قالت: فذكرن نساء قريشٍ، وفضْلَهُنَّ.

فقالت عائشة: «إنَّ لنساءِ قُرَيْشٍ لَفَضْلاً. وإنِّي والله! ما رأيت أفْضَلَ من نساء الأنصار، أَشَدَّ تصديقاً لكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل.

لقد أُنْزِلَتْ سورةُ النُّور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] انقلب رجالُهُنَّ إليهنَّ يَتْلون عَلَيْهِنَّ ما أَنْزَل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأتِهِ،

---

(١) (الجيب): فتحة الصدر.

(٢) الأُزُرُ: جمع إزار، وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن، يذكر ويؤنث (الوسيط).

(٣) (فاختمرن بها): أي غطين وجوههن؛ وصفة ذلك أن تضع الخِمارَ على رأسها وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر، وهو التَّقَنُّعُ. قال الفَرَّاءُ: كانوا في الجاهلية تسدل المرأة خمارها من ورائها، وتكشف ما قدامها، فأمرت بالاستتار، والخمار للمرأة كالعمامة للرجل (الفتح: ٨/ ٤٩٠).

وبنتِهِ ، وأختِهِ ، وعلى كل ذي قرابَتِهِ . فما منهنَّ امرأةٌ إلا قامت إلى مِرْطها[1] ، فَاعْتَجَرَتْ به[2] . تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله ـ ﷺ ـ مُعْتَجِرَاتٍ كأنَّ على رؤوسهن الغِربانَ ، وسكت عنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٤٩٠) فهو عنده صحيح أو حسن .

وروى البخاري (٤٧٥٨) من حديث عائشة رضي الله عنها ـ قالت : «يرحم اللهُ نِساءَ المُهاجِرَاتِ[3] الأُوَلَ[4] ، لمَّا أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١] شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ ، فَاخْتَمَرْنَ بِها» .

قال الحافظ في «الفتح» : «وهذا يقتضي أن الذي صنع ذلك نِساءُ المهاجرات . . . . ويمكن الجمع بين الروايتين بأن نساء الأنصار بادَرْنَ إلى ذلك» .

قال الدكتور الهاشمي في شخصية المرأة المسلمة ص (٥٤) : «رحم الله نساء المهاجرين والأنصار . ما أقوى إيمانَهُنَّ ! وما أصدق إسلامَهُنَّ ! وما أجمل انصياعَهُنَّ للحق حين نزوله !

وإنَّ كل مؤمنة بالله ورسوله حقَّ الإيمان ، لا يسعها إلا أن تتأسَّى بهؤلاء الفُضْلَيات من النساء ، فتلزم نَفْسَهاالزِّيَّ الإسلاميَّ المتميِّز ، غير عابِئَةٍ بما يحيط بها من عُرْيٍ وتكشف وتبرُّجٍ .

وإني لأذكر موقف فتاة جامعية مسلمة مُتَحَجِّبَةٍ ، لا يقلُّ رَوْعَةً عن موقف نساء المهاجرات والأنصار رضي الله عنهن؛ إذ سألها مراسل صحفي ـ زار جامعة دمشق ـ عن حجابها ، وعما يُصَبِّرُها عليه في حر الصيف القائظ[5]؟

---

(١) (المِرْطُ) : كساء من خَزٍّ ، أو صوفٍ ، يُتَغَطَّى به (جامع الأصول ٢/ ٢٨٠) ، وفي الفتح (٨/ ٤٩٠) : هو الإزارُ .

(٢) (اعتجرت به) : أي اخْتَمَرتْ به .

(٣) (نساء المهاجرات) : أي النساء المهاجرات فهو كقولهم : شجرُ الأراك .

(٤) (الأُوَل) : جمع أُوْلَى ، أي : السابقات من المهاجرات (الفتح : ٨/ ٤٨٩) .

(٥) أي الشديد الحَرِّ .

فأجابته: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١].

ثم يتابع الدكتورالهاشمي حديثه قائلاً: «بمثل هؤلاء الفتيات المسلمات الواعيات الطاهرات تعمَّر البيوت المسلمة، وتربى الأجيال على الفضيلة، ويزخر المجتمع بالرجال الأبطال، العاملين البناة، وإنهن اليوم لكثيرات، والحمد لله.

ولم يكن الحجاب الشرعي للمرأة بِدْعاً في شريعة الإسلام، بل كان في شرائع الله جميعاً قبل الإسلام يشهد لذلك البقية الباقية من تلك الشرائع في الكتب المحرفة[1]، تراها في لباس الراهبات[2] المحتشم عند النصارى المقيمين في البلاد الإسلامية، وفي سائر ديار الغرب، وفي تغطية المرأة الكتابية رأسها عند دخولها الكنيسة.

وإن التَّنكُّر الصَّفيق اليوم لفكرة تَسَتُّر المرأة واحتشامها؛ إنما هو خروجٌ على الشرائع السماوية قاطبةً، من مِلَّة إبراهيم، وموسى، وعيسى ـ عليهم السلام ـ إلى الحنيفية السمحة التي جاء بها الإسلام، وتحلُّلٌ من دين الله الواحد الذي أرسله الله للإنسانية على مدى الأزمان، تحمله الرسل جيلاً بعد جيل، لبناء النفس الإنسانية على الحق والفضيلة والخير، بحيث تغدو الإنسانية المهذبة بهدي السماء أمة واحدةً، مُنْصاعَةً لربٍّ معبودٍ واحد».

---

(١) ورد في الإنجيل ـ سفر التكوين ـ الآية (٦٥) من الإصحاح (٢٤): «وقالت للعبدِ: مَنْ هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا؟ فقال العبد: هو سيِّدي. فأخذت البُرْقُعَ وتَغَطَّتْ» وكذا جاء في الإصحاح نفسه: «فأدخلها إسحاق إلى خباء سارة أمه، وأخذ رفعة، فصارت له زوجة وأحبها».

(٢) قُبَيْلَ شهر رمضان المبارك (١٤٢١)هـ كنت أسير أمام جامعة دمشق. فلفت نظري ـ كما لفت نظر غيري ـ منظر أربع فتيات في العقد الثالث من أعمارهن، غطين رؤوسهن وارتدين لباساً أبيض، حسبته لباس الصلاة عندنا في الشام، ولما حاذيتهن رأيت الصليب في أعناقهن، فعلمت أنهن راهبات. وفي هذا دلالة واضحة أن الحجاب مشروع عند أهل الكتاب. حتى أن ماغي فرح عندما تستضيف الشيخ محمد مهدي شمس الدين في برنامجها في تلفزيون المستقبل تضع حجاباً على رأسها.

قلت: حتى أوائل قرن العشرين ، لم يكن السفور معروفاً عند المسلمين في العالم العربي.

وأول من دعا إليه من المسلمين: رفاعة بك طَهْطَاوي[1] (١٨٠١ ـ ١٨٧٣)م عقب عودته من فرنسا لكن دعوته وُئِدَتْ في مهدها ، ولم تلق رواجاً لدى الشعب العربي المصري.

وفي عام (١٨٨٥)م عاد إلى بلاده الشاب الذكي المصري قاسم بن محمد أمين (١٨٦٣ ـ ١٩٠٨)م بعد أَنْ أكمل دراسة الحقوق في مونبلييه بفرنسه. وتعرَّف هناك على غانية من تلك البلاد ، ونشأت بينهما صداقة (بريئة!) حيث عرَّفته على الأسر الفرنسية ، وكانت تصحبه إلى النوادي والصالونات فيجد فيها كل سرور وترحيب.

وما إن وصل إلى أرض الكنانة حتى بدأ بنشر دعوته إلىٰ خلع الحجاب ، والتزام السفور والتبرج ، حيث هما عنوان التقدم والحضارة بزعمه.

وبدأ يوهم المسلمين في كتبه ومقالاته أن الخير كله في التبرج والسفور ، وأن الشرَّ كُلَّهُ كامِنٌ في الحشمة والحياء والحجاب.

وكانت دعوته تحت سمع وبصر صديقه الحميم ، الزعيم الوطني سعد زغلول! بل كانت في كنفه وحمايته ورعايته[2].

وأول امرأة مسلمة رفعت الحجاب ، وخرجت سافرة: هُدى شِعراوي بنت محمد سلطان باشا ، كما قال الزركلي في الأعلام (٨/ ٧٩).

يوجز لنا قصتها صاحب كتاب «قضية تحرير المرأة» ص: (١٧ ـ ١٨)

(١) حول دور هذاالرجل في تخريب المجتمع المصري انظر كتاب: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لشيخ العربية محمود محمد شاكر ، رحمه الله تعالى.
(٢) انظر كتاب قضية تحرير المرأة ص (٣/ ١٩) مؤسسة المدينة للصحافة ـ جُدَّة ـ المملكة العربية السعودية.

فيقول: «سافرت إلى فرنسه لتتعلَّمَ ، وسافرت محجبة ، ولكنها حين عادت كانت سافرة ، وكان أبوها يستقبلها في ميناء الإسكندرية ومعه مجموعة من أصدقائه.

فلما نزلت من الباخرة سافرة ، احمرَّ وجهُهُ خجلاً وغضباً ، وأشاح بوجهه عنها وانصرف دون أن يجيبها. ولكن ذلك لم يَرْدَعْها عن صنيعها ، ولم يُرُدَّها عن غَيِّها الذي عادت به من فرنسه. وتحلَّق حولها بعض النسوة ، وبعض الرجال! الرجال الذين يدافعون! عن قضية المرأة في الصحف والمجلات ، بالنثر وبالشعر ، لقاءَ جلسة [لطيفة] في صالون الهانم هُدى ، أو ابتسامة تخصُّ بها أحدهم ، أو مبلغ من المال[1] تدسُّهُ في يد واحدٍ من الصحفيين المرتزقة ، فيكتب مقالاً في رقة الهانِم [هدى] ، ولطفها ، وابتسامتها العذبة ، وحسن استقبالها لضيوفها ـ الرجال ـ أو يكتب عن اجتماعاتها وتحركاتها ، أو يكتب عن [القضية]» أي قضية سفور المرأة وتخلصها من حجابها.

وفي عام (١٩١٩) قامت الثورة المصرية على الاحتلال الإنكليزي لمصر.

---

(١) كانت هدى شعراوي امرأة ثرية. قال كَحَّالة: توفي زوجها سنة (١٩٢٢) وخلف لها ثروة ضخمة. من أقوالها في مهاجمة الحجاب الشرعي وترويج السفور والتبرج: «إن الحجاب لا يصون المرأة إن لم يكن لها رادع من نفسها ، وهوالذي يحول بينها وبين الثقافة وتجارب الحياة ، ويحرم المجتمع من استثمار مواهبها» (أعلام النساء: ٥/ ٣٣٥). أقول: كذبت هذه الدَّعِيَّةُ المفتونة. ابنتي الكُبرى محجبةٌ ملتزمةٌ بدينها ، وتحفظ القرآن الكريم بإجازة العلامة القارىء الجامع أبي الحسن الكردي حفظه الله تعالى ، ونالت المرتبة الأولى ـ لدورتين متتاليين ـ في المسابقة العالمية لحفظ القرآن الكريم في مجمع أبي النور الإسلامي بدمشق. ومع ذلك نالت لدورة عام (٢٠٠٠)م الدرجة الثانية على ريف دمشق في الثانوية العامة ـ الفرع الأدبي بمجموع قدره (٢٢٩) علامة من أصل (٢٤٠)علامة.

ولفت نظري أن أغلب المتفوقات في مدينة دمشق في الثانوية العامة لعام (٢٠٠٠)م هُنَّ محجَّبات ، وقد وضعت صورهن في لوحات إعلانية جميلة في شوارع دمشق. فهل يدل ذلك أن الحجاب عقبة في سبيل العلم والتقدم كما يحلو لهدى شِعرواي ـ وأمثالها ـ أن تقول؟ قليلاً من التعقُّل ، يا ناسُ!

وملأت المظاهرات شوارع القاهرة وغيرها من المدن المصرية ، تهتف ضد الاستعمار الإنكليزي ، وتطالب بالجلاء التام ، أو الموت الزُّؤام.

ويطلق الإنكليز الرصاص من مدافعهم الرشاشة ـ كما يفعل اليهود اليوم تماماً في فلسطين الجريح ـ على المتظاهرين ، فيسقط منهم كل يوم قتلى بلا حساب.

يقول صاحب كتاب قضية تحرير المرأة ص: (١٩) «وفي وسط هذه المظاهرات الجادَّة ، قامت مظاهرةُ النسوة ، وعلى رأسها صَفِيَّةُ هانم زغلول[١] زوجةُ سَعْدِ زغلول ، وتجمع النسوة أمام ثكنات قصر النيل ، وهتَفن ضد الاحتلال ، ثم بتدبير سابق ، ودون مقدمات ظاهرة خَلَعْنَ الحجاب ، وأَلقَيْنَ بهِ في الأرض ، وسَكَبْنَ عليه البترول ، وأشْعَلْنَ فيه النار وتحررت المرأَةُ!!! وسمي ميدان الإسماعيلية ـ الذي تحللت فيه المرأة من حجابها الإسلامي ـ ميدان [التحرير] [تخليداً] لهذه الذكرى العظيمة!».

ولكن ـ ولله الحمد ـ بدأت الصحوة الإسلامية بالظهور ، بعد أن فضحت المؤامرة ، وبان رموزها ، واستبانت أهدافها.

وكثيرات مِمَّنْ بَهَرَهُنَّ التقليد الأعمى للغرب ، عُدْن إلى أحضان الشريعة ، وارْتَدَيْنَ ثوب العزة والطاعة والحشمة ، وبدأن ينشدن مع عائشة التيمورية قولها:

بِيَدِ العَفَافِ أَصُونُ عِزَّ حجابي ... وبِعِصْمَتي أَسْمُو على أَتْرابي
وبِفِكْرَةٍ وَقَّادَةٍ وقَرِيْحَةٍ ... نَقَّادَةٍ قَدْ كُمِّلَتْ آدابي

(١) اسمهاالحقيقي: صفية مصطفى فهمي ، ولكن سميت صفية زغلول باسم زوجها سعد زغلول ، على طريقة الأوربيين في إلحاق الزوجات بأسماء أزواجهن ، تأثراً بالغزو الفكري وعملية التغريب (قضية تحرير المرأة ص: ١٩).
أقول: وكذلك الاسم الحقيقي لهدى شعرواي هو: هدى بنت محمد سلطان (باشا). ولكن نسبت نَفْسَها إلىٰ زوجها علي باشا الشعراوي.

مـا ضـرَّنـي أَدبِـي وَحُسْـنُ تَعَلُّمِـي ‌ ‌ ‌ ‌ إلاَّ بِكَـونـي زَهْـرَةَ الأَلْبَـابِ
ما سَـاءَني خِـدْري وعقد عِصَـابتي ‌ ‌ ‌ ‌ وطِـرازُ ثَـوْبِـي واعْتِـزَازُ رِحَـابـي
مـا عـاقَني خَجَلـي عَـنِ العَلْيَـا وَلا ‌ ‌ ‌ ‌ سَـدْلُ الخِمـارِ بِلِمَّتِـي وَنِقَـابِـي
عَنْ طَيِّ مِضْمَارِ الرِّهان إذا اشْتَكَتْ ‌ ‌ ‌ ‌ صَعْـبَ السِّبَـاقِ مَطَـامِـحُ الـركـابِ

* * *

هوَ يَعْرِفُ اسْمِي

من طرائف القصص ، وبديع الحكايات التي حفظها التاريخ في ذاكرته ، ودوَّنتها أقلام الأدباء والمؤرخين الثقات ، ما رواه علامة بلاد الشام ، وأديب العربية الشيخ الراحل علي الطنطاوي في كتابه «هُتاف المجد» ص: (٧٤ ـ ٧٥) أن أهل دمشق «لما كانوا يبنون مسجد نافذ في المُهاجرين[١] جاءت امرأة ـ لا يعرفها أحدٌ ـ بِصُرَّةٍ فيها خمسون لِيْرةً ذهبيةً ، وولَّت مُسْرِعةً.

قالوا: أخبرينا باسمكِ ، لنكتبَ لكِ الوَصْلَ.

قالت: هو يعرف اسمي ، ولا أحتاج منه إلى وَصْلٍ».

وقريب من هذه القصة الأعجوبة ـ مضربِ المثل في التجردِ عن هوى النفس ، والإخلاص لمن لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ـ ما ذكره أيضاً الشيخ الطنطاوي في كتابه آنف الذكر ص: (١٦٩): «عن قصة رجل مجهول من دمشق ، تبرَّعَ بمناسبة أسبوع التسلح في سورية سنة (١٩٥٥)م بخمسين ألف لِيْرةٍ ، وحَلَّف لجنة جمع التبرعات بالأيمان الغِلاظ أنْ لا تبوح باسمه».

ونحوٌ من هذه الأعمال في إخلاص النية لله تعالى ؛ ما ذكره اللواء الركن

---

(١) (المُهاجرين): حيٌّ من أحياء دمشق بسفح جبل قاسيون.

محمود شيت خطاب في «أقباس روحانية» ص: (٧٤) قال: «كان مَسْلَمَةُ[١] بن عبد الملك بن مروان أحد قادة الفتح الإسلامي الكبار، وفي يوم من أيام جهاده المجيد، حاصر حصناً من حصون الروم، فَنَدَب الناسَ إلى نَقْبٍ[٢] منه، فما دخله أحَدٌ!

وجاء رجل من عُرْضِ الجيش[٣] فدخله، ففتحه الله على المسلمين.

ونادى مَسْلَمَةُ: أين صاحبُ النَّقْبِ؟ فما جاءه أحدٌ.

فنادى: إني قد أمرتُ الآذِنَ بإدخاله ساعةَ يأتي، فعزمتُ عليه إلاَّ جاءَ.

وجاء رجلٌ فقالَ للآذِنِ: استأذِنْ لي على الأمير.

فقال له: أنتَ صاحبُ النَّقْبِ؟

قال الرجل: أنا أخبركم عنه.

وأتى الآذنُ مَسْلَمَةَ، فأخبره عن الرجل، فأَذِنَ له، فقال: إنَّ صاحبَ النَّقْبِ يأخذ عليكم ثلاثاً[٤]: ألاَّ تُسَوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه مِمَّنْ هو.

قال مَسْلَمَةُ: فذاك له.

قال الرجلُ: أنا هو. فكان مَسْلَمَةُ لا يصلي بعدها صلاةً إلا قال: اللَّهُمَّ! اجعلني مع صاحب النَّقْبِ.

لقد مات صاحبُ النَّقْبِ في أجله الموعود، فنسيه الناس، ولم يعرف بموته أحدٌ؛ ولكنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعرفه ولا ينساه.

وأين معرفةُ النَّاسِ وذكرُهُمْ من معرفة اللهِ وذِكْرِهِ؟!».

---

(١) أمير قائدٌ من أبطال عصره، له فتوحات مشهورة، مات بالشام سنة (١٢٠)هـ. قال الذهبي: كان أولى بالخلافة من سائر إخوته (الأعلام).

(٢) (نَقْب): النقبُ: الخَرْقُ في الجدار ونحوه.

(٣) (مِنْ عُرْضِ الجيش): أي من عامة الجُنْدِ.

(٤) (يأخذ عليكم ثلاثاً): أي يشترط عليكم ثلاثاً.

والمقلب في صفحات تاريخنا الإسلامي المجيد ، يطالعه الجَمَّاءُ الغَفيرُ من أمثال صاحب النَّقْبِ ، الذين يحبون أن يعرفوا في ملكوت السماء ، ولا ضَيْرَ عليهم إنْ جهلهم أهلُ الأرض ، فقد روى زياد بن جُبَيْر بن حَيَّةَ قال : أخبرني أبي أن عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب ـ رضوان الله عليه ـ قال لِلْهُرْمُزانِ[1] : أمّا إذْ فُتَّنِي بنفسكَ ، فَانْصَحْ لي ، وذلك أنه قال له : تكَلَّمْ لا بأسَ ، فَأَمَّنَهُ ، فقال الهُرْمُزانُ : نَعَمْ ، إنَّ فارسَ اليومَ رَأْسٌ وجَناحَانِ .

قال : فأين الرأسُ؟

قال : نَهَاوَنْدُ[2] مَعَ بُنْدارَ[3] . قال : فإن معه أَسَاوِرَةَ كسرى[4] ، وأهل أصفهان .

قال : فأين الجَنَاحَانِ؟ فذكر الهُرْمُزَانُ مكاناً نسيه ، فقال الهُرْمُزانُ : اقطع الجناحين تُوهِنِ الرَّأسَ[5] .

فقال له عمر ـ رضوان الله عليه ـ : كَذَبْتَ ، يا عَدُوَّ اللهِ! بل أَعْمِدُ إلى الرأس فيقطعه اللهُ ، فإذا قطعه الله عني ، انقطع عني الجناحانِ .

فأراد عمر أن يسير إليه بنفسه ، فقالوا : نُذَكِّرُكَ اللهَ ، يا أميرَ المؤمنينَ! أَنْ تسير بنفسك إلى العَجَم ، فإن أُصِبْتَ بها لم يكن للمسلمين نظامٌ ، ولكن ابعثِ الجنودَ .

---

(١) (الهُرْمزان) : من عظماء الفرس ، أسلم بعد قتال كثير بينه وبين المسلمين بمدينة تُسْتَر ، ثم نزل على حكم عمر ، فأسره أبو موسى الأشعري ، وأرسل به إلى عمر مع أنسٍ ، فأسلم ، فصار عمر يقربه ويستشيره ، ثم اتفق أن عُبَيْدَ الله بن عمر اتهمه بأنه واطأ أبا لؤلؤة على قتل عمر ، فعدا على الهرمزان فقتله بعد قتل عمر . انظر الفتح (٦/ ٢٦٤) .

(٢) (نَهَاوَنْد) : مدينة في قبلة هَمَذان ، بينهما ثلاثة أيام ، كان فتحها سنة (١٩) أو (٢١)هـ في خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٣) (بُندار) : هو عامل كسرىٰ على مدينة نَهَاوَنْد .

(٤) (أَسَاوِرَة كسرىٰ) : قادة جيشه ، والرُّماة الأشداء . وكسرى : لقب لكل من ملك بلاد فارس .

(٥) (توهنِ الرأسَ) : تُضعفه .

قال: فبعثَ أَهْلَ المدينة ، وبعث فيهم عبدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب ، وبعث المهاجرين والأنصار ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: أَنْ سِرْ بأهل البصرة ، وكتب إلى حُذَيفةَ بن اليَمان: أنْ سِرْ بأهل الكوفة حتى تجتمعوا بِنَهَاوَنْدَ جميعاً ، فإذا اجتمعتم ، فأميرُكُم النُّعْمانُ بْنُ مَقَرِّنٍ المُزَنيُّ.

فلما اجتمعوا بِنَهَاوَنْدَ أرسل إليهم بُنْدارُ: أَنْ أرسلوا إلينا ، يا مَعْشَرَ العرب! رجلاً منكم نُكَلِّمْهُ ، فاختار الناسُ المُغيرةَ بن شُعْبَةَ.

قال أبي: فكأني أنظر إليه: رَجُلٌ طويلٌ ، أَشْعَرُ[1] ، أَعْوَرُ ، فأتاه ، فلما رجع إلينا سألناه ، فقال لنا: إني قد وجَدْتُ العِلْجَ[2] قد استشار أصحابه: في أي شيءٍ تأذنونَ لهذا العربي؟ أَبِشارَتِنا[3] ، وبَهْجَتِنا ، ومُلْكِنا؟ أو نَتَقَشَّفُ له فَنُزَهِّدُهُ عما في أيدينا؟

فقالوا: بل نَأْذَنُ له بأفضلِ ما نكون من الشَّارَةِ والعُدَّةِ.

فلما رأيتُهُمْ ، رأيْتُ تِلك الحِراب والدَّرَقَ[4] يُلْتَمَعُ منها البَصَرُ ، ورأيتهم قياماً على رأسه ، فإذا هو على سريرٍ من ذَهَبٍ ، وعلىٰ رأسه التَّاجُ ، فَمَضَيْتُ كما أنا ، ونَكَّسْتُ رأسي لأَقْعُدَ معه علىٰ السَّرير ، قال: فَدُفِعْتُ ونُهِرْتُه[5] ، فقلت: إنَّ الرُّسُلَ لا يُفْعَلُ بهم هذا! فقالوا لي: إنَّما أنت كلبٌ ، أَتَقْعُدُ مع المَلِكِ؟!

فقلت: لأَنَا أَشْرَفُ في قومي من هذا فيكم. قال: فانْتَهَرَني ، وقال: اجلس ، فجلستُ ، فترجم لي قوله ، فقال: يا مَعْشَرَ العرب! إنكم كنتم أطول الناس جوعاً ، وأعظم الناس شقاءً ، وأَقْذَرَ الناسِ قَذَراً ، وأبعدَ الناس داراً ، وأبعده من كل خيرٍ ، وما كان منعني أَنْ آمَرَ هذه الأَسَاوِرَة حولي أن ينتظموكم

---

(١) (أَشْعَر): أي كثير الشَّعْرِ ، وقيل: طويله (النهاية).
(٢) (العِلْج): الواحدُ من كُفَّار العجم (مختار الصحاح).
(٣) (الشَّارَةُ): الهيئة واللباس الحسن. أراد تاج الملك وأبهته.
(٤) (الدَّرق): جمع دَرَقَةٍ وهي الترس من جلود بلا خشبٍ ولا رباطٍ من عصبٍ.
(٥) (نُهِرْتُ): زُجِرْتُ ومُنِعْتُ.

بالنَّشَّابِ[1] إلا تنجساً لجيفتكم؛ لأنكم أرجاس ، فإن تذهبوا نُخَلِّ عنكم ، وإن تأبوا ، نُرِكُمْ مَصارِعَكُمْ.

قال المُغيرةُ: فَحَمِدْتُ اللهَ ، وأَثْنَيْتُ عليه ، وقلتُ: واللهِ! ما أَخْطَأْتَ من صِفَتِنا ونَعْتِنا شيئاً: إنْ كُنَّا لأَبْعَدَ الناسِ داراً ، وأَشَدَّ الناسِ جُوعاً ، وأعظمَ النَّاسِ شَقاءً ، وأبعدَ الناسِ من كل خَيْرٍ ، حتى بعث الله إلينا رسولاً ، فوَعَدَنا بالنَّصْرِ في الدنيا ، والجنةِ في الآخِرَةِ ، فلم نَزَلْ نَتعَرَّفُ من رَبِّنا ـ مُذْ جاءنا رسولُهُ ﷺ ـ الفَلاحَ والنَّصْرَ ، حتى أتيناكم.

وإنا والله! نَرَى لكم مُلكاً وعيْشاً لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نَغْلِبَكُمْ على ما في أيديكم ، أو نُقْتَلَ في أرضكم.

فقال: أما الأَعْوَرُ ، فقد صَدَقَكُمُ الذي في نفسه ، فقمت من عنده وقَدْ والله! أَرْعَبْتُ العِلجَ جَهْدي ، فأرسل إلينا العِلْجُ: إمَّا أن تعبروا إلينا بِنَهاوَنْدَ[2] ، وإما أن نَعبُرَ إليكم.

فقال النُّعْمانُ: اعْبُروا ، فَعَبَرْنا.

فقال أبي: فلم أرَ كاليومِ قطُّ ، إنَّ العُلوجَ يجيئونَ كأنهم جبالُ الحديد ، وقد تواثَقوا[3] أن لا يَفِرُّوا من العرب ، وقد قُرِنَ[4] بعضهم إلى بعضٍ ، حتى كان سَبْعَةٌ في قِرانٍ ، وأَلْقَوا حَسَكَ الحديد[5] خلفهم ، وقالوا: من خَرَّ منا عَقَرَهُ حَسَكُ الحديد.

فقال المُغيرةُ بْنُ شُعْبَةَ حين رأى كَثْرَتهم: لم أرَ كاليومِ فَشَلاً: إنَّ عَدُوَّنا يُتْرَكونَ أَنْ يَتَتامُّوا ، فلا يُعْجَلُوا! أَمَا واللهِ! لو أَنَّ الأَمْرَ إليَّ ، لقد أعجلتهم به.

---

(١) (أن ينتظموكم بالنَّشاب): أن يجمعوكم ويقتلوكم رمياً بالسهام ، والنِّبال.

(٢) في رواية ابن أبي شيبة: «وكان بينهم نهر».

(٣) (تواثقوا): تعاهدوا.

(٤) (قُرِن): رُبِطَ.

(٥) (حَسَك الحديد): الحَسَك: شوك صُلْبٌ. وحَسَكُ الحديد: ما يعمل على مثال الحَسَكِ ، كان يلقى حول العسكر ويبث في مذاهب الخيل ، فينشب في حوافرها.

قال: وكان النُّعمانُ، رجلاً بَكَّاءً، فقال: قد كان اللهُ ـ جَلَّ وعلا ـ يُشْهِدُكَ أَمْثَالَها فلا يُخْزِيْكَ ولا تَعَدَّىٰ موقِفَكَ، وإني، واللهِ! ما يمنعني أَنْ أناجزَهُمْ إلَّا شيءٌ شَهِدْتُهُ من رسول الله ﷺ. إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا غَزَا فَلَمْ يُقَاتِلْ أوَّلَ النَّهار، لم يَعْجَلْ حتى تَحْضُرَ الصلواتُ[١]، وتَهُبَّ الأرْواحُ[٢]، ويَطِيْبَ القِتالُ. ثم قال النُّعْمانُ: اللَّهُمَّ! إنِّي أسألك أَنْ تُقِرَّ عيني بِفَتْحٍ يكونُ فيه عِزُّ الإسلامِ وأَهْلِهِ، وذُلُّ الكُفْرِ وأَهْلِهِ، ثم اخْتِمْ لي على أثر ذلك بالشهادة.

ثم قال: أَمِّنوا، رحمكم الله! فأَمَّنَّا، وبكىٰ فبكينا. فقال النُّعْمانُ: إني هازٌّ لوائي فَيَسَّروا السِّلاحَ[٣]. ثم هازُّها الثانيةَ، فكونوا مُتَيَسِّرينَ لقتال عدوكم بإزائكم، فإذا هَزَزْتُها الثالثةَ فليحملْ كُلُّ قومٍ على مَنْ يليهم من عدوهم على بركة الله.

قال: فلما حَضَرَتِ الصلاةُ، وهَبَّتِ الأَرْواحُ، كَبَّرَ وكَبَّرْنا، وقال: رِيْحُ الفتح واللهِ! إِنْ شَاءَ اللهُ، وإني لأرجو أن يستجيبَ اللهُ لي، وأن يفتح علينا. فَهَزَّ اللِّواءَ فتيسَّروا، ثم هزَّها الثانيةَ، ثم هَزَّها الثالثة فحملنا جميعاً، كُلُّ قومٍ على من يليهم. وقال النُّعمانُ: إنْ أنا أُصِبْتُ فعلى النَّاسِ حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمانِ، فإنْ أُصِيْبَ حُذيفةُ، ففلانٌ، فإنْ أصِيْبَ فُلانٌ حتى عَدَّ سَبْعَةً آخِرُهُمْ المَغيرةُ بْنُ شُعْبَةَ.

قال أبي: فواللهِ! ما علمتُ من المسلمين أَحداً يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إلى أهله حتى يُقْتَلَ أَوْ يَظْفَرَ، وثَبَتُوا لنا، فلم نَسْمَعْ إلاَّ وَقْعَ الحديدِ على الحديد، حتى أُصيب في المسلمين مُصَابَةٌ عظيمةٌ[٤].

فلما رَأَوا صَبْرنا، ورَأَوْنا لا نريدُ أَنْ نَرْجِعَ، انهزموا، فجَعَلَ يقعُ الرجلُ

---

(١) أي بعد زوال الشمس.

(٢) (الأرواح): جمع ريح (الفتح: ٦/ ٢٦٥).

(٣) (يسّروا السلاح): هَيّئوه وأعدُّوه استعداداً للهجوم على الفُرْس.

(٤) (مصابة عظيمة): أي شدة وأذىٰ.

فيقع عليه سبعةٌ في قِران فيقتلون جميعاً ، وجعل يَعْقِرُهُمْ حَسَكُ الحديد خلفهم.

فقال النُّعْمانُ: قَدِّموا اللواء ، فجعلنا نُقَدِّمُ اللواءَ فنقتلهم ونهزمهم.

فلما رأى النُّعْمانُ قد استجاب اللهُ له ، ورأى الفتح ، جاءته نَشَّابَةٌ[1] فأصابت خاصرته ، فقتلَتْهُ ، فجاءه أخوه مَعْقِلُ بْنُ مَقرِّنٍ المُزَنِيُّ ، فسجَّىٰ عليه ثوباً[2] ، وأخذَ اللواء فتقدَّمَ ، ثم قال: تقدَّموا ، رحمكم الله! فجعلنا نتقدم فنهزِمُهُم ونقتلُهُمْ ، فلما فَرَغنا واجتمع الناسُ ، قالوا: أين الأميرُ؟ فقال مَعْقِلٌ: هذا أميركم قد أقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ بالفتح ، وختم له بالشهادةِ ، فبايعَ الناسُ حُذيفةَ بْنَ اليَمَانِ.

قال: وكان عمرُ بْنُ الخَطَّابِ ـ رضوان الله عليه ـ بالمدينة يدعو الله ، وينتظر مثل صيحة الحُبْلَىٰ ، فكتب حُذيفةُ إلى عمر بالفتح مع رجل من المسلمين ، فلما قَدِمَ عليه ، قال: أَبْشِرْ ، يا أميرَ المؤمنين! بفتح أَعَزَّ اللهُ فيه الإسلامَ وأَهْلَهُ ، وأَذَلَّ فيه الشِّرْكَ وأَهْلَهُ.

فقال: النُّعْمانُ بَعَثَكَ؟

قال: احْتَسِبِ النُّعْمانَ ، يا أميرَ المؤمنين! فبكى عُمَرُ واسترجع[3] ، فقال: ومَنْ؟ ويحك! قال: وفلانٌ وفلانٌ ـ حتى عَدَّ ناساً ـ ثم قال: وآخرينَ ، يا أميرَ المؤمنين! لا تعرفهم.

فقال عمر ـ رضوان الله عليه ـ وهو يبكي: لا يَضُرُّهُمْ أَنْ لا يَعْرِفَهُمْ عُمَرُ ، لكنَّ اللهَ يَعْرِفُهُمْ.

أخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/ ٤٣٢ برقم (١٠٤٩) ، والطبري في التاريخ (٤/ ١١٧ ـ ١٢٠) وغيرهما ، وصححه ابن حبان (١٧١٢) موارد ، واللفظ له ، وبعضه أخرجه البخاري (٣١٥٩) و(٧٥٣٠).

---

(١) (نشابة): أي سَهْمٌ.

(٢) أي ألقاه عليه ، وغطاه به.

(٣) (واسترجع): أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

زَوَاجٌ مُبَارَكٌ

خَيْرُ النساءِ ، امرأةٌ مسلمة ، حَسَنِيَّةُ النَّسَبِ ، هِنْدِيَّةُ المولد والنشأة. صالحة تقية ، كاتبة شاعرة ، مربية فاضلة. تربت وترعرعت في بيت دينٍ ، وعلمٍ ، وأدب ، وحسب.

أبوها: العلامة المربي الكبير ضياء النبي الحَسني[١].

وزوجها: العلامة الطبيب مؤرخ الهند الشيخ عبد الحي الحسَني[٢].

وولدها: العلامة الكبير أبو الحسن علي الحسَني النَّدْوي[٣] المعروف بإخلاصه واجتهاده في الدعوة إلى الله عز وجل.

قال أبو الحسن مترجماً لأُمِّه خَيْرِ النساء[٤]:

«كانت رحمها الله تعالى من السيدات الفاضلات ، المربيات النادرات ، والمؤلفات المعدودات ، والشاعرات المطبوعات.

---

(١) اقرأ ترجمته الحافلة في الجزء الثامن من «نزهة الخواطر» للسيد عبد الحي الحسني والد العلامة أبي الحسن النَّدْوي الحسني.

(٢) اقرأ ترجمته بقلم ولده العلامة أبي الحسن علي الحسني النَّدْوي في مقدمة كتاب: «الثقافة الإسلامية في الهند» مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

(٣) عرَّف به وترجمه أديب العربية الكبير الشيخ علي الطنطاوي في مقدمته لكتاب «في مسيرة الحياة» طبع دار القلم. دمشق.

(٤) في كتابه: «في مسيرة الحياة» ١/ ٤١.

تحفظ القرآن ، وتكتب وتؤلف ، وتقول الشعر .

وكان من أعظم ما أكرمها الله به حسن الصلاة ، والغرام بالدعاء والابتهال ، والوصول إلى معانٍ عجيبة فيه ، والإيمان القوي بوعود الله تعالى وأخباره ، وإيثار الدين على الدنيا في ما يتصل بأولادها وبمستقبلهم ، وحسن التربية ، ونشرت لها عدة كتب ومجموعتان للشعر ، وكله مناجاة لله تعالى ، ودعاؤُه ، ومدائح للنبي ﷺ ، تلقيت بالقبول ، وقد صدرت لكتابها في حسن العشرة وآداب الاجتماع أكثر من (١٣) طبعة . توفيت رحمها الله تعالى لست خَلَوْنَ من جمادى الآخرة (١٣٨٨)هـ (٣٠ أغسطس ١٩٦٨ م) .

يروي لنا ولدها أبو الحسن ـ رحمه الله ـ قصة اقترانها بأبيه فيقول :

«بقدر ما كان في بيت جدي لأمي[1] في أسرتنا هذه من الرخاء والرفاهية ، ورغد العيش والوجاهة في الناس ، بقدْر ذلك كان بيت جدي لأبي يفقد كل متاع من هذا القبيل ، فلا أراضي واسعة ، ولا إقطاع منذ زمن طويل ، فقد كان هذا الفرع يغلب عليه العلم الديني . وتتصل سلسلة العلماء فيها من الأجداد الأقدمين ، فكان بيتنا لأجل ذلك معروفاً ببيت العلماء أو «المطوّعين» (في لغة أهل نجد والخليج) فكانت الكتب والتراث العلمي بدلاً عن الأراضي والإقطاعات ، ينتقل في هذا الفرع جيلاً بعد جيل ، فهو إقطاعه وأملاكه وثروته وتراثه ، وكانت العيشة في البيت لا سيما في العهد الذي أؤرخه ، عيشة جهد وضنكٍ ، وقد كان جدي طبيباً حاذقاً ، وفاضلاً كبيراً ، ومؤلفاً جليلاً ، إلا أنه كان كبيراً ، غنيَّ النفسِ ، كبير الاعتداد بالذات ، لم يلتفت أبداً إلى كسب المعاش كل الالتفات ، فلم يكن غريباً أن يمر بعض الأيام ، ولا يوقد في بيتنا نار ، أو تمضي بعض الغَدَواتِ[2] والعشيات بدون غداءٍ أو عشاء .

---

(١) هو العلامة المربي الكبير ضياء النبي الحَسَني .

(٢) (الغدوات) : جمع غَداة : وهي ما بين الفجر وطلوع الشمس .

أما والدي[1] فكان ـ أولاً ـ موظفاً في إدارة الأمانة العامة لندوة العلماء[2] ، وكان يتقاضى ثلاثين أو أربعين روبية شهرياً ، ثم تخلّى عن هذا المرتب ، فلما خطب جدي لابنه في هذه الحالة إلى الشيخ السيد ضياء النبي ابنته السيدة خير النساء ـ وكان هذا زواجاً ثانياً[3] ـ ترددت جدتي لأمي في قَبول هذه الخطبة مليّاً ، والنساء في هذه الشؤون أكثر حساسية ، وأبعد نظراً ، وقد كان بيتنا ملاصقاً لبيتها، فلم يكن يخفى عليها حال البيت، وقد سبق أن خطب ابنته هذه أحدُ أبناء عمه ، الذي كان من الإقطاعيّين الكبار ، وأصحاب الأملاك الواسعة في هذه المديرية ، فلم يكن من المعقول لديها أن تؤثر هذه الخطبة من بيت فقير ، وإن كان هو كفؤاً تماماً في النسب والعرف ، على تلك الخطبة ، وليس من اللائق والمقبول أن يورط ابنته ـ على علم وبصيرة ـ في ضنكٍ ومشقة .

ولكن جدي لأمي المربي الكبير ضياء النبي الحسني ، كان يحب والدي حباً شديداً ، وكان الوالد تتلمذ عليه ، واستفاد منه شيئاً كثيراً في التربية والتسليك ، ولم يكن ليخفى على الجد علمه وفضله ونبوغه ، فما إنْ سمع بالخطبة حتى تهلّل وجهه ، وانطلقت أساريره ، وكأنه وجد بغيته ، فصارح جدتي بأن السيِّدَ شاب صالح ، عالم ناهض ، لا أوثر عليه غيره ، وليست عندي أية أهمية للفقر والمال ، والضيق والرخاء ، إنما المهم العلم والصلاح .

---

(١) وهو العلامة عبد الحي الحَسَني. المولود في رمضان (١٢٨٦)هـ ، المتوفى في جمادى الآخرة سنة (١٣٤١)هـ.

(٢) (ندوة العلماء): معهد أو جميعة إسلامية أَسَّسها عدد من علماء الهند سنة (١٣١١)هـ. تعمل على إصلاح المسلمين وإنهاضهم ، وإصلاح مناهج التعليم وتطويرها. وكثير من علماء الهند ينتسبون إلى هذه الندوة كَسُليمان الندوي ، ومسعود الندوي ، وأبي الحسن الندوي ، وهؤلاء لا يجمع بينهم النسب ، وإنما يجمع بينهم العلم والأدب ، وهذا المعهد الذي ينتسبون إليه. انظر كتاب الثقافة الإسلامية في الهند ص (٤) ، ومقدمة الشيخ علي الطنطاوي ص (١١) لكتاب «في مسيرة الحياة».

(٣) كان الزواج الأول بابنة خاله السيدة زينب بنت السيد عبد العزيز الحسني ، وقد توفيت رحمها الله سنة (١٣١٩)هـ (١٩٠١)م. وخلّفت ولداً هو الدكتور السيد عبد العلي الحسني ، أخو السيد أبي الحسن الندوي ومربيه ، وخليفة أبيه.

في أثناء هذا الصراع النفسي ، والتردد والترقُّب الذي وَقَعَتْ فيه جدتي رأتْ أمي ـ ولها دائماً مناسبة خاصة بالرؤى الصالحة ـ رؤيا كانت فيها إشارة إلى بيت والدي ، وأنه إذا اتصل هذان البيتان ، والتقت هاتان الأسرتان كان ذلك مصدر خير كثير ، وبركة عظيمة ، ورأت في أثناء هذه الأيام رؤيا مبشِّرة سارة جدّاً. كانت تتسلَّى بها دائماً طول حياتها ، وكلما ذكرتها ظهر أثرها في وجهها وصوتها ، تقول:

«رأيت ليلة من الليالي أنه حصلت لي بعناية الملِك الكريم ، الرحمن الرحيم ، ولطفه العميم آية ، لم أزل أرددها إلى الصباح ، إلا أن الخوف منعني من التصريح بها ، وقرأتها ، لأني ما كنت أعرف معناها.

فلما راجعت معنى الآية ، امتلأت بهجة وسروراً ، ونسيتُ كل الهموم والآلام ، وأحسستُ بالفخر والاعتزاز على هذه السعادة ، وذكرت هذه الرؤيا فغبطني عليها كلُّ مَنْ سمعها ، حتى بكى والدي من شدة الفرح بسماعها ، وها هي ذي الآية الكريمة: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وأخيراً ، غلبت عزيمة جدي لأمي ، وتحتَّمتْ إرادتُهُ ، وتمت هذه العلاقة الزوجية عام (١٣٢٢)هـ ، الموافق (١٩٠٤)م في خيرٍ وسلام ، وكان جدي الذي كان هو الباعث الحقيقي على ذلك مبتهجاً مسروراً ، على غاية من الرضا والطمأنينة بهذا الاختيار».

وبعد أن تم الزواج المبارك يضعنا العلامة أبو الحسن أمام صورة فريدة لهذا البيت الجديد فيقول[1]:

«فلما جاءت الوالدة إلى هذا البيت الجديد وجدته صورة صادقة ، لما كانت تسمع عنه: عسر وضيق ، بَسْطٌ حيناً ، وقَبْضٌ حيناً آخر ، شبع تارة ، ومسغبة[2] أخرى. وفي البيت عدة أفراد ، ودَخْلُ الجد قليل.

هذا وكانت الجدة لأمي دائمة التجسُّسِ ـ لشدة شفقتها وعطفها ـ كيف

---

(١) في كتابه: «في مسيرة الحياة» ١/ ٤٤.

(٢) (مسغبة): مجاعة.

تعيش بنتها في بيتها الجديد؟ هل هي في راحة أو ضيق ومشقة؟

وقد حكت لنا الوالدة مراراً أنها كانت إذا رأت أحداً قادماً من بيتها تضع القِدْرَ على الموقد ، وتشعل النار ، حتى يظن أن الطعام يطبخ ، مع أنه ليس في القِدْرِ إلا الماء ، وكانت الجدة أحياناً تتفطن بفراستها إلى الحاجة. فتبعث بالمائدة تأتي بها الخادمة».

قلت: هذا والله! موقف نبيل ، يُنْبي عن حسن الفهم وصدق الإيمان ، ينبغي أن يكتب في مكارم الأخلاق.

وكانت السيدة خير النساء الحسَنِيَّةُ تصلي بنساء أسرتها التراويح إماماً، بصوت حسن ، وحَدْرٍ[1] جميل ، وقراءة مؤثِّرة ، يقول ولدها العلامة أبو الحسن[2]:

«وقد شاع حفظ القرآن الكريم في نساء الأسرة (أسرة خاله الحافظ عبيد الله الحسني) وبناتها ، فكان لهن شغف خاص بحفظه ، وشوق زائد إلى التنافس فيه ، والمسابقة إلى مذاكرته.

وقد شاهدتُ في أيام طفولتي خمساً من النساء الحافظات لجميع القرآن الكريم في الأسرة ، وكان فيهن التزام بإقامة صلاة التراويح فيما بينهنَّ ، بناءً على فتوى بعض علماء لكهنؤ[3] الكبار. فكانت إحداهن تتقدم للإمامة وسائر النساء يقتدين بها ، وقد كانت والدتي من هؤلاء النساء الحافظات. وكانت تقرأ في صلاة التراويح إماماً ، وكنت أتسمَّع لها ، فأحسُّ بقراءتها ، كأن سحابة تمطر مطراً منعشاً ، قراءة مرتَّلةً بمخارجهاالصحيحة ، مع الحَدْرِ الجميل ، والرقة ، واللطف ، ولوعة الأنوثة. نور على نور».

---

(١) (الحدْرُ): سرعة القراءة وإدراجها مع مراعاة الأحكام.

(٢) في كتابه «في مسيرة الحياة» ١/ ٤٩.

(٣) هي بلد العلامة أبي الحسن الندوي في الهند. وعندما سئل أديب العربية الكبير الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ عن المكان الذي يتمنّى أن يقضي فيه بقية أيامه ، قال: «إن لم أستطع أن أعود إلى بلدي ـ وبلدي الشام ـ ولم أقدر أن أبقىٰ بجوار بيت الله هنا في مكة ، فإن أحب مكانٍ إليَّ هو لكهنؤ ، وأن أقيم في معهد ندوة العلماء ، فأجمع فيها بين الظل والماء ، وصحبة العلماء». مقدمة كتاب «في مسيرة الحياة» ١/ ١٣.

تُبْنَ وتَابُوا

قال العلامة أبو الحسن النَّدْوي ـ رحمه الله ـ في كتابه «تأملات في القرآن الكريم» ص: (١٠٦ ـ ١٠٧) في ثنايا بحث بعنوان «الإنسان بين السمو والانتكاس في ضوء سورة «والتين»»:

ومما يناسب ذكره ، ولا يبعد في تفسير هذه الآيات ، ويدل على فقه العلماء والربانيِّين لهذه النكتة التي أشرت إليها[١] ، وعلى نشاطهم وحكمتهم في الدعوة والإصلاح ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن الشيخ العالم العامل إسماعيل الشهيد رحمه الله ، حفيد شيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلويّ ، دخل يوماً في سوق المومسات[٢] ، فرآه رجل ممن يعرفه ويعرف صلاحه ، وعفافه ، وبيته ، فتبعه يتفقَّدُ أمره ، فإذا هو يقف على باب مومسة كبيرة ، وينادي بصوت المتسوِّلين[٣] الطوَّافين ، فخرجت بنتٌ ، ودفعت إليه دُريهمات ، فقال: لا ، حتى تخبري صاحبة البيت أن الشيخ لا يبرحُ حتى يُسْمَعَ نشيدُهُ[٤].

وكان في البيت عرس ، أو مأتم آخر. اجتمعت فيه زميلاتها ، وفسَّاق

---

(١) النكتة التي كان أشار إليهاالمؤلف ـ رحمه الله ـ تتعلق بتشنيع الزنا ومهنة البغاء ، وأنه لم يسمع أن حيواناً غير الإنسان يكتسب الرزق والقوت بعِرْضه وفَرْجه.

(٢) (المومسات): النساء المجاهرات بالفجور ، اللاتي يأخذن أجرة ، وهنَّ البغايا.

(٣) (المتسوِّلين): هم الذين يسألون الناس أموالهم.

(٤) (حتى يسمع نشيده): أي يجاب طلبه وحاجته.

السوق ، وأصدقاؤهنَّ ، وزبائنهنَّ من أهل المدينة ، فأذنت له ، ودعته في المجلس ليتفرَّجْنَ عليه ، وقالت : هاتِ ، يا أخا التُّرَّهاتِ[1]!

فقرأ سورة «والتين» ثم جعل يفسرها ، وكان ـ رحمه الله ـ قد أوتي حظّاً كبيراً من التأثير ، وسحر الكلام ، وفوق ذلك الإخلاص والنية . ولابد أن يكون قد فسَّر قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ [التين : ٤ ، ٥]. وطبقها عليهن .

فما أحسن اختياره! وما أكثَرَ فقهه! فأجهشْنَ بكاءً ، وكاد يُغْشىٰ على بعضهن ، فأخذ يحض على التوبة ، ويعدُّ فضائلها ، فَتُبْنَ ، وتابوا ، ولم يبرح المجلس حتى زوَّج النساء بالرجال ، بعضهم ببعض» .

قلت : ونحو هذه القصة حدث في دمشق الشام زمن الشيخ بدر الدين الحَسَني رحمه الله ؛ فقد حدثني الحاج أبو الطيب محمد القويدر ـ حفظه الله ـ في مسجد المصطفى بداريا يوم الجمعة / ٢٢/ شعبان (١٤١٩) هـ أَنَّ عَلاَّمة بلاد الشام ، المحدث الأكبر ، الشيخ بدر الدين الحَسَني المتوفى بدمشق سنة (١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) كان يخص البغايا في دور الفجور العامة بالعطايا والصدقات ، في شهر رمضان كل عام ، عسى أن يستعففن عن الحرام ، ويقلعن عن هذه المهنة الخبيثة المرذولة ، ولم يكن يرسل هذه الصدقات مع عامة الناس ، بل كان يختار لهذه المهمة ثلاثة من أصحاب العمائم ، من مريديه وهم : الشيخ يحيى زميتر الشهير بالمكتبي ، والشيخ عثمان قويدر ، والشيخ رفيق السباعي .

وعندما تقع الصدقة في كف البغيِّ ، وتعلم أنها من الشيخ بدر الدين وأنه يقرئها السلام ، ويطلب الدعاء منها . كانت تجهش بالبكاء ، ويعتريها الحياء . وتعاهد الله أن تتوب من الذنب ، وتقلع عن المعصية .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ

---

(١) (التُّرهات) : جمع تُرَّهة ، وهي : الباطل ، و ـ القول الخالي من نفعٍ (الوسيط) .

قال: «قال رجل لأتصدقنّ بصدقةٍ. فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ على سارقٍ. فقال: اللهم! لك الحمد، لأتصدقَنَّ بصدقةٍ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانيةٍ، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على زانية، فقال: اللهم! لك الحمد، على زانية، لأتصدقنَّ بصدقةٍ فوضعها في يَدَيْ غَنيٍ، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق على غنيٍ. فقال: اللهم لك الحمد، على سارقٍ، وعلى زانيةٍ، وعلى غنيٍ. فأتي فقيل له: أمَّا صدقتك على سارقٍ فلعله أن يستعفَّ عن سرقته. وأما الزانية فلعلها أن تَسْتَعِفَّ عن زناها، وأما الغنيُّ فلعلّه أن يعتبر، فينفق مما أعطاه الله.

وفي هذا الحديث من الفوائد كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٢٩١): «فيه أنَّ نية المتصدق إذا كانت صالحةً قبلت صدقته، ولو لم تقع الموقع.

- وفيه فضل صدقة السر.
- وفضل الإخلاص.
- واستحباب إعادة الصدقة.
- وأن الحكم للظاهر حتى يتبين سواه.
- وبركة التسليم والرضا، وذم التضجر بالقضاء كما قال بعض السلف: لا تقطع الخدمة، ولو ظهر لك عدم القبول».

* * *

لو كَانَ عِندي مِئَةُ ولدٍ لَقَدَّمْتُهُمْ جميعاً فِدَاءً لله وإعْلاءً لرايةِ الإسْلامِ

لم يعد هناك ما يدعو للغرابة من العملية الاستشهادية البطولية التي نفذها الشِّبْلُ القَسَّامي محمد فتحي فرحات الذي لا يتجاوز عمرُهُ سبعةَ عَشَر عاماً ، من حي الشُّجاعية في غَزَّة هاشم ، بعد التعرف إلى أُمِّهِ: أُمّ نِضالٍ ، التي فَاقَتْ نساءَ عصرها في جَلَدِها وصبرها وحبها للجهاد ، واعتزازها بأبنائها وحَضِّهم على قتال الصهاينة ، ومقارعة جنود الاحتلال.

في عملية وُصفت بأنها بالغة الجرأة والإعداد ، والتنفيذ ، وفي ٢٠٠٢/٣/٧ م اقتحم ولدُها محمد فتحي فرحات مُغْتَصَبَة «عتصمونا» الصهيونية ، وهي من ضمن تجمع مُغْتَصَبات «غوش قطيف» شمال غرب مدينة رَفَحْ[(١)].

وقد خاض هذا الشبل المغوار ـ قبل استشهاده ـ اشتباكاً مُسَلَّحاً مع الجنود والمستوطنين الصهاينة استمرَّ عشرين دقيقةً ، حيث أفرغ تسعة مخازن

---

(١) (رَفح): مدينة عربية من مدن قضاء غزة. تبعد عن ساحل البحر المتوسط نحو خمسة أكيال ونصف ، وقد اكتسبت أهمية خاصة لكونها نقطة الحدود الفلسطينية الجنوبية مع مصر. تبعد رَفَح نحو (٣٨) كيلاً جنوب غزة ، ونحو (١٣) كيلاً جنوب خان يونس ، وترتفع نحو (٤٨) م عن سطح البحر. انظر معجم بلدان فلسطين ص (٤١٣ ـ ٤١٤) لأستاذنا البحاثة محمد شرّاب.

للذخيرة ، وألقىٰ سِتَّ قنابل يدوية على حاجزٍ للجنود الصهاينة ، واستطاع الدخول إلى أكاديمية عسكرية لإعداد الجنود الصهاينة حيث قتل منهم خمسةً ، وأصاب ثمانية وعشرين آخرين بجراح. بينهم مسؤول أمن المغتصبة. توفي اثنان منهم فيما بَعْدُ ليصل مجموع القتلى إلى سبعة.

وقد ساد جَوٌّ من الهَلَعِ والفَزَعِ صفوفَ الجنود الصهاينة ، والمستوطنين.

وقال أحدُ سكان المغتصبة : إن مكبرات الصوت في المغتصبة نادت اليهود للبقاء في منازلهم.

وقد فتح الجيش الصهيوني تحقيقاً في الهجوم ، وكيفية نجاح الاستشهادي القَسَّامي في اقتحام المغتصبة التي تحيط بهاالجدران الإلكترونية ، إضافة إلى نقطة مراقبةٍ خاصة بالجيش الصهيوني.

وقال بعض المراقبين: إن عملية «عتصمونا» تعتبر اختراقاً لكل معايير الأمن ، والتحصينات الصهيونية ، والحواجز التي تقام على طرقات قِطاع غَزَّة ، حيث تتمتع هذه المغتصبة بحراسة مشددة ، ويحيط بها جِداراتِ كهربائيّان ، بالإضافة إلى أن جيش الاحتلال يقسم المناطق الفلسطينية إلى ثلاثة أقسام؛ مما يعيق حركة المواطن الفلسطيني العادي ، فكيف بالمجاهد الفلسطيني الذي يسكن في منطقة بعيدة عن المغتصبة ، ويحمل عتاده العسكري ، وسلاحَهُ ، وهو معرَّضٌ في كل لحظةٍ للانكشاف من قبل الجنود والصهاينة المتواجدين على الحواجز ، ونقاط التفتيش[1]؟!

يقول زَئيف شيف في مقال نشرته صحيفة «هآرتس»: «إن عملية التسلل الأخيرة لرجال المقاومة الفلسطينية تشير إلى هشاشة الأمن الصهيوني ، والحدود التي يضعها الجيش».

عندما سمعت أُمُّ نضال ـ البالغة من العمر تسعة وأربعين عاماً ـ نبأ استشهاد

---

(١) لا شكَّ أنَّ وصول هذا الاستشهادي القَسَّامي إلى هدفه كان كرامةً من الله تعالى. إذ بالمقاييس العسكرية يستحيل وصوله إليه ، واللهُ غالبٌ على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولدها ، تناولت بندقيته ، وأطلقت منها عدة زَخَّات من الرصاص في الهواء. وجلست في بيت عزاءِ ابنها ، تَعصب رأسها بعصابة خضراء عليها شعار التوحيد ، صابرة محتسبة ، توزع الحلوى على الحضور غبطةً باستشهاد ولدها وبطولته الخارقة.

أم نِضَال فرحات مجاهدة من طراز خاص ، حديثها القرآنُ ، والشهادة ، والدعاء للمجاهدين ، وَصِيَّتُها لابنها الشهيد: «اضربْ على رؤوس الأعداء ، واقتلهم ، واطردهم من بلادنا.

قالت أم نضال لمجلة فلسطين المسلمة:

أبصر محمدٌ النور في وسط أسرة تضم ستة أبناء ، وأربع بناتٍ ، وأنا وزوجي ، نحن ملتزمون بالإسلام ، ونعيش في جوٍّ جهاديٍّ ، رَبَّاه والدُهُ على العطاء ، وعلمه أن الوطن بحاجة إلى مَنْ يدفع الثمن ، علمه معاني الكرامة والإباء ، وفهم طبيعة الأعداء.

بَيْتُنا احتضن الكثير من المجاهدين من أبناء «كتائب القسَّام» منذ الانتفاضة الأولى. وخاصة الشهيد القائد عماد عقل رحمه الله ، واستشهد في منزلنا عام (١٩٩٣) م.

محمدٌ ترعرع على يد عماد عقل الذي علمه حبَّ الجهاد ، وكان ينام في نفس غرفة محمدٍ ، وتعلَّمَ منه معنى المقاومة ، ومنذ استشهاده ، أقسم على السير على دربه.

عملية «حي الزيتون» التي نفذها الشهيد عقل في ١٣/ ٩/ ١٩٩٣ م عند مسجد مُصعب بن عُمير كان محمدٌ مَنْ أشار على عماد بها ، بعد أن رصد جيباً عسكرياً صهيونياً (نسميه جيب صرصور) ، ومواعيد عمله بدقةٍ ، حتى تمكنوا من إصابته وقتل جنوده الثلاثة ، إضافة إلى رصد عملية شارع عمر المختار التي نفذها الشهيد عوض السلمي ، والأسير منذر الدهشان.

عن باقي أفراد العائلة قالت أم نضال:

نذرنا أنفسنا لفلسطين ، محمد ليس الوحيد من عائلته الذي يمارس الجهاد

والعمل الوطني؛ إذ سبقه شقيقه وِسام الذي اعتقل وهو يقود شاحنةً محملة بالمتفجرات محاوِلاً تفجير أحد مَقَارِّ جيش الاحتلال في مدينة بئر السبع[1] جنوب فلسطين. فيما شقيقه الأكبر نِضَال ـ أحد نشطاء كتائب عز الدين القسام ـ ينسب له العدوُّ تصنيع صواريخ القَسَّام.

وِسام ـ الآن ـ في سجن نفحة الصحراوي، محكوم أحد عشر عاماً.

كثيرونَ مِمَّنْ لا يفهمُون فلسفة الموت والحياة في الإسلام، ولم يتعرَّفوا إلى المجاهدة أُمِّ نضال وجدوا صعوبة كبيرةً في استيعاب معنىٰ وداع الأم الفلسطينية لابنها، وإعداده للجهاد، تقول المجاهدة أم نضال: «لا توجد أم في الدنيا يهون عليها ابنُها، ولكن في سبيل الله، ثم تحرير الوطن تَرْخُصُ الدنيا كُلُّها، والأساس في هذه الحياة هو الإيمان بالله، والجهاد.

يا بُنَيَّ! إنْ لم نجاهدْ نحنُ الآن، فمتىٰ نجاهد؟! ثم إذا أنا مَنَعْتُ أبنائي من الجهاد، وهذه مَنَعَتْ، وتلكَ مَنَعَتْ أبناءها، فمن الذي سيدافع عن الإسلام، وفلسطين، ويحرر الأقصى ويقف في وجه العدوان الصهيوني ويدافع عن وطننا؟

أضافت أُمُّ نِضَالٍ: الإسلام ليس صلاة وعبادة وشعائر دينية فقط، إنما هو صلاة وجهادٌ، وصوم، وقتالٌ، ضد الكفرة المعتدين والمحتلين. ما أصابنا اليوم من ذُلٍّ وهَوانٍ سببه تَرْكُنا للجهاد، وسَعادتي الآن، أن أبنائي أبطالٌ مجاهدون، يدافعون عن الوطن، ويعملون من أجل رفع راية الدين.

ذكرتْ أُمُّ نضالٍ أنها كانت تَعْلَمُ أَنَّ ابنها كان ذاهباً لتنفيذ عملية فدائية ضد جنود الاحتلال، وقالت: «استشارني قبل ذهابه إلى العملية التي كان موعِدُها

---

(١) (بئرالسبع): مدينة فلسطينية تقع في النقب الشمالي، وتكاد تكون في منتصف المسافة بين البحر الميت شرقاً، والبحر المتوسط غرباً، وتتوسط قاعدة المثلث الصحراوي للنقب؛ إذ تبعد (٧٥) كيلاً غربي البحر الميت، ونحو (٨٥)كيلاً شرقي البحر المتوسط، وترتفع (٧٥) متراً عن سطح البحر. انظر معجم بلدان فلسطين ص (٢١٠) لأستاذنا البحاثة محمد شُرَّاب.

بين مَدٍّ وجَزْرٍ بسبب بعض الظروف ، وحينما اكتمل التخطيط شَعَرْتُ بسعادة كبيرة ، لأن ابني سيكون مِنْ بَيْن الشهداء المدافعين عن أرضنا ومقدساتنا . أمَّا محمدٌ؛ فقد سَيْطَرتْ عليه حالةٌ من الفَرَحِ لم أَعْهَدْها عليه من قَبْلُ» .

بماذا أَوْصَتْ المجاهدة أُمُّ نضالٍ ولدها؟

قالت: أوصيتُهُ أن يستعين بالله ، ويجعل (مخافة) الله عز وجل في قلبه ، وأن يذكر اسم الله على كل شيء ، ويركز في مقاومته للصهاينة ، وأن يلتزم بتعليمات إخوانه المجاهدين ، وينفذها بحذافيرها ، وأن يجعل عمله خالصاً لوجه الله ، وعدم الخوف ، والتركيز الجيد ، وعدم التسرع بإطلاق النار .

وإنْ أَرَدْتَ القيام بالعملية من أجل أن يقال عنك : كذا وكذا ، فلا تذهب .

وأضافت : «طلبتُ منه أن يطلق الرصاص على رؤوس الجنود والمستوطنين الصهاينة ، حتى يوقع أكبر عدد ممكن من القتلى ، وباعتراف العدو ، فقد أفرغ محمدٌ في هجومه تسعةَ مخازن بندقية كلاشينكوف ، وألقى سِتَّ قنابل يدوية» .

توضح والدة الاستشهادي؛ أنه منذ علم محمدٌ بموعد العملية تَغَيَّرت حياتُهُ تماماً ، إذْ زادَ تعلُّقُهُ بكتاب الله ، وقيام الليل ، وركَّز اهتماماتِه على التدريب ، وإطلاق النار ، والزحف تحت الأسلاك ، والقفز من ارتفاعات عالية ، مشيرةً إلى أنه في الفترة السابقة نَفَّذَ عدة عمليات إطلاق نار على جيش الاحتلال ، حيثُ كان يتدرَّبُ على القَنْصِ .

وبروح إيمانية ، وشجاعة نادرة تضيف : «لقد شاهد محمدٌ العملية كلها في المنام ، وأخبرني أنه رأى نفسه يقف على تَلَّةٍ ، مرتفعة ، مرَّ مِنْ تحتها ستة جنودٍ صهاينة ، وتردَّدَ : هل يقتلهم ، أم يستمع إلى توصيات القيادة ، وينتظر حتى يصبح داخل المستوطنة؟ وأوصيتُهُ الالتزام بتعليمات قيادته والصبر . وبالفِعْل حَقَّقَتْ العمليةُ نجاحاً باهراً بإذن الله .

أضافت : العملية كان مُقرراً تنفيذها الساعة الخامسة مساءً ، وبقينا ننتظر على أَحَرّ من الجمر ، وندعو له بالتوفيق ، والشهادةِ ، مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِرٍ ، وكُنَّا في غاية التوتر ، ومَرَّت علينا الدقائق كالدهر ، ونحن نتابع نشرات الأخبار ،

حتى جاء نصر الله ، ورَفَعَتِ العمليةُ رؤوسنا ، وأشفت غَليلنا».

«الله أكبر . . . الله أكبر . . والعزة للإسلام» بهذه الكلمات استقبلت أم نضال خبر العملية ، وسجدت لله تعالى على نعمته ، وقامت بتوزيع الحلوى التي اشترتها قبل العملية ، خِصِّيصاً لهذا الغرضِ ، وأخذت تُسَلِّمُ على أبنائها ، وأهل بيتها ، وتقول لهم: «مبروك أخوكم الآن في الجنة».

وتؤكد أم نضالٍ أنَّ لحظة الوداع هي أصعب المواقف التي مَرَّت في حياتها.

واستدركتْ بالقول: «لكني استعنتُ بالله ، وأخبرتُ محمداً أنه غالٍ عليَّ ، ولكنَّ اللهَ أغْلى ، والوَطَنُ أعَزُّ ، وقدمته قُرباناً لله ، واستقبلتُ جثمانه بالزغاريد والتهليل والتكبير».

المجاهدة أم نضال ترفض مزاعم ملكة السُّويد؛ أن الأمهات الفلسطينيات يرسلن أبناءهن إلى الموت ، وقالت: «إنهم لا يفهمون الإسلامَ. نحن نتطلَّعُ إلىٰ حياةٍ أَفْضلَ من الدنيا. ابني ذاهبٌ إلى جِنان الرحمن ، مُدافعاً عن وطنه. والله! لو كان عندي مئةُ ولدٍ لقدمتهم جميعاً فداءً لله ، وإعْلاءً لراية الإسلام».

ما تتمنَّاه خنساءُ العصر أُمُّ نضال: أَنْ تَرى وَلَدَها محمداً في المنام ، وقالت: «أتمنىٰ رؤيته في المنام ، حتى يطمئنَّ قلبي ، وتقرَّ عيني ، وقد أوصيتُهُ قبل استشهاده: أَنْ يأتيني في المنام بعد استشهاده بسرعة».

وتعكس أم نضالٍ نموذجاً للمرأة المجاهدة التي تربي أولادها على النضال إذ تقول: «لقد ربيتُ أبنائي جميعاً على حُبِّ المقاومة والجهاد ، وعدم الخوف من الشهادة؛ بل وطلبها ، ولقد حاول ابني وسام نَيْلها فَفشِلَ ، وابني نضالٌ مطلوب للاحتلال ، وربما يستشهد في أي وقتٍ. وأما محمود فيعمل مُرافقاً شخصيّاً للشيخ أحمد ياسين ، يحميه بجسدِهِ ، ونَالَها محمدٌ ـ اللهُ يرضى عليه ـ ومن يَدْرِي؟ ربما أسبقهم إلىٰ الشهادة!».

وأخيراً نترك أم الشَّهيد الشبل محمد فتحي فرحات توجه رسائِلها للأمة:

أتمنى لكل امرأة فلسطينية مسلمة أَنْ تعرف دورَها ، وواجِبَها نحو الله سبحانه وتعالى ، ونحو وطنها وشعبها ، فالمرأة الفلسطينيةُ مطلوب منها أن

تحمل الأمانة وتؤديها؛ وأمانتها أَنْ تربي الأجيال للدفاع عن الوطن والمقدسات ، فهي أساس الصبر ، وهي التي تزرع روح الجهاد والتضحية والمثابرة في أبنائها ، وإن لم تفعلِ المرأة ذلك ، لن يكون هناك نَصْرٌ.

أقول للشعب الفلسطيني آيةً قُرآنيةً واحدةً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فنحن لا نحتاج إلاَّ إلى مَزِيد من الصبر والثبات.

نعم التضحيات كبيرة ، ولكن إنْ لم نُضَحِّ مِنْ أجل التحرير ، فلن يأتي أحد من الخارج ليضحِّي عنا ، ويُحَرِّرَ لنا وَطَنَنَا. وأُنَاشِدُ كُلَّ المسلمين أنه يكفيهم نوم ، وأن ينهضوا من سُباتهم العميق ، لينصروا دينهم ، فوالله! لو تمسَّك المسلمون بدينهم فلن تهزمهم قوة في العالم ، والحق ـ دائماً ـ أقوىٰ من الباطلِ.

الشعوب العربية والإسلامية قلوبُهم معنا ، ولكن التخاذُلَ يأتي من قبل الحكومات الظالمة ، وأدعو الشعوب العربية والإسلامية لفتح المجال أمام الشباب العربي للمشاركة في الدفاع عن فلسطين ، وأنا على يقين أن هناك الآلاف من الشباب العربي ـ أمثال ابني مُحَمَّدٍ ـ على استعداد للتضحية في سبيل فلسطين.

أقول للعدو الصهيوني: ارْحَلْ عن أرضنا المباركة ، قبل أن يسحقكم جنودُ القَسَّامِ ، وأبناءُ شعبنا.

أَمَّا لإخوتي في «كتائب القسام» فأقول: الله يحفظكم ، والله! لن أرى أُناساً أعظم منهم. هم أساتذتي وأساتذة مُحَمَّدٍ ، فهم الذين قاموا بجهد كبير في التخطيط بدقة للعملية. باركَ الله فيهم ، وأبقاهم عِزّاً وذُخراً للإسلام والمسلمين ، وشوكةً في حَلْقِ العدو الصهيوني وأعوانه[1].

---

(١) بتصرف يسير واختصار عن مجلة فلسطين المسلمة. العدد الرابع. السنة العشرون (محرم/ ١٤٢٣ هـ = نيسان ٢٠٠٢ م).

الموتُ في ظِلِّ المُقاومةِ أَفْضَلُ أَلْفَ مَرَّةٍ من الموت على فِرَاشِ المَرضِ

اعتاد الشعب العربي الفلسطيني أن يصنع المفاجآت ، وأن يذهل العدو والعالم بابتكاراته ، فبعد ابتكار سلاح الحجارة ، والعبوات الناسفة ، والاستشهاديين ؛ جاء سلاح الهاون ، ومن ثم صواريخ القَسَّام والبَنَّا .

وبعد ذلك جاء السلاح الجديد الذي لن يعرف العدوُّ حتماً كيفية مواجهته ، ألا وهو سلاح الأُمَّهات اللواتي يُرْسِلْنَ أبناءَهُنَّ للشهادة في سبيل الله ، دفاعاً عن أولىٰ القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين .

لا يمكن اختصار المشاعر والآلام التي عاشتها والدة الشهيد القَسَّامي[1] محمد أحمد حلس البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، من أبناء غزة ـ حي الشُّجاعية ، الذي استشهد لدى اقتحام مغتصبة «نتساريم» في الثاني عشر من شهر آذار عام (٢٠٠٢)م .

---

(١) يتم اختيار الاستشهادي في كتائب عز الدين القَسَّام وفقاً للمعايير التالية :
أ ـ مدى التزامه الإسلامي .
ب ـ رضا والديه عنه .
ج ـ اللياقة البدنية المناسبة .
د ـ أن يكون قدوة لغيره .
هـ ـ أَلَّا يكونَ مُعِيلاً لأسرته .

تقول فلسطين المسلمة[1]:

بعد الرَّصْدِ والتحري تقدَّمَ الاستشهاديَّان: بلال شحادة (عمره تسعة عشر عاماً) ومحمد حلس (عمره ثمانية عشر عاماً) نحو مُغْتَصَبَةِ «نتساريم» جنوب مدينة غزة في الساعة الثامنة من مساء يوم الإثنين (١١/ ٣/ ٢٠٠٢م)، وكان الهدفُ دوريةً راجِلَةً تتكون من (١٦) إلى (٢٠) جندياً إسرائيليّاً من المِظَلِّيِّين تأتي عبر الأحراش لتتمركز في موقع الحراسة، الذي يبعد مسافة قصيرة، خارج مُغْتصبة «نتساريم».

وتمركز المجاهدان على بعد ستة أمتار من موقع الحراسة، وعند وصول الدورية قامت مجموعات المتابعة والرصد بالاتصال بالاستشهاديَّيْنِ اللَّذَين جهزا قُنبلتين لكل منهما، قاما بإلقائها دفعة واحدة على الجنود داخل الموقع، واستمر قَذْفُ القنابل حتى وصلت إلى ستَّ عَشْرَةَ قنبلةً، ولم يردَّ الجنودُ بطلقة واحدة، وعندها تابع الاستشهاديَّانِ تقدُّمَهما نحو الموقع بحسب الخطة المرسومة، وهما يفتحان النار من سلاحهما، مَفَرِّغين سِتّ عَشْرَةَ خَزْنَةً محشوَّةً بالرصاص، ليعتليَ الاستشهاديان الموقع، ويستمرّا في إطلاق النار على الجنود، حتى وَقعُوا جميعهم صَرْعى دون أن يردُّوا بأية طَلْقَةٍ.

واشتبك الاستشهاديَّان بعد ذلك مع أبراج المراقبة العالية حول المستوطنة مما أدَّىٰ إلى استشهادهما.

عندما وصل نبأ استشهاد المجاهد محمد حلس إلى أُمِّه أُم نبيل، لم تنزوِ في ثياب الحداد، ولم تلطم خداً، أو تشقَّ جيباً، أو تنتف شَعْراً، بل وقفت تزغرد وتقول: أحتسبه شهيداً عند الله. اللَّهُمَّ! اجعل هذا العمل في ميزان حسناته. يا رَبِّ! أنتَ أعلمُ وأدرى بالحال... ولكن الموت في ظل المقاومة أفضل ألف مرَّةٍ من الموت على فراش المرض.

---

(١) العدد الرابع. السنة العشرون (محرم ١٤١٣ هـ = نيسان ٢٠٠٢م) ص: (١٣)

ذكرت الحاجة أُمُّ نبيل أن ابنها المجاهد الشهيد كان شابّاً مؤدّباً ، ومتديناً ، ويصوم بشكل مستمر أيام الإثنين والخميس من كل أسبوع ، ويحرص على الصلاة في مسجد الإصلاح بالحي[1].

وكان دائم الابتسامة ، عطوفاً وحنوناً.

وقالت: إنها لمست لدىٰ ابنها رغبة شديدة في نيل الشهادة في سبيل الله تعالى.

أضافت أنه كان عندما يشاهد عبر شاشات الرَّائي[2] ويشارك في تشييع الشهداء يزداد إصراراً على مقاومة الاحتلال ، ورغبةً شديدة أن ينال الشهادة مثلهم.

وتضيف أنَّ ابنها قام بمصارحتها عن نيته تنفيذ عملية فدائية ضد الاحتلال الصهيوني ، مؤكدةً؛ أنها لم تمنعه ، وأَنها دَعَتْ له بالتوفيق ، وأن ينفذ عمليته بنجاح ، وينال الشهادة التي تمنَّاها ، وقالت: قلت له: اذهب على بركة الله ، وعُدْ إليَّ شهيداً ، وها هو عاد إلينا شهيداً كما تمنينا له.

بالنسبة لموعد تنفيذ العملية ذكرت الحاجة أم نبيل أنها كانت تعلم بموعد تنفيذها بالضبط وتقول: إنه قبل توجهه إلى مغتصبة «نتساريم» وخروجه من المنزل عصراً ، قالت له ـ وهي تحتضنه وتقبله ـ «ها هو الموعد أَزِفَ[3]، وأنا أنتظر أن تعود إليَّ شهيداً».

وتضيف قَبَّلْتُـهُ بحرارة ، ودَعَوْتُ له بالتوفيق ، وقلت له: كن صامداً ، صبوراً ، وصابراً ، ووَجِّهْ سِلاحَكَ بدقَّةٍ في وجه الأعداء.

---

(١) من شمائل المجاهدين القَسَّاميين حِرْصُهُمْ على صلاة العشاء والفجر جماعة في الصف الأول.

(٢) (الرائي): تعريب كلمة تلفزيون.

(٣) (أزف): اقترب.

وقالت له: «خذ أمتعتك ، ولا تترك للأعداء الفرصة لقتلك قبل أن تثأر منهم لأبناء شعبك وأهلِكَ».

وتضيف: «بعد خروجه من المنزل وتوجهه إلى المُغْتَصَبَة ، بقيتُ أصلي طيلة الوقت ، وانتظرتُ الخبر السعيد: خَبَرَ استشهاده».

وعن الفترة التي قضتها الحاجة أم نبيل منذ توجه ولدها إلى المُغْتصبة حتى تلقِّيها نبأ استشهاده تقول: «كانت فترةً عصيبةً جدّاً ، كنت فيها على أعصابي ، أدعو ، وأصلِّي لله ، وصليتُ صلاة الاستخارة أن يعود إليَّ ابني محمدٌ شهيداً ، وقد نفذ عمليته بنجاح.

صليتُ حوالي أربع مراتٍ طيلة الليل ، لم أَذُقْ طعماً للنوم ، والحمد لله نِلْنَا ما تمنيناه».

وبعد تلقيها نبأ استشهاده تؤكد الحاجة أُمُّ نبيل؛ أن الفرحة كانت لا توصف ، وشكرتِ الله تعالى على أنه شَرَّفها باستشهاد ابنها ، وتمنَّتْ أن تلتقي به في مستقرِّ رحمته يوم القيامة.

وتبتسم خنْسَاءُ غَزَّة الحاجة أُمُّ نَبيلٍ ، وتقول بصراحة شديدة: «كنتُ اشتريتُ الحلوى ، وأعددتُها قبل خروجه من المنزل ، ولم يعلم أحدٌ ، وما إنْ تلقيتُ نبأَ استشهاده ، حتى قمتُ بتوزيعها على الجيران ، وأطلقْتُ زغرودة».

تقول الحاجة أمُّ نبيل: «إن ابنها محمداً خلَّفَ وراءه ذكرياتٍ عطرة لا يمكن أن تنساها ، مشيرة إلى أنه كان دائم الابتسام والمداعبة مع إخوته وأصحابه في المنطقة ، وأن جميع أعماله كانت جيدةً.

وتقول: «سيظل محمدٌ عالقاً في أذهان أهله إلى أن تقوم الساعة أتذكَّرُ خطواته عند عودته في وقت متأخر في الليل ، وعند عودته من المسجد.

وَدَعَتْ والِدَةُ الشهيدِ الأُمَّ الفلسطينيةَ التي سطَّرتْ بمشاعرها وأعمالها أبرز

معاني البطولة والشجاعة إلى غرس حُبِّ المقاومة والكفاح في نفوس أبنائها لمقاومة الاحتلال ، حتى يتم دَحْرُهُمْ ورحيلهم عن أوطاننا .

وقالت : إنَّ الشهادة تُعيد إلى الأم والوطن الفلسطيني كرامته[1] .

* * *

---

(١) بتصرف يسير عن مجلة فلسطين المسلمة ، العدد الرابع ، السنة العشرون ـ محرم (١٤٢٣ هـ = نيسان ٢٠٠٢)م ، ص (٢٣) .

فهرست المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- **أخبار مكة** للأزرقي. تحقيق رشدي الصالح ملحس. دار الثقافة. مكة.
- **الأدب المفرد** للبخاري، تقديم: كمال يوسف الحوت. عالم الكتب.
- **الأذكار** للإمام النووي. تحقيق عبده علي كوشك.
- **الاستيعاب** لابن عبد البر القرطبي. مطبوع على هامش الإصابة.
- **أُسد الغابة** لابن الأثير الجزري. دار الفكر بدون تاريخ طبع.
- **الإصابة** لابن حجر العسقلاني. دار الكتاب العربي. بيروت.
- **الأعلام** للزركلي. الطبعة الخامسة ـ دار العلم للملايين.
- **أعلام النساء** لكحالة. مؤسسة الرسالة.
- **أقباس روحانية**. للواء محمود شيت خطاب. دار قتيبة.
- **الإيمان والحياة** للدكتور يوسف القرضاوي.
- **البداية والنهاية** لابن كثير الدمشقي.
- **بستان العارفين** للنووي. تحقيق الشيخ الحجار.
- **بلوغ المرام** لابن حجر. تحقيق عبده علي كوشك. دار المنار.
- **تأملات في القرآن الكريم** لأبي الحسن الندوي دار القلم.
- **تاريخ دمشق** لابن عساكر. دار الفكر.
- **تربية الأولاد في الإسلام** للشيخ عبد الله علوان. دار السلام.
- تفسير ابن كثير. دار المعرفة.
- **تقريب التهذيب**. تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف. دار المعرفة.
- **التوابين** للمقدسي. تحقيق الشيخ عبد القادر أرنؤوط.

- **جامع الأصول** لابن الأثير الجزري. تحقيق الشيخ عبد القادر أرنؤوط. دار البيان والملاح.
- **جامع بيان العلم وفضله** لابن عبد البر القرطبي. دار الفكر.
- **الجامع الصغير** للسيوطي. دار المعرفة.
- **حياة الصحابة** للكاندهلوي. راجعه طه عبد الرؤوف سعد. مكتبة المجلد العربي.
- **حلية الأولياء** لأبي نعيم الأصفهاني. دار الكتاب العربي. الطبعة الثانية.
- **دلائل النبوة** لأبي نعيم الأصفهاني. خرج أحاديثه عبد البر عباس. المكتبة العربية. حلب.
- **دلائل النبوة** للبيهقي. خرج أحاديثه الدكتور عبد المعطي قلعجي. دار الكتب العلمية.
- **دليل الفالحين** لابن علان الصديقي.
- **رسالة في الطريق إلى ثقافتنا** للعلامة محمود شاكر. مطبوعة مع كتاب المتنبي.
- **الروضة الريا فيمن دفن بداريا** للعمادي. تحقيق عبده علي كوشك. دار المأمون للتراث.
- **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء** لابن حبان البستي. دار الكتب العلمية.
- **رياض الصالحين** للنووي، تحقيق عبده كوشك. دار اليمامة.
- **زاد المعاد** لابن قيِّم الجَوْزية. مؤسسة الرسالة.
- **الزهد** لابن المبارك. تحقيق العلامة الأعظمي رحمه الله.
- **الزهد الكبير** للبيهقي. مؤسسة الكتب الثقافية.
- **سلاح اليقظان لطرد الشيطان** للشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان.
- **سنن البيهقي**. الطبعة الأولى بالهند (١٣٤٤)هـ.
- **سنن الترمذي**. تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر وآخرين.
- **سنن الدارقطني**. طبعة عالم الكتب. الطبعة الثانية (١٤٠٣)هـ.
- **سنن الدارمي**. تحقيق أستاذنا حسين أسد. دار المغني. الرياض.
- **سنن أبي داود**، تحقيق الأستاذ الدعاس. دار الحديث.
- **سنن سعيد بن منصور**. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. الدار السلفية. الهند.

ـ **سنن ابن ماجه**. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي.
ـ **سنن النسائي**. طبعة دار القلم. بدون تحقيق
ـ **سير أعلام النبلاء**، للذهبي. مؤسسة الرسالة: بإشراف الشيخ شعيب أرنؤوط.
ـ **سيرة ابن إسحاق**. تحقيق الدكتور سهيل زكار. دار الفكر.
ـ **السيرة النبوية لابن هشام**. تحقيق مصطفى السقا وزميليه. دار المعرفة.
ـ **السيرة النبوية** لابن كثير. دار المعرفة.
ـ **السيرة النبوية**لعبد القادر أبو فارس. دار الفرقان.
ـ **شخصية المرأة المسلمة** للهاشمي. دار البشائر الإسلامية.
ـ **شرح السنة** للبغوي المكتب الإسلامي. تحقيق شعيب أرنؤوط وزهير شاويش.
ـ **شرح صحيح مسلم** للنووي. المطبعة المصرية.
ـ **شذرات الذهب** لابن العمادي الحنبلي. دار الفكر.
ـ **شعب الإيمان** للبيهقي. دار الكتب العلمية.
ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** للقاضي عياض اليحصبي. تحقيق عبده علي كوشك. مكتبة الغزالي ودار الفيحاء.
ـ **شمائل الرسول** لابن كثير. تحقيق مصطفى عبد الواحد. دار المعرفة.
ـ **الشمائل المحمدية** للترمذي. تحقيق عبده علي كوشك. دار اليمامة.
ـ **صحيح البخاري ومعه فتح الباري** رقم كتبه محمد فؤاد عبد الباقي. دار المعرفة.
ـ **صحيح** ابن خزيمة، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي. المكتب الإسلامي.
ـ **صحيح مسلم**. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي.
ـ **صفحات مشرقة من تاريخنا المجيد** للدكتور عبد اللطيف فرفور.
ـ **الطبقات الكبرى لابن سعد**. دار التحرير (١٣٨٨)هـ
ـ عز الدين **القسام** لأستاذنا محمد شُرّاب. دار القلم بدمشق.
ـ **غوطة دمشق** لمحمد كردعلي. دار الفكر.
ـ **فتح الباري** لابن حجر. رقمه محمد فؤاد عبد الباقي. دار المعرفة.
ـ **الفرقان** بين أولياء **الرحمن وأولياء الشيطان** لابن تيمية.
ـ **فقه السنة لسيد سابق**. دار الكتاب العربي.

ـ **الفقه على المذاهب الأربعة**. لعبد الرحمن الجزيري. دار الحديث.
ـ **فقه اللغة** للثعالبي. تحقيق مصطفى السقا وزميليه.
ـ **في رحاب البيت الحرام** لمحمد بن علوي المالكي. طبعة (١٣٩٩)هـ.
ـ **في مسيرة الحياة** للعلامة أبي الحسن النَّدوي.
ـ **فيض القدير** للمُناوي. دار المعرفة.
ـ **قضية تحرير المرأة** لمحمد قطب. مكتبة السنة. جُدَّة.
ـ **كشف الأستار عن زوائد البزار** للهيثمي. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. مؤسسة الرسالة.
ـ **مجلة فلسطين المسلمة**. العدد الرابع ـ السنة العشرون.
ـ **مجمع الزوائد** للهيثمي. دار الكتاب العربي.
ـ **مجموعة رسائل الشيخ محمد الحامد**. المكتبة العربية. حماة.
ـ **مختار الصحاح** للرازي. مؤسسة علوم القرآن.
ـ **مختصر منهاج القاصدين** للمقدسي. تحقيق الشيخين عبد القادر وشعيب أرنؤوط. دار البيان.
ـ **المستدرك** للحاكم. دار المعرفة.
ـ **المستطرف** للأبشيهي. دار الكتب العلمية.
ـ **مسند أحمد بن حنبل**. المكتب الإسلامي. الطبعة الثانية.
ـ **مسند الشهاب القضاعي**. تحقيق حمدي السلفي. مؤسسة الرسالة.
ـ **مسند أبي يعلى الموصلي**. تحقيق أستاذنا حسين أسد. دار المأمون للتراث.
ـ **المصنف** لعبد الرزاق الصنعاني. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. المكتب الإسلامي.
ـ **المعالم الأثيرة في السنة والسيرة** لأستاذنا محمد شرَّاب. دار القلم.
ـ **معالم السنن** للخطابي. المكتبة العلمية. الطبعة الثانية (١٤٠١)هـ.
ـ **المعجم الاقتصادي الإسلامي** للشرباصي. دار الجيل. بيروت.
ـ **معجم بلدان فلسطين** لأستاذنا محمد شرَّاب. دار المأمون للتراث.

ـ **المعجم الكبير** للطبراني تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي. مطبوعات وزارة الأوقاف العراقية.
ـ **المعجم الوسيط**. مجمع اللغة العربية. القاهرة.
ـ **المغازي** للواقدي. تحقيق مارسدن جونس. عالم الكتب.
ـ **المفاريد** لأبي يعلى الموصلي. تحقيق عبد الله يوسف الجديع. دار الأقصى. الكويت.
ـ **المقاصد الحسنة** للسَّخاوي. دار الهجرة.
ـ **منادمة الأطلال ومسامرة الخيال** لبدران. قدَّم للطبعة الثانية عبد الكريم بن عمر بدران.
ـ **مناهل الصفا** للسيوطي. تحقيق سمير القاضي. مؤسسة الكتب الثقافية
ـ **المنتخب من كنز العمال** للهندي ، مطبوع بهامش مسند أحمد.
ـ **المنتخب من مسند عبد بن حميد**. تحقيق صبحي السامرائي وزميله. مكتبة السنة.
ـ **المنتظم لابن الجوزي**. دائرة المعارف العثمانية. (١٣٥٧)هـ.
ـ **المنتقى من مكارم الأخلاق**. تحقيق محمد مطيع الحافظ وغزوة بدير. دار الفكر.
ـ **موارد الظمآن للحافظ الهيثمي**. تحقيق الأستاذ حسين أسد وعبده كوشك. دار الثقافة العربية.
ـ **الموطأ للإمام مالك بن أنس**. تحقيق عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي.
ـ **نقاط على حروف في الصراع العربي الصهيوني** للدكتور الشهابي. دار المأمون للتراث.
ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**. لابن الأثير. تحقيق الزاوي والطناحي. المكتبة العلمية.
ـ **نور اليقين للخضري**. تحقيق عبده علي كوشك. دار اليمامة.
ـ **هتاف المجد للشيخ علي الطنطاوي**.
ـ **وفيات الأعيان لابن خلِّكان**. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر.

فهرست الموضوعات